مذكرات روميل..
ثعلب الصحراء

اسم الكتاب : مذكرات روميل.. ثعلب الصحراء

اعداد وتقديم : د. الحسينى الحسينى معدى

الاشراف العام: وائل سمير

الناشر : دار الخلود والتوزيع

العنوان : ٤٢ سوق الكتاب الجديد بالعتبة. ت: 25919726

م: 01281607185 ـ 0163539909 ـ ف: 25102954

E- Mil:dar_alkoloud@yahoo.com

رقم الإيداع : 2012/ 19987

الترقيم الدولى: I.S.B.N.978- 977- 5313 - 20- 1

الطبعة الأولى: **2013**

دار الخلود

للنشر والتوزيع

مذكرات روميل

ثعلب الصحراء

إعداد وتقديم
د. الحسينى الحسينى معدّى

دار الخلود
للنشر والتوزيع



مقدمة

يعد روميل من أشهر القادة الألمان، وأكثرهم دهاءً وذكاءً، وقد احتل فى شهرته المرتبة الثانية بعد هتلر، وكان أحد القادة البارزين خلال الحرب العالمية الثانية وقائد معارك شمال إفريقيا.

لقب بـ«ثعلب الصحراء» نظراً لخبرته الواسعة فى الصحراء، وعبقريته الفذة فى المناورات العسكرية ووضع الخطط الحربية، وهو نفس الشخص الذى أمر جنوده بزراعة الألغام فى صحراء مصر الغربية من أجل استخدامها كخط دفاع فى الحرب ضد القوات البريطانية، ومازالت هذه الألغام موجودة بصحراء العلمين إلى الآن وتعرف حقولها بـ «حدائق الشيطان».

ولد إيرفن روميل فى الخامس عشر من نوفمبر ١٨٩١ بمدينة هايدنهايم، وسط أربعة أشقاء. كان والده يعمل مدرساً بإحدى المدارس الثانوية، شغف روميل بصناعة المناطيد والهندسة وأراد أن يحقق نفسه وطموحه فى هذا المجال إلا أن والده عارض ذلك، مما جعله يغير مساره ويتجه إلى المجال العسكرى والذى دخل فيه عام ١٩١٠، حصل روميل على رتبة ملازم فى الخامسة والعشرين من عمره، وقام بتدريب المجندين فى سلاح المشاه بإحدى البلدات الصغيرة جنوب ألمانيا.

اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، والتى شارك فيها روميل، وحصل على وسام الصليب الحديدى عام ١٩١٥، وعقب انتهاء الحرب ووقوع الهزيمة تم توقيع معاهدة «فرساى» والتى حددت عدد الجيش الألمانى بمائة ألف رجل، ظل روميل فى المجال العسكرى ولكن فى مجال التدريس العسكرى، ففى عام ١٩٢٠ أصبح محاضراً فى علم الحروب التكتيكى

بالمدرسة الحربية.

قام روميل بتأليف كتاب يتضمن خططاً عسكرية حربية تتسم بالكثير من الدهاء والحنكة، ووضع به خبراته العسكرية خلال الحرب العالمية الأولى، وخلال فترة حياته الأولى صعد فى العديد من الترقيات حتى أصبح رئيس المدرسة العسكرية فى «بانيا نوشنال».

صعد هتلر إلى الحكم فى يناير ١٩٢٣، وعرف روميل بإخلاصه الشديد لألمانيا وولائه لهتلر قائدها، وقد أثار روميل إعجاب هتلر الذى أصدر أوامره بتعيينه على قيادة الجيش فى كل من النمسا وتشيكوسلوفكيا عام ١٩٣٩، وفى عام ١٩٤٠ حقق روميل إنجازاً عسكرياً آخر عندما تمكن من اجتياح فرنسا، وأحرزت القوات الألمانية الكثير من الانتصارات على الساحة الأوروبية، وعقب اجتياح بولندا بدأت شرارة الحرب العالمية الثانية فى الاندلاع.

رأى هتلر فى روميل القائد المناسب ليرسله إلى شمال إفريقيا لمساعدة حلفائه الإيطاليين فى حماية مستعمرتهم الليبية ضد الهجمات البريطانية، فانتقل روميل من فرنسا ليبدأ مهمة جديدة فى الصحراء الإفريقية، وعين فى منصب القائد الأعلى للقوات الألمانية هناك. وكانت مهمته إيقاف التقدم البريطانى، اشتهر روميل كقائد حربى من الطراز الأول لما كان يتمتع به من حنكة حربية وتكتيك عسكرى واستراتيجى، فكان متمكناً من وضع الخطط الحربية خاصة فى معارك المدرعات.

خاض روميل فى شمال إفريقيا عدداً من المعارك الناجحة التى ظهرت فيها براعته كقائد ومناور عسكرى وتمكن من استرداد ليبيا من بين أنياب البريطانيين، واستسلمت القوات البريطانية بطبرق فى ليبيا ووقع حوالى ثلاثين ألف جندى بريطانى فى الأسر، واتاح هذا النصر لروميل فرصة للتقدم بقواته والزحف وراء البريطانيين إلى مصر والتى كانت مركزاً للتواجد البريطانى بالمنطقة وخلال ذلك رقى روميل إلى رتبة مارشال عام ١٩٤٢.

استمر تقدم روميل باتجاه مصر مكبداً الجانب البريطانى الخسائر حتى وصل إلى مرسى مطروح ولم يبق على الوصول إلى الإسكندرية سوى ١٥٠ كيلو متراً بعد انسحاب البريطانيين، وكان من الواضح أنه لم يبق الكثير أمام روميل وجنوده للوصول إلى العاصمة المصرية القاهرة.

جاءت معركة العلمين لتشهد تغيراً جوهرياً فى خط سير الحرب، فعقب سقوط طبرق أعلنت أمريكا عن مشاركتها فى الحرب فأرسلت إمداداتها إلى القوات البريطانية بشمال إفريقيا، وغيرها من إمدادات قوات الحلفاء، وأصبح يوجد تفاوت كبير بين القوات الألمانية والبريطانية حيث حصلت الأخيرة على الكثير من الإمدادات، وسيطر الحلفاء على الحرب جواً وبراً بالإضافة لتمكنهم من اختراق الشفرات الألمانية وكشف خططهم، وانقلب الحال بالنسبة للجانب الألمانى ولم يتمكن روميل من صد الهجوم البريطانى وبدأ التراجع، وعلى الرغم من ذلك وعلى الرغم من قلة الإمدادات المتاحة لروميل فإن هتلر كان مصراً على التوسع وإتمام الحرب حتى أخر جندى ودفع روميل للاستمرار وتوالت المواجهات العنيفة بين روميل ومونتجمرى القائد البريطانى.

انتقل روميل إلى ألمانيا بعد أن نال منه التعب والإرهاق الجسدى والنفسى إلا أنه كان على استعداد للعودة مرة أخرى إلى أرض المعركة فى شمال إفريقيا فى أى وقت، وفى ألمانيا اطلع روميل على الأوضاع السياسية المتدنية والجرائم التى ترتكب بألمانيا، والتى كان بعيداً عنها حيث إن قادة الجيش خلال فترة حكم هتلر كانوا بعيدين عن المجريات السياسية بالدولة، فكانوا لا يشاركون سياسياً بأى شكل من الأشكال.

تعقدت الأمور أكثر فى شمال إفريقيا عقب سفر روميل فشن مونتجمرى العديد من الهجمات، وقتل قائد القوات الألمانية الذى حل محل روميل أثناء فترة تواجد الأخير فى ألمانيا، ولم يجد هتلر سوى أن يستدعى روميل للعودة مرة أخرى إلى أرض المعركة بالشمال الأفريقى، ولكن الهجوم اشتد من

الجانب البريطانى مخترقاً دفاعات الألمان، ولم يجد روميل أمامه سوى الانسحاب فى نوفمبر١٩٤٢، وظلت مطاردات قوات الحلفاء لقوات المحور من الإيطاليين والألمان وتم الاستسلام نهائياً فى السابع من مايو ١٩٤٣.

عندما علم هتلر بأمر الانسحاب اشتد غضبه واتهم روميل بالخيانة فأرسل إليه يخبره إما أن ينتحر ويضمن سلامة أسرته، وإما تتم محاكمته بتهمة الخيانة العظمى، واختار روميل أن ينهى حياته بنفسه فتجرع السم، لتنتهى حياة ثعلب الصحراء بعد أن حظى بشعبية كبيرة سواء على مستوى ألمانيا أو المستوى الدولى.

توفى روميل فى الرابع عشر من أكتوبر ١٩٤٤ عن عمر يناهز ٥٣ سنة.

د. الحسينى الحسينى معدى

تقديم

بقلم الفيلد مارشال السير كلودجى. ئى. أوكنلك

قائد الجيش الثامن البريطانى فى إفريقيا

لقد أعيد ضمن هذا الكتاب نشر الرسالة التى وجدت أنه من الضرورى أن أوجهها إلى ضباطى فى الميدان عندما كان اسم رومل يفعل السحر فى عقول جنودنا. ولم ينل أى قائد معاد من الصيت، وبمثل هذا اللون، إلا إذا كان انساناً فوق المستوى الاعتيادى للإنسان. وقد كان رومل بحق شخصية غير اعتيادية.

لقد أنجبت ألمانيا عدداً من القادة الأكفاء، ولكن رومل فاق هؤلاء جميعاً لأنه تغلب على العقلية العسكرية الألمانية الصلبة، وأصبح سيد المبادأة.

كان يبدو لى دائماً أن كبار الضباط الألمان فى الفيلق الإفريقى[1]، وحتى ضباط الفصائل والسرايا والأفواج، كانوا أحسن أسساً وإلماماً بالتكتيك من ضباطه. ولم يكن هذا ناجماً عن خطأ رجالنا، إنما كان مرده إلى الواجبات الخاصة الملقاة على عاتق جيشنا أيام السلم وإلى عجز حقيقى فى التدريب المنتظم المستديم. وما أن طالت مدة الحرب وجد رجالنا أنهم أصبحوا يضاهون الألمان جلداً وثباتاً لأن تكتيكهم الطبيعى قد أصابه التحسن والتطوير فاستبدل بتبدل الظروف والأحوال.

ولكن رومل ظل حتى بين أفراد الطبقة العليا من القادة الألمان، ذلك

(١) الفيلق الإفريقي: اصطلاح عسكرى أطلق على القوات الألمانية التى أرسلت إلى شمالى إفريقيا لمقاتلة الفرنسيين والإنكليز فى ليبيا والصحراء الغربية.

القائد الذى تشهد بقدرته الميادين.

إن باستطاعتى أن أشهد بنفسى على ماكان يتحلى به من مرونة ودهاء ونشاط ذهنى ومادمنا لسوء الحظ مجبرين على تدريب شبابنا وتسليحهم وتهيئة ضباطنا لقيادتهم فان بامكاننا أن نتعلم كثيراً من دراسة تشبث روميل والألمام بطرائقه الحربية.

كانت علاقاتى الخاصة مع رومل قد اقتصرت على المعارك التى نشبت معه والفيلق الافريقى فى الحرب التى دارت فى الصحراء الغربية خلال سنتى ١٩٤١ ـ ١٩٤٢.

غير أننى بعد قراءتى لتأريخ سنيه الأولى والأخيرة وجدت أن الفكرة التى كونتها عنه ـ والتي عملت فى تأليفها تلك الأيام الجهيدة حيث كانت الحرب تُمد وتُجزر بين بنغازى والاسكندرية ـ لم تكن لتختلف كثيراً عن التقدير الذى أولاه المؤلف شخصية رومل.

ففى ناحية واحدة كانت تفسيراتى خاطئة. فلقد فوجئت حين علمت كيف كان رومل يحيا الزهد والتقشف وكيف كان وديعاً. فلقد صورناه ـ نحن الذين حاربناه ـ فى صورة ضابط من طبقة اليونكرز ونتاج عقلية عسكرية بروسية. وواضح أنه لم يكن كذلك وإن كان من المؤكد أن تكون تلك الروايات التى أثيرت عنه وأثارت دهشته هو نفسه، ناجمة عن ظفره كقائد فى المعارك.

لقد هيأ لى رومل أنا وأولئك الذين اشتغلوا بمعيتى فى الصحراء لحظات خارقة. فلم يكن هنالك إلى تساؤل عن فتور جهودنا لتحطيمه. لانه إذا وجد جنرال همه الوحيد تحطيم عدوه فهو رومل. فلم يكن يظهر أى رفق أو لين. ومع ذلك فلست قادراً على أن أعبّر عن أسفى العميق للنظام الذى ناضل رومل من أجله برغم كراهيته البالغة له.

وإذا ما قلت الآن إن رومل قد مضى وحربه قد مضت، فإننى أحييه كجندى وكرجل وآسف أشد الأسف للطريقة المخزية التى لقى حتفه فيها، بل قد اتهم بانتمائى إلى ما يسميه المستر بيفن «بنقابة الجنرالية».

والذى أعرفه أن مثل هذه الزمالة ينبغى أن توجد من الآن فصاعداً وأن عضويتها لا تتضمن أكثر من أن نعترف للعدو بالمزايا التى نود نحن أن نظفر بها.

فنحترمه لشجاعته ولأنه خصم عنيد كثير اليقظة والحذر. ونرغب فى أن نجده يعامل، بعد اندحازه، نفس المعاملة التى يود المرء ان يعامل بها عندما يكون منتصراً ويكون غيره خاسراً.

ان هذه الخلق هو الذى تعارف على تسميته بالفروسية، بينما قد يسميه الكثيرون اليوم بالهذيان. ويقولون إن الأيام التى كانت فيها مثل هذه العواطف تعقب الحرب. ان تلك الأيام قد انصرمت.

إن مؤلف هذا الكتاب أمير اللواء دزموند يونخ لم يوفر على نفسه أياً من الآلام كيما يلم بالحقائق التى رافقت حياة رومل ووماته سواء عن طريق عائلة رومل ذاتها أو عن الآخرين ولست أعتقد أن هناك شخصاً قد وفق فى استجلاء تلك الحقائق وتسجيلها كمؤلف هذا الكتاب.

ولما كان يونج أحد الضباط المحنكين الذين خاضوا غمار الحرب العظمى الأولى فقد عهد إليه أن يساهم فى معركة الصحراء الغربية فاشترك فيها اشتراكاً فعلياً إلى أن خانه الحظ فوقع أسيراً فى الغزالة بينما كانت الحرب ما تزال متأرجحة. ولم يعرف بعد الغالب من المغلوب.

لقد كان «يونج» أحد أصدقائى القدماء. وبعد أن أفلت من أيدى الأعداء، اصبح أحد ضباط هيئة الأركان التابعة لى. وطالما تحدثنا فى «دلهى» وفى رحلات جوية عدة، عن كثير من المواضيع ونحن تحت أشعة الشمس. ورغم

أننى فإننى كنت امتلك القدرة على استيعاب نظراته العسكرية التى تضم مختلف الآراء، الا أنى أقول باننى لم أبحث معه موضوع إدارة دفة الحرب فى شمالى افريقيا. فاستنتاجاته عن تلك الحرب. كما هو شأنه بالنسبة لغيرها من الأمور، تخصه وحده لأنه رجل ذو تفكير مستقل.

أما عن كتابه هذا فلقد قرأته بعد أن دفع به إلى المطبعة. ولقد قرأته بشوق واهتمام فائقين، وأنا على يقين أنه سيحظى بتقدير الآخرين، مثلما حظى منى بذلك.

إننى لأرحب بهذا الكتاب لأنه أنصف خصماً عنيداً، ولأنه سيعين الجيل الجديد من الألمان، على أن يدركوا أننا لا نكره مواهبهم العسكرية، وإنما نبغض سوء استخدام قادتهم لتلك المواهب وبهذه الصورة المتكررة.

كلود أوكنلك

الفصل الأول

كارثة برقة

◆ كيف وقعت الكارثة ـ أسطورة رومل بين الجنود البريطانيين أوكذلك يصدر منشوراً

فى منتصف شباط ١٩٤١، ارتفعت أسهم بريطانيا فى مصر ارتفاعاً كبيراً. فقد أصبح خدم البارات فى القاهرة والاسكندرية ـ تلك البارومترات التى لا تخطئ ـ لا يستطيعون كتم عواطفهم. وفقد خدم المطاعم إهاناتهم التى كانت تلقى إليهم جزافاً. حتى أن سائقى سيارات الأجرة المصريين، قد أصبحوا أكثر تأدباً من قبل.

أما الطبقة العالية من المصريين فان الباشوات الأثرياء شرعوا يولمون الولائم للضباط البريطانيين فى «نادى محمد على» ويقيمون الحفلات فى حدائق «الجزيرة».

وقد كف المجتمع القاهرى عن التعامل مع زبائنه الإيطاليين وأصبحت العلاقات بين ملك مصر وسفير صاحب الجلالة البريطانية أكثر صفاءً.

وبعبارة ثانية الشرق (ولا فرق بين أجزائه الدنيا والوسطى والقصوى) يعمل بغريزته الفطرية كل ما من شأنه أن يؤدى إلى السلام فالظفر. أما أصحاب المحال التجارية فى قصر النيل، فقد كانوا موزعين بين العاطفة الوطنية التى تهدف إلى أن يجلو البريطانيون عن مصر حتى آخر جندى، وبين ذلك الحرص

التجارى العميق الذى يهدف إلى أن يستولوا على آخر درهم معنا، وكان يحز فى نفوسهم أن تتحول أموالنا إلى نظائرهم من التجار فى طرابلس.

وإذا كانت مصر تحسن الظن «بجيش النيل»[1] فان لهذا الجيش أن يزهو بنفسه بحق. ذلك أنه فى الشهرين الأخيرين قد تقدم فى الصحراء مسافة قدرها ٥٠٠ ميل، تسنى له أن يهزم فيها جيشاً إيطالياً ويحطمه، وكان هذا الجيش مؤلفاً من أربعة فيالق، قوامها تسع فرق وبعض من فرقة عاشرة. كما أسر جيش النيل ١٣٠,٠٠٠ جندى وغنم ٤٠٠ دبابة و١٢٩٠ مدفعاً إلى جانب كميات كبيرة من العتاد والمواد الأخرى كملاءات الفراش النظيفة، والأسّرة المريحة والقمصان الحريرية وكثير من أدوات الزينة. ذلك أن الإيطاليين قد ذهبوا إلى ميدان القتال مرفهين.

... وفى السابع من شهر شباط استسلم الجنرال برغنزولى. بلا قيد ولا شرط فأرسل ومن معه من الضباط إلى «دهرادون» فى الهند، ولم تكن هذه البلاد لتشاهد مثل هذه الكثرة فى الضباط، من أسرى الحرب منذ سنة ١٩١١.

وقد كان جيش غرازيانى الإيطالى فى الصيف السابق، يمنّى نفسه بأنه ليس عليه إلا أن يصعد إلى حافلات الجنود، وإلا أن يمضى فى طريقه إلى القاهرة تحت ستار منيع من القوة الجوية الهائلة، ولكن هذه الأحلام تبددت، ومحت معالم هذا الجيش من الخريطة. ولطالما شكا غرازيانى نفسه من أن موسولينى قد ارغمه على أن يشعل حرباً كان الإيطاليون فيها «كالذبابة التى أعلنت حرباً على فيل» ولكن هذا التشبيه لم يصادف فى نفس الدوتشى هوى فقال: انها ذبابة ولكن من نوع غريب، فقد زودت بألف من المدافع»[2].

ولم يكن أمام غرازيانى إلا أن يبعث بوصية إلى زوجته فى البريد، وإلا أن يعتزل الخدمة العسكرية إلى قبر عمقه بلغ سبعين قدماً فى «تشرنى» أول

(١) «جيش النيل» هو اللقب الذى أطلق على القوات البريطانية فى مصر وشمالى إفريقيا.

(٢) الدوتشى: كلمة ايطالية تعنى «الزعيم» وكان هذا اللقب خاصاً بالديكتاتور الأحمق موسولينى.

الامر. ثم إلى إيطاليا بعد ذلك.

والبريطانيون لم يتيسر لهم هذا النصر إلا بعد أن كلفهم ٥٠٠ من القتلى، و١٣٧٣ من الجرحى و٣٣ من المفقودين. وقد اشترك البريطانيون بجيش قوامه ثلاث فرق، غير أن فرقتين فحسب، هما اللتان اشتركتا فى هذه العمليات الحربية، وهما الفرقة السابعة المدرعة والفرقة الهندية الرابعة. وقد حلت محل هذه الفرقة الأخيرة، بعد معركة «سيدى برانى»، الفرقة الاسترالية السادسة. غير أن أصداء الهجمات التى قام بها الجنرال ويفل، سرعان ما خفتت فى ذلك الدوى الهائل الذى ترددت رعوده وبروقه فى سماء المعارك الدائرة على طول الجبهة الروسية. وبات من المألوف أن يعرض الناس بهزائم الإيطاليين. ومما لا شك فيه أن أول بادرة من بوادر عبقريتنا العسكرية، أن نحارب عدواً يفوقنا عدداً وعدة على تلك الصورة الهائلة. فكنا نبعث إليه بجنودنا يتربصون به طول النهار فى رمضاء الصحراء العارية، على مدى ثلاثين ميلاً، حتى إذا ما جنهم الليل، تسللوا إلى ما وراء حصونه، دون أن يراهم أحد، ثم يباغتون العدو عند الفجر، ويطعنونه من الخلف...

ومن الممكن أن يقال إن الإيطاليين قد دخلو هذه الحرب بروح معنوية سيئة، وبقلوب خائرة. وكم كانت دهشتهم حين اكتشفوا أن مدافع الميدان التى كانوا يستخدمونها لا تحطم دباباتنا المدرعة، ولا تحول دون تقدم الجنود المهاجمين الذين دربوا تدريباً عالياً، كروحهم المعنوية تماماً. ولقد فعلت الفرق الجيدة من قبل، ما فعلته فرقنا هذه. على أنه من الخطأ الافتراض أن تلك العمليات كانت مجرد احتفالات مجيدة. ففى «نبيوا» ظل المدفعيون الإيطاليون يحاربون حتى سحقتهم الدبابات البريطانية. وكان الجنرال الإيطالى «ماتى» نفسه قد جرح وقتل وهو يطلق، من خيمة احتمى بها، مدفعاً رشاشاً. وفى «بيدافوم» صد لواء الرشاشات الثانى وحده، تسع هجمات قامت بها الدبابات.

ولا يدرى أحد ما إذا كان ذلك الجنرال «ويفل» قد صدرت إليه أوامر

بأن يمضى فى طريقه إلى طرابلس، وأن يجعل من هذه الإغارة التى استمرت خمسة أيام هجوماً عاماً.

ولكن الذى يتبادر إلى الذهن فى هذا المقام هو: هل كان فى استطاعة دبابتنا المنهكة، ووسائل نقلنا المثقلة، أن تقطع ٥٠٠ ميل أخرى؟ وهل ستقوم الفرقة الإيطالية التى رابطت فى طرابلس، والتى ما تزال بعيدة عن العمليات العسكرية، بتلك التحصينات التى توقع مونتجمرى أن يقوم الألمان بها منذ سنتين؟ ثم هل من الممكن أن تستخدم بنغازى كميناء لتموين الجيش، على الرغم من الغارات الجوية التى رابطت فى جنوب إيطاليا، بطريق الجو؟ لقد كان يبدو أن الجنرال «أوكنور» قائد قوة الصحراء الغربية سيجد نفسه «على الهامش» حتى وإن بلغ طرابلس. هذا لأننا فى ذلك الوقت لم تكن لدينا الوسائل التى نستطيع أن نستغل بها أية عملية نجحنا فيها.

... أما مصر فهى حتى هذه الآونة ما تزال آمنة. وقد تحطمت قوات المحور فى شمال إفريقيا، وارتفعت قيمة البريطانيين فى الشرق الأوسط، وأتيح للانكليز لأول مرة منذ «معركة بريطانيا» أن يحتلفوا بشئ ما...

ولم يكد يمضى سوى شهرين حتى سرى فى القاهرة رعب وفزع، وهبطت أسهم بريطانيا بنفس السرعة التى صعدت بها. وانتشرت تفاصيل الكارثة التى حلت بالبريطانيين. فأخليت بنغازى لسوء الحظ، وإن كان ذلك «وفقاً لخطة موضوعة!» ودمرت الفرقة الثانية المدرعة التى أرسلت أخيراً من انكلترا، وأُسر قائدها الفريق «جامبير بارى» ومعه هيئة أركان حربه. فى «ميشيلى»، وتحطم اللواء الهندى الآلى الثالث فى بداية المعركة. وتحصنت الفرق الاسترالية التاسعة فى «طبرق» ورفع كل من أوكنور وفليب نيم وجون كومب. وضاعت «البردية» ومن ورائها «السلوم»، ووقعت «كابتزو» فى أيدى العدو. وأصبح الخطر الذى يهدد مصر أعظم من ذى قبل.

ولم يكن فى استطاعة أى متحدث بلسان القاهرة أن يقنع العالم كله بأن

هذا النصر الذى أحرزه العدو، لم يكن إلا من قبيل الدعاية وحسب، وحتى المستر «ريتشارد دمبلى» المعلق الحربى ذو الصوت الجميل فى اذاعة لندن، لم يشأ أن يعلق على الموقف بكلمة واحدة.

ولم يكن ليبدو على المصريين أن الأمر يهمهم. فلقد كانوا يتسابقون فى التهكم، ويتطلعون إلى الجهة التى يعتقدون أن مصالحهم تكمن فيها. ولم يكن الإيطاليون بدورهم خيراً من المصريين. أما هؤلاء الألمان فيالهم من جنود! انهم اخصائيون كجندنا فى الجيش المصرى. لقد كان المصريون يأملون أن يحترم الالمان ملكياتهم فى القاهرة، وألا يضاربوا فى العملة!

وهذه الهزيمة التى لحقت بالجنرال ويفل، لم تكن سراً غامضاً، إنما كانت لها أسباب معلومة. فقد أبرقت إليه لندن بعد سقوط بنغازى مباشرة، بأن يبعث على جناح السرعة بأكبر عدد مكن من الجيوش البرية والجوية من الشرق الأوسط إلى اليونان. ولقد سحبت هذه القوات فعلاً من الفرقة الثانية المدرعة، وفرقة نيوزيلندا والفرقتين السادسة والسابعة الاستراليتين، ثم من اللواء البولندى، وبذلك يكون ويفل غلى حد قوله، «قد فقد من الناحية العملية كل الجنود الذى أعدوا لهذه العمليات الحربية» فى الصحراء.

ولعل الحكومة البريطانية لأسباب سياسية، لم تشأ أن تمتنع عن إرسال قوة إلى اليونان، على الرغم من ان اليونانيين لم يتحمسوا لها. ولقد جاءت هذه المساعدة غير كافية. وأدى تبديد الجهود هنا وهناك إلى الفشل فى كلتا الجبهتين. وقد يظن بعض الناس أن إرسال بعض الجنود البريطانيين إلى اليونان، قد أقنع هتلر بأن هناك اتفاقية سرية مبرمة بين الحكومتين البريطانية والسوفيتية، وأن هذا هو السبب الذى جعل هتلر يرجئ غزو روسيا بضعة أسابيع. ولكن هذا الظن يعوزه البرهان.

فمما لا شك فيه أن خسارة ٤٧,٠٠٠ جندى من الجنود المدربين، قد أدى إلى هزيمة بالغة فى الشرق الأوسط.

فلقد وقع الجنرال ويفل، أو قلم مخابراته السرية، فى خطأ، وهو وحده دون سواه الملوم على ذلك. فقد استنتج ويفل من المعلومات التى تجمعت لديه، أن الألمان لن يقوموا بهجوم مضاد على «برقة» قبل شهر آيار. وفى نهاية شباط، عندما أنبئ ويفل بأن الألمان قد استعدوا فى ليبيا، مضى يعتقد أنه لن يكون هناك أى هجوم عام، قبل منتصف نيسان. وكان يأمل ألا يقوموا بتعبئة عامة قبل آيار. ولكن هذه التعبئة العامة بدأت بالفعل فى ١٢ آذار.

وحتى هذه الغلطة التى انزلق إليها ويفل، يمكن أن يقال إنه ليس وحده المسئول عنها تماماً.

ففى سنتى ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ كانت الحكومة البريطانية ماتزال تسير على سياسة اللين، وتسكين الخواطر. ولم تشأ الحكومة البريطانية ان تفعل ادنى شئ يفضى إلى فصم عرى علاقاتها مع إيطاليا، تلك العلاقات التى قال عنها موسولينى انها قائمة على البغض والاحتقار المتبادل بين إيطاليا الفتية وذلك الأسد البريطانى الذى فض فوه... ولم تأذن له الحكومة البريطانية بأن يبعث بقلم مخابرات فى الأراضى الإيطالية. وفى شمال إفريقيا، لم تكن له عيون قبل أن تدخل إيطاليا الحرب... ولم يتيسر له ذلك إلا بعد وقت طويل. وهكذا استطاعت الفرقة المدرعة الخفيفة الخامسة القيام بانزال ناجح فى طرابلس دون أن تعرف أى شئ عنها.

ويقول ويفل إنه استدعى «لتحمل أعباء لم تكن لديه الموارد الكافية للنهوض بها»، واستوى فى ذلك مع كثير من القواد البريطانيين فى مراحل الحرب الأولى، وتحمّل ويفل هذه الأعباء دون أن يتذمر أو يشكو... وفى هذه الأثناء اشتعلت فى العراق ثورة، ثم حرب صغرى ضد قوات «فيشى» فى سوريا[1]، وبعد أن أفلح فى إخماد هذه الحرب الصغيرة، نقل من قيادة شمال إفريقيا.

(١) كانت هذه القوات، وهى فرنسية، تحت إمرة الحكومة الفرنسية الخاضعة للألمان، التى تألفت فى مدينة فيشى بعد سقوط باريس فى عام ١٩٤٠. أما ثورة العراق فهى ثورة آيار سنة ١٩٤١.

وسواء قيل ان ويفل قد أعفى من منصبه لأسباب صحية، أو لنقله إلى مكان آخر لينهض بأعباء أضخم، فان هذا لم يغير من شعور الجنود بأنه قد استبعد لأنه لم يعمل المستحيل فى اليونان. ولم تكن تلك هى المرة الأخيرة التى قدم فيها ويفل مثل تلك الخدمات الممتازة لبلاده.

تلك هى اذن كارثة برقة. ولو أن أحداً استوقف فى صيف ١٩٤١، اول عابر سبيل يلقاه فى أحد شوارع القاهرة، وسأله عن سبب هذا الذى حدث لأجاب فى كلمة واحدة: رومل!

■ ■ ■



الفصل الثانى

رومل شيطان انطلق من عقاله

◆ أوكنلك البريطانى يحذّر من «ساحر الجنود» الجرمانى

طرف من أساطير عجيبة

تذاع عن الرجل «الذى من طراز نابليون»

لقد أصدر الجنرال أوكنلك أمراً إلى جنوده يحذّرهم فيه من خطورة الأساطير التى شاعت حول رومل بين الجنود البريطانيين. وعلى الرغم من أننى أتذكر هذا الأمر تماماً. كما يتذكر ذلك معظم الذين اشتركوا فى الحرب فى الشرق الأوسط، فإننى لم أتمكن من الحصول على نسخة من هذا الأمر، حتى من الجنرال نفسه.

فكان لابد من أن أعتمد على الترجمة الانكليزية للترجمة الألمانية، التى عثرت عليها ضمن مذكرات رومل التى احتفظت بها أسرته. وقد يكون هنالك بعض الخلاف اللفظى بين الترجمتين الألمانية والانكليزية إلا أن المعنى فيهما واحد[1].

وفيما يلى الأمر الذى أصدره الجنرال أوكنلك إلى القواد وهيئة أركان حربه:

«هنالك خطر حقيقى ماثل بين أيدينا، وهو أن صاحبنا رومل قد أصبح بمرور الأيام ساحراً لجنودنا. فهم يكثرون من الحديث عنه. وعلى أية حال، فليس رومل إنساناً أعلى، وإن كان قائداً ممتازاً قديراً. وحتى لو كان رومل إنساناً أعلى،

(١) لقد أوضح أحد الضباط الإيطاليين الذين اشتركوا فى تلك الحرب فى مقال علّق به على كتاب يونج عن رومل بأن عنوان المنشور الذى أذاعه أوكنلك على جنوده كان: لا تترملوا! Do'nt Be Rommelisted.

فليس مستحباً قط أن يضفى عليه جنودنا، مواهب وقوى خارقة».

«وإننى لأرجو أن تتذرعوا بكل الوسائل الممكنة لتستأصلوا هذه الفكرة التى تجعلهم ينظرون إلى روميل على أنه شئ أكثر من كونه قائداً ألمانياً عادياً... والذى يهمنا هنا هو ألا نتحدث عن العدو فى ليبيا. إنما يجب أن نشير دائماً إلى «الألمان» أو إلى «قوات المحور» أو إلى «العدو» وأن تقلع عن اسم روميل، تلك النغمة التى لا يفتأ جنودنا يرددونها...

«وأحب أن ينفذ هذا الأمر فوراً، وأن يؤتى ثمرته بين الجنود، كما احب أن تؤكدوا لكل الضباط، أن خرافة روميل على جانب من الخطورة حتى من الناحية النفسية...

«أوكنلك»

إن عدد القواد الذين فرضوا شخصيتهم على جنودهم، فى أية حرب أقل بكثير جداً، مما يحلو لهؤلاء القواد أن يعتقدوا. وخاصة إذا نحن استبعدنا قوة الأعداء الذين فرضوا شخصيتهم على الجنود فرضاً. ففى الحرب العظمى الأولى، كان يقال بحق: إن القليلين من الجنود البريطانيين من يعرفون اسم قائد فرقتهم.

والحقيقة أنه فى الفترة الطويلة التى مرت بين ظهور «الدوق ولنجتون» إلى «اللورد مونتجمرى» لا يزيد عدد القواد الكبار الذين يعتبرون ابطالاً فى اعين الجنود، على أصابع اليدين...

فبالنسبة للحرب العظمى الثانية، هنالك أسماء مشهورة كمونتى «مونتجمرى» و«بل» سليم وديكى «مونتباتن». وكذلك «ألكس» الذى لم يفكر قط فى أن يكون مشهوراً. ومنهم «ويفل» على الرغم من التزامه الصمت التام... فالجنود لم يشكوا مطلقاً فى كفاءته، كما أنهم أدركوا طيبة قلبه التى لا تبين للعيون. وكذلك كان «أوكنلك» ملهماً لكل جندى من جنوده.

ويعقب هؤلاء عدد من القادة الذين يأتون فى المرتبة الثانية، ونستطيع أن

نعد منهم فرايبورغ و«سترافر جوت» و«جوك كامبل» وآخرون غيرهم برزوا فى ميادين أخرى.

ولكن القائد الذى يعرفه كل جنوده ما يزال من الندرة بمكان، كما أن القائد البريطانى الذى يعرفه كل جنود الأعداء، لأندر من ذلك بكثير.

وهكذا فرومل بين هؤلاء القواد جميعاً، ظاهرة لا مثيل لها. فهذا الأمر الذى اصدره الجنرال اوكنلك قد أثار كثيراً من النقاش والسخرية عندما صدر فى القاهرة. ولكن على الرغم من ذلك، كان هذا الأمر ضرورياً، وإن جاء بعد الأوان. فقد اقترن اسم رومل «بالفيلق الإفريقى»، كما أنه قد أثّر فى نفوس خصومه، وآكبره المراسلون الحربيون البريطانيون والأمريكيون، وكذلك الصحفيون المحالفون لبريطانيا فى القاهرة، وكانت نتيجة ذلك أن فاقت شهرة رومل، شهرة كل الشخصيات المعروفة فى الشرق الأوسط. فكان جنودنا يتحدثون عنه فى عبارات ودية، وكان يكفى أن يقولوا إنهم اشتبكوا مع الألمان فى معركة من المعارك، ليكون ذلك تبريراً لفشلهم. ولعل هؤلاء القلائل الذين يذكرون تلك العبارات التى ملؤها الإشفاق والكراهية، حين تعودنا أن نقول عن الجندى الالمانى، إبان الحرب العظمى الأولى، إنه العجوز البائس، يدركون أن رومل خطر محقق، ذلك أننا كنا نقدر الفيلق الإفريقى تقديراً عالياً. بينما كانت الانتصارات الهينة التى نحرزها على الإيطاليين، لا نعدها من مفاخرنا.

وإذا نحن سلّمنا بعظمة رومل، فانه ما يزال من العسير علينا أن نعلل لماذا أصبح رومل بهذه السرعة (رجلاً من طراز نابليون)، وكيف أصبح ساحراً لجنودنا فى الخطوط الخلفية من الميدان فى القاهرة، بل أصبح خطراً يهدد جنودنا فى الخطوط الأمامية.

كان رومل كأنه الشيطان الذى انطلق من عقاله، لكنه لسوء الحظ كان يعرف سبيله تماماً. ومن الغريب أن قلم مخابراتنا السرية لا يعلم إلا القليل عنه كجندى أو كرجل. وذلك لأن البريطانيين قد اعتمدوا إلى حد بعيد، على

حلفائهم الفرنسيين فى أن يمدوهم بترجمة حياة القواد الألمان، وبهذه التفاصيل وحدها يتمكن قائد من القواد تقدير خصمه ومنافسه. ولقد أدى ذلك الانهيار المفاجئ فى فرنسا، إلى المباعدة بين البريطانيين والاتصال بأحلافهم الفرنسيين، وظلت هذه «التقارير» فى وزارة الحربية الفرنسية ليقرأها الفرنسيون أنفسهم. وهكذا لم تستطع وزارة الحربية البريطانية أن تمد الجنرال ويفل وهيئة أركان حربه، ألا بتقرير ضئيل عن رومل. ومن هذا التقرير يطالعنا رومل على أنه ليس سوى رجل عنيف عنيد، أبلى بلاءً حسناً فى الحرب العظمى الأولى، وتولى قيادة إحدى الفرق فى غزو الألمان. وكان يقال انه من النازيين المتعصبين، وأن اختياره للنهوض بأعباء الحملة الالمانية فى شمال افريقيا، كان نتيجة لمحسوبية حزبية.

وهكذا كانت الفكرة عن رومل تخطيطية غير دقيقة.

والحقيقة أن القصص والأساطير التى حيكت حول رومل وأصله، وعن صدر شبابه مازالت «عائمة» أو غير معروفة تماماً. غير أنه فى كتاب «الهزيمة فى الغرب» ذلك الكتاب المدعّم بالوثائق والأسانيد، يذكر لنا المؤلف أن رومل كان عضواً من جورنج وهيس وروهم وبورمان وغيرهم من أعضاء «الفيلق الحر»، وقد كانوا جميعاً ينتسبون إلى جماعة من «الرجال المتغطرسين غير المسئولين»، وقد شبوا على أن «تكون روحهم عدوانية، وان يكونوا غلاظاً قساة ضد كل تألب كل الأوامر العسكرية». وخاصة فى المانيا بعد أن استسلمت فى سنة ١٩١٨ وأنجبت (خير القواد لتلك الطغمة من الجنود الذين تألفت منهم جناح العاصفة .S.A وفرقة الدفاع .S.S).

وأنباء أخرى تقول ان رومل كان ابناً لأحد العمال، وإنه كان فى مقدمة الذين انضموا إلى (جناح العاصفة). وآخرون يقولون إنه كان ضابطاً خامل الذكر، وقد برز بين أقرانه أثناء الحرب الأولى، بينما اعتبره الآخرون من رجال البوليس بين الحربين العظميين.

ولكن الحقيقة هى أقل من ذلك تلوناً ولمعاناً... فلقد كان روميل منذ البداية الى النهاية ضابطاً، كما يدل على ذلك سجل خدماته العسكرية منذ التحق بالجيش حتى مات. فلم يغادر الجيش قط. وعلى ذلك فلم يكن من أفراد (الفيلق الحر) ولا من رجال البوليس مطلقاً، كما لم يكن من (جناح العاصفة) فضلاً عن أن علاقته بهتلر لم تأت إلا عن طريق المصادفة المحضة، لا أكثر ولا أقل.

وليس من الصعب أن نكشف عن مصدر بعض هذه الأساطير التى دارت حول روميل. ففى صيف عام ١٩٤١ ظهرت فى (داس رايخ) وهى صحيفة جوبلز مقالة عن روميل مغفلة من الامضاء لفتت أنظار مراسلى الصحف الأجانب فى برلين، وقد جاء فى هذه المقالة ان روميل كان ابناً لأحد العمال، وانه ترك الخدمة العسكرية بعد الحرب العظمى الأولى، ليدرس فى (جامعة تيسنجن)، وأنه كان من أوائل قواد (جناح العاصفة) وأنه أصبح صديقاً حميماً لهتلر... إلى غير ذلك مما شاءت الصحيفة ذكره، والاستطراد فيه.

وحين أرسلت إلى روميل، فى شمال أفريقيا، هذه المقالة ثار فى عنف، وبعث الى وزارة الدعاية يسألها قائلاً: ماذا يعنون بترويج مثل هذه القصص الملفقة حوله؟ وحاولت وزارة الدعاية أن تخرج من هذا الحرج، فلم تجد أمامها إلا أن تقول إن الملازم الأول (أجمبكة) الذى ألفّ كتاباً عن «فرقة الدبابات السابعة» الذى تولى روميل قيادتها فى فرنسا، هو وحده الذى أمدها بهذه المعلومات.

ولم يتمكن روميل من الاتصال بالضابط (أجمبكة) إلا بعد أن فرغ من معركة «ممر الحلفاية». وسأله روميل عما إذا كان قد أرسل إلى وزارة الدعاية مثل هذه المعلومات الخاطئة، ثم سأله عن الأسباب التى يهدف إليها من وراء هذه المعلومات؟ فنفى (أجمبكة) انه قام بشئ من هذا. ولم يكتف أجمبكة بهذا. بل كتب إلى وزارة الدعاية الألمانية يسألها عما تهدف إليه من وراء

إفساد علاقاته مع رومل؟

وكان جواب الوزارة أنها بعثت برسالة من قسم الصحافة بوزارة الدعاية إلى أجمبكة اختتمت «بهايل هتلر» ووقعت بامضاء الدكتور «مايسنر» وكانت هذه الرسالة تحفة من أدب وزارة الدعاية الألمانية، تبعث على الضحك والسخرية، وقد ذكر الدكتور مايسنر أن ما كتب عن الجنرال رومل لا يمكن أن يسئ إلى شهرته كرجل ممتاز. بل على العكس، إنه ربما أحسن إليه، بأن يجعله شخصية مألوفة محبوبة عند المراسلين الحربيين الأجانب. وقد ختم الدكتور مايسنر رسالته بقوله إنه كان يأمل، من وجهة نظر وزارة الدعاية نفسها، أن تكون تلك العبارات التى وردت فى المقالة على الرغم من أنها مختلقة، صحيحة واقعية.

وبعث أجمبكة بهذا الخطاب الى رومل، واحتفظ به رومل ضمن مذكراته. وربما كان ذلك سبباً فى غضب رومل أشد الغضب بل يرتاب أشد الريبة فى كل شئ ينتسب إلى الدعاية أو إلى (الاتصال بالرأى العام).

وكان أول ضحاياً تلك الريبة ضابط ألمانى حدث سئ الحظ يدعى «برندت» نقل من وزارة الدعاية إلى الدفاع فألحق بالفيلق الإفريقى حالاً. فقد أسّر هذا الضابط إلى رومل بأنه قد طلب إليه، ولما ير الصحراء من قبل، أن يقوم ذلك المساء بغارة خلف أحد الخطوط البريطانية وقد نفذ برندت ما طلب منه فكان شجاعاً ولطيفاً فى الوقت ذاته وقد عاد من تلك الغارة وهو يجر وراءه عدداً من الأسرى الانكليز ويحمل فى جعبته معلومات قيمة.

■ ■ ■

الفصل الثالث

معلومات خاطفة عن رومل

◆ **اشتراكه فى الحرب الأولى ـ تفوقه فى المعارك البرية**
مقاتل شجاع إلى حد الخرافة ـ
يهاجم وحده ببندقية خالية من الطلقات
ويزحف بعد سهر أسبوع كامل

ولد ارفن يوهانس رومل بعد ظهر يوم الأحد المصادف تشرين الثانى سنة ١٨٩١ بمدينة «هايد نهايم» من أعمال فرتمبورج بالقرب من «أولم» وكان أبوه ـ ويدعى ارفن رومل أيضاً ـ مديراً لإحدى المدارس وابن مدير سابق فيها. وكان أبوه وجده من المتفوقين فى المسائل الرياضية.

ولما كان الناس فى ذلك الوقت ينظرون إلى المشتغلين بالعلوم نظرة احترام وتبجيل لم ينلها أعضاء الأحزاب والهيئات السياسية، فقد كان أبوه البروفسور رومل من ذوى المكانة المرموقة فى هايد نهايم. وقد ولد له خمسة أطفال مات أحدهم فى سن مبكرة. أما الباقون فكانوا «هيلينا» تعمل الآن مدرسة فى شتوتجارت وارفن رومل الذى نتحدث عنه، وأخوه كارل وجرهاردت. وقد توفى كارل بعد إصابته بالملاريا عند اشتراكه فى حرب العراق أثناء الحرب العظمى الأولى. أما والد رومل فقد توفى سنة ١٩١٣. أما أمه فعاشت بعد والده سبعة

(١) زبلين: من أشهر المعامل التى أنتجت المناطيد قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها. ثم أصبحت تنتج الطائرات والدبابات.

وعشرين سنة، إذ كانت وفاتها فى سنة ١٩٤٠، وبعد أن أصبح ابنها روميل برتبة فريق.

وقد تحدثت شقيقته عنه فقالت إنه طفل رقيق مدلل، وكان ذا جسد ناصع البياض وشعر أصفر شاحب، ولذلك كنا ندعوه بالدب الأبيض. وقد رفضت مدرسة «آلن» قبوله فيها لصغر سنه، فأثر هذا الرفض فى نفسه تأثيراً بالغاً فازداد شحوبه وفقد شهيته للطعام، وأصبح من العسير عليه أن يغمض له جفن طوال الليل.

وكان وهو فى المدرسة مثال التلميذ الخامل المهمل، حتى لقد صرح أحد أساتذته، بقوله لو وجدنا أن روميل قد أحسن الإملاء ولم يخطئ فيه، لكنا استأجرنا جوقة موسيقية وطفنا بها البلدة طيلة ذلك اليوم!.

ولم يعر روميل اهتماماً للدروس الحسابية، بعكس ماكان عليه أباؤه. أما هوايته المحببة إليه، والتى كان ينفق فيها جل أوقاته، فهى الطواف بدراجته الهوائية أثناء الصيف، والتزحلق على الجليد أيام الشتاء.

على أنه كان إلى جانب ذلك شديد الاهتمام بنقوده، وعدم التبذير فيها، وتلك ميزة من سكان فرتمبرج.

وعزم هو وصديق له على دراسة فن صنع الطائرات، وقد صنعا نموذجاً لطيارة، وزوداها بمروحة كبيرة، ولكن ذهبت جميع محاولاتهما وأتعابهما سدى، إذ لم تغادر تلك الطائرة الأرض التى وضعت عليها.

وشرع الاثنان روميل وصديقه - وكان يدعى كايتل - يتطلعان نحو المستقبل، ويعدان أنفسهما للعمل فيه. فقرر كايتل أن يصبح مهندساً، وأن يحصل على عمل له فى مصانع «زبلين»[1] فى «فرد ريسكسهافن». وأعجب روميل نفسه بالفكرة ذاتها، وصمم على تحقيقها إذا ما نال موافقة والده. غير أن أباه عارض تلك الفكرة، وأفهم روميل أن عليه أن يربط مصيره بمصير

الجيش الألمانى.

ولم يكن لدى عائلة رومل أى من التقاليد العسكرية، إذ لم ينتسب أحد من أفرادها إلىَّ الجيش، عدا رومل الجد الذى اشترك مدة فى الجيش برتبة ملازم. وكذلك لم يكن لتلك العائلة أصدقاء عسكريون ذوو نفوذ وتأثير.

● ● ●

فى التاسع عشر من شهر تموز ١٩١٠ التحق رومل بكتيبة المشاة الرابعة والعشرين بعد المائة بصفة جندى أول، حيث كان عليه أن يخدم فى صفوف الجيش قبل أن يدخل الكلية العسكرية. ثم رقى إلى نائب عريف فى تشرين الأول من تلك السنة، فإلى عريف فى كانون الأول. وفى آذار ١٩١١ دخل رومل الكلية العسكرية فى مدينة دانزج.

كانت أيام الدراسة فى دانزج من أسعد الأيام التى شاهدها رومل فى سنى حياته. ففى هذه المدينة وفى الكلية العسكرية ذاتها، تعرّف على أحد التلاميذ كانت له ابنة عم جميلة فى مدرسة مجاورة للكلية. وقد تعرف رومل على تلك الفتاة وتوثقت علاقته بها، ولم يلبث أن تزوجها فيما بعد. لقد كانت تلك الفتاة تدعى «لوسيا ماريا مولن» وهى إبنة أحد مُلاّك الأراضى الكبار فى غربى بروسيا.

وانقضت أيام الدراسة واجتاز رومل الامتحان، فأصاب نجاحاً فوق المعدل، وهكذا نال رومل فى نهاية كانون الثانى ١٩١٢ رتبة ملازم ثان، وعاد إلى نفس الكتيبة التى سبق أن انخرط فيها فى (فانجارتن)، وظل يراسل «مولن» كل يوم.

وفى فانجارتن هذه عهد إلى رومل بتدريب الجنود الجدد فأمضى فى العمل سنتين متواليتين.

فى بداية آذار سنة ١٩١٤، أُلحق رومل بلواء مدفعية الميدان فى (أولم)،

وظل بها حتى عصر يوم ٣١ تموز التالى، إذ عاد إلى الثكنات فوجد فى ميدانها خيولاً قد اشتريت حديثاً تنتظره. وتنتظره معها أوامر تطلب إليه أن يلتحق بكتيبته فوراً.

وفى اليوم التالى كانت سريته قد زودت بمعدات الميدان. وفى المساء جاء ضابط برتبة عميد واستعرض الكتيبة وكان أفرادها قد ارتدوا الملابس الرمادية، ثم ألقى فيهم كلمة حماسية، وقبل أن ينصرفوا، أصدر إليهم أمره بالتهيؤ للحرب.

وقد جاء فى كتاب رومل عن «الهجمات البرية» أن صرخة من «الشبيبة المحاربة قد دوت أصداؤها بين جدران ذلك الدير العتيق» ولكن يبدو لنا أن هذه العبارة، ومثيلاتها من التعليقات التى وردت فى الكتاب ليست من وضع رومل، إنما أقحمها على الكتاب أحد دعاة النازية حين كان يهيئ الكتاب لطبعة جديدة سنة ١٩٣٧ لعامة القراء. وما أن أصبح أولئك الشبان المتحمسون قادرين على مشاهدة الصور التذكارية، لعشرة آلاف ضابط وجندى كانوا يؤلفون كتيبة فرتمبرج - حيث لا تزال هذه الصور معلقة إلى اليوم فى كاتدرائية أولم - حتى أصبحوا أقل حماسة!. وفى اليوم التالى تحركت الكتيبة المشار إليها إلى ميدان القتال.

فى كل جيش من الجيوش توجد أقلية من الجنود المحترفين - وقليل من الهواة أيضاً - الذين يجدون فى الحرب شاغلهم الأوحد الذى يلائمهم تمام الملاءمة.. وأذكر أننى كنت أقرأ فى العمود الذى كانت تنشره صحيفة «التيمس» بعنوان «للذكرى» أسماء كثير من الضباط الذين قتلوا فى الحرب، فى سن مبكرة. وكان رومل أحد هؤلاء الشبان الذين جندوا فى سن صغيرة. ولكنه مع ذلك برز منذ اللحظة التى انتظم فيها فى سلك الجندية، بوصفه مقاتلاً من الطراز الأول، إذ كان صلباً ماكراً قاسياً صبوراً سريعاً شجاعاً، إلى درجة تكاد تكون خرافية!

يهاجم وحده ببندقية خالية من الطلقات

وفى الساعة الخامسة من صبيحة ٢٢ آب سنة ١٩١٤ قام رومل بحركة مضادة للفرنسيين فى قرية (بليد) بالقرب من (لونجفى) وحينما أرسل لاستكشاف هذه القرية، وسط الضباب الكثيف، كان لم ينم منذ ٢٤ ساعة، وكان إلى جانب ذلك يعانى آلام الطعام المسمم الذى أكله، كما كان من الإجهاد والتعب بحيث لم يستطع أن يمتطى صهوة جواده. على أنه ما كاد يعرف القرية التى اعتزم مباغتتها، ويتحقق من سلامة الطريق الذى يؤدى إليها، حتى خف إليها على رأس فصيلته. فلما أطلقت نيران العدو عليه وعلى جنوده، أوقفهم ثم اصطفى منهم ثلاثة بينهم ضابط غير حربى، ومضى بهم حتى صاروا على قيد خطوات من سور يحيط ببيت ريفى، على مقربة منه طريق صغير يمر بهذا البيت متجهاً إلى قرية أخرى مجاورة.

وهناك رأى رومل فى أحد جوانب هذه القرية، خمسة عشر رجلاً أو عشرين من الأعداء، قد وقفوا فى عرض الطريق.

فماذا عساه أن يفعل؟

هل يعود أدراجه، ويأتى بفصيلته التى تركها وراءه؟

إن البت السريع فى مثل هذا الموقف المفاجىء، لهو أمرٌ عسير فى الحرب، ولا شك أن كل مستقبل المحارب يتوقف على أول تصرف له. على أن رومل تصرف على النحو، الذى كان يروق له أن يفعله المرة بعد المرة. فلما أحس خطر المباغتة، جمع رجاله الثلاثة، وهاجموا العدو، وظلوا يطلقون عليه النيران، حتى تحطم.. ثم تلفت رومل إلى فصيلته فألفاها تتحرك نحو القرية، وكان نصفها قد حمل حزماً من العشب الجاف، ونصفها الآخر يقوم بإطلاق النار ليغطى تقدم النصف الأول. وهنا تقدم مرة أخرى فاقتحم أبواب منازل القرية، وألقى عليها وعلى مخازن الغلال بحزم العشب الجاف مشتعلة، فتساقطت البيوت واحداً إثر واحد!

تلك حادثة صغيرة قد لا تكون لها أهمية، إلا أنها توضح لنا أولى حركات روميل، وتصور جرأته واستقلاله فى التفكير والتصرف، ذلك الاستقلال الذى تجلى فى حياته العسكرية كلها.

لقد أبدى رومل صبراً وجلداً عجيبين، على الرغم مما أصابه من مرض، وعلى الرغم من تلك المتاعب الهائلة فى الحرب الدائرة الرحى فى تلك الفترة. وفى بعض الأحيان كان يغمى عليه، ولكنه لم يكن يبلغ السلطات بأنه مريض، وظل كذلك حتى جرح فى مؤخرة جسمه فى ٢٤ أيلول وهو يهاجم ثلاثة من الفرنسيين فى غابة بالقرب من (فارن) وكان وحده وليس معه إلا بندقية خلت من الطلقات!

من ذلك الحين أخذ قائد الكتيبة التى بها رومل، يعوّل عليه فى النهوض بالأعمال التى تحتاج إلى شجاعته وجلده، ثم كوفىء رومل بوسام الصليب الحديدى من الدرجة الثانية.

وبعد مضى ثلاثة أشهر، كان جرح رومل قد التأم، فالتحق مرة أخرى بفصيله، وزحف به فى منتصف كانون الثانى فى (أرجون). وفى ٢٩ كانون الثانى سنة ١٩١٥، أنعم على رومل بوسام الصليب الحديدى من الدرجة الأولى، مكافأة له على ما قام به من أعمال باهرة، إذ زحف مع فصيلته عن طريق ثغرة أحدثها فى نطاق من الأسلاك الشائكة. إلى مسافة قدرها مائة ياردة فى صميم مراكز الفرنسيين، فاستولى على أربع من العمارات الكبيرة وصد هجمات كتيبة من كتائب العدو، واستطاع أن يسترد إحدى تلك العمارات بعد أن أخرج منها، ثم انسحب إلى مراكزه الأصلية، بعد أن خسر أقل من اثنى عشر رجلاً.

وهذا أيضاً عمل صغير، ولكنه يدل على مدى استعداد رومل بطبيعته، لأن يستغل موقفه إلى أقصى حد مستطاع، على الرغم مما ينطوى عليه ذلك من مجازفة.

وإذا كانت روح المجازفة هذه قد أدت به أحياناً إلى الوقوع فى مآزق بالغة الخطورة والحرج، فإن هذه الروح قد مكّنته أيضاً من أن يستفيد فائدة قصوى، وخاصة إزاء عدو متهالك لم يحسم أمره بعد.

والذى لا شك فيه أن إصرار رومل على المخاطرة، وقدرته على التصرف الفردى، هى التى أدت بالسلطات إلى أن تختاره للعمل فى (كتيبة فيرتمزرج الجبلية) التى ألفت بعد أن رقى إلى رتبة ملازم أول، وبعد أن أصيبت ساقه بجرح ثان.

وكانت هذه الكتيبة، أكبر من الفوج العادى. فهى تتألف من ست سرايا من حملة البنادق. وست فصائل من حملة المدافع الرشاشة. كما أن هذه الكتيبة لم تكن تحارب بوصفها وحدة، بل بوصفها تشكيلة منقسمة إلى مجموعتين أو أكثر، ويختلف عدد الجنود فى هذه المجموعات تبعاً للدور الذى تقوم به من أعمال حربية. وكان لكل مجموعة من هذه المجموعات واجبها الذى تنفرد به، وقائدها الذى تأتمر بأوامره، وكان هذا القائد يتمتع بحرية واسعة النطاق فى أعماله وتصرفاته، وليس عليه إلا أن يكتب تقريراً يومياً لقائد الكتيبة العام.

وبعد أن تدربت هذه الكتيبة، التدريبات الممتازة على خوض المعارك الجبلية فى النمسا، وبعد أن قضت فترة هادئة تقرب من السنة فى قطاع آمن من جبال «الفوج» التحقت (بالفيلق الألبى) المشهور، فى الجبهة الرومانية، وسرعان ما وكل إلى رومل قيادة إحدى هذه المجموعات التى تتفاوت فى حجمها. فتارة تكون صغيرة، وتارة أخرى ينضوى تحت لوائها فوج بكامله.

وفى أثناء ذلك منح رومل إجازة، فسافر إلى دانزج وهناك فى ٢٧ شباط ١٩١٦ تزوج من صديقته لوسى ماريا مولن. وتظهر لنا صورتها التى أخذت لها فى ذلك الحين، أنها كانت فتاة رشيقة إيطالية الشكل على نحو واضح، جميلة السمات، وإن كان وجهها الذى يسوده الجد، لم يكشف عن روحها

المرحة، التى ما تزال باقية لديها حتى الآن. ومن أخص خصائصها الواضحة، دأبها وشجاعتها، وقوتها.. لقد كانت «لوسى ماريا مولن» هى أصلح زوجة لجندى.

يزحف إلى المعركة وهو سهران أسبوعاً

والواقع أن بعض الأعمال التى قام بها رومل بعد ذلك فى رومانيا وإيطاليا، لم يكن أحد ليصدقها، لولا أن تواترت الروايات عنها ممن شهدوها، واشتركوا معه فيها.

ويمكن أن يقال فى كلمة موجزة عن طريقة رومل هى أن يتسرب إلى خطوط الأعداء بعدد قليل من الجنود وأن يصحب معه خطاً تليفونياً أينما ذهب. وفى المناطق الجبلية، حيث يمكن الاستيلاء على القمم والوديان، كان رومل يتسلق المنحدرات العالية التى لا يمكن لأمهر سكان المنطقة الجبلية السير عليها. وكذلك امتاز بأنه سريع الخطى، سواء أكان يمشى فى الضباب الكثيف، أم على الجليد السميك، أم فى الحر اللافح، بالليل والنهار على السواء. ولرومل قدرة على تحمل الحرارة، والبرد والتعب ونقص الغذاء وقلة النوم.

وعندما يكون رومل وراء خطوط العدو، فإنه لا يتردد مطلقاً فى الهجوم مهما كانت ضآلة القوة التى يهاجم بها، ذلك أنه يرى بحق أن ظهور جنوده فجأة وراء مراكز العدو، وانطلاق نيران المدافع الرشاشة على ظهر العدو، يزعزع الجنود جميعاً، إلا الجنود الممتازين، وليس الرومانيين أو الإيطاليين منهم!!

وعندما استولى على جبل كوزونا فى آب سنة ١٩١٧، ذلك المركز الرومانى المحصّن تحصيناً قوياً، كان قد اقتاد أربع سرايا تسير على صورة أرتال فردية، ومشى بها خلال الغابات بين مركزين من مراكز العدو على مدى ١٥٠ ياردة، دون أن يكشف أمره أحد، وكان قد تمكن فى الوقت نفسه من مد خط تليفونى معه، فلما وصل إلى قمة جبل (كوزونا) كان قد مضى عليه

أسبوع كامل لم يذق خلاله للنوم طعماً، كما أنه كان قد جرح جرحاً بليغاً فى ذراعه منذ أيام إذ أصابته رصاصة من الخلف من مكان بعيد!!

وعندما استولى على قرية «جاجستى» فى شهر كانون الأول من العام نفسه، ظل فى العراء حتى الساعة العاشرة مساء، وهو فى داخل الخطوط الرومانية الأمامية، وكانت حرارة الجو تحت درجة التجمد بعشر درجات. وعندما أدرك، وكان مصيباً فى ذلك أن الرومانيين لابد أن يكونوا نياماً. أطلق مدافعه الرشاشة، وصب نيران بنادقه على القرية، ثم تقدم لمهاجمتها بنصف جنوده. وعندما خرج الأعداء من منازلهم والنوم لم يفارق عيونهم بعد، ساقهم أمامه وحصر أربعمائة منهم داخل كنيسة. وكانت الخسائر التى لحقت جنوده طفيفة لا تذكر!

وحينما كان رومل يضطر إلى القيام بهجوم على طول الجبهة، كان يطلق نيران مدافعه الرشاشة على القطاع كله، مركزاً نيرانه تركيزاً هائلاً، على النقطة التى سيقوم بمهاجمتها.. وحينئذ يشن هجومه بقوة كبيرة، على جبهة ضيقة للغاية. ثم تحمل القوات المهاجمة مدافعها الرشاشة وتثبتها فى الأرض وتطلق نيرانها على جناحى العدو بعد إحداث ثغرة فى خطوطه. وتقوم القوة المهاجمة بالضغط على العدو. والتقدم نحوه دون أن تولى أدنى اهتمام لما عساه أن يقع فى مؤخرتها.

وبعبارة أخرى يمكن أن يقال: إن رومل يطبق تكتيك اختراق خطوط العدو والتوغل فيها كما كانت الفرق الألمانية المدرعة تفعل ذلك سنة ١٩٣٩.

■ ■ ■

الفصل الرابع

رؤساؤه يستشيرونه فى أساليب الهجوم

◆ كيف استولى رومل على بطارية كاملة للعدو بالسلاح الأبيض؟..
وسبح فى الجليد ومعه ستة من الجنود ليأسروا حامية من العدو!

ومما هو جدير بالذكر أن رومل، حتى ذلك الحين، لم يرّق فى قيادته إلى أكثر من قيادة فوج، ويقوم بعمليات مستقلة فى تصميمها ضد العدو. وكان رؤساؤه يستشيرونه فى شئون إدارة المعارك وأساليب الهجوم، وينفذون ما يقول به، ومع ذلك لم يكن حينئذ سوى شاب دون الخامسة والعشرين من عمره، وكان يبدو على وجهه أنه أصغر من ذلك بكثير.

كما أن رتبته العسكرية لم تزد على رتبة ملازم أول، ولا يغرب عن البال أن استشارة الرؤساء للمرؤوسين قد تكون مسألة لا أهمية لها، ولكن لها أهميتها الكبرى فى الجيش الألمانى، الذى لا يشجع فيه صغار الضباط عادة على أن يبدوا وجهات نظرهم، وإن كانوا مثقفين ثقافة عسكرية ومدربين تدريباً عالياً.

أما أن رومل قد استطاع أن يجعل لنفسه شهرة فردية، وأن يكون معروفاً بين جنود فرقته جميعاً، فذلك ما لم يحدث من قبل. ولكن رومل ليس من تلك الشخصيات الشاذة التى تبرز فى الحروب، وتحدث تأثيرها فى النفوس بوصفها غير عادية أو غير مألوفة. ورومل لا يمكن إلا أن يلفت الانتباه بما له من شجاعة وجرأة وعناد ومبادأة على صورة فريدة فى نوعها.

رومل يجند النمساويين

وربما كان أقصى ما بلغه رومل من مجد فى الحرب العظمى الأولى، هو استيلاؤه على جبل «ماتاجور» جنوبى غرب «كابوريتو» فى ٢٦ تشرين أول سنة ١٩١٧.

فقد كان النمساويون يعانون من سلسلة من الهجمات التى قام بها الإيطاليون ضدهم، ولذلك لم يجدوا بداً من أن يطلبوا العون من الألمان. وعلى الرغم من اشتباك القوات الألمانية فى جبهات مختلفة، فإن القيادة الألمانية العليا سارعت إلى إرسال الجيش الرابع عشر، المؤلف من سبع فرق ممتازة، ليساهم فى الهجوم على المراكز الإيطالية فى وادى ابزونتسو. وفى أثناء ذلك انضمت «كتيبة فيرتمبرج الجبلية» مرة أخرى إلى «الفيلق الألبى» الذى كان عليه أن يقوم بهجوم فى الوسط قبل «ماتاجور»، وفى اليوم الأول كان على هذا الفوج أن يحمى ميمنة الكتيبة البافارية التى كان منوطاً بها قيادة الهجوم على العدو، وكان على بقية القوات أن تتبعها.

ونوجز وصف هذه العملية المعقدة فنقول: إن رومل لم يرقه أن يتبع البافاريين فى هجومهم، واستطاع أن يقنع قائد فوجه المقدم «شبروسر»، بأن يأذن له فى أن يتقدم إلى ميمنة البافاريين، وأن يهاجم مراكز الإيطاليين وحده. وما أن أوقف تقدم البافاريين، حتى زحف رومل بجنوده قبيل الفجر، عبر الجبهة الإيطالية، دون أن ينكشف أمره، فأفلح بعض جنوده فى اختراق الخطوط الأمامية للجبهة الإيطالية، عندما انبثقت أشعة الفجر، وتمكن رومل من الاستيلاء على إحدى بطاريات الإيطاليين بالسلاح الأبيض، دون أن تطلق عليه رصاصة واحدة. ثم ترك رومل إحدى السرايا لحراسة هذا المركز الذى استولى عليه، وأخذ يوسع الثغرة التى فتحها، متقدماً بعد ذلك بسرية أخرى إلى الخطوط الإيطالية الخلفية.

الاستيلاء على جبل ماتاجور

وكان عليه أيضاً أن يعود إلى الجماعة الأولى التى خَلَفَها وراءه، والتى

تعـرضت لهـجـوم قـام به فـوج إيطالى بـأسـره. ومـا كـاد يفـاجئ الإيطاليـين بالهجوم من المؤخرة، حتى سارعوا إلى إلقاء السلاح مستسلمين، وحينئذ بعث رومل برسالة إلى قائد فوجه، ومعها ألف أسير!

فى هذه الآونة تقدم المقدم «شبروسر» بقوة قوامها أربع سرايا أخرى، ثم أذن لرومل تحت قـيادته، فى أن يتقـدم داخل هذه الثـغـرة التى فـتـحـهـا، إلى المناطق الخلفية للعدو. ولما وجد رومل الطريق قد حجب عن الرؤية، سار بكل قواته على هيئة رتل واحد، مسافة تبلغ الميلين تقريباً، وفى ذلك الوقت كان الإيطاليـون مـا يزالون منشـغلين بالمعـركـة الرئيـسـيـة، وبالإغـارات المتكررة المتـواصلة على جبهـتـهم. وفى العـراء - وراء خطوط العـدو - كمن رومل فى الطريق الرئيسى الذى يفضى إلى جبل ماتاجور، وتمكن من الاستيلاء على رتل من سيارات التموين مع سيارة حربية وأسر خمسين ضابطاً وألفين من جنود لواء «برزاليرى» الذى كان يتحرك نحو الميدان. واستقل رومل السيارة، وراح ينطلق إلى الطريق أمامه وحواليه، ثم قـرر أن يمضى قـدماً إلى جبل ماتاجور، وهو المفتاح الرئيسى لمراكز العدو.

وظل رومل بقيـة ذلك النهـار والليل كله، يتقـدم نحـو العدو بجنود قد نال منهـا التـعب، وأنهكهـا السـيـر. وعند مـطلع الفـجـر بلغ رومل مـعـسكراً «للواء سالرنو» فتقدم ومعه ضـابطان آخران وبعض الجنود من حملة البنادق، إلى حـشد من الجنود الإيطاليين، وطلب إليـهم أن يستـسلمـوا. وبعـد هنيهـة من التـردد ألقى الإيطاليـون السـلاح فـاسـتـسلم له ٤٣ ضـابطاً و١٥٠٠ جندى، ولعلهم كانوا قد استسلموا فزعاً من هول المفاجأة، ونفاذ بصيرة رومل.

تقدم يستمر خمسين ساعة

عندمـا تسلق رومل جبل مـاتاجور من المؤخرة، وراح يرمى قذائفه الموفقة من القمة، كـان لا يزال يتقدم بجنوده خـمـسين سـاعـة. وحين كـانت الغـربان تحـوم فى سـمـاء هذه المناطق الجبلية، كان رومل قد استـولى على منطقـة

مساحتها ١٢ ميلاً. وأخذ روميل يتسلق الجبل حتى غدا على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم. وتيسر له أن يأسر ١٥٠ ضابطاً و٩٠٠٠ جندى و٨١ مدفعاً. والشىء الذى لم يتبينه روميل فى ذلك الحين، هو سر الخور وروح التخاذل العسكرية لدى الإيطاليين.

وفى الطبعة التى ظهرت سنة ١٩٣٧ من كتابه «التكتيكات البرية» يقول روميل (اليوم يعد الجيش الإيطالى من أحسن جيوش العالم) ولكن لا يسعنا هاهنا إلا أن نرتاب فى هذه العبارة التى ربما يكون قد أقحمها قسم الدعاية العسكرية على الكتاب.

وعلى أية حال، فإنه على الرغم من أن روميل كان من العسير عليه أن يقوم بمثل هذه الخدع ضد فرق اللورد (كافان) البريطانية، فإن أعماله كانت بالغة الجرأة ومن أجل ذلك منح وسام الاستحقاق الذى لا يمنح عادة إلا لكبار القواد. كما رقى روميل فى الوقت ذاته إلى رتبة نقيب.

وبعد ذلك بقليل سبح روميل فى الليل، مع ستة من جنوده شدوا إلى حبل واحد، فى مياه بياف الجليدية. وهاجموا قرية «لونجارونى»، واستولوا عليها، بحاميتها الكبيرة، وذلك بأن أطلقوا عليها النيران من عدة جهات مختلفة، تحت جنح الظلام. وما أن طلع الفجر حتى تقدم روميل وحده، وأخبر الحامية الإيطالية، بأن الألمان يحاصرون القرية من جميع الجهات، وأنهم يأمرونها بالاستسلام فاستسلمت.

ثم منح روميل، بعد ذلك إجازة، وعلى كره منه، عين فى إحدى هيئات أركان الحرب. وظل بها حتى نهاية الحرب.

■ ■ ■

الفصل الخامس

أينما يوجد رومل توجد الجبهة

◆ يتمتع بحاسة «سادسة»

ـ مع الكابتن النجر ـ رومل ومونتجمرى

قد لا يكون فن قيادة الجيوش فى الحرب من أسمى ألوان النشاط الإنسانى. وإذا كان أى بطل عالمى لا يحتاج إلى أكثر من أن يكون ذا نزعة عدوانية فريدة، وذا تركيب جسمانى مناسب، وبراعة فنية ممتازة، فإن قائد الجيش الذى تأتمنه أمته على أرواح خيرة أبنائها فى معارك الحرب، لابد أن تتوافر فيه صفات ومزايا لا يشترط توافرها فى غيره من الأبطال العالميين.

ومن هنا، ما كدت أشرع فى تتبع سيرة رومل، حتى وجدتنى أسأل نفسى، وأسأل غيرى من الناس: أى الصفات والمزايا رفعت هذا الرجل إلى مصاف الأبطال؟

ومنذ اللحظة الأولى، وأنا أشعر تماماً بأن هناك خلافاً أساسياً بين نظرة الألمان إلى الحرب، وبين نظرتنا نحن البريطانيين إليها. ولا أقول: إننى لم أكن على استعداد لفهم ذلك. ولقد شاءت المصادفة أن أقف على ترجمة لكتاب اسمه (عاصفة من الصلب) بقلم (أرنست ينجر)، فقرأت فى هذا الكتاب حادثة التصقت بذاكرتى، لأنها كانت مألوفة لدىّ. وكانت بعد معركة (كمبارى) والهجموم الموفق الذى شنه الألمان بعدها، وتتلخص فيما يلى:

كان الفوج الذى ينتسب إليه (ينجر) مرابطاً بالقرب من (الموفر) بجوار

قناة هرمس، فحدث فى عصر يوم من أيام الآحاد التى سطعت فيها أشعة الشمس الدافئة، أن كانت جماعة من الضباط جالسين يستمتعون بطعام الغذاء، وبتدخين سجائرهم الكبيرة وبالشراب، فى أحد الخنادق التى حفرت فى الخطوط الأمامية للجبهة، وإذا بضابط منهم يبتدرهم بقوله: لماذا لا نتقدم ونُغير على الإنكليز؟.

ومثل هذا الاقتراح لم يكن ليخطر على بال أى بريطانى فى ذلك الحين. فقد كنا على استعداد تام، بل لقد كنا فى شوق إلى أن نساهم فى هجوم عام نُغير به على الألمان بصورة منظمة، متى صدرت إلينا الأوامر بذلك.

وأنه لفخر لأى فوج من الأفواج أن يقوم بمراقبة العدو، وأن يكون مسيطراً على المنطقة الحرام فى الليل. ويبدو أن معظم الناس على استعداد لأن يعيشوا فى وئام، وأن يتركوا غيرهم من الناس يعيشون فى وئام، وأن يستمتعوا بعصر هادئ فى ذلك اليوم، وكأنما هى فرصة قد هبطت عليهم من السماء ليقرأوا كتاباً أو يكتبوا رسالة. فمن يتقدم باقتراح للقيام بمثل هذه الغارة لابد أن يكون قد صمم على حرمان نفسه من الاستمتاع بالشراب الجيد الوفير، وتركه جانباً، والاضطجاع فى الخندق!

ويذكر الكتاب أن الألمان أغاروا علينا، مخترقين الخمسين أو الستين ياردة التى تفصل الجبهتين الألمانية والبريطانية. ولما كانت المدافع لم تطلق نيرانها تمهيداً للمعركة كما هو المألوف عادة، ولما كانت تلك الساعة من عصر ذلك اليوم ليست هى الوقت المناسب، فقد نجحت هذه الإغارة، وعاد ضباط هذه الجماعة فى خلال عشر دقائق، مزهوين منتصرين، بعد أن أسروا منا اثنين أو ثلاثة، ومخلفين وراءهم اثنين أو ثلاثة من القتلى.

وأغرب من هذا، ما ذكره الكتاب بعد ذلك من حوادث. فعندما خرج الفوج للهجوم فى اليوم التالى، أهدى الضباط الذين اشتركوا فى هذه الإغارة لقائد السرية. كأساً فضية كتب عليها: إلى المنتصر فى «الموفر».

وهكذا كـان الجندى الألمانى المحتـرف، ينظـر إلى الحـرب دائمـاً، بنفس النظرة الجـادة، التى ينظر بهـا البـريطانيـون إلى الرياضـة، وينظر بهـا الأمريكيون إلى الأعمال التجارية.

حاسة سادسة:

هذه القـصـة التى قـرأتها والتى ذكـرتهـا الآن، ظلت عـالقـة فـى ذهنى لا تبرحه حـين كنت أتحدث فى مدينـة (هايدنهيم) إلى النـقـيب «هـارتمان»، أول شـخص قـابلتـه، وكـان زمـيـلاً لرومل فى الحـرب العظمى الأولـى. ولهـارتمان مصنع يقوم بإنتـاج الضـمـادات والأربطـة الطبية بالملايين، ولهذا المصنع جو مـقـبض، ولكن نظافـتـه لا يمكن أن تجـد لهـا نظيـراً إلا فـى المصـانع الألمانيـة والسويسـرية. كمـا كـان مكتب النقـيب هـاتمان، مـثـالا لما ينبـغى أن يكون عليه مكتب مـدير ذلك المصنع. فـجوه قـاتم رغم أثاثه الفـاخـر، وعلى جدرانه صـور فوتوغرافية كبيرة كلها تحـمل صورته. وهو وإن كان وسيما إلى حد ما، إلا أنه يبـدو كالجـو الذى حـوله قـاتم اللون، ألمانى البنيـة، كمـا يبـدو على وجـهـه أنه أصغر من أن يكون معاصراً لرومل ـ ولى أنا.

وحـين نهض هـارتمان من مكتبـه وتقـدم نحوى يحـيينى، تبـينت أنه فـقـد إحـدى سـاقـيه. فـهل فقـدهـا فـى الحـرب العظمى الأولى؟ لا، إنما فـقـدهـا، فـى حـادثة طائرة شـراعـيـة، عنـدمـا كـان فـى سـلاح الطيـران الألمانى. فـقـد أولـع بركوب الطائرات الشـراعية منذ زمن بعـيد، وفـى أول يوم غـادر فـيه المستشفى بعد أن فقد إحدى سـاقيه، صعد فـى طائرة شـراعية إلى الهواء، مرة أخرى!.

وحـين يتـحـدث هـارتمان عن الطيـران الشـراعى، يلتمـع وجـهـه ويضـىء. ثم شـرعنا نتحـدث عن رومل. أجل فقـد كان رومل وهـارتمان صديقـين حميمـين منذ الحـرب العظمـى الأولى، وظلا كذلك إلى أن مـات رومل. فقـد اشـتـركا فـى الحـرب معاً فى فوج واحد. كما كان هـارتمان مع رومل غداة أنعم عليه بوسام الاستحقاق.

طفق هارتمان يروى لى كيف عبر رومل مياه (بياف) فى إحدى ليالى كانون الأول الباردة، ومعه ستة من الرجال، ويصف استيلاءه الرائع على قرية لونجارون، وكيف كان جنود فرقته يضربون به المثل فيقولون: أينما وجد رومل وجدت الجبهة!

ومضى هارتمان فى حديثه يقول:

«وكان رومل يحاول دائماً أن يأتى بما لم يخطر على بال أحد، وبما لم يفكر إنسان فى محاولة الإتيان به. ولاشك فى أنه كانت له (حاسة سادسة) أو أنه (كان يستشعر بأطراف أصابعه) وقد سمعت هذا التعبير من جميع الجنود الذين عرفوه. مما عرف عن رومل أنه كان قاسياً، ولكنه لم يشأ أن يكلف أحداً رهقاً، ولم يطلب إلى أحد أن يقوم بشىء أكثر مما يقوم به هو نفسه، أو حتى مثلما يقوم به. وكانت خطة رومل أن يقلل من الخسائر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يلتجىء إلى التكتيك، وهو عبقرى فى هذا الفن.

ولعلنا نجد بين الضباط ممن لا يحيونه كما يحبه الجنود. ولعل مرد ذلك أن رومل نفسه كان يعلق أكبر آماله على جنوده، وكان يتوقع منهم الشىء الكثير، وقليل منهم يستطيع أن يجاريه. وكان رومل على حد قولهم (خير زميل) لهم.

وهذه العبارة الأخيرة لها دلالتها، ذلك أن الجنود لم يكونوا سوى مجموعة من الزملاء الشبان يقضون معاً وقتاً طويلاً، لأن أعمال الأفواج لم تكن تستغرق كل وقتهم. وحتى فى الجبهة الرومانية، كان باستطاعتهم أن يستمتعوا بجلسات محلية، أو يطوفوا بالكنائس، أو ينتخبوا لهم ناحية، فيستغرقوا فى الشراب والطعام، وينسوا الحرب وأعباءها.

وختم هارتمان حديثه قائلاً: تلك ذكريات فى حياة كل من اشترك فى الحرب العظمى، ذكريات تجعل الإنسان يهتف من صميم قلبه قائلاً: إن

الحرب لم تكن شراً على أى حال! تلك الأمسيات الجميلة عندما كنا نركب الخيول رائحين غادين، وعندما كنا نستأجر حجرة لنستحم فيها، وعندما كنا نبتاع ما نحتاج إليه، ونشرب مع زملائنا من جنود فرقتنا!

وعندما حاولت بلباقة، أن أحوّل مجرى حديث هارتمان عن القتال فى الخطوط الأمامية، إلى حياة الهدوء والاطمئنان، لأستخلص منه فكرة عن رومل بوصفه إنساناً وجندياً، لم أفز بطائل وخرجت صفر اليدين!

فهل كانت لرومل متعة خاصة؟ يجيبنى هارتمان بقوله: إنه لم يكن لديه متع أو تسليات. إن من يستخدم عبقريته فى تنفيذ التكتيكات الصغيرة، كان يبتكر خططاً جديدة، لإحداث ارتباك فى خطوط العدو. ومما لاشك فيه أن رومل لم يكن يهدف إلى أن يضرب العدو فى مؤخرته، كما أنه لم يكن يهدف إلى زيارة العدو أو التنزه فى صفوفه!

وسألت هارتمان: ألم يطرأ أى تغير على رومل بعد أن عاد إلى فوجه فى سنة ١٩١٦، بعد أن زُفَّ إلى زوجته لوسى؟ فقال: إن شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد عاد كما كان قاسياً لا يعبأ بخطر، كل همه أن يكسب الحرب فى القطاع الخاص به.

ثم قال هارتمان، وقد عرت وجهه الوسيم علامات التأثر: «لقد كان رومل جندياً مائة فى المائة. كانت الحرب تغمره قلباً وقالباً».

مع الكابتن الدنجر

وبعد ذلك ببضعة أيام حاولت أن أحصل على معلومات أخرى عن رومل من النقيب «الدنجر» الذى حارب مع النقيب هارتمان ورومل فى الفوج ذاته، إبان الحرب العظمى الأولى، وكان مساعداً لرومل، وسكرتيراً خاصاً فى فرنسا سنة ١٩٤٠، وفى شمال إفريقيا، وفى نورماندیا سنة ١٩٤٤، وربما كان «الدنجر» آخر من رأوا رومل حياً.. كان «الدنجر» فى حياته الخاصة، يشتغل

بتصميم الحدائق وتخطيطها، وله شهرة واسعة فى «اشتوتجارت»، وهو مهندس معمارى له ذوق ممتاز، ولعله كان قد أدرك بغيتى، وما أحاول أن أستخلصه منه فى شأن رومل، فلم أفز بطائل. غير أنه سرعان ما أخذ يضفى على رومل خاصية «الحاسة السادسة»، وكل المزايا العسكرية ثم مضى فقال: إن رومل كان قاسياً، قاسياً جداً على كل الناس، وعلى الضباط بصفة خاصة. ومع ذلك فحينما يكون رومل إلى جانبك لن يداخلك همّ قط.. وفى تلك الأيام كان رومل يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن كل أمر من الأوامر يجب أن ينفذ تنفيذاً تاماً.. ذلك أنه كان أكثر ثقة بالقيادة العليا وبهيئة أركان الحرب فى الحرب العظمى الأولى، منه فى الحرب العظمى الثانية.

ثم سألته: ألم تكن لرومل متع أخرى؟ فقال: إنه كان يحب القنص وصيد السمك، إذا ما وجد فسحة من الوقت. كما كان يحب الكتب العسكرية أكثر من غيرها.

ولم يكن يحب الموسيقى والمسرح، ولا قيمة عنده للطعام والشراب.

وسألته: هل كان صارماً حاداً دائماً؟ فقال: لا.. إنما كان يمزح ويتفكه مع الجنود. وكان يتكلم بلهجته الإقليمية الإسفابية مع الجنود الذين ينتمون إلى ذلك الإقليم(١).

رومل ومونتجمرى

ويخيّل إلىّ أننى أبحث عن ذلك المخلوق النادر الذى لا لون له، ذلك الإنسان الذى تخصص فى فن معين، والذى له عقلية ذات اتجاه واحد. ومونتغمرى فى شبابه، كما يطالعنا من كتاب «آلان مورهيد»، هو أقرب من يماثل هذا الضابط «النظامى» الذى لم تكن له أية متعة أو هواية أللهم إلا حرفته - أى فنه العسكرى - غير أن مونتجمرى كان على الأقل، رياضياً مبرّزاً، فى مدرسة «سنت بول»، بل كان أحسن طالب فى المدرسة. وفى «ساند

(١) سفابى: أحد أقاليم ألمانيا الوسطى.

هرست» كان يضايق معلميه، ويذكر لهم كيف أن بعض الناس يقولون عنه إنه لا فائدة منه، وإنه لن يجد له مكاناً في الجيش. أما رومل فلم تكن لديه حتى تلك الصفة السلبية.

والحياة فى الجيش ضيقة النطاق، محدودة، وخير مثال على ذلك: الجيش الألمانى القديم، بشعوره الطبقى، وتقاليده العتيقة الجامدة. وعلى ذلك فالأجنبى أو الرجل الذى يدخل الجيش، بصفة مؤقته، من مكان آخر من العالم، يذهب به الاعتقاد إلى أن الجندى المحترف حتى فى أيام الحرب، يجب ألا يفكر فى غير الجندية.

وعندما ذكر لى الجنرال (اشبيدل) وهو رئيس هيئة أركان حرب رومل. فى نورمانديا، ويمتاز بذكاء مفرط، عندما ذكر لى هذا الجنرال أنه يظن أن رومل لم يقرأ فى حياته كتاباً عن غير الحرب، سألته: ألم يكن رومل غبياً بعض الشىء؟ فحملق الجنرال فى وجهى وقال: غبى؟ كلا لم يكن غبياً. إن هذا آخر شىء يمكن أن ينعت به رومل.

■ ■ ■



الفصل السادس

كاد رومل يكون شرطياً

◆ ألمانيا ومعاهدة فرساى ـ هتلر ينتظر الوقت المناسب
فرق بين هزيمة ١٩١٨ واندحار ١٩٤٥ ـ تسع سنوات برتبة نقيب
الألمان يهربون بأسلحتهم وموسيقاهم!

طعم الهزيمة مُر المذاق دائماً، ولكن انهيار ألمانيا فى سنة ١٩١٨، كان مفاجأة لكل جندى ألمانى، على العكس من استسلام الجيوش الألمانية فى آيار سنة ١٩٤٥، لأن ذلك كان متوقعاً من الألمان جميعاً ويرونه واقعاً لا محالة، ما عدا المتطرفين من جنود فرقة الدفاع (S.S.) ولقد أدرك المارشال (لوندورف)[١] بحق، أن الهجوم الكبير الذى شنه فى آذار سنة ١٩١٨ كان آخر ما فى جعبته.

ولكن عندما أخذت انتصارات الألمان تضعف، ولاحت بوادر الهزيمة فى الصيف، بقى الضباط الألمان القدامى من دون أن تتسرب إلى رؤوسهم فكرة الاستسلام. وحجتهم فى ذلك أن الجيوش الألمانية مازالت ترابط فى أرض أجنبية، وأن أرض ألمانيا منذ دخلها الروس فى سنة ١٩١٤، لم تطأها قدم أجنبية، أللهم إلا أقدام الأسرى!

وفى أثناء ذلك كان يجب أن تقصر خطوط الألمان بعد معارك (السوم) كما

(١) من كبار القادة الألمان فى الحرب العالمية الأولى. وضع مذكراته بعد تلك الحرب، فترجمت إلى العربية وطبعت فى جزءين، على يد أحمد رفعت وذلك فى القاهرة سنة ١٩٢٢.

كان ينبغى لهم أن يجلوا عن شمال فرنسا كله وعن بلجيكا، وأن تبرم معاهدة للسلام مع ألمانيا، وإن لم تتركها أحسن حالاً فى الغرب مما كانت عليه فى الرابع من شهر آب سنة ١٩١٤. وما عدا القيادة العليا وقواد الجيش، كان الذين أدركوا فى الأسبوعين الأخيرين من تلك الحرب أنه لم يكن ثمة مجال للاختيار بين الاستسلام والكارثة التامة، وكان هؤلاء قليلين جداً. وحتى الحلفاء أنفسهم كانوا هم أيضاً يستعدون لمواجهة حرب الشتاء فى الخنادق، ويضعون الخطط للقيام بهجماتهم النهائية فى ربيع سنة ١٩١٩.

والواقع أن الجيوش الألمانية كانت قد هزمت هزيمة سافرة فى الميدان، كما أن الحصار المضروب حول ألمانيا، كان قد حطّم روح المقاومة فى الشعب الألمانى داخل ألمانيا نفسها. وكان فى المستطاع إعاقة الهزيمة، غير أنه لم يكن من الممكن تجنبها أو تفاديها.

وعلى الرغم من هذا، كنا نميل لأن نعزو فشلنا إلى أى شىء آخر، عدا سبب النقص فى مواردنا. فكان من الطبيعى إذن أن تعود أسطورة «الطعن من الخلف» لتستولى على أدمغة الجنود الألمان العائدين من الميدان. وقد كان فهم الحلفاء لنفسية الشعب الألمانى فهماً خاطئاً غريباً، بل إنهم جعلوا الألمان يستمرئون هذه الحالة النفسية، وذلك حين أذنوا لهم فى أن يعودوا إلى بلادهم بأسلحتهم مارينَ بجسور نهر (الراين) تتقدمهم موسيقاهم!

الألمان ومعاهدة فرساى

ومضى الخلفاء يعطون الألمان فكرة ثابتة مستمرة عن ذلك الضيم المشروع الذى لحق بهم، فتجاهلوا تلك الشروط التى تمت الهدنة بمقتضاها، وهى شروط سافرة لا لبس فيها، كما أشار إلى ذلك «جون ماينارد كينز» فى ذلك الحين.

لقد أعلن الحلفاء عن عزمهم على عقد معاهدة للصلح مع ألمانيا على

أساس شروط الرئيس ولسون الأربعة عشر، كما بدت واضحة مفصلة فى كلماته التى ألقاها فى الكونجرس الأمريكى، على أن تكون من مهمة مؤتمر السلام، مناقشة التفاصيل الخاصة بتطبيق تلك الشروط.

غير أن هذه التفصيلات، فى الواقع، لم تناقش، كما أن شروط الصلح أمليت إملاء، دون أن يستمع أحد لصوت الألمان. رغم أنه كان ممكناً أن تدرج شروط ولسون الأربعة عشر، وما تفرّع عنها فى معاهدة الصلح، على حد قول «هارولد نكلسون» فى كتابة عن «السلام».

وترتب على ذلك، أنه على الرغم من أن معاهدة فرساى، لم تكن قاسية قسوة أية معاهدة يبرمها الألمان مختارين، فلم يشعر الألمان جميعاً بأنهم مقيدون بهذه المعاهدة. كما أن ألمانياً واحداً لم يكن على استعداد لأن يقبل التنازل عن قطاع كبير من غرب بروسيا إلى بولندا، وأنها لخسارة أن تصبح مدينة «دانزج» - وفيها مليونان من الألمان - خاضعة بصفة دائمة للحكم البولندى[1]!

وعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم بجلاء سلوك أى ضابط ألمانى فيما بعد. فطبقة الضباط يرون أنهم قد غرر بهم حين ألقوا سلاحهم، وأنه لم تمكن ثمة فائدة تجنى من وراء الجدل، حتى ولو قدر أن تمتد الحرب إلى سنة ١٩١٩ فيما عسى أن يقبلوه من الشروط التى يفرضها عليهم الحلفاء، مهما تكن تلك الشروط مثيرة للسخط.

وفى سنة ١٩٤٥ رأينا الألمان قد تحطموا أو تحللوا كحطام مدائنهم التى خرّبت، وقد بدت عليهم البلادة العاطفية فى بؤسهم الكئيب. ففى عام ١٩١٨ كانت روح التبرم التى تثير البعض ضد البعض الآخر، ما زالت متقدة بين الألمان على أساس أن اليوم الذى يتألبون فيه على الغزاة ما يزال بعيداً، وإن كانوا أنفسهم لا يشكّون فى أن ذلك اليوم آت لا محالة.

---

(١) ميناء دانزج: من أهم الموانئ البولندية على بحر البلطيق وكانت مطامع ألمانيا الهتلرية فى الدانزج من الأسباب الأساسية للهجوم الألمانى على بولندا.

وقد قال لى أحد رجال الصناعة الألمان فى دسلدورف سنة ١٩١٩:

«أخرجوا من هنا، وسنعود إلى اصطياد الفرنسيين بالعصى فى عقر دارهم!»، وكان ذلك قبل احتلال الفرنسيين للروهر بأربع سنوات. وفى ذلك الحين كنا نداوى جراحنا، ونحتفى بانتصاراتنا، وننفق مما أعطينا من مكافآت ونستمتع بطلائع تلك الفترة القصيرة التى أعقبت الحرب، وكنا فى شغل شاغل عن أن نعرف أو نعنى بما يجرى فى ألمانيا نفسها.

هتلر ينتظر الوقت المناسب:

ولكن منظر الضباط العائدين من الميدان، وهم يسيرون فى الشوارع، ويهبطون من القطارات مجردين من رتبهم العسكرية، وفى كثير من الأحيان ممزقى الأوصال، قد أثر تأثيراً بالغاً فى نفوس الشعب الألمانى، وبالتالى، أعلن هتلر فى يقين أن الشعب الألمانى سيرحب به فى الوقت المناسب، وهذا التأثير أيضاً يفسر لنا إلى حد بعيد ظهور الفيلق الحر، بما له من وحشية، ويفسر لنا ظهور أمثال جورنج وروهم وديتريخ، كما يعيننا على أن ندرك لماذا عاد الهر «نوسكه»، الضابط غير الحربى، وصانع السلال السابق، إلى طبقة الضباط بوصفها تتضمن الألمان القادرين على حفظ النظام؟

ومهما يكن من أمر، فقد كان هنالك جانب آخر لهذا كله، فوسط هذه السحائب المتراكمة لهذه الفوضى الاقتصادية، والإضراب الروحى الذى استشرى فى نفوس الألمان من جراء الهزيمة والاحتلال والحرب الأهلية، كان من العسير على أى إنسان لا يعيش فى ألمانيا آنذاك، أن يتصور حالة عائلات الطبقة الوسطى هناك فى ذلك الحين. فلقد كان الأزواج يخرجون إلى مصانعهم أو إلى مكاتبهم، والزوجات يشرفن على العمل الذى لا يفرغ فى البيوت، ويفتشن عن الخادمات البائسات، وكان أهم ما يشغلهن فى ذلك الوقت هو أسعار الطعام، إذ يعانين الكثير فى سبيل الحصول عليه. لعل أعسر من ذلك كله أن نرى ضابطاً ألمانياً نظامياً يعود مرة أخرى إلى حياة

الجندية فى وقت السلم، كما لو كانت الحرب ليست إلا مجرد مناورة طويلة الأمد وغير عادية.

رومل يعود إلى الجيش

ويكاد كل ذلك يكون قد حدث تماماً للنقيب «أرفين رومل». ففى ٢١ كانون أول ١٩١٨، عيّن مرة أخرى فى كتيبته الأصلية، كتيبة المشاة ١٢٤ فى فانجارتن، التى التحق بها أول مرة سنة ١٩١٠ عندما انتسب إلى الجيش. وعلى أى حال فالنقيب رومل لم يكن حظه من المتاعب قليلاً. وكان عليه أن يسافر فى الشهر نفسه خلال ألمانيا الثائرة، ليأتى بزوجته من دانزج، حيث ثقل عليها الداء، فلزمت بيت جدتها. وسافر رومل إليها فى زيه العسكرى فكان مدعاة للتساؤل، والتعريض الهيّن به، وكاد يلقى القبض عليه، ولكن النقيب رومل عاد بزوجته آمناً إلى بيت أمه فى (فانجارتن) وكانت الأم والكنة صديقتين حميمتين؟

وفى صيف ١٩١٩ ذهب رومل على رأس سرية فى مهمة تستغرق بعض الوقت للإشراف على الأمن فى «فريدريكسهافن». وكانت هذه أولى تجاربه فى كبح جماح الألمان الذين لم يوّطنوا أنفسهم بعد على إطاعة الأوامر، وكانوا ينفرون منه بعض الشىء فى أول الأمر، بل كانوا يهزأون به لأنه يضع وسام الاستحقاق على صدره، وطلبوا إليه أول الأمر تعيّين مفوض، وأبوا أن يمشوا مشية الأوزة، ثم عقدوا اجتماعاً ثورياً، حضره رومل، وفى نهايته وقف رومل عند آخر منضدة فى مكان الاجتماع وأعلن ثائراً أنه انتوى أن يقود جنوداً لا شرذمة من المجرمين!

وفى اليوم التالى سيّرهم وراء فرقة موسيقية إلى ميدان العرض العسكرى. وحين رفضوا أن يقوموا بالتدريبات العسكرية، امتطى صهوة جواده وعاد أدراجه، فتبعوه إلى الثكنات صاغرين تماماً، وفى خلال أيام أصبحوا بالغى الهدوء والألفة، حتى إن (هاهن) رئيس بوليس اشتوتجارت

طلب إلى رومل أن يصطفى بعضهم ليلحقوا بالبوليس، على أن يمنحوا مكافأة خاصة. ودعى رومل إلى أن يلتحق معهم بالبوليس، وربما يفسر لنا هذا، تلك الأسطورة القائلة بأن رومل كان فى يوم ما رجلاً من رجال البوليس.. ولكن رومل أعلن أنه سيعود إلى كتيبته السابقة، وود معظم هؤلاء الرجال أن يلحقوا به مضحين بمكافآتهم المالية!

تسع سنوات أخرى برتبة نقيب

وبعد ذلك قاد رومل سريته إلى الروهر ليقوم بنشر الأمن، ولكن شيئاً مقلقاً أو مثيراً للخاطر لم يحدث هناك وفى ٢١ كانون الثانى سنة ١٩٢١ بعد أن قام رومل بحملة تفتيشية تأديبية فى «اشفابسيجوند» عاد إلى اشتوتجارت على رأس سرية من كتيبة المشاة الثالثة عشرة، حيث كانت الكتيبة الرابعة والعشرون بعد المائة قد اختفت بعد أن خفّض عدد الجيش الألمانى.

وهناك ظل رومل برتبة نقيب تسع سنوات أخرى!

■ ■ ■

الفصل السابع

رومل فى الفيلق الحر

◆ لذته فى التدريبات العسكرية ـ تذكر أعماله الأولى كتابه عن الهجمات البرية ـ كيف نشأ فيلق المتعطلين؟

لم يكن بد لرومل من أن يستأنف عمله، وينساق للانضمام إلى «الفيلق الحر» ملاذ كثير من المتعطلين والساخطين والقساة من ضباط الجيش السابقين الذين لا يعرفون عملاً آخر غير الحرب، وليس يعنيهم كثيراً من الذين يقاتلون!

كان لابد له من ذلك، لأن الجيش الألمانى رغم هزيمة تشرين الثانى سنة ١٩١٨، ورغم الحرب الأهلية التى وقعت عقب ذلك، لم يعدم من الجنود لحظة واحدة، كما أن أحداً لم تغب عن باله قط، تلك الرغبة فى زيادة عدده فى أول فرصة ممكنة. وقد جاء فى المادة ١٦٠ من معاهدة فرساى أنه فى تاريخ غايته ٣١ آذار يجب ألا يزيد الجيش الألمانى على سبع فرق من المشاة، وثلاث فرق من الخيالة. وبعد ذلك التاريخ يجب ألا يزيد عدد الجيش العامل على مائة ألف جندى وضابط. كما أن المجموع الكلى للضباط العاملين يجب أن ألا يزيد على أربعة آلاف!

وكان الغرض من ذلك أن يسمح لألمانيا بقوة كافية لحفظ الأمن فى الداخل وكانت النتيجة أن القائد الأعلى الجنرال (هانن فون سيكت) «وهو الرجل الذى أشعل الحرب التى جاءت بعد ذلك» استطاع الحصول على

دعامة صلبة من المحاربين المحترفين أقام عليها بنيان جيش المستقبل، حين أصبح من الممكن فتح باب التجنيد من جديد، كما فعل هتلر ذلك فى آذار سنة ١٩٣٥.

وكان طبيعياً أن يقع الاختيار على رومل للقيام بدوره فى هذه الفترة، فهو يحمل وسام الاستحقاق، وله شهرة ممتازة بوصفه ضابطاً برياً. ورغم أنه لم يكن يعرف الجنرال فون سيكت، معرفة شخصية، ولم يلتق به إلا مرة أو مرتين فى استعراض عسكرى، فإن «سيكت» كان يعرف تماماً أن رومل هو الرجل الذى يريده، وكان رومل آنذاك ما يزال دون السابعة والعشرين من عمره بأربعة أيام غداة إعلان الهدنة، ولكنه ليس من ذلك النوع الصلف، الذى قد يفيد فى الحرب، ولكنه لا يطيع الأوامر، ولا يذعن للتدريب العسكرى السخيف الممل فى أيام السلام.

لذته فى التدريبات العسكرية

لم يكن لروملِ، فى الواقع، أن يختار بين أحد الأمرين، حتى لو كان له الخيار فالجيش هو سبيله الأوحد. ومادام متزوجاً وليست له موارد أخرى خاصة، فهو لاشك يرضيه تمام الرضا أن يتمكن من العودة إلى الجيش.

وفضلاً عن ذلك كان رومل لا يجد الحياة العسكرية سخيفة أو مملة، وذلك لأنه كان جندياً مفكراً، فهو يريد أن يعيش فى جو معاركه من جديد، لا بدافع من الهيام بالحرب، ولكن ليستخرج من هذه المعارك دروساً فى التكتيك الصحيح.

ومثل رومل فى هذا الباب كمونتجمرى تماماً، يجد لذة فى التدريبات والتمرينات العسكرية!

وليس ثمة أدنى شك فى أن رومل كان يعلم تمام العلم هدف المؤامرة الواسعة النطاق التى نشر أطرافها الجنرال «سيكت» لزيادة عدد الجيش، وإخفاء مدى قوته عن أعين الحلفاء!

ولاشك كذلك فى أن كل ضابط من الضباط الأربعة الآف المصطفين، كان عليه أن يعلم تمام العلم أن رسالته ليست حفظ الأمن الداخلى فحسب، إنما هى خلق وتدريب جيش جديد قوى يُبعث من حطام ذلك الجيش القديم. ولابد أن يكون هؤلاء الضباط قد ابتهجوا تماماً لهذا البعض ـ ولو كنا فى مكانهم لسررنا مثلهم ـ حين رأوا تلك المهارة التى تحققت بها رسالتهم.

واذكر لهذه المناسبة أننى قرأت مقالاً فى مجلة «كوارترلى ريفيو» فى عدد تشرين أول سنة ١٩٢٤ يصف فيه أمير اللواء «الجنرال مرجان» أحد أعضاء لجنة نزع السلاح، الحيل والخدع التى أحبطت جهوده، فأصبح كل الجيش الألمانى بفضلها قائماً سليماً لم يمسسه سوء، تحت ستار تلك الألفاظ الجوفاء: من أمثال تسريح الجيش، والصالح العام، ومراكز المعاشات وغيرها.

ويقول مورجان نفسه: «لو كنت ألمانياً وطنياً لأحنيت هامتى للجنرال فون سيكت بوصفه أعظم رومانى بين الألمان «فشار نهورست» الذى أحال العبارات الخاصة بنزع السلاح فى اتفاق «تلست» إلى هزيمة نابليون ـ ثم إلى انتصارنا عليه فى معركة واترلو ـ ليس إلا مثلاً صغيراً حين يقاس بالجنرال سيكت وذلك لأن العبارات المماثلة لها فى معاهدة فرساى قد صيغت على نحو أكثر حرصاً ودقة».

فى ميادين أعماله الأولى

فالجندية فى ألمانيا فى الفترة التى أعقبت حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ لم تكن عقيمة أو غير مريحة للضابط الألمانى، كما قد يخيّل إلينا.

وربما كان من حسن حظ رومل أن يكون مقر عمله فى اشتوتجارت، تلك المدينة الجميلة التى تقع فى صميم بلاده، حيث تعيش أسرته. هكذا، ورغم أنه كان على رومل أن ينتظر حتى سنة ١٩٣٣ ليرقى إلى رتبة مقدم، فإنه لم يكن تعساً قط. ففى سنة ١٩٢٧ منح إجازة سافر خلالها إلى إيطاليا ومعه

زوجته، وهناك زار مرة أخرى ميدان أعماله الباهرة فى لونجارون، حيث تعرف على زوجته، لأول مرة فى مدافن قبور أسرة مولينو، التى اشتهرت أسرة زوجته بأنها انحدرت منها. ولكن ارتياد رومل وزوجته لهذه المنطقة لم يدم طويلاً، لأن الإيطاليين فى لونجارون قد استاءوا حين رأوا ضابطاً ألمانياً فى زيه العسكرى يروح ويجىء فى مكان يرتبط فى ذهنه بشىء حبيب إليه!

وفى فترة أخرى من فترات إجازته كان رومل وزوجته يستقلان الزوارق فى نهر الراين حتى بحيرة كونستانس، وكلاهما يحسنان الانزلاق على الجليد وتسلق الجبال، والسباحة، وكلاهما يحسنان ركوب الخيل، ويغرمان بالخيول والكلاب، ويؤثران حياة الريف على حياة المدن، ولهذا كانا يفران من مدينة اشتوتجارت ما استطاعا إلى ذلك سبيلا. كما كان كلاهما يحبان الرقص، ولكن واحداً منهما لا يجد متعة فى التردد على المسرح، أو فى غشيان السينما، ولا يعبآن بالحفلات!

وكانت ملهاة رومل حينما كان يأوى إلى البيت، هى العزف على الكمان، على طريقة الهواة. وكان إلى جانب ذلك مقلاً غاية الإقلال فى الشراب، فلا يتجاوز زجاجتين من النبيذ، ولم يكن يدخن، أو يبدى اهتماماً خاصاً بألوان الطعام، وحين يخلد إلى البيت يكون دائب العمل بصورة غير عادية. فهو يستطيع أن يصنع أو يصلح أى شىء. وحين يشترى دراجة بخارية مثلاً لا يستريح إلا إذا فككها تماماً، ثم يعود فيركبها من جديد!

وحين كان رومل فى اشتوتجارت، ألّف مع هارتمان والدنجر «جماعة المحاربين القدماء فى فيرتمبرج». وتفرغ لها تماماً. وفى هذه الجماعة لم يكن هنالك أى تمييز بين الرتب العسكرية، إنما كانوا سواسية. كما كانت هذه الجماعة أهم شاغل لرومل. فهو يقضى فيها معظم وقت الفراغ، وهو يتصل بكل الجنود الذين حاربوا فى هذه الكتيبة، ويبعث إليهم برسائل خاصة، ويحاول

أن يأخذ بيد هؤلاء الذين يقاسون شظف العيش فى ألمانيا بعد الحرب.

وفى سنة ١٩٣٥ كان رومل برتبة عقيد وعلى رأس أحد الأفواج فى (جوزلار)، وكانت هذه الجمعية قد عقدت اجتماعها السنوى الذى اعتادت أن تقوم فيه بعرض عسكرى، فلم يشأ رومل أن يتخلف عن هذا الاجتماع، وسافر تواً إلى اشتوتجارت ليشهده! وقد حضر الاحتفال ذاته الجنرال فون سودل، ودعا رومل إلى الوقوف معه فى المنصة، وتحية العرض وكان «سودل» من طراز رومل. فهو يفضل دوماً الالتقاء والعمل معاً مع أفراد سريته القديمة.

وهكذا مضت الأعوام على رومل وزوجته هينة خالية من الأحداث، أللهم إلا ذلك الحادث الرئيسى، وهو ميلاد ابنهم الوحيد «منفرد» فى ليلة عيد الميلاد من سنة ١٩٢٨، بعد اثنى عشر عاماً من زواجهما.

وتقول أرملة روميل: «إن الحرب لم تترك أى أثر فى زوجها، أللهم إلا بعض آثار الجروح» وعندما كان روميل يتحدث عن الحرب، وقلما ما كان يتحدث عنها مع زوجه، كان يتحدث عن عمل سخيف وحشى، لا يرغب أى إنسان عاقل فى أن يراه قد عاد مرة أخرى!

لم يكن روميل يحلم فى نومه، ولا كان يشعر، كبقية الجنود الشبان فى كل الجيوش بعد ١٩١٨، بأن تلك السنوات الأربع لم تكن سوى هذيان غريب لعين، بل إنه لم يكن يشعر بأنها كانت حقيقة واقعة. إنما ظل ذا عقلية جادة، وإن كانت لطيفة، ومزاج معتدل، وذوق بسيط، ويؤثر حياة الهدوء والدعة، وتستغرقه مهنته العسكرية تماماً.

أما أن عمله هو التهيؤ للحرب، فتلك فكرة بادية التناقض، يملك الجنود المحترفون التدليل عليها أكثر مما يملكه المدنيون أنفسهم!

كتاب الهجمات البرية

وفى أول تشرين أول ١٩٢٩ عيّن روميل مدرباً لمدرسة المشاة فى «درسدن» حيث ظل بها أربع سنوات كاملة. وكانت له محاضرات جمعها فى كتابه

«الهجمات البرية» وقد بناها على خبرته الشخصية إبان الحرب العظمى الأولى، فى بلجيكا وهضبة أرجون، وجبال الفوج والكربات وفى إيطاليا. وهو كتاب صغير ممتاز حقاً عن التكتيكات البرية، وقد وصف فيه العمليات الصغيرة وصفاً بارعاً، وزوده بخرائط تخطيطية، كما رسم فيه دروس التكتيك رسماً واضحاً. وقد أصبح هذا الكتاب من المراجع المقررة فى الجيش السويسرى، الذى أهدى ضباطه ساعة ذهبية إلى رومل. كما اجتذب هذا الكتاب انتباه قارئ قريب من موطن المؤلف وكان له أكبر الأثر فى مستقبله كما سنرى فيما بعد!

وفى ١٠ تشرين أول سنة ١٩٣٣، كان رومل برتبة مقدم فأعطى قيادة الفوج الثالث من كتيبة المشاة السابعة عشرة، وهى كتيبة جبلية، اشترط فى جنودها أن يكونوا على اختلاف رتبهم من البارعين فى الانزلاق على الجليد. ولاشك أن الجنود أرادوا أن يعرفوا هل أن قائدهم رومل الشاب جدير بأن تناط به قيادة فوج من الرياضيين. ولم تكن لديهم فى ذلك الحين آلة لرفعهم إلى قمة الجبل، فكان عليهم أن يجهدوا أنفسهم فى تسلقه إلى قمته. وهناك على هذه القمة كانوا يودون لو جلسوا ليشربوا وليدخنوا وليستريحوا من وعثاء الصعود، ولكن رومل كان يصيح بهم: «أظن أن من الأفضل، يا سادة، أن نبدأ الهبوط»!.

كان الهبوط سريعاً. وعند السفح سلّم الجنود بأن رومل يحسن الانزلاق.. ولكن رومل لم يلبث أن قال: «إن الانزلاق شىء بديع، يا سادة، فلنحاول مرة أخرى». وكان رومل ينظر إلى ذلك كله على أنه مجهود رياضى وحسب. وعندما اقترح رومل أن يعاود الجنود الصعود مرة ثالثة، أخذت حماستهم تفتر. وفى هذه المرة بلغوا مشارف أحد المنحدرات، وهنا صعب عليهم الصعود أكثر من ذلك عدا رومل نفسه الذى راعه شكل المنحدرات، فرأى أنها تستحق منهم نصف ساعة أخرى..

ولو كـان المرء فى فـوج بريطـانى، لكان الذى يلاحظه غـالبـاً هو تزحلق الضباط بصفة غير فضولية. أما فى الفوج الجبلى الذى عهد به إلى رومل، فكان المتطوعون للتزحلق مع رومل يسألون عن كل صغيرة وكبيرة.

■ ■ ■



الفصل الثامن

أول لقاء بين رومل وهتلر

◆ آراء رومل فى النازيين -

رومل يحمى هتلر فى تشيكوسلوفاكيا

موقفه من شبيبة هتلر

ظل رومل بمنأى عن السياسة والاشتغال بها، ولم يساهم بقسط قليل فيها إلا حين أصبح هتلر مستشاراً للرايخ فى آخر كانون الثانى سنة ١٩٣٣، وذلك لأن التقاليد العسكرية الألمانية تقضى باجتناب السياسة والتجارة، وتعدهما من الأعمال المنحطة التى لا تليق بالعسكريين.

وفى السنوات التالية للهدنة مباشرة، وطّن الجنرال «فون سيكت» عزمه على تنمية هذه التقاليد، وفى الوقت نفسه شرع يحطم تلك الحواجز التقليدية بين الضباط وسائر الناس، وكان يهدف من وراء ذلك إلى أن يخلق جيشاً نموذجياً جديداً، ولكنه لم يكن ينوى مطلقاً أن يسلّم الجيش إلى ساسة جمهورية «فيمار»[1]. فالقيادة العليا وحدها هى التى تقرر متى تمكن الاستعانة بالجيش! ومتى يكون استخدامه؟. وإذن فيجب أن يكون الولاء للعسكريين وحدهم دون سواهم. ومن هنا أصدر سيكت أوامر صريحة بمنع رجال الجيش من الاشتغال بالسياسة، بل بمنعهم حتى من التصويت فى الانتخابات.

(١) هى الجمهورية التى قامت فى ألمانيا بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى، وكانت عاصمتها مدينة «فيمار» فعرفت باسمها.

والواقع أن هذا العمل الذى اطمأن إليه الحلفاء، لم يكن إلا جانباً من خطة واسعة النطاق، دبرها الألمان وكان ممكناً أن يكشف الحلفاء مدى خطرها، لو أنهم أولوها ما تستحقه من حذر واهتمام.

وهكذا يتضح أن روميل لم يكن فى حاجة إلى من يحرم عليه الاشتغال بالسياسة، ذلك لأنه قد ربى فى مجتمع لا شأن له بالسياسة، فى مدينة صغيرة بإحدى الولايات الألمانية، كما أنه تعلّم أن يكون جندياً، وخرج إلى ميدان القتال وهو لم يبلغ الثالثة والعشرين من عمره. ولشد ماكان سروره حين قفل راجعاً إلى عالمه الهادئ الذى يأنس إليه فى البيت، هارباً من تلك الخصومات التى انتشرت فى ألمانيا فيما بعد الحرب. ولم يكن من متع روميل، الإخلاد الطويل إلى المقاهى، كما أنه أيضاً لم يكن يقرأ إلا لماماً، ولم يكن عقله معداً إعداداً سياسياً.

آراء روميل فى النازيين

وكل ما تتذكره زوجة روميل من آرائه فى أعضاء الحزب النازى الأول أنهم «شرذمة تبعث على الضحك!». وأنه لمما يبعث على الأسى حقاً أن يحيط هتلر نفسه بمثل هؤلاء الناس. ذلك أن روميل، ومثله تسعين فى المائة من الألمان الذين ليس لهم اتصال مباشر بهتلر وحركته، كان ينظر إلى هتلر على أنه رجل مثالى، وإلى أنه رجل وطنى غيور. له مبادئ وأفكار سلمية تفضى إلى تماسك ألمانيا، وانتشالها من براثن الشيوعية. ولعل مثل هذا التقدير يبدو ساذجاً، ولكنه على أية حال ليس أكثر سذاجة مما كان عليه فى انكلترا، حين كانوا ينظرون إلى هتلر على أنه رجل يبعث على الضحك وله شارب سخيف!. ولكن كلا الرأيين قائم على أساس من التفكير المغرض غير النزية. على أن الألمان الذين حطمت الهزيمة نفوسهم، وذاقوا مرارة الشيوعية، كان لهم العذر فى أن يعتقدوا ما يرون أن يعتقدوه. أما هؤلاء الذين أبوا أن يروا فى شخصية هتلر المبهمة أى خطر، إلا بعد فوات الأوان، فماذا يكون عذرهم؟ لابد أنهم اعتقدوا

فى صحة أمانيهم، وأنهم اختاروا بين أمرين أحلاهما مُر!

على أن رومل، وإن كان ضابطاً، فإنه لم يكن من طبقة النبلاء، كما أنه لم يكن من رعاع البروسيين، إنما هو من الطبقة المتوسطة.

وإذن فقد كان فى اعتقاد رومل أن تلك الفكرة التى سادت كبار الضباط الألمان، من أن هتلر ذلك النائب عريف النمساوى، هو وحده الذى يستطيع أن يحقق الخلاص لألمانيا، لم تكن فكرة طائشة.

ذلك أن رومل بطبيعته كان يحب الجنود، ويحب طبقة (نواب العرفاء) منهم. لم يبغض شيئاً بغضه لذوى القمصان البنية من أمثال الهر روهم، ولم يحدث قط أن التقى رومل بالهر روهم، ولا بأحد من المتصلين به، ولكنه كأكثر رجال الجيش كان يشك فى أن رجال الهر روهم يحاولون إنشاء نظام ينافس الجيش. ولقد رأى رومل ذوى القمصان البنية ورأى الفوضى وانعدام روح النظام والطاعة بينهم، فكرههم تماماً، ولذلك لم يفزع رومل حين نمى إليه أن روهم قد قضى عليه، وعلى أصحابه فى ليلة ٣٠ حزيران سنة ١٩٣٤. هذا إلا أن رومل كان ممن يعتقدون فى صحة ما قيل من أن «روهم» وأصحابه، قد تآمروا على إقصاء هتلر للاستئثار بالسلطة وحدهم، وبذلك يكونون قد بلغوا ما يتمنون.

ومما أكدته لى زوجة رومل وغيرها، أن هذا كله لم يكن له فى ريف ألمانيا إلا أثراً أقل بكثير مما كان له فى الخارج، كما أن حوادث الاغتيال سرعان ما انكشفت لنا تفاصيلها بالتدريج.

وقد ظهر من أول اتصال عملى بين رومل والاشتراكيين الوطنيين أنه ما كان يضمر ميلاً كبيراً إلى النازيين. فقد كان رومل يقود «الفوج الجبلى» فى جوزلار سنة ١٩٣٥، حينما اختيرت جوزلار لتكون مسرحاً لإحدى حفلات الشكر والتقدير التى يشهدها هتلر بنفسه. وكان مفروضاً أن يعد كل شئ

إعداداً خاصاً. فالجماهير تحمل الأعلام، والريفيون يفدون من المناطق المجاورة، وقد ارتدوا أزياءهم القومية. كما كان طبيعياً فى هذه المناسبة، أن يقوم الفوج الجبلى باستعراض عسكرى. ولكن الذى حدث أنه بعد الانتهاء من إعداد تفاصيل هذا الاحتفال، جاء أحد أفراد جماعة الدفاع، وأنبأ روميل بأن زكاء من هذه الجماعة سيأخذ مكانه فى مقدمة فوجه، ليكون هذا الزكاء مسئولاً عن سلامة هتلر، فغضب روميل لهذا التصرف وأجابه بقوله: «إذا صح هذا فلن يقوم الفوج بأى استعراض!».

ولم يجد مندوب جماعة الدفاع بداً من أن يطلب إلى روميل أن يلتقى بهلمر وجوبلز فى أحد الفنادق. فمضى روميل لمقابلتهما، حيث رحبا به، وقابلاه فى كثير من اللين واللطف، ثم رغبا إليه فى أن يتناول معهما طعام الغذاء، ولم يسعهما إلا النزول على رأيه فى أن الترتيبات التى طلب إليه تنفيذها فى الحفلة، تعد إهانة له ولفوجه، واعتذرا بأن الأمر لا يعدو أن يكون تصرفاً خاطئاً وقع فيه بعض المرؤوسين بحسن نية، نتيجة مغالاتهم فى الحرص على سلامة هتلر!

وهكذا ألغيت تلك الترتيبات فوراً، ورجع روميل إلى زوجته بعد هذه المقابلة، وحدّثها عن هملر وجوبلز حديث من يبغضهما من كل قلبه!

ولقد ظل هذا الأثر كامناً فى نفسه لا يبرحها!

ولا شك فى أن النازيين كانوا يرون أن روميل يستحق أن يكسبوه إلى جانبهم، فإذا استحال عليهم ذلك، فلا أقل من أن يكونوا على علاقة طيبة به!

ثم التقى روميل بهتلر للمرة الأولى، وكان هذا اللقاء رسمياً للغاية. فقد حيّاه روميل، وقدموه إليه، فسلّم عليه، ولاحظ هتلر وسام الاستحقاق على صدر روميل، وهنأه على ما رآه من استعراض فوجه.

مدرس فى الكلية الحربية

وفى تشرين الأول سنة ١٩٣٥ عين رومل، وهو برتبة عقيد، مدرساً بالكلية الحربية فى بوتسدام. وهكذا وجد نفسه لأول مرة على مقربة من مراكز السياسة والأمور العامة. وقد استطاع فى وقت مبكر أن يشترك فى الامتحانات التى أجريت لموظفى كليته، وأن يصبح بين النخبة الممتازة من ضباطها.

على أنه أنبئ فيما بعد أن أمامه فرصة طيبة للترفيع إذا ماظل على رأس الفوج الذى عهد به إليه. وفى بوتسدام عاش رومل وزوجه وابنه «منفرد» الصغير، عيشة هادئة بالقرب من الكلية الحربية، وكان اختلاطهم محدوداً بمجتمع برلين. ولم يكن لرومل أصدقاء بين أقطاب النازية، بل لم يكن يعرف أحداً منهم. كما أنه وزوجه لم يلتقيا فى بوتسدام بأحد من كبار ضباط الجيش، إذ لبثا فيها كما كانا فى شتوتجارت، لا يلتقيان إلا بالضباط الذين هم من رتبة رومل نفسه.

على أن رومل وزوجته بدءا يعرفان ما يجرى فى المقامات العليا أكثر مما كانا يعرفان، فلقد عرفا مثلاً، ذلك التناحر بين النازيين وبين هيئة أركان حرب الجيش الألمانى. ولما أدرك أقطاب النازية أن هتلر أصبح بعد موت (هندنبرج)[1] قائداً لكل القوات الألمانية المسلحة، وأقسم الضباط جميعاً يمين الولاء له، بدأوا يعملون جاهدين على أن يجعلوا ضباط أركان الحرب أعضاء فى الحزب النازى، وعلى أن يدمجوا الجيش فى «النظام الجديد». وذلك لأن هؤلاء الأقطاب رأوا أن مثل هذه الهيئة الهائلة المستقلة بما لها من تقاليد عريقة تمتد جذورها إلى الماضى البعيد، وتسيطر على مافى كبار العسكريين الألمان من ولاء غريزى، قد تنقلب يوماً ما عليهم، وتنتزع منهم النفوذ والسلطان. ولكن هتلر، كان أنفذ بصيرة، فرأى هذا الموقف بوضوح أكثر، وأخذ يؤلب الجانبين بعضهما على بعض، فى مهارة ودهاء.

(١) هو الفون مارشال هندنبرج الذي تولى رئاسة الجمهورية فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى.

ورغم أن الجيش كان منذ آذار سنة ١٩٣٥ منهمكاً فى التوسع الهائل، ممتناً أشد الامتنان لما أسداه هتلر إليه من فرص جعلته يزداد عدداً وعدة، إلى حد أكبر مما كان يحلم به، رغم هذا كله لم يفكر الجيش قط فى أنه سيذعن فى يوم من الأيام لمن كانوا جنوداً عاديين فيه! وكان بعض الضباط الممتازين من ذوى الكفاءة، كالعميد «لودفيج بيك» رئيس هيئة أركان حرب الجيش، لا يفرق فى قليل أو كثير بين هتلر وبين تابعيه، كما كان من الناحية الأخلاقية والروحية، يرى أن الاشتراكية الوطنية وصاحبها كليهما نكبة قومية!

ومن هذا يتضح أن «بيك»، رغم أنه لم يعتزل منصبه إلا سنة ١٩٣٨، احتجاجاً على الاقتراح الخاص بغزو تشيكوسلوفاكيا، فإنه لم يكن واهماً منذ اللحظة أو مخدوعاً، وكان مثله فى ذلك مثل كثير من كبار ضباط الجيش، وفى مقدمتهم «فرنرفون فريتش» القائد الأعلى للجيش، فقد كان هو الآخر يبغض النازيين وزعيمهم ويكّن لهم كل احتقار، ولعل مرد ذلك فيما يبدو لنا أن فون فريتش كان يشعر تماماً بأن النازيين يهددون القيادة العليا للجيش، وبأنهم ليسوا ممن يمكن لضابط ألمانى أن يتعاون معهم بحق.

وفى الوقت ذاته كان هنالك فى الجيش من أمثال كيتل وبودل من هم على اتم استعداد لأن يضحوا بوقارهم العسكرى، وبسلامة الجيش، من أجل أن يرقوا إلى مراتب عسكرية عليا!!!

ومما قال العميد «فالتر فالرمونت» فى وصف موقف هيئة أركان حرب الجيش عن النازية، أن الضابط فى هيئة أركان الحرب أخذ يجد بالتدريج، أنه قد أصبح من الضرورى تماماً أن يكون له نفوذ ثابت، وأنه أخذ ينظر إلى هتلر، برغم وجهة نظره الخاصة فى اتباعه، على أنه أمل ألمانيا الجديد. فبرنامج إعادة التسلح، والاحتلال السلمى من جديد لمنطقة الراين، قد زاد من شهرة هتلر الشخصية بين الضباط وذلك لأن هذا المنهاج يتفق مع السياسة الأساسية للجيش».

ولم يكن هذا فى الحقيقة إلا انتقالاً من المرجل إلى اللهيب نفسه لو كانوا يعلمون، على أن هذا الأمر لم يكن يبدو سخيفاً فى ذلك الحين، كما يبدو لنا الآن.

وبعد هذا كله، ألم يكن هتلر نفسه جندياً كثيرا الزهو بعمله فى الجيش؟ ثم هو قد ظاهرهم ضد مطامع «روهم» وأتباعه من ذوى القمصان البنية ولقد كان يعلم تماما العلم أن الجيش، والجيش وحده، هو الذى أبقى الجذوة العسكرية مشتعلة فى ألمانيا طوال فترة الاحتلال، ولئن كان «فتيان» النازى هم الذين أعانوه على بلوغ منصة الحكم، فأن أحداً لا يستطيع أن يقول فإن آثر هؤلاء على الضباط الألمان من المدرسة القديمة، بل الحق أنه كان ينتظر الوقت المناسب الذى يتمكن فيه من التخلص من أولئك «الفتيان» ليعتمد على الحماة الحقيقيين لألمانيا!.

تلك إذن كانت وجهة نظر هيئة أركان حرب الجيش الألمانى ولقد تسربت هذه الفكرة إلى صغار الضباط وإلى رومل. ولم تكن هناك مندوحة لأحد منهم عن قبولها، بالنظر إلى كل تلك الاعتبارات.

غير أن رومل كان فيما بينه وبين نفسه يفرّق فى الحكم بين هتلر وأتباعه، كما أنه لم يبد إعجابه بهتلر واحترامه إليه، إلا بعد أن فتحت التجارب المريرة عينيه، أى بعد «معركة العلمين» ولكن رومل لم يكن ذا جدوى أو فائدة للنازيين[1].

رومل وشبيبة هتلر

وهكذا، ماكاد رومل يسمع فى سنة ١٩٣٥ أن الجيش سيشرف على «فرق العاصفة .A.S» وأن قيادة هذه الفرق ستسند إليه، حتى تلقى ذلك دون حماسة تستحق الذكر. ولكنه مع ذلك أعلن أنه سيجد متعة ولا شك فى تدريب جنود

(١) معركة العلمين هى المعركة التى حطم بها الإنكليز بقيادة مونتجمرى، الجحافل الألمانية والإيطالية فى الصحراء الغربية وأوقف الزحف الألمانى على مصر، وكانت أولى هزائم ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية.

فرق العاصفة، ولعله أدرك أن هذا العبء لم يكن سهلاً، أو محبباً إلى نفسه، وأنه لم تكن هناك أية فرصة محتملة لإنجاح هذه المحاولة.

ومهما يكن من أمر، فإن روميل لم يكن فى طوقه أن يهرب من الاتصال بالنازيين. فقد وكل إليه، وهو لما يزل فى الكلية الحربية، النهوض بمهمة خاصة فكان عليه أن يلحق «بشبية هتلر» بقصد تحسين تدبيها، ورفع مستوى نظامها. فواءمه ذلك العمل، إذ كان مغرماً بالشباب وحيويته، ويجد راحة فى العمل معهم. والحق أن أكثر هؤلاء الشباب، بما لهم من غريزة طبيعية تحبب إليهم البطولة، قد أكبروا رومل وأجلّوه، فقد كان جندياً ذائع الصيت، وقد رأوه يتبسط معهم ويتحدث إليهم كما لو كان واحداً منهم.

ومن الطريف حقاً أن نفكر فيما كان سيحدث لهذه الشبيبة لو أن رومل كان مطلق اليد يفعل ما يشاء معهم. فلو تسنى لرومل ذلك لألفيناهم قساة شجعاناً، كما كان معظمهم فى الحقيقة، ولحاربوا فى آخر أيام الهزيمة الألمانية، ببسالة، كما مات الكثيرون منهم تحت قيادة «كورت ماير» قائد فرقة جنود الدفاع الثانية عشرة فى «كان»، وليقفزوا على دباباتنا كالذئاب الضارية، حتى لقد قال أحد قوات دباباتنا: «لقد اضطررنا إلى قتلهم رغم أنوفنا»! ولو أطلقت يد رومل فى تنشئتهم لما كانوا متهوسين أشراراً، لما قتلوا أسرى الحرب وأجهزوا عليهم، كما فعلوا تحت قيادة كورت ماير، ولما تألفت من البقية الباقية منهم الآن، تلك النواة الصلبة الساخطة من الخطرين، الذين لا يستطيع أى إنسان عاقل أن يؤمن بإمكان تغيير ما فى رؤوسهم، ليدخل فيها الأفكار الديموقراطية الإنسانية المسالمة.

ولقد كان الفيلق الإفريقى، مؤلفاً من جنود لهم مثل هذه الروح المعنوية العارمة، فالشبان الذين حاربوا تحت لواء الفيلق الإفريقى، كانوا أقوياء شجعاناً. وكانوا أيضاً، مزهوين بأنفسهم. وحين تلتقى بالأحياء من الفيلق الإفريقى، وبالأحياء من شبيبة هتلر، فانك لن تجد أى فارق بين هؤلاء وهؤلاء.

ولم يوفق رومل فى العمل مع شبيبة هتلر، إذ سرعان ماثار ضد قائدهم «فون شيراخ» الذى كان شاباً وسيماً لبقاً، وأكثر ثقافة من معظم النازيين، ذلك لأنه كان ابناً لمدير مسرح «فيمار» وشاعراً، وقد اشتهر بأنه أحد المثاليين القليلين فى الحزب. ولا ريب فى أن فون شيراخ كان من ذلك النوع من الناس الذى يجتذب عواطف الشبان الألمان. كما أنه كان وفياً لهتلر إلى حد العبادة، وكان يبعث إليه بشعره الداعر. فليس من الطبيعى إذن ألا يمتعض فون شيراخ من الإتيان بضابط نظامى كرومل إلى شبيبة هتلر، ولا سيما أن رومل لم يكن عضواً فى الحزب النازى.

وعلى أية حال، فقد اختلف رومل وفون شيراخ، على مسألة قد تبدو غريبة لمن لا يعرف أن رومل قد انحدر من أسرة من المدرسين. فقد عارض رومل اهتمام فون شيراخ كل الاهتمام بالرياضة والتدريب العسكرى، دون التربية وتنمية الملكات والشخصية.

وقد ذكر رومل أنه عارض اتجاه فون شيراخ إلى جعل كل من هؤلاء الشبان الذين لم يناهزوا الثالثة عشرة «نابليوناً صغيراً»، لأنه ليس من الحكمة مطلقاً «أن يفهم شبان فى الثامنة عشرة أنه قائد» وليس جندياً!

وكان رومل يكره أن يرى أفراد الشبيبة يكرهون المدارس، ويأبون أن يعاملوا كما يعامل الطلاب. أو كما يضع الأمور فى نصابها، جمع رومل بين فوخ شيراخ وبين الدكتور روست وزير المعارف. غير أن الاجتماع لم يسفر عن شئ، فقد كان فوخ شيراخ صلفاً متغطرساً، وكان وزير المعارف أبله!

وأفرغ رومل كل ما فى جعبته حين ذكر لفون شيراخ أنه إذا كان مصراً على أن يعامل هؤلاء الشبان الصغار على أنهم جنود فأجدر به هو نفسه أن يتعلم كيف يكون جندياً. وعلى الرغم من أن فون شيراخ ذهب فيما بعد ليكون جندياً، فإنه اعترض على ذلك قائلاً إنه سيفقد كل ماله من نفوذ على شبيبة

هتلر، إذ ما شوهد مرة يأتمر بأوامر مدرب برتبة عريف.

وفى أثناء ذلك وعندما استشعر فون شيراخ القدرة على تنفيذ غرضه، شرع فى التخلص من رومل. ولم يكن من الصعب عليه وهو من المقربين إلى هتلر، أن يظهر له أن رومل ليس نازياً حقيقياً حتى يسند إليه تدريب شبيبة هتلر. ولما كان رومل منتدباً من هيئة تدريس الكلية الحربية، لم تثر عودته إلى الكلية نزاعاً سافراً بين الجيش والحزب. وقد عاد إلى الكلية دون أن يمنح الشارة الذهبية التى يحملها شبيبة هتلر!

ولما انتهى رومل من خدمة السنوات الثلاث فى بوتسدام فى ٩ تشرين الثانى ١٩٣٨، عيّن فى اليوم التالى رئيساً للكلية الحربية فى فينرنويشتادت.

ومما تجدر الإشارة إليه أن رومل كان قد رقّى فى العام السابق، وبذلك يكون قد رقّى من رتبة نقيب إلى رتبة عقيد فى خلال تسع عشرة سنة، وهى ترقية سريعة فى أيام السلم، ولكنها ليست غريبة إذا ما نظرنا إلى سجل خدماته، وإلى ذلك التوسع الهائل فى الجيش الألمانى منذ سنة ١٩٣٥. ولا يستطيع أحد أن يقول إن هذا كان نتيجة لأى تأثير أو نفوذ لرومل فى القيادة العليا للجيش الألمانى، أو لأية محاباة من النازيين!

يحرس هتلر فى السوديت(١)

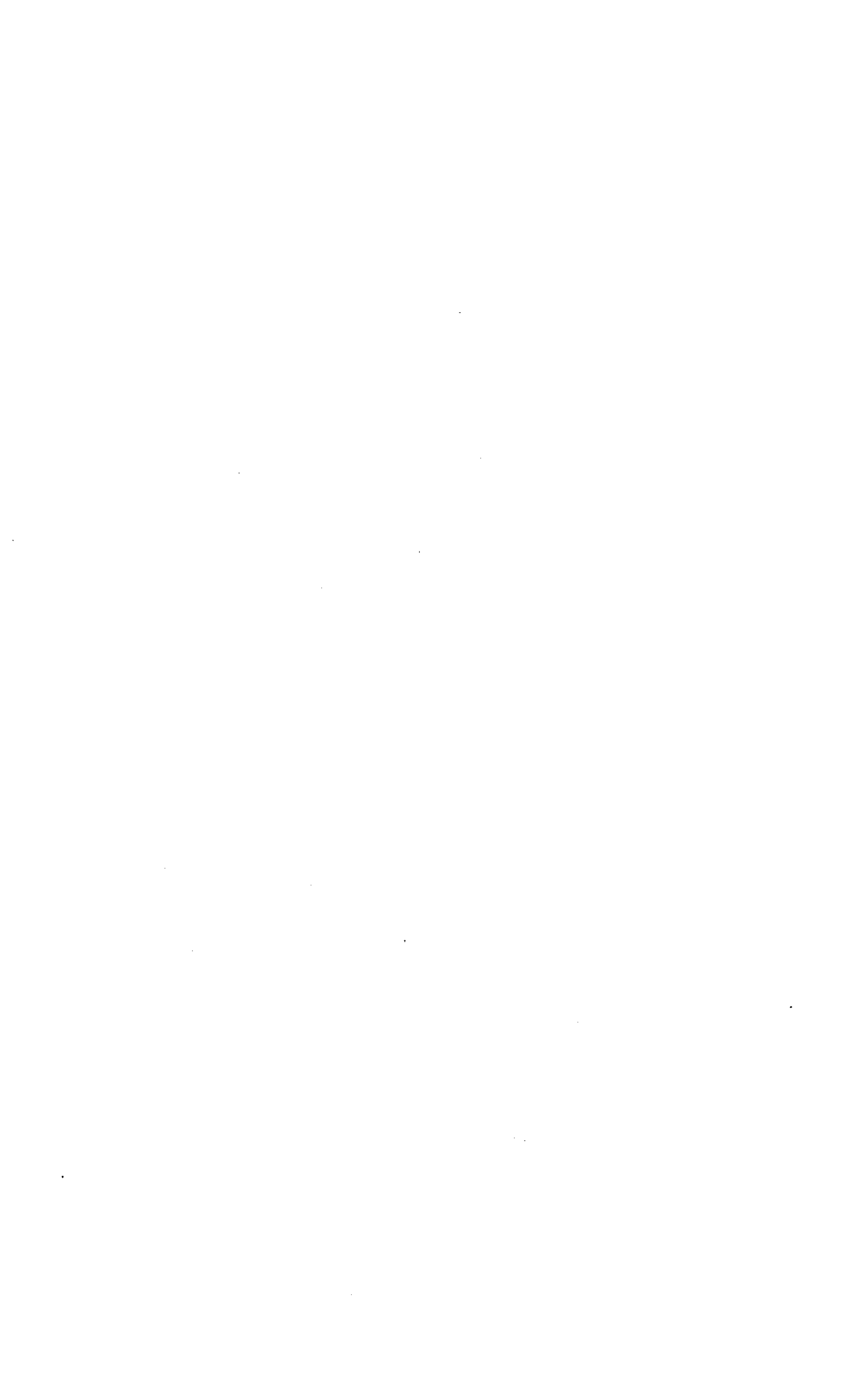
أما الشئ الذى يرد فى «ثبت خدماته» فهو أن رومل قبل أن يغادر بوتسدام، تلقى من الكلية الحربية دعوة إلى القيام بعمل مؤقت، فكان هذا العمل هو الذى غيّر مستقبله كله. إلى الأحسن وإلى الأسوأ معاً - فقد احتاجت السلطات إلى من يتولى قيادة الفوج الموكل بحراسة هتلر والمحافظة عليه، عند دخوله السوديت فى تشرين أول سنة ١٩٣٨. وكان كتاب رومل

(١) السوديت جزء من أراضى تشيكوسلفاكيا سكانه من الألمان وقد ظل هتلر يطالب به حتى انتزعه، وكان هذا الإقليم هو شرارة الحرب العالمية الثانية.

«الهجمات أو التكتيكات البرية» قد نشر قبل ذلك بسنة، وأعجب به أيما إعجاب. فاختار مؤلفه ليقوم على حمايته.

ولأول مرة ينتقل رومل إلى المقامات العليا القريبة من هتلر، ذلك الرجل الذى رفعه حتى أصبح فيلد مارشالا ثم قتله أيضاً.

■ ■ ■



الفصل التاسع

هتلر منوم مغناطيسى

ذو ذاكرة قوية ـ يعشق التصوير ـ

دروس من حرب بولندا

ما أشبه دخيلة نفس هتلر ببئر عميقة مظلمة، ثم سلّط عليها النور فجأة، وأدليت فيها الدلاء، فاتضح من أمرها ماكان خافياً، فهكذا عرف الناس أخيراً، ماكانت تنطوى عليه نفس هتلر من خيانة وقسوة ودهاء، وتعطش للدماء، كما عرفوا أية أفكار سوداء كانت تسيطر على ذهنه، وأية نزعات شيطانية من جنون العظمة كانت تستبد به وتسيّره.

غير أن سراً واحداً من أسرار هتلر مازال محجباً لم يمط عنه اللثام بعد، ذلك هوسر تمكن هتلر ـ طوال تلك الحقبة الطويلة ـ من المضى فى خداع الكثيرين من العقلاء والأذكياء الذين كانوا على اتصال يومى به، فضلاً عن خداع الشعب الألمانى الذى رفعه إلى مصاف الآلهة!

فروميل مثلاً لم يكن عالماً نفسانياً، ولا كان صديقاً لهتلر، ولكنه كان، ولا شك، ثاقب الفكر، ذكياً فطناً ألمعياً، صادق الحكم على الأشخاص والأشياء ومع هذا، فقد أتيحت له فرصة ثمينة لدراسة هتلر عن كثب، غير أن الآثار التى تركها هتلر فى نفسه، وسجلها بعد ذلك فى دقة، لم تضف إلى معلوماتنا عن هتلر إلا النزر اليسير.

فقد كتب روميل عن هذه الحقبة مذكرات، احتفظ بها إبنه «منفرد» من بعده[١] ويقول روميل: «الذى لا شك فيه، أن هتلر كانت له قوة مغناطيسية،

(١) نشرت بعد الحرب مذكرات كثيرة منسوبة إلى روميل لكننا نشك فى صحة القسم الأكبر منها. لأنه كان فى الواقع من اختلاق الكتاب والصحفيين.

وربما كانت قوة تنويم مغناطيسى، مردها إيمانه الصادق بأن العناية الآلهية قد بعثته ليأخذ بناصر الشعب الألمانى، ويعرج به إلى الشمس!».

لقد كانت قوة هتلر المغناطيسية هذه، تتجلى على أشدها حين يعقد أحد الاجتماعات، ففى بداية الاجتماع كان ينظر إلى الحاضرين نظرة شاردة، خالية من أية دلالة، ثم يتبع هذا إشارة من يده، شاردة أيضاً، كأنه يتحسس بها فى حيرة عجيبة، طريقاً غير معلوم. وفجأة تسعفه حاسته السادسة، وتقوم بدورها الخطير، فإذا هو يصغى بانتباه تام، ثم يطلع على المتحدثين إليه بجواب فريد، ينتزعه من أغوار نفسه، فيرضيهم به جميعاً إرضاء تاماً، ولو فى تلك اللحظة على الأقل!

ويقول رومل: «إن هتلر فى هذه اللحظة كان يتحدث كما لو كان رسولاً نبياً». ثم يؤكد رومل أن هتلر «كان يعمل أبداً بوحى من بديهته وحدسه، لا بعقله ومنطقه، وأنه كان ذا ملكة خارقة يستطيع بها أن يجمع شتات النقاط الجوهرية لأى نقاش يدور أمامه، ثم يستخلص منها جميعاً، حلاً واحداً.

وهذه الميزة نفسها هى التى مكّنت هتلر من أن يدرك أفكار أى إنسان يتحدث إليه، وأن يقول له، إذا أراد، أى شئ يعجب به ويطيب له سماعه. وهكذا فهو عندما يوّطن عزمه على شئ، فإنما يستثير بعض من يؤمن هو نفسه بأن لديهم مالديه من أفكار، وإنهم سيقتنعون بأفكاره، ولو كرهوا ذلك إلى حد ما. وكان هتلر بارعاً فى تملقه ونفاقه. فكان قبل أن يتخذ قراراً من القرارات، يستثير فيه أمثال أولئك المقربين إليه ليشبع غرورهم مرتين: مرة حين يستشيرهم، ومرة أخرى حين يصدر القرار فيداخلهم الظن بأن لهم يداً فيه!. ومن المهم هنا أن نعرف ما إذا كان هتلر قد قرأ كتاب «ديل كارنيجى الأمريكى كما اطلع هذا الأخير على كتاب هتلر المشهور «كفاحى»[1].

(١) ديل كارنيجى كاتب أمريكى وضع أعظم مؤلفاته فى مبحث كيفية الوصول إلي الشهرة والكسب المادى والمعنى. أما «كفاحى» فهو الكتاب الذى وضعه «هتلر» حين أودع السجن بعد الحرب العالمية الأولى وفيه وضع برنامجه للنهوض بألمانيا وسيطرتها على العالم.

ذو ذاكرة قوية

والشئ الثانى الذى بهر روميل فى شخصية هتلر، ذاكرته القوية المواتية. فهتلر، يعرف بالدقة وعن ظهر قلب كل ما يحتوى عليه أى كتاب قرأه. ومثله فى ذلك (الجنرال سمطس) فهو يتصور تصوراً دقيقاً، كل الصفحات والفصول التى اطلع عليها فى أى كتاب.

كما أن إدراك هتلر للمعلومات على صورة إحصائية، كان إدراكاً قوياً فذاً، فهو يستطيع أن يسرد لك عدد الجنود، عدد دبابات العدو، التى تحطمت، ويذكر لك أعداداً دقيقة عن احتياطى البترول والمؤن وغيرها، كل ذلك فى صورة تبهر حتى أكثر أعضاء هيئة أركان حربه مراناً وخبرة.

وقد روى لى البارون «فون إيزيك» ـ المراسل الحربى الألمانى ـ قصة تدل على أن هتلر لم تخنه ملكاته أو بديهته التى أودت بالجيوش الألمانية وأوقعتها فى هذه الكارثة. ففى أوائل ربيع سنة ١٩٤٥ زار هتلر القيادة العليا فى الجبه الشرقية. وسأل قائد الجيش الألمانى هناك: متى تتوقع أن يكون الهجوم التالى للروس؟

فحدد له القائد يوماً، وأبدى الأسباب.

ولكن هتلر عاد فقال: «لا. سيكون هذا متأخراً أسبوعاً». ثم جاءت الأيام مؤيدة ما ذهب إليه!.

وسأل هتلر ذلك القائد: «كم طلقة لديك لكل من مدافع الميدان المتوسطة الحجم؟» فذكر له القائد رقماً. فأجابه هتلر قائلاً: «لا. بعثت إليك بأكثر من هذا، وعليك أن تتصل بفلان وفلان من القواد:

اتصل بهم تليفونياً، وسل القائد الأعلى لمدفعيتك يخبرك».

وربما كانت هذه خدعة قديمة طالما عوّل عليها القواد فى رحلاتهم التفتيشية، ولكن هتلر أستاذ فى فن الخداع، وليس فى حاجة إلى من يأخذ بيده فى هذا المضمار.

وهناك صفة أخرى لهتلر، أثرت فى روميل تأثيراً كبيراً، ولعلها أكبرها طول حياته، تلك هى شجاعة هتلر الجسيمة. فعندما كان الألمان على وشك أن يدخلوا براغ فى ١٣ آذار سنة ١٩٣٩، كان روميل مرة أخرى على رأس الفوج الذى يحرس هتلر. فسأله هتلر: «ماذا تصنع يا عقيد إذا كنت فى مكانى؟».

فأجابه روميل إجابة عبّرت عما فى نفسه تماماً فقال: «أركب فى سيارة مكشوفة، وأسير بها فى الشوارع دون قوة تحرسنى».

وإذا نحن عرفنا مدى تحمس التشيك لهتلر فى ذلك الحين، أدركنا أن هذه النصيحة كان من الممكن أن يتقدم بها بعض المسئولين شخصياً عن سلامة هتلر. وتلك نصيحة لا يأخذ بها إلا القليلون، ولو كانوا فى مكان هتلر ولكنه أخذ بنصيحة روميل.

يعشق التصوير الفوتوغرافى

ولعل أسعد ما يحمله آل روميل من ذكريات بين حربين، هى ذكريات حياتهم فى «فينر نويشتادت» حين كان روميل يعمل فى كليتها الحربية، على الجبال الواقعة جنوب غربى «فيينا». فقد كانت لروميل قيادة مستقلة، بمنأى عن أى تدخل من السلطات العليا، وكان يعمل عمله الأثير لديه المحبب إلى نفسه، أعنى تدريب الضباط الناشئين، أو تلك البراعم التى لما تتفتح بعد، على فن التكتيكات الصغيرة، وآداب السلوك العسكرى.

كما كان روميل وزوجه وولده يسكنون فى بيت خلوى منعزل جميل، تحيط به حديقة كبيرة. وفى تلك المنطقة طالما قام آل روميل بنزهات لا حصر لها، كما أغرت روميل نفسه بأن يعود إلى ممارسة هوايته الخاصة، أعنى التصوير الفوتوغرافى، الذى أبدى تفوقاً فنياً كبيراً فيه، وفى اختيار موضوعات التصوير والتأليف بينها. وفضلاً عن ذلك كله، كانت أسرة روميل مغتبطة أشد الاغتباط بالحياة المنزلية، مكتفين بأنفسهم عمن عداهم من بقية أسرة

التدريس فى الكلية، وهكذا مضت أيام الصيف جميلة هادئة.

وحينما جثم شبح الحرب على صدر أوروبا، لم يكن بدعاً ولا مستغرباً أن يعتقد رومل، كما اعتقد الألمان جميعاً، بعد ما حدث فى ميونخ وبراغ، أن هتلر لابد أن يشعل الحرب على نحو ما. ولقد لاحظ الجنرال توماس، رئيس فرع الشئون الاقتصادية فى القيادة العليا الأمامية «أن كل ألمانى مثقف، يعتقد أن الدول الغربية تنظر إلى ألمانيا على أنها المعقل الحصين ضد البلشفية، وإنها من أجل ذلك قد رحبت بإعادة التسلح فى ألمانيا، وهذا يدلنا على مدى ما يمكن أن تفضى إليه سياسة اللين التى اتبعها الحلفاء من فهم سئ خطر. كما أن رومل لم يكن على يقين من أنه قد ذهب به مرة أخرى إلى الميدان حتى بعد ترقيته فى ٢٣ آب سنة ١٩٣٩ إلى رتبة فريق، وعيّن فى هيئة أركان حرب هتلر، ليكون مسئولاً مرة أخرى عن سلامة الفوهرر.

ولو أن تسوية تمت فى آخر لحظة لما فوجئ رومل بها، كما فوجئ بذلك التحالف الذى أبرم فى نفس اليوم بين ألمانيا وروسيا!. فبهذا التحالف، أصبحت الحرب لا مناص من وقوعها. ففى الساعة الخامسة إلا عشرين دقيقة من صبيحة يوم أول أيلول شن الألمان هجوماً جوياً على بولندا. فصح إذن ما كان قد قاله «لويد جورج» فى مذكرته التى بعث بها إلى مؤتمر السلام فى ٢٥ آذار سنة ١٩١٩ إذ قال: إن الاقتراح الذى تقدمت به اللجنة البولندية والذى يقضى بأنه يجب أن نضع مليونين من الألمان تحت إشراف شعب من جنس آخر لم تثبت قدرته على أن يحكم نفسه حكماً ذاتياً فى تاريخه كله، لابد فى نظرى أن يؤدى، إن عاجلاً وإن آجلاً إلى وقوع حرب جديدة فى شرق أوروبا».

ومن السخف أن نزعم أن رومل قد أنّبه ضميره على غزو بولندا، فكما أنه رحّب بإعادة التسلح للجيش الألمانى، سواء أكان ذلك فى السر أم فى العلن، لأنه يشعر بأن ألمانيا لا تتوقع من الحلفاء إلا القليل من التقدير لها إلى أن يشتد ساعدها. فلاشك فى أنه اعتقد أيضاً أن الممر البولندى يجب أن

يتلاشى. وأن «دانزج» يجب أن تعود إلى رحاب الرايخ، بالاتفاق الودى إن أمكن، وبحد السلاح إذا اقتضى الأمر ذلك.

ولعل اهتمام رومل اهتماماً شخصياً مباشراً بمشكلة دانزج، راجع إلى أن أسرة زوجته تعيش فى غرب بروسيا إذ أنه التقى بزوجته فى دانزج، أو لعله يرجع إلى أنه تخرج فى الكلية الحربية فى دانزج، ثم أن رأى رومل هذا، يوافقه عليه السواد الأعظم من الشعب الألمانى!

ومن الإنصاف أن نذكر بمناسبة الحديث عن السوديت وتشيكوسلوفاكيا، أن الألمان، حتى المثقفين منهم قد أثرت فيهم الدعاية التى وجهها جوبلز توجيهاً بارعاً. فلم يتح لهؤلاء المثقفين أن يستمعوا إلى وجهات نظر أخرى غير مزاعم جوبلز، وقليلون هم الذين استطاعوا، كما صنع الجنرال بيك وأولريخ فون هاسل، أن ينظروا إلى الأمور الأوروبية من وجهة نظر منّزهة عن الغرض، ومن وجهة نظر عالمية. ومثل هؤلاء الرجال فى كل الدول، قلما يجدون سميعاً. وليس هذا عذراً ننتحله لهذا العدوان الألمانى المسلح، إنما نذكره تفسيراً وتعليلاً للطريقة التى فزع بها الجنود الألمان المحترفون، كما فزع غيرهم فى جميع أنحاء العالم!

دروس من حرب بولندا

ولقد تسنى لرومل أن يلقى نظرة عامة شاملة، وهو فى هيئة أركان حرب هتلر، على تلك الحملة الخاطئة التى هدت كيان بولندا، وقوضتها فى غضون أربعة أسابيع، حتى قبل أن يبلغ الجيش البولندى مراكز احتشاده. ففى الثانى من أيلول كان رومل فى برسشيو، وفى العاشر منه كان قد بلغ كيلشه، وفى ١٣ منه كان فى لودز، وفى ٥ تشرين أول بلغ العاصمة وارسو التى استسلمت فى اليوم الثلاثين منه. وبعد يوم أو يومين كان رومل فى طريقه عائداً إلى برلين... فلم يفته أن يستفيد من هذه الدروس العملية فى فن الحرب الحديثة. وقد رأى رومل أهمية التعاون الوثيق بين سلاح الطيران والقوات البرية الزاحفة.

كما رأى كيف أن نشر الاضطراب والفوضى فى الصفوف الخلفية للأعداء، هو أمضى سلاح لإضعاف روحهم المعنوية، ويفوق تكبيدهم الكثير من الخسائر.

ورأى رومل أيضاً أن أنجع وسيلة فى الحرب الميكانيكية، هو التقدم فى خطوط العدو، وإحراز الانتصارات الممكنة بالتوغل بين صفوفه، حتى لو استهدف الجيش إلى التعرض لقطع خطوطه. وترك الجيوش الزاحفة لبعض جيوب مقاومة العدو، لتعالجها القوات البرية التى تواصل هجومها. وهذه الخطة مقتبسة عن «لودندورف» الذى قام بتكتيكات التوغل فى خطوط الأعداء فى آذار سنة ١٩١٨، كما أنها مستفادة من تجارب رومل الشخصية فى حرب رومانيا وإيطاليا.

ورأى رومل أيضاً أن الدبابات يجب أن تكون جماعات لا فرادى متفرقات. وقد أدرك أولاً وقبل كل شئ، أن من المناسب لرجل مثله، أن تكون الفرقة المدرعة هى التى تقود الهجوم على العدو.

كما أن هذه الحملة قد أكدت له صحة رأيه فى شجاعة هتلر. ومما ذكره رومل لزوجته قوله: «إننى طالما تعبت معه تعباً هائلاً. لقد كان هتلر يريد أن يكون فى الخطوط الأمامية مع الجنود الزاحفة، ويبدو لى أن هتلر يجد متعة فى أن يكون تحت وابل النار».

وفى خلال غزو نورماندیا، لم يجد رومل الشجاعة التى كان يجدها من قبل فى هتلر. ومنذ ذلك الحين، أخذ رومل يراجع فكرته عن هتلر لأسباب أخرى!

■ ■ ■

(١) دكنرك من موانئ فرنسا المهمة على بحر الشمال ومنها انسحبت القوات الإنكليزية إلى بريطانيا بعد سقوط فرنسا فى يد الألمان فى ربيع سنة ١٩٤٠.



الفصل العاشر

على استعداد تام للانتصار

الزحف على بلجيكا ـ روءمل والفرنسيون وجهاً لوجه
روءمل أمام الإنكليز

كانت أسابيع القتال الخمسة التى سبقت انهيار فرنسا، تبدو لمن لم يشترك فى هذا القتال، وكأنها أوهام أو خرافات. فقد كانت هذه الأسابيع كاللحظة التى تسبق تقوض بيت حبيب إلينا، عقب إصابته بقنبلة ثقيلة مدمرة!

وأذكر أنى سافرت بالطائرة فى إجازة من إنكلترا إلى الهند، وهبطت بى الطائرة فى (غودهبور) فى العاشر من شهر أيار، وبعد أسبوع كنت أجلس فى النادى الأمريكى فى سملا، وكنت أستمع إلى الراديو والمذيع يسرد تلك الأسماء القديمة:

كامبراى، ماركوان، بيرون، أراس، بايوم، لاباسى، كانال... وسرعان ما انتقل إلى أميان، والفى، وفيكا، وسان فاليرى. هل كان البريطانيون يحاربون مرة أخرى فى ذلك الميدان القديم الذى مزقته القنابل؟. وهل صحيح أنهم طردوا فى الليلة الماضية من أماكنهم التى ظلوا فيها سنوات؟.

لقد كانت «دنكرك» شيئاً آخر، وأن المرء ليستطيع أن يسترجع فى ذهنه مشاهد تلك الشواطئ الرملية، والأفواج الهائلة من الجنود وقد إمتدت وتلاحقت فى عرض البحر. ولكن يبدو لى أن هذه الأسابيع كانت كحلم مفزع، ذهبنا فى أثنائه مشدودين إلى الميدان، وجرى على ألسنتنا جميعاً أن الأمور تبدو سيئة للغاية.

وأتذكر أننى كنت أجلس مع «منفرد» إبن رومل، فى ذلك البيت الصغير فى «هرلنجن»، وقد أطلت علينا لوحة كبيرة لرومل فى زيه العسكرى.

كما أتذكر أنه نشر أمامى على الغطاء الأحمر لمائدة الطعام، وذلك السفر الضخم ذا الغلاف المخملى الذى سجل فيه رومل، يوماً بعد يوم وحركة بعد حركة، قصة الفرقة السابعة المدرعة أو «فرقة الأشباح». ولقد كان رومل خير من يجيد تسجيل حركاته وخططه.

ومن الطريف أنه دعا النقيب «الدنجر» ـ زميله القديم فى فوج فيرتمبرج الجبلى خلال الحرب العاليمة الأولى ـ وكان الدنجر متقاعداً، يحيا حياة هادئة فى تصميم البساتين، ليقوم بمهمة جمع الأوامر التى أصدرها رومل، والخرائط التى رسمها، والخسائر التى تلحق بالفرقة السابعة المدرعة يوماً بعد يوم، ثم لكى ينظم هذه المعلومات جميعاً.

ولقد قام النقيب الدنجر، بواجبه هذا خير قيام وعلى أتم وجه، فوضع على الجانب الأيسر من كل صفحة رقماً مكتوباً على الآلة الكاتبة، للأوامر والمذكرات للحرب، وعلى الجانب الأيمن، وضع خريطة ذات نسب قياسية كبيرة، رسمت عليها وحدات الفرقة، وحركات هيئة أركان حرب رومل، ساعة بعد ساعة.

ليس فى هذه الصفحات جميعاً تصويب واحد، وليس فيها مسح مطلقاً!

ومن هذا الكتاب الذى لا توجد منه إلا نسخة واحدة، نرى بالضبط ما الذى فعلته الفرقة السابعة المدرعة بين ١٠ آيار ١٩٤٠، حينما عبرت الحدود البلجيكية فى الساعة الخامسة صباحاً، وبين ١٩ حزيران حينما استسلمت شربورج بلا قيد ولا شرط، ووافق رومل على استسلام الأميرال الفرنسى دابريال: ومعه أربعة ضباط برتبة أميرال، وثلاثين ألف فرنسى!

قائد الانتصارات العاجلة

وليس أشق على النفس من اقتناء سيرة رومل فى هذه الفترة، وإدراك ما ظفر به من نصر فى تلك المعارك. وسيأتى ذلك اليوم الذى يقوم فيه أحد المؤرخين العسكريين بهذه المهمة على أنها واجب.

وعلى أن أحداً من الفرنسيين قد لا يهتم بها، بينما يكد البريطانيون فى البحث والتنقيب عنها، وكذلك الأمريكيون. أما الألمان فحين ينظرون إلى الماضى سيتوقون ولا شك إلى إثارة ذكرى هذه المعارك من جديد. وأستطيع أن أقول: إن التقدم البارع الذى طالما أحرزه الجنرال (باتون) لا يمكن أن يبدو أكثر صلابة ولا جرأة مما قام به رومل، ذلك القائد المستعد دائماً لأن يخاطر ولأن يحرز انتصارات عسكرية عاجلة.

لقد شهد «فون توما» الذى قاد الفيلق الإفريقى والذى شهد لرومل بعظمة تكتيكية، نقول شهد فون توما بأن رومل كان فى صميمه جندياً من المشاة الممتازين، وبأنه لم يكن يفهم فن قيادة الدبابات، ولكنه كان يعلم تمام العلم تكتيكاتها. ولا شك أن فون توما جدير بأن يقدر رومل ويفهم فنه، ذلك لأنه قد قاد مجموعة من مائة وأربعة وعشرين دبابة فى الحرب الأسبانية الأهلية وحده، ثم حارب بالدبابات الروسية بقيادة المارشال كونيف، ثم عُين بعد، أن اقتاد لواء من الدبابات فى جرأة هائلة وبراعة فى الجبهة البولندية، قائداً أعلى للقوات الألمانية الميكانيكية.

وحين نقرأ قصة «فرقة الأشباح» لن ندهش حقاً حين نجد أن رومل قد علمنا خدعة أو خدعتين عن استخدام الدبابات فى إفريقيا.

الزحف على بلجيكا

وعندما غادر رومل بولندا ظل فى هيئة أركان حرب هتلر، مسئولاً مرة أخرى عن سلامته. ولكنه فى أثناء ذلك كان يتوق إلى قيادة فرقة تشترك فى

القتال، وكان هتلر، يحب رومل ويميل إليه، لأن رومل لم يكن ذلك الضابط الصلف الذى يجد هتلر مشقة فى التفاهم معه، ولئن كان هتلر قد قسا على الضباط المتغطرسين أحياناً، فما ذلك إلا لأنه كان يشعر فى صميم نفسه بأنهم يضمرون له الاحتقار.

وسأل هتلر رومل: ماذا تريد؟

فأجابه رومل: أريد قيادة فرقة مدرعة.

وكان له ما أراد، ونهض بقيادة الفرقة السابعة المدرعة فى جودسبرج، على الراين فى ٢٥ شباط سنة ١٩٤٠، بدلاً من الجنرال «أشتومه» الذى مات بالسكتة القلبية فيما بعد، قبيل معركة العلمين، فحل محله رومل مرة أخرى.

أما زوجه وإبنه منفرد فقد ظلاً فى بيتهما الصغير فى فينرنويشتادت. وكان لدى رومل فسحة من الوقت تكفى لأن يجعل نفسه معروفاً لدى كل ضابط وجندى فى الفرقة، وأن يعرف الضباط على الأقل معرفة شخصية، وقبل أن تتحرك الفرقة حركة واحدة... كما تمكن رومل فى خلال شهرين من التدريب القاسى، أن يخرج نظرياته فى تكتيك الدبابات، والدروس التى تعلمها فى بولندا إلى حيز التطبيق، ولذلك عندما صدرت إليه الأوامر بالزحف على بلجيكا كانت الفرقة قد تدربت تدريباً بارعاً.

وفى العاشر من شهر آيار عبرت الفرقة السابعة المدرعة الحدود البلجيكية على مدى ثلاثين ميلاً جنوبى «ليبج». وفى آيار قامت الفرقة بأكبر عبء قُدر لها أن تحمله، فشقت لها طريقاً عبر «الموز» ولقد حارب البلجيكيون بقوة، متحصنين فى بيوت قد هيئت للدفاع، وفى بيوت صغيرة جداً. فقد كانوا مزودين بالمدافع المضادة للدبابات، مثبتة فى قواعد من الأسمنت المسلح، فكانت المدفعية تقوم بنشر غلالة من النار على هذه القواعد المسلحة، وكان

على رومل أن يقوم ببناء جسر تحت وابل من النيران الكثيفة، وقد نزل رومل بنفسه فى الماء حتى بلغ الماء خصره، وأخذ يجمع الألواح الخشبية، ويقول للجنود: «سأساعدكم» وظل رومل يتقدم جنوده ويعاونهم حتى أيقنوا أن العمل يسير على أحسن وجه. ومما لا شك فيه أن قائد أية فرقة من الفرق لا شأن له بالخطوط الأمامية لفرقته، ذلك لأنه يقود الفرقة عادة من مؤخرتها، أو من أى مكان آخر منها، ولهذا لم يكد يمر على هذه الحادثة الصغيرة وقت قصير حتى انتشر خبرها بين الجنود جميعاً، واستعاد رومل شهرته القديمة، بأنه لا يكلف أحداً أمراً لا يقوم به هو نفسه.

وفى المساء قام البلجيكيون بحركات مضادة بالدبابات والمشاة، ولكن هذه الهجمات قد ردت بقسوة. ولم يكد الليل يرخى سدوله حتى عبرت الدبابات الألمانية نهر الموز، وكانت دبابة رومل نفسه فى المقدمة.

رومل والفرنسيون وجهاً لوجه

وفى اليوم التالى كاد رومل يموت. فقد تقدم بدبابته فى منطقة حجرية تحت وابل من نيران المدفعية المضادة للدبابات، فتعطلت دبابته، وأصيب فى وجه وتقدم بعض الجنود الفرنسيين ليأسروه، لولا أن الزعيم روتبرج، الذى كان يقود اللواء الخامس والعشرين المدرع، تقدم بدبابته الخاصة وطارد أولئك الجنود، فمنح من أجل هذه العمليات وسام الاستحقاق وصليب الفروسية.

وفى ١٥ آيار كانت الفرقة السابعة المدرعة قد تقدمت الفرقة الخامسة المدرعة إلى اليمين وفى الليل كان رومل مايزال فى المقدمة فاستولى على بطارية فرنسية كانت تزحف إلى مركز اعتقد قائدها أنه درع حصينة!

وفى الليلة التالية اقتحمت الفرقة استحكامات خط (ماجينو)[١]، تلك

(١) خط ماجينو: أهم خط دفاعى أقامه الفرنسيون بعد الحرب العالمية الأولى بينهم وبين ألمانيا وكانوا يتصورون أنه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تخرقه!

الاستحكامات البالغة التحصين، غربى كليرفى. أما المراكز الخلفية بما فيها من مدافع ميدان ومدافع مضادة للدبابات ذات قواعد من الأسمنت المسلح، فقد سترت جميعاً بسحب من الدخان الصناعى ونيران المدافع الأمامية، كما سترت الفرق التى على جانبى خط ماجينو بالدخان الصناعى. وفى الساعة الحادية عشرة مساء، قام رومل بشن هجوم على خط ماجينو تحت ضوء القمر. وكانت الدبابات وكتيبة الدراجات البخارية تقود الهجوم، وأعقبتها بعد ذلك بقية الفرقة. وكانت القيادة العليا قد أصدرت إلى رومل أوامرها، بألا تطلق الدبابات نيرانها وهى تزحف على العدو. ولكن رومل أغفل هذا الأمر، وشجع الجنود على مخالفته أيضاً. وكانت حجته فى ذلك أن عدم الدقة فى تنفيذ الأوامر لن يترتب عليه إلا تبديد لبعض المؤن، وهذا ليس شيئاً يذكر بجانب التحطيم الذى سيحيق بالروح المعنوية لدى جنود الأعداء، حين يجدون أنفسهم محاصرين بنيران الدبابات!

وكان رومل يقول لجنوده. لنعمل كالأسطورة تماماً. فنطلق النيران دفعة واحدة على الميناء، وعلى الجانب الأيمن من السفينة المعادية.

وعندما اقتحم الألمان خط ماجينو وغادروا (أفيان) عند منتصف الليل، كان الجنود الفرنسيون ما يزالون حامى الوطيس فى الشوارع. فأخذت الدبابات الألمانية تطلق نيرانها على جانبى البطاريات الفرنسية حتى أسكتتها. ثم لاحقت فرقة ميكانيكية فرنسية تتقهقر نحو الغرب، على طول الطريق الذى احتشد فيه اللاجئون، والذى وقفت على جانبه بعض الدبابات الفرنسية، فلحقت بها قبل أن تتهيأ للنزال وأطبقت عليها. وكذلك اقتفى أحد ألوية المدفعية الألمانية بقية الدبابات الفرنسية فى «أفيان» أثناء الليل فاستولى على ٤٨ دبابة سليمة. وأخذ الجنود الفرنسيون يفرون ملقين بالسلاح، ناشرين الرعب والفزع حيثما ساروا!.

ولو أن الفرنسيين صمدوا للألمان قليلاً يومذاك، لأوقعوهم فى ورطة، ذلك لأن دبابات الألمان ومدافعهم المتنقلة والمضادة للدبابات التابعة لكتيبة الدراجات البخارية، لم تكن فى استطاعتها أول الأمر أن تصنع أى شئ إزاء خط الدفاع الهائل الذى تألف من الدبابات الفرنسية.

ومن الطريف أن إحدى السيدات الفرنسيات، رأت رومل واقفاً إلى جوار دبابته فى شارع إحدى قرى أفيان، فربتت على كتفه وسألته: هل أنت إنكليزى؟

فأجابها رومل بالفرنسية، وهو يعرف أطرافاً من بعض اللغات قائلاً: «لا يا سيدتى إننى ألمانى!».

وإذ ذاك صاحت السيدة فى خوف: «آه! هؤلاء البرابرة!» ثم ولّت مدبرة، وقد ألقت بطرف ثوبها على رأسها، وانطلقت تعدو إلى البيت!

وفى أثناء ذلك اضطربت المواصلات جميعاً، وكان لواء المشاة مهدداً باقتحام القوات الفرنسية لخطوطه. ولكن رومل، على الرغم من ذلك كله، أصر على أن يقوم وعلى مسئوليته الخاصة بالهجوم بفرقته كلها نحو الغرب. وكان يهدف من وراء ذلك إلى بلوغ نهر «السامبر» ليؤمّن رأس جسر هناك، ثم يبقيه مفتوحاً لجنوده. وقد شن رومل هجومه حوالى الساعة الخامسة والنصف صباحاً، وذلك بعد ليلة لم ينقطع القتال فيها، باللواء الخامس والعشرين المدرع، واتجه نحو لاندرسيه التى لم يحارب حراسها إلا فى الحرب العظمى الأولى، وقد هاجمهم رومل بأرتاله الميكانيكية من الجانبين، فصعق المشاة الفرنسيون، واستسلموا حين فوجئوا بظهور الألمان أمامهم. وفى الساعة السادسة كان الألمان قد استولوا على لاندرسيه، وأسروا عدداً كبيراً من الفرنسيين الذين احتموا فى ثكناتهم، كما استولى الألمان على أحد الجسور سليماً عند «السامبر». وأمر رومل الفرنسيين بإلقاء السلاح، ثم مر بدبابته على السلاح، وانطلق اللواء الخامس والعشرون قدماً نحو لوشاتو، حيث أوقفه

روميل هنالك، وذلك لأن بقية الفرقة كانت ما تزال بعيدة فى المؤخرة. فكل هذه العمليات قد استعان فيها روميل بكتيبتين اثنتين وكتيبة من الدراجات البخارية. وبينما كان اللواء المدرع الخامس والعشرون يرابط فى مرتفع شرقى لوشاتو، عاد روميل بسيارة مصفحة ليأتى به...

ولقد ظل اللواء المدرع الخامس والعشرون هدفاً لهجمات متكررة قوية من الدبابات الفرنسية. ثم تمكن الفرنسيون من استرداد «بومراى» ولكنهم ردوا عنها مرة أخرى حين زحفت بقية الفرقة. وفى ليلة ١٧ آيار بدا الموقف واضحاً غاية الوضوح، بحيث تمكنت المدفعية من أن تتقدم إلى المراكز الأمامية. واستولت على جسر آخر عند برليمونت، وتمكنت الفرقة الخامسة المدرعة البعيدة من أن تعبر هى الأخرى ذلك الجسر!

وإذا ما نحن نظرنا إلى الخريطة، فإننا نرى أن روميل قد دق إسفيناً طوله ثلاثين ميلاً وعرضه ميلين، وكأنه إصبع تشير إلى قلب فرنسا. ولقد اقتضت هذه العمليات جميعاً من روميل مخاطرة كبيرة. لأن هنالك قوات فرنسية ماتزال قوية عاملة على جناحى روميل. ولكنه مع ذلك اقتحم المنطقة المحصنة، وأمن معابر حيوية على نهر السامبر. ولقد اعتبرت القيادة العليا الألمانية جميع هذه الحركات سليمة وموفقة، بالنسبة لتقدم الحملة الألمانية كلها. ومن أجل ذلك منح روميل صليب الفروسية لشجاعته الشخصية، ولهذه الانتصارات التى أحرزها!

روميل أمام الإنكليز

وليس أدل على أن الجرأة تؤتى ثمارها فعلاً، من أن مجموع خسائر الفرقة السابعة المدرعة لم تزد على ٣٥ قتيلاً و٥٩ جريحاً. بينما أسرت هذه الفرقة خلال يومين اثنين، عشرة آلاف جندى. واستولت أو حطمت مائة دبابة وثلاثين سيارة مصفحة ٢٧ مدفعاً!

ورغم وجو دصعوبات هائلة أمام روميل للحصول على البترول، ورغم أن دبابات الفرنسيين كانت لا تزال تواصل هجماتها على جناحى روميل، فقد تمكن اللواء الخامس والعشرون من شق طريقه بمثل تلك السرعة والقوة وفى الساعة الخامسة من صبيحة يوم ٢٠ آيار اجتاز كمبارى وعبر قناة دى نور عند ماركوان، واحتل مركزاً جنوبى آراس، وكانت القوات الألمانية على طوال الطريق تأسر الجنود الفرنسيين وهم محتمون فى ثكناتهم. وللمرة الثانية ترك روميل بقية الفرقة وراءه. ثم عاد بنفسه مرة أخرى وجاء بها مصطحباً معه دبابتين وعلامة جماعته وسيارة مصفحة. وفى طريق آراس ـ كمبارى، وعند فيز ـ أن ـ ارتوا، دخل روميل فى خطوط الفرنسيين فتحطمت دبابتاه تماماً، وظل محاصراً بضع ساعات.

ومما يبعث على الإهتمام حقاً، ذلك القتال الذى دار حول آراس فى ٢١ أيار، ذلك أن هذه كانت هى المرة الأولى خلال الحربين العالميتين التى حارب فيها روميل ضد البريطانيين، ومما يدعو إلى الاغتباط حقاً، أن نسجل هنا أن روميل قد وجد البريطانيين أصلب عوداً من الفرنسيين، وأشد مقاومة. فلقد تقدم لواء الدبابات التابع للجيش الأول المنتسب للفرقة الأولى المدرعة الإنكليزية، من آراس إلى الجنوب والجنوب الشرقى، ثم هاجم روميل عند أشيكور وآنى. وتقدم البريطانيون وطاردوا الكتيبة الثانية والأربعين المضادة للدبابات، وقتل معظم جنود المدفعية، وذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا ذلك الخط الدفاعى الذى نصبته الدبابات حتى من مدى قريب. ولكن الهجوم أوقف عندما أطلقت المدفعية نيرانها من مدافع عيار ٨٨ مليمتراً ـ ولقد كانت مفاجأة أليمة لنا حقاً. كما دعيت الطائرات من طراز أشتوكا لتشد أزر القوات البرية، قبل أن ينسحب البريطانيون إلى آراس.

وفى أثناء ذلك، كان اللواء الخامس والعشرون قد تقدم، كما هى العادة

دائماً، وبلغ مرتفعاً جنوب (الاسكارب) عند (آك)، وأصدر إليه روميل أوامره بأن يستدير ليهاجم الدبابات البريطانية من المؤخرة، ووقعت معركة للدبابات الخفيفة، وبذلك يكون قد مُنى بخسائر أفدح فى هذه المرة. ولكن روميل أرغم فى هذه الحالة على أن يقوم بحرب دفاعية، إذ قُتل ضابط آخر كان إلى جواره، بينما كان هو وروميل يطالعان فى خريطة معاً.

لقد كان ذلك يوماً عصيباً، فقد فيه روميل ٢٥٠ قتيلاً وأسيراً، بينما بلغ مجموع ما خسره البريطانيون ٥٠ أسيراً وإن كانت قد تحطمت لهم ٤٣ دبابة!

■ ■ ■

الفصل الحادى عشر

يقود المعركة بنفسه على الدوام

كارثة دنكرك ـ يطلب إلى الإنكليز الاستسلام
ثلثمائة ألف أسير ـ أسرع من البرق

... وكانت الأيام التالية عصيبة حقاً، فقد عبرت الفرقة السابعة المدرعة «الإسكارب». وذلك فى الثانى والعشرين من آيار. وتسجل «اليوميات» أن الهجمات التى شنها البريطانيون لم يتمكن رومل من صدها إلا بشئ من المشقة، وكان لابد له من بث الألغام فى طريقهم. وقد استولى رومل على جبل «سانت ألوا» فأجلى عنه، ثم عاد فاحتله من جديد. وأخيراً أفلح الألمان فى ٢٦ آيار فى تأمين رؤوس جسورهم على «جينشى»، رغم القناصة البريطانيين الذين أنبثوا فى الأحراش بالقرب من قناة لاباس، ثم مضت الدبابات والمدافع الألمانية قدماً، وفى ٢٨ آيار تقدمت نحو الشرق فى اتجاه «ليل». وفى اليوم التالى أصدر رومل أوامر إلى فرقته بأن تظل غربى آراس.

وبعد أسبوعين، قضاها رومل وفرقته فى قتال مستمر، عنّ له أن يرفه عن نفسه وفرقته بعض الوقت، فاستقل سيارته ومضى بها وحده إلى مدينة «ليل». وشد ما كانت دهشته عندما وجد شوارع المدينة غاصة بالجنود الفرنسيين والبريطانيين. وأدرك أنه ارتكب خطأ جسيماً، بهذه المغامرة، فانطلق بسيارته عائداً قبل أن يكشف أمره!

وإذا نحن أحصينا عدد المرات التى أفلت فيها رومل من الموت إبان هذه

الفترة، بالإضافة إلى مخاطراته العادية كقائد فرقة يصر دائماً على أن يقود المعركة فى خطوطها الأمامية، فإننا ندرك إلى أى حد كنا سيّئى الحظ حين التقينا برجل من طراز «أرفين روميل» فى إفريقيا.

كارثة دنكرك

ولم تطل راحة فرقة روميل، فعادت إلى العمل بعد أيام، ونيطت بها مهمة خاصة. وكانت النهاية ماثلة للعين تماماً. فالفرنسيون أوشكوا أن يخرجوا من الحرب، والبريطانيون قد أخرجوا من فرنسا.

وفيما بين يومى ٢٩ آيار و٤ حزيران كان قد انسحب من دنكرك ثلاثمائة ألف من الجنود البريطانيين. ومن الإنصاف لهتلر أن نذكر هنا أنه لم يشأ أن يهاجم هؤلاء الجنود المنسحبين.

على أن الفرقة البريطانية الواحدة والخمسين كانت قد نزلت إلى الشاطئ متأخرة. لكى تبحر من فيكان وسان فاليرى. ورأى روميل أن يقف على انسحاب هذه الفرقة، وكان عليه لذلك أن يعبر نهر السوم. وأن يخترق ما بقى من خط ويجان!

وليس شئ أحب إلى روميل من هذا الصراع، الصراع مع الزمن. ومن هنا لم يضع روميل لحظة واحدة سدى. فاستعرض الموقف مع قادة الألوية والكتائب، ثم عبر السوم فى صبيحة اليوم السادس من حزيران.

وعندما كانت فرقته تتحرك ليلاً، كان دوى دباباتها يتردد صداه فى القرى الفرنسية النائمة، وظن الريفيون الفرنسيون أنها دبابات بريطانية فكانوا يستقبلونها بالترحيب ويرفعون لها الأيدى قائلين: حظاً سعيداً!. وفى ليلة ٩ حزيران بلغ الألمان نهر السين على مدى عشرة أميال جنوبى غرب «روان» ودبت الحمية فى نفوس بعض الفرنسيين، فانتفضوا يقاتلون الألمان فى صبيحة اليوم التالى عند أيفيتو. ولكن القوات الألمانية اكتسحتهم تماماً وطهّرت

الطريق، وفى الساعة الثانية والربع مساء كانت الفرقة قد غطت العشرين ميلاً بين أيفيتو و«فوليت»، وبلغت البحر بين فيكان وسان فاليرى.

وفى فيكان كان ترحيل الجنود مايزال على قدم وساق، وكانت حاملات الجنود راسية بالقرب من الشاطئ تحت حراسة مدمرة بريطانية. وذلك عندما ظهر الفوج الألمانى المدرع السابع والثلاثون، واشتركت معه مدفعيته وأخذت تطلق النيران على البريطانيين. وكانت المدمرة البريطانية تواصل إطلاق نيرانها على الألمان عن كثب، حتى أصابتها مدافع الألمان الثقيلة. كما كانت هنالك قطع أخرى للأسطول البريطانى راسية فى ذلك الميناء الصغير، وكانت جميعاً تحت وابل من مدافع الألمان. وفى هذه الأحوال كان من المستحيل نقل الجنود إلى ظهور السفن فى وضح النهار.

أما فى سان فاليرى، حيث كان الجنرال فورشن قائد الفرقة الحادية والخمسين الإنكليزية، فقد كانت الفرقة بتمامها على استعداد للرحيل. وفى خلال ليلة ١٠ حزيران وصبيحة ١١ منه، تمكن رومل من الاستيلاء على ربوة مرتفعة إلى الغرب اتخذها قاعدة له، فأصبحت الميناء بذلك تحت رحمة نيران مدافعه. وفى الساعة الثالثة والنصف مساء قاد رومل بنفسه الكتيبة المدرعة الخامسة والعشرين، وجانباً من كتيبة المشاة السادسة، وشن هجوماً تحت ستار من مدافعه الجبارة.

ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن اللورد مونتجمرى ذكر فى الكلمة التى ألقاها فى المأدبة التى أقامتها الفرقة الحادية والخمسون فى العام الماضى، أنه أحس فى العلمين بين الجنود قلقاً شديداً، وتحرّقاً إلى الثأر لمأساة سان فاليرى. وفى العلمين ذاتها تمت إعادة تأليف فرقة البلاد العالية التى تقدمت لمهاجمة خط الأنابيب، غير أن واقعة سان فاليرى وإن كانت مأساة للذين خلفوا أبناء الحرب الأولى، فإن أعداء تلك الفرقة (فرقة المدرعات الألمانية السابعة) لم يكن لديهم أى انطباع بأن تلك الفرقة قد فقدت روحها، أو صفتها

المحاربة فى حزيران ١٩٤٠. «فقد قاتل العدو فى المؤخرة بيأس فبدأ بالمدفعية ثم بالمدافع المضادة للدبابات وأخيراً بالرشاشات والصغير من الأسلحة. لقد نشب قتال عنيف بصفة خاصة فى جوار «لوتو» والطريق الممتد بين سانت سليفان وسانت فاليرى».

هذا ما أورده التقرير الرسمى الذى سجل مساهمة المدرعات البريطانية حول آراس. وفى الليل تمكن رومل من أن يأسر ألفاً من الجنود، كما تمكن من الاستيلاء على مركز رئيسى غربى سان فاليرى، استطاع منه أن يطلق نيران مدافعه للحيلولة دون ترحيل الجنود من الميناء!

وإستمر القتال سجالاً طوال الليل، وظل كذلك حتى تقدم فوجان يؤلفان الطليعة، ثم تبعتهما بعد ذلك بقية الفرقة لتشد أزرهما.

يطلب إلى الإنكليز الإستسلام

وبعث رومل إلى الجنرال فورشن رسالة يطلب إليه فيها الاستسلام. وأن تخرج الفرقة إلى الشاطئ رافعة أعلامها البيضاء، فرفض القائد البريطانى. وقد رأى الألمان أن الجنود البريطانيين قد دقوا المتاريس على أرصفة الميناء، وركزوا المدافع الرشاشة على الساحل.

وفى التاسعة مساء انفتحت أفواه المدافع، وتركز نيران الفرقة جميعاً بمدافعها الثقيلة على الجانب الشمالى من سان فاليرى ومن الميناء، حتى سقطت على هذه المنطقة الصغيرة ٢٥٠٠ قذيفة.

وفى الوقت نفسه قامت الكتيبة المدرعة الخامسة والعشرون، وكتيبة المشاة السابعة والثلاثون بهجوم عنيف، وتقدمتا جميعاً نحو سان فاليرى.

ورغم كل هذه النيران الثقيلة، فلم تستسلم القوات البريطانية، ذلك أنها كانت ترجو أن ترحل ليلاً، ولكن المدفعية جعلت هذا الرحيل مستحيلاً.

وإشتبكت إحدى السفن الحربية البريطانية مع البطارية المضادة للطائرات من عيار ٨٨ مليمتراً، وتقدمت كتيبة المدفعية السابعة وجانب من لواء المشاة السادس ولواء المشاة السابع فاحتلت بعض الأراضى عند سان فاليرى. وكان رومل إلى اليسار من هذه المعركة يتقدم فى سان فاليرى بالكتيبة المدرعة الخامسة والعشرين تحت قيادة الزعيم روتنبورج وكان يصاحب هذه الكتيبة أيضاً جانب من كتيبة المشاة السابعة. فأجبر حاميتها على الاستسلام بعد أن وجد قائدها أن المقاومة أضحت مستحيلة. .

وتمكن رومل من أسر ١٢ ألفاً من الجنود، منهم آلافاً من البريطانيين من بينهم الجنرال فورشن نفسه، وقواد الفيلق الفرنسى التاسع، وقواد ثلاث فرق أخرى. كما استولى رومل على ٥٨ دبابة و٥٦ مدفعاً و١٧ مدفعاً مضاداً للطائرات و٢٢ مدفعاً مضاداً للدبابات و٣٦٨ رشاشاً و٣٥٥٠ بندقية (بينما ظل عدد كبير منها ملقى فى الميناء) كما غنم ١١٢٣ سيارة.

وقد ذكرت المدفعية الألمانية: أنها أغرقت إحدى قطع الأسطول البريطانى المدرعة، وهى ولا شك إصابة غير مألوفة، ولهذا أنبأتنى الأميرالية البريطانية مشيرة إلى أن هذا الادعاء لا أساس له من الصحة.

ومن الطريف أن رومل لم ينس الجنرال فورشن، وكان يتحدث عنه بعطف إلى زوجه وإبنه منفرد، ويقول عنه إنه قائد ممتاز لفرقة لم يواتها الحظ، ولم ينس الجنرال فورشن شخصية رومل. وقد حدث أن طلب إلى أحد الجنود الألمان الأسرى العائدين بعد الحرب إلى ألمانيا، أن يحمل تحياته إلى أرملة رومل. وأن يبلغها أسفه على موته. ولم أتمكن من مراجعة هذه القصة مع الجنرال فورشن قبل موته. ولكنى أميل إلى تصديقها. بل إنى لا أتمنى أن تكون هذه القصة صحيحة، ذلك لأننى من ذلك الطراز العتيق من الجنود الذين يخشون أن تكون الفروسية إحدى خسائر هذه الحرب الجماعية. ولكن هذه

الفروسية لحسن الحظ لا تزال تنمو فى مناطق لا نتوقع وجودها فيها، كما سنرى فيما بعد.

ثلاثمائة ألف أسير

وأخيراً تم استسلام سان فاليرى فى ١٢ حزيران. وفى ١٧ منه، ذلك اليوم الذى طلب فيه بيتان الهدنة، أى بعد ثلاثة أيام من دخول الألمان لباريس، كانت الفرقة السابعة المدرعة تشق طريقها إلى شبه جزيرة كوتنتان لتهاجم شربورج. فتحرك رتل على طول الساحل ماراً بكوتانس، وتحرك رتل آخر عبر «سان لو» وهو مكان من الصعب أن نجده على الخريطة، ولكنه أصبح أشهر لدى الأمريكيين من مدينة «دوترويت». ولقد تقدم هذان الرتلان، دون أن يكون لهما سند من قوة كبيرة تعززهما إلى مسافة ١٥٠ ميلاً، فلم يلقيا أية مقاومة تذكر. وقبل منتصف ليلة ١٧ حزيران اصطدام جنود رومل بمركز قوى للفرنسيين، ولكن الألمان هاجموا هذا المركز بعنف بالمدافع، والمدافع المضادة للدبابات...

ولما لم يجد رومل ضرورة للمغامرة طلب إلى جنوده أن يكفوا عن القتال، على أن يستأنف نشاطه فى وضح النهار، وفى أثناء ذلك تحرك رومل على رأس لواء من المشاة وكتيبة من المدفعية وبعض بطاريات المدفعية الخفيفة والمدافع الثقيلة المضادة للطائرات.

وفى الساعة الثامنة صباحاً استأنف رومل القتال مواصلاً الزحف إلى شربورج. وفى حوالى الساعة الواحدة مساء كان على مدى ثلاثة أميال جنوب غربى المدينة، وأخذ رومل يخترق طرقاً محصنة تحصيناً قوياً.

وفى الخامسة مساء كان رومل قد استولى على مرتفع غربى شربورج، وفى المساء كانت كتيبة المشاة السابعة بقيادة الزعيم فون بسمارك، ومعه سريتان مدرعتان، قد استولت على مرتفع عند كركفى، ثم انطلقت إلى ضواحى المدينة.

وقبل منتصف الليل وصل الجنود الألمان إلى محطة سكة الحديد!

وفى الليل تحركت المدفعية لتبدأ ضربها لقلاع المدينة فى صباح اليوم التالى. وعندما انبثق أول شعاع للنهار، وانطلقت النيران من أفواه المدافع الألمانية، وراحت تدك الحصون حتى أسكتت أكثرها قوة ومناعة، وفى خلال هذه الفترة كان المشاة قد توغلوا فى الضواحى.

وإذ كان الجنرال كولينز قائد الفيلق الأمريكى السابع قد أطلق عليه اسم «جو الخاطف» لأنه استولى على شربورج بعد عشرين يوماً من نزوله إلى الشاطئ فى نورمانديا، فماذا نسمى رومل إذن؟!.

لا يدرى أحد لماذا إستسلمت هذه القوات الفرنسية فى شربورج ولعلها علمت بأن بيتان[١] طلب الهدنة، وإلا فليس لحامية شربورج عذر فى أن تستسلم بجنودها الثلاثمائة ألف لفرقة مدرعة واحدة، بعد ١٢ ساعة من ضربها بالمدافع الألمانية!

ولكن هذا هو ما حدث!

ففى الساعة الثانية من مساء ١٩ حزيران جاء الضباط البريون والبحريون الفرنسيون يطلبون تسليم المدينة. وفى الساعة الخامسة مساء أمضيت وثيقة الاستسلام رسمياً...

وقد تمكن رومل فى كل العمليات التى قام بها منذ ١٠ آيار من أسر الأميرال دابريال أميرال الأسطول الفرنسى فى الشمال، وأربعة آخرين برتبة أميرال وقائد فيلق، وأربعة من قواد الفرق وهيئة أركان حربهم، و٢٧٧ مدفعاً، و٦٤ مدفعاً مضاداً للدبابات، و٤٥٨ دبابة وسيارة مصفحة، وحوالى ٥٠٠٠ ناقلة للجنود، و٢٠٠ سيارة، وحوالى ٢٠٠٠ عربة تجرها الخيل و٢٠٠ سيارة نقل للركاب، و٤٠٠ دراجة بخارية، ٩٧,٤٦٨ أسيراً، و٥٢ طائرة، منها ١٥

(١) المارشال بيتان: هو الذى أعلن استسلام فرنسا للألمان بعد سقوط باريس.

سليمة، عدا ١٢ طائرة محطمة!

وهنالك مغانم أخرى لرومل لم يستطيع أن يحصيها، لأن الفرقة كانت تتحرك بسرعة كبيرة. كما أنه لم يتمكن أيضاً من أن يحصى ولو بالتقريب، الخسائر من القتلى والجرحى التى كبد العدو بها.

أما خسائر رومل نفسه فى كل هذه المرحلة فهى: ٤٨ ضابطاً قتلوا، و٧٧ضابطاً جرحوا، و١٠٨ عرفاء قتلوا و٣١٧ جرحوا و٥٢٦ من مختلف الرتب قتلوا و١,٢٥٢ جريحاً.

أما المفقودون فهم ثلاثة ضباط و٣٤ عريفاً و٢٢٩ من مختلف الرتب.

وأما ما فقده من الأسلحة فهو: ٣ دبابات من طراز مارك «١» و٥ دبابات طراز مارك «٢» و٢٦ دبابة طراز مارك «٣» و٨ دبابات طراز مارك «٤».

ولا شك أن أرقام هذه الخسائر التى تكبدها رومل تعد ضئيلة إذا ما قيست بالأعمال الباهرة التى حققها. وإذا نحن علمنا أن رومل شحيح بحياة رجاله، أدركنا أن هذه الخسائر طفيفة، وأنها تدل على أن الفرقة السابعة المدرعة كانت تقوم بقتال عنيف، وأنها لم تكن تطارد عدواً منهزماً عبر الأراضى الفرنسية، بل كانت تلقى عنتاً من الفرنسيين أحياناً!

■ ■ ■

الفصل الثانى عشر

دخل رومل مصر لو لا؟

الألمان يريدون طرد بريطانيا من البحر المتوسط

١٢ إيطالياً مقابل جندى إنكليزى

كان على «الحورية الطيبة» التى يعتقد البريطانيون أنها ترعاهم، أن تضاعف جهودها فى سنة ١٩٤٠. فلقد رأت هذه «الحورية الطيبة» مالم يستطع تشرشل أن يره، من أن الفرنسيين لن يواصلوا الحرب فى شمال إفريقيا. ولو أنهم فعلوا ذلك لتبعهم هتلر، ولأرغمت أسبانيا على أن تصبح ممراً للجنود الألمان، ولسقط جبل طارق، وأغلق غرب البحر الأبيض المتوسط، وإذ ذاك يستسلم جنود المستعمرات الفرنسية للجيش الألمانى، ويتجلد غرازيانى ذو القلب الخائر، ويتشجع إذ يرى معه فرقتين ألمانيتين مدرعتين، فيتخذ طريقه إلى القاهرة. وبذلك تكون بريطانيا قد فقدت معقلاً ذا شأن. ولأدى سقوط قناة السويس إلى إغلاق البحر الأبيض من الناحية الأخرى، فأصبح الطريق إلى سوريا والعراق وايران والقوقاز مفتوحاً تماماً، ثم يأتى دور تركيا فتنضم أو ترغم على الانضمام إلى المحور.

تلك إذن هى الخطوط الرئيسية التى كانت تقوم عليها أفكار البارعين فى الشئون الاستراتيجية...

طرد بريطانيا من الأبيض

ولم يتمكن من تقدير هذا الموقف تقديراً سليماً، وتفهم هذه الإمكانات

جميعاً، إلا القيادة العليا البحرية الألمانية. فقد رأى الأميرال رايدر فى السادس من أيلول سنة ١٩٤٠ أن خير وسيلة تضرب بها بريطانيا هى إبعادها عن البحر الأبيض المتوسط. وفى السادس والعشرين من ذلك الشهر، أعرب الأميرال عن ذلك بوضوح تام فقال: «إن البريطانيين طالما اعتبروا البحر المتوسط مدار امبراطوريتهم، فلسوف يصبح الإيطاليون هدف الهجوم الرئيسى لبريطانيا، التى تحاول دائماً أن تخنق الأضعف. والإيطاليون لم يتبينوا بعد مدى ما يحيط بهم من خطر، ولهذا رفضوا مساعدتنا لهم. وإذن يجب أن نفرغ من مشكلة البحر الأبيض المتوسط خلال شهور الشتاء، ويجب أن نستولى على جبل طارق. كما يجب الاستيلاء على قناة السويس. ومن المشكوك فيه أن يستطيع الإيطاليون وحدهم تحقيق هذا كله، فلابد إذن من أن يشد الجنود الألمان أزرهم. ومن الضرورى أيضاً أن نتقدم من قناة السويس عبر فلسطين وسوريا حتى نبلغ تركيا. وإذا بلغنا هذا الحد من التقدم والزحف أصبحت تركيا فى قبضة يدنا. وحيئذ تبدو لنا المشكلة الروسية على ضوء مغاير. فروسيا تخاف ألمانيا خوفاً أسياسياً. ومن المشكوك فيه مهاجمتها من الشمال. كما أن مشكلة شمال غرب إفريقيا على جانب بالغة من الأهمية. وتدل كل القرائن على أن بريطانيا، وبمساعدة أتباع ديجول، والولايات المتحدة، تريد أن تجعل هذه المنطقة مركزاً للمقاومة، وأن تقيم مطارات لمهاجمة إيطاليا. وفى هذه الحالة ستهزم إيطاليا».

ولو قدّر لرايدر أن يلتقى بأشباح هتلر وكيتل وبودل صلاح فيهم قائلاً:

«ألم أقل لكم هذا من قبل؟!».

على أن المفهوم هو أن هتلر كان يوافق على هذه الخطوط العامة. وإذن: فلماذا لم يتبع نصيحة رايدر؟

والجواب أن هتلر لم يكن ذا عقلية بحرية، وإنه كان يؤمن أو يكاد بأن بريطانيا ستتفق معه فى أواخر صيف سنة ١٩٤٠. فإذا هى أصرت على

عنادها فانه يأمل ـ كما صرح بذلك تشيانو بعد اجتماع برنر فى ٤ تشرين أول ـ أن يجتذب فرنسا إلى الائتلاف ضد بريطانيا!. وإضافة إلى ذلك فقد كان هتلر مشغولاً تماماً فى أواخر أيلول بالمسألة الروسية.

أما أن هتلر لم يكن ذا عقلية بحرية، فهذا ماكان يعتقده أيضاً مستشاروه العسكريون: ألفيلد مارشال كيتل، العميد بودل، والعميد هالدر. أما أمل هتلر فى الاتفاق مع بريطانيا فكان من أوهامه التى بددها تشرشل علناً. ولعل هتلر كان يستطيع أن يكسب الفرنسيين إلى جانبه، ولو أنه عجل بمحاولة التفاهم معهم، إذن لهدأت ثائرة أغلبية الفرنسية، ولقبلوا سيادته على أوروبا ولو إلى حين. والحق أن الفرنسيين لم يكن لديهم أى شعور بالكراهية للجيش الألمانى، بل على العكس، كانوا ينظرون إليه بإعجاب شديد. أما اليوم فإن جنود المقاومة الفرنسيين لا يبغضون شيئاً كبغضهم جنود دارنان، والمتحالفين مع المحور، ورجال الجستابو وفرقة الدفاع، والجيش الألمانى!

ولا تزال العبارة التالية «لا يستطيع أحد أن يقول إننى لا أعرف أولئك القوم حقاً!». التى كان يتهكم بها على المتعاونين مع الألمان أيام الحرب الأخيرة، أقول لا تزال هذه العبارة، مضرب المثل فى فرنسا حتى الآن. فقد كان تصرف الألمان فى فرنسا لا تمكن مقارنته بسلوك الأمريكيين المحررين. أما بالنسبة للطيش المطبق الذى أظهره الألمان، فلم يكن له من علاج غير التحدث عن شتاء روسيا والجيش الأحمر الروسى.

ورغم أن الجانب الأكبر من تفكير هتلر كان منصرفاً إلى روسيا، فإنه لم ينس شمال إفريقيا. ولقد حاول روبنتروب محاولات هائلة لإدخال فرانكو فى الحرب. وأعدت خطة للاستيلاء على جبل طارق، وكانت لجورنج خطة أخرى، ترمى إلى المحاربة فى ثلاث جبهات هى مراكش، وطرابلس، والبلقان.

يضاف إلى ذلك أننا على الرغم من عدم معرفتنا تفاصيل هذه الخطة فى ذلك الحين، فإن الجنرال فون توما، كان قد أرسل فى تشرين أول

ليتباحث مع الجنرال غرازيانى فى شأن إرسال بعض الجنود الألمان إلى ليبيا.

وقد أظهر الجنرال فون توما معارضة لهذا المشروع، الذى قال عنه أنه مشروع يراد من ورائه التأكد من عدم تقلب موسولينى وتغيير اتجاهه. وكان جدل توما يقوم على أساس أنه لا يمكن القيام بعمل جدى بقوات تقل عن أربع فرق مدرعة، وأن مثل هذه القوات لا يمكن الاحتفاظ بها إلا بصعوبة بالغة، وخاصة إذا ما أريد مجابهة القوى البحرية البريطانية. وإذن فينبغى أن يستعاض بتلك القوات عن الإيطاليين. ولكن المارشال غرازيانى والمارشال بادوليو كانا يعارضان إرسال أية قوة ألمانية إلى شمال إفريقيا.

ولقد ذكر الجنرال فون توما أن الميدان الإفريقى لا تناسبه إلا الحرب التى كان يستخدمها الجنرال ليتوف فوربك، فى شرق إفريقيا فى الحرب العظمى الأولى. ثم ذكر أن كلاً من: الفيلد مارشال فون براوشتش، والعميد هالدر كانا على رأيه فى عدم إرسال جنود ألمان إلى إفريقيا. كما أنهما عارضا خطة فون مانشتين فى اقتحام فرنسا من طريق «الأردين»، بدلاً من الهجوم عليها من طريق هولندة، ولكن هتلر لم يوافقهما على ذلك.

وأرسل هتلر فون توما إلى إفريقيا ليقود الجيش الألمانى بعد أن أوشك الألمان أن يخسروا الحرب، فوصل إلى العلمين، حيث أسر فى ٢٠ أيلول سنة ١٩٤٢.

وحتى بعد انتهاء الحرب لم يقتنع فون توما، بما إذا كانت الدوافع التى دفعت هتلر إلى المغامرة الإفريقية سياسية أم عسكرية، وإن هتلر كان على صواب وكان براوشتش وهالدر وتوما أنفسهم مخطئين.

١٢ إيطالياً مقابل إنكليزى واحد

ويذكر فون توما أنه طالما بيّن لهتلر - استناداً إلى تجاربه فى أسبانيا - «أن الجنود الإيطاليين لا جدوى منهم، وإن جندياً بريطانياً واحداً خير من إثنى عشر جندياً إيطالياً. وذلك لأن الإيطاليين قد يصلحون لأن يكونوا عمالاً ممتازين، ولكنهم لا يصلحون أبداً لأن يكونوا محاربين، لأنهم لا يحبون الضوضاء!».

وهكذا كان فون توما وكأنه قد أدرك ما حدث بعد ذلك، من استطاعة الجنرال ويفل من مهاجمة تلك القوات الإيطالية الهائلة، ومن انهيار هذه القوات بقيادة غرازيانى انهياراً تاماً، وبسرعة لم تكن لتخطر ببال أحد!

على أن هتلر، حين انهزم غرازيانى، وكادت تضيع الفرصة الذهبية الأولى، ما لبث أن قام بعمل إيجابى. بعد سقوط سيدى برانى. فقد اقترح هتلر على موسولينى أن تكون قيادة القوات الإيطالية بيد الألمان. وحينما سقطت البردية، تقدم بعرض للمساعدة، محاولاً بذلك الحيلولة دون ضياع إفريقيا من يد إيطاليا، ولذلك أكد لإيطاليا أنه سيقدم لها المعونة. فالوحدات الألمانية يجب أن تنقل إلى الميدان بسرعة، وأن تزود بالألغام والمدافع المضادة للدبابات، والدبابات الثقيلة والخفيفة، والمدافع المضادة للطائرات، وأن تنقل التجهيزات الحربية بحراً، بينما ينقل الجند بطريق الجو. غير أن هذه القوات لا يمكن نقلها إلا فى منتصف شهر شباط وستستغرق عملية النقل مدة لا تقل عن خمسة أسابيع.

ولقد ذكر الإيطاليون، بعد اجتماع كل من هتلر وموسولينى بقيادته العليا، فى يومى ١٩ و٢٠ كانون الثانى، أنهم يقوون فرقهم الثلاث فى طرابلس إلى أقصى حد، وإنهم سيمدونها بفرقة مدرعة وفرقة ميكانيكية من إيطاليا، على أن يتم ذلك حوالى ٢٠ شباط، ولذلك تحمس الإيطاليون لإرسال الفرقة الألمانية الخامسة الخفيفة الميكانيكية، على أن تتحرك فيما بين اليوم الخامس عشر، واليوم العشرين من كانون الثانى، وتكون معداتها قد أرسلت قبل ذلك الوقت.

وفى اجتماع آخر. ذكر هتلر لقيادة الجيش الألمانى العليا أن «خسارة إفريقيا الشمالية يمكن احتمالها من الناحية العسكرية، ولكن سيكون لها وقعها النفسى. الهائل فى إيطاليا. فبريطانيا تستطيع أن تشهر مسدسها على رأس إيطاليا. والقوات البريطانية لن تكون مقيدة فى البحر الأبيض المتوسط، كما تستطيع بريطانيا استخدام أكثر من عشر فرق استخداماً خطيراً فى سوريا.

ثم طلب بذل أقصى الجهد للحيلولة دون ذلك، عن طريق تقديم المساعدات بمعاونة الإيطاليين، فسلاح الطيران الألمانى الذى صدرت إليه الأوامر بمعاونة الإيطاليين، يجب أن يتدخل على صورة أقوى، بطائراته من طراز (إشتوكا). وبمقاتلاته. ويجب أن يعمل متعاوناً مع سلاح الطيران الإيطالى، لحماية النقل بين إيطاليا وشمال أفريقيا، وأن يقطع خطوط إمدادات البريطانيين فى البحر، وأن يحارب الأسطول البريطانى أيضاً... وأخيراً يجب أن يكون هدفه الأول قهر القاعدة الجوية البريطانية فى مالطة».

وحتى لو كان هذا التدخل كافياً لوقف تقدم البريطانيين فان الفرقة الخامسة الخفيفة، ماتزال غير كافية، على حد قول هتلر، ومن ثم يجب تدعيمها بوحدة مدرعة قوية. ومن هنا كان لابد من التعجيل بإرسال الجنود الألمان بطريق الجو.

كل ذلك كان كافياً تماماً. وسنرى أن التفكير كله كان دفاعاً لا أكثر ولا أقل. وقد قال هتلر فى خطاب بعث به إلى موسولينى فى ٢٨ شباط: «إذا نحن تذرعنا بالصبر خمسة أيام أخرى، فإننى على يقين من أن أية محاولة بريطانية جديدة للتقدم نحو طرابلس، لابد أن يكون نصيبها الفشل وإننى لأشكر لك يا عزيزى الدوتشى، أن جعلت وحداتك الميكانيكية تحت تصرف الجنرال رومل. وأن رومل لم يخذلك، وإننى على يقين من أن جهوده فى المستقبل القريب ستكلل بالنجاح، وآمل أن نحوز رضا جنودك، وأعتقد أن وصول الكتيبة المدرعة الأولى سيكون تدعيمها قوياً لمركزك».

كيف ينظر هالدر إلى رومل؟

وهكذا تحقق هتلر من أهمية بقاء شمال إفريقيا فى قبضة يده. ولكن هتلر وقيادته العليا لم يدركوا إمكان غزو شمال إفريقيا، كما أنهم لم يدركوا النتائج البعيدة التى تترتب على هجوم موفق على مصر. فهالدر مثلاً، لم ينظر مطلقاً إلى الحملة التى جردت على شمال إفريقيا، نظرة جدية، فلم

يعتبرها أكثر من حركة سياسية الغرض منها إبقاء الإيطاليين مشتركين فى الحرب، ولهذا فإنه لم يكن يعتقد أن خسارة ثلاث فرق أو أربع فرق، ليس ثمناً غالياً. وقد ذكر هالدر فى أثناء استجوابه أنه لم يكن يشك فى أنه لو أتيحت للألمان فرصة الهجوم لسارعوا إلى انتهازها. ولكنهم نظروا إلى هذه المسألة كلها على أنها محاربة لكسب الوقت!

ثم مضى فقال: «وقد تحدثت أخيراً إلى رومل فى هذا الشأن، فى ربيع سنة ١٩٤٢. فصرح لى فى ذلك الحين بأنه سيغزو مصر وقناة السويس، ثم أخذ يتحدث لى عن شرق إفريقيا. لم أستطع أن أحول دون ابتسامة ساخرة علت شفتى، فسألته عما يحتاج إليه لمثل هذه العمليات العسكرية جميعاً. فذكر أنه سيحتاج إلى فيلقين مدرعين آخرين. فسألته قائلاً:

«لو فرضناجدلاً أن لديك هذين الفيلقين، فكيف تمد هذين الفيلقين بالطعام والمؤن؟»».

فأجابه بقوله: «هذا لا يعنينى. إنما يعنيك أنت!». وأضاف هالدر إلى ذلك قوله: ولما أخذت الأحوال تزداد سواء فى إفريقيا، راح رومل يطالب بمعونة عسكرية أكثر. ولكن إذا استطاع التاريخ أن يفسر لنا الخيوط الرئيسية لما جرى على المسرح الإفريقى، إذن لحقق معجزة، لأن رومل تمكن من أن يجعل الأمور على صورة مهوسة حتى ليصعب على أى إنسان أن يعرف لها أولاً أو آخر».

إن رومل ميت الآن. ولكن تفسير هذا الذى دار فى إفريقيا ليس من الصعوبة كما توهم الزعيم هالدر. كما أن حكم التاريخ لا يمكن أن يرضيه كما يظن. فالتاريخ لا يقدّر تقديراً عالياً أولئك الذين يشغلون مناصب رئيسية وتتأثر أحكامهم بما لهم من أهواء شخصية. وليس ثمة شك فى أن هالدر كان يكره رومل، والدليل على ذلك واضح فى لهجته خلال حديثه السالف الذكر، وفى توخيه الخبيث تسمية الفرقتين المدرعتين اللتين طلبهما رومل باسم «الفيلقين». ثم إن هالدر قد تحدث عن حوار دار بين رومل وبينه

فى ربيع سنة ١٩٤٢، ولم يشأ أن يذكر أن رومل طلب فى ٢٧ تموز سنة ١٩٤١ ولأول مرة، أن يأذن له هتلر فى القيام بهجوم هدفه قناة السويس، على أن يكون ذلك الهجوم فى شباط سنة ١٩٤٢.

ومما هو جدير بالذكر هنا، أن الألمان كانوا يستخدمون مائتى فرقة فى الجبهة الروسية، ثم أرسلوا ثلاث فرق إلى تونس فى خلال ثلاثة أسابيع، بعد نزول قوات الحلفاء فى شمال أفريقيا فى تشرين الثانى سنة ١٩٤٢.

أما مسألة التموين التى سأل هالدر رومل بشأنها، فإن هالدر لم يشأ أن يذكر أن رومل كان وحده الذى رأى ماعميت عنه بصائر القيادتين الألمانية والإيطالية على نحو غريب، اللهم إلا بعد وقت طويل!. فقد رأى رومل أن مفتاح كل مشاكل إمداد الجيوش، ومفتاح حوض البحر الأبيض المتوسط، هو الاستيلاء على مالطة!

وأخيراً، فإن من الطبيعى ألا يذكر هالدر أن رومل كان يسميه بالأبلة، وأن رومل سأله ذات مرة عما أداه من خدمات للحرب، ما عدا التهالك على مقعده!.. ولعل هالدر لم ينس ذلك لرومل.

كانت قصة الحرب فى شمال إفريقيا، صراعاً لا ينتهى بين رومل الذى رأى إمكان القيام بانتصار عسكرى فى الصحراء، والذى حقق هذا الانتصار، والقيادة العليا التى لم تنظر إلى الحملة الإفريقية نظرة جدية قط. فقد كانت كل الظروف ضده فى هذه الحملة. فكان بعيداً عن ألمانيا، يتوغل فى الصحراء. والغائب، كما يقول المثل، مخطئ دائماً. لم يكن رومل ضابطاً فى القيادة العليا، ومن أجل هذا كان مثاراً لسخط الضباط المحترفين.

وفى المناسبات النادرة التى كان يلتقى فيها بهتلر، لم يكن يجده وحده. وحتى عندما كان يجده وحده، كان يجده مشغولاً بالحرب الروسية. ثم يربت هتلر على كتفه، ويعده بمساعدة، ولكن رومل أدرك أن أى تأثير يحدثه فى

نفسية هتلر، سيمحوه هؤلاء الضباط الذين التفوا حول هتلر.

لقد كان كل من: كيتل، وبودل، وهالدر، بالغى الحقد على رومل، وعلى حب هتلر والشعب الألمانى له، وعلى سجله الرائع فى الحرب. ولاشك فى أنهم حسدوه أيضاً على استقلاله فى قيادته العسكرية، بعيداً عن متناول هتلر، وبعيداً عن منالهم أيضاً!

وكانت أسهل طريقة لدى كايتل وصحبه فى الحط من شأن رومل، هى إظهاره بمظهر الرجل الذى لا يؤبه لآرائه عن الحرب، رغم أن فى استطاعته أن يصبح أحسن قائد فى الميدان.

وكان رومل من ناحيته يحمل فكرة جد بسيطة عن كايتل وهالدر. ولم يكن فى هذا النظر لوحده. فقد كان الأمير فون بسمارك يدعو كايتل بالأبله. وكان الفون هازل يقول عنه: إننى وجدته غبياً ضيق التفكير غير ناضج سياسياً، ومن ذوى الدرك المنحط فى موقفهم إزاء الحزب».

وقد وصف الفوهرر كايتل بأنه «رجل يحمل عقلية بواب قذر».

أما هالدر الذى كان يبدو عليه أنه يحتفظ بسيادة ممتازة بين ضباط هيئة الجيش العليا، فقد كان انطباع الفون هازل عنه- وقد رآه أول مرة سنة ١٩٤٠- أنه: رجل خائر ذو أعصاب محطمة، وهو لم يكن أكثر من خادم بالنسبة لهتلر.

وكان الفون بيك الذى تولى رئاسة هيئة الأركان العليا قبل هالدر يقول عن هالدر، إنه محض مزاحم فنى لا شخصية له البتة.. وأن اشتراكه فى مؤامرة ضد هتلر. أظهرته بمظهر من كان على شفا جرف هار، وإن كان غير راغب فى الوقوع.

أما بودل الذى كان ينعم بعقلية وسلوك الكثيرين من أفراد تلك الجماعة فقد اعتبر الحرب لعبة شطرنج، فقد كان عمله إنتاج الطائرات، وليس طلب

الأوامر. وقد كان الثلاثة كايتل، وهالدر، وبودل متأكدين من سياسة هتلر البربرية فى روسيا وفى أى مكان غزاه.

وقد حوكم كل من كايتل وبودل فى نورمبرج وصدر عليهما حكم الاعدام شنقاً. أما هالدر الذى اتهمه فون هازل بأنه هو الذى كان يصادق على أوامر التعذيب التى صدرت بحق الروس، فقد كان أسعد حظاً من زميليه. وقد يكون عدم شنقه يعود إلى أنه أمضى بضع سنوات فى معسكرات الاعتقال، أو لأنه كان مرؤساً فيما سبق، أو لأن الحلفاء احتاجوا إليه لاستخدامه بمثابة شاهد ضد أسياده، وهذا ما وقع فعلاً.

لقد احتقر رومل أولئك الثلاثة، وكان يصفهم بأنهم جنود مقعدون لا فائدة للحرب فيهم. لقد احتقرهم بسبب تعلقهم بالحزب، وعندما علم ما تم على أيديهم ازداد احتقاره لهم لأنهم لوثوا شرف الجيش الألمانى.

وسترى كيف أن رومل لم يخف أن يحتج لدى هتلر على الفظائع التى يرتكبها الألمان. وإذا صح أن يحكم رجال على عدو مبين لهم، فإن هؤلاء الثلاثة كانوا خير دليل على عظمة رومل. وقد كان من حسن حظ الحلفاء أنهم كانوا فى ذلك الوقت متحصنين فى مقر قيادتهم.

ولقد تحالف جميع أولئك المصابين بمرض فى قلوبهم، ضد رومل وخاصة بعد أن قويت صلته بالفوهور، وبعد أن عين قائداً للقوات الألمانية فى ليبيا، فى الخامس عشر من شباط سنة ١٩٤١، وهو الذى انحدر من العوام.

وكان التلميح الوحيد الذى بدر منهم، قد صدر من الفيلد مارشال براواشتش، فى تصريح أفضى به فى برلين، وقبل أن يرى رومل هتلر. فقد قال الفون براوشتش لرومل: إن مهمته فى إفريقيا محض مساعدة الإيطاليين، الذين سيتولون القيادة العليا لجميع العمليات فى شمالى إفريقيا، ولمنع البريطانيين من التقدم إلى طرابلس. والحقيقة أن القوات الألمانية كانت

«وحدات محجوزة»، وعندما تفحّص رومل ما حواليه وجد أن من المستحسن أن يتقهقر، وأن يكتب للقيادة فيما إذا كانت بحاجة لتلك الوحدات فعلاً.

كان من المقرر أن يصحب رومل فى سفره إلى إفريقيا، الجنرال شمتدت المساعد العسكرى لهتلر، ولكنه كان يشك فى قدرته على تقديم تقرير إلى الفوهور قائماً بذاته. وقد ثبت أن شمتدت كان صديقاً حميماً لرومل، وأنه كان يشفق على رومل، لمحبته إياه ووثوقه به جهد استطاعته.

كان شمتدت أصغر ضابط، رائع المنظر، ذكياً جداً، حلو الكلام هادئاً، كثير الطموح والتطلع إلى المجد. وقد عيّن فى منصبه ذاك بناء على اقتراح تقدم به شقيق كايتل. وخلف شمتدت فى منصبه العميد «هوسباخ»، الذى استقال بسبب مضايقة دبرها هملر ضده، إذ دفع «هملر» (فون فريتش) إلى اتهام هوسباخ بتعاطى اللواط. ولم يكن أصدقاء شمتدت ليعرفوا عنه أنه كان نازياً متحمساً، غير انه أصبح قبلة أنظار الفوهور نفسه ومن المعجبين به.

إن هذه العلاقة مع شمتدت توضح لنا كيف كان رومل يحتفظ بتصوراته عن هتلر. فحتى من رومل ذاته، لم يسمع شمتدت ولا كلمة واحدة ضد الفوهرر. وإذن فما أعظم الأخطاء التى وقع فيها كل من جورنج وهملر وبورمان وكايتل وهالدر وبودل؟.

فقبل محاولة اغتيال هتلر فى ٢٠ تموز ١٩٤٤ بأيام- وكان رومل آنذاك فى خلاف مع هتلر بسبب تشاؤمه من الحرب- بعث شمتدت ببرقية إلى رومل يقول له فيها «كن على علم أن باستطاعتك الاعتماد علىَّ دائماً». وقد كان شمتدت مع هتلر فى غرفته، عندما انفجرت القنبلة التى أريد بها اغتيال الفوهرر، وقد توفى شمتدت بعد تلك الحادثة بشهرين، وقيل فى حينه إنه مات متأثراً من جراحه، ولكن رومل لم يصدق تلك الرواية مطلقاً.

وفى الوقت ذاته كان رومل- كبقية كبار الضباط- غير مطمئن على

سلامته. فعندما سمع بتعيينه فى إفريقيا، كتب إلى زوجه يخبرها بوجهة عمله، ومما جاء فى رسالته تلك قوله «الآن سيصبح فى استطاعتى ان اعالج الروماتيزم الذى أشكو منه» ذلك لأن زوجة رومل كانت تتذكر قول الدكتور الذى عالجه أثناء حرب فرنسا، ونصيحته له بأنه يحتاج إلى ضوء الشمس وأن عليه أن يكون فى إفريقيا.

■ ■ ■

الفصل الثالث عشر

ينتصر ولا تعرف انتصاراته

خط بيانى متعرج- بين رومل وويفل- سيادة الألمان الجوية

الآن وقد صحبنا رومل فى شمال إفريقيا أكثر من سنتين. أصبح من السهل علينا أن نتتبع الخط البيانى، الذى يبين مدى ما أحرزه خلالهما من نجاح.

وسنرى ارتفاعاً كبيراً واضحاً، فى هذا الخط البيانى، وذلك حين أحرز رومل أولى انتصاراته فى نيسان سنة ١٩٤٢، ثم يعقب هذا الارتفاع هبوط ضئيل، حين لم يواته التوفيق فى الاستيلاء على طبرق فى اليوم الأول من آيار، وبعد الهزائم التى مُنى بها أمام الهجمات اليسيرة التى قام بها الجنرال ويفل فى منتصف كل من آيار وحزيران.. تأتى بعد ذلك سلسلة من الهبوط والصعود السريعين، كتلك التى يرسمها جهاز تسجيل الزلازل، عند نهاية شهر تشرين الثانى وبداية كانون الأول، ثم يعقب هذه السلسلة هبوط كبير، حينما انهزم رومل هزيمة سافرة أمام الجنرالين أوكنلك وريتشى، وارتد على عقبيه إلى حدود برقة. وأخيراً نعود فنرى فى ذلك الخط البيانى صعوداً كبيراً آخر، حين قام رومل بهجمات مضادة سريعة موفقة فى كانون الثانى وشباط سنة ١٩٤٢، فارتد البريطانيون إلى غزالة، واستعاد رومل ثلثى الطريق الذى كان قد بلغه فى نيسان السابق!

وفى نهاية شهر آيار، نرى فى الخط البيانى هبوطاً استمر بضعة أيام، وكان من الممكن أن يؤدى إلى كارثة، ثم نرى أعظم صعود فى ذلك الخط عقب الانتصارات المثالية التى أحرزها رومل فى مدى شهر، فاجتاز طبرق والحدود المصرية، ومضى حتى بلغ العلمين وأبواب الإسكندرية، بعد سقوط مرسى مطروح والضبعة!

ومن هذه القمةالتى اعتلاها رومل، بدأ، بعد أن أوقف الجنرال أوكنلك تقدم الألمان يتوالى انحداره فى بطء لا يكاد يشعر به، وان كان نذير سوء، ثم ازداد الانحدار بانتصارات الجنرال مونتجمرى فى الحلفاية فى آب، وفى العلمين فى أوائل تشرين الثانى وظل الخط البيانى يسجل استمرار ذلك الانحدار لرومل إلى أن بلغ به نهاية الهاوية، حين ألقت البقية الباقية من جنود الفيلق الإفريقى سلاحها فى تونس فى الثانى عشر من شهر آيار سنة ١٩٤٣، وكان رومل قد طار إلى ألمانيا قبل ذلك بشهرين، ليحاول أن يقنع هتلر بعمل شىء لإنقاذ حياة جنوده على الأقل، ولكن محاولاته ذهبت مع الريح.

ولئن كان تتبع ذلك الخط البيانى لمعارك رومل فى الصحراء، قد بدأ يسيراً هيناً كما رأيناه، فإن من العسير علينا حقاً أن نتتبع سير تلك المعارك نفسها، بل إننى لأعتقد أنه ليس من المجدى ها هنا أن نصف هذه المعارك بالتفصيل مرة أخرى. فهؤلاء الذين يريدون أن يعرفوا أين كان اللواء المدرع الرابع، عند فجر السادس والعشرين من شهر تشرين الثانى، عليهم أن يلتمسوا ذلك عند المؤرخين الرسميين، أو فى السجلات التأريخية للجيش. أما الذين يريدون أن يروا صورة بارزة لتلك المعارك، فخير لهم أن يقرأوا أو يعاودوا قراءة كتاب «الثالوث الإفريقى» لمؤلفه «آلان مورهد»، أو كتب بعض المراسلين الحربيين الممتازين الذين رافقوا القوات البريطانية، وذلك لأنهم كانوا يكتبون وصف تلك المعارك تحت ضغط الحوادث، وفى وقت سرت فيه إلى نفوسهم روح الصحراء، على أننى فى قصة رومل قائد الفيلق الإفريقى

هذه. لا أجدنى بقادر على أن أطرح جانباً ما دار من المعارك فى شمال إفريقيا. فعلى القارئ أن يربط بين ميدانى بنغازى، والأماكن الغريبة التى طرقها المتحاربون، ومنها الطريق الساحلية القديمة وطريق الصحراء العتيقة. كما ان على القارىء أن يعرف أن عليه أن يقطع جزءاً من تلك الطريق فى سيارة·نقل ألمانية.

واننى لأذكّر هنا بأنى قد أنبأت المستر «آلان مورهد» بأننى أفكر فى تأليف هذا الكتاب، فاقترح أن أتصل بفنان المانى اسمه «فسلز» كان مرافقاً لرومل فى شمال إفريقيا، وكان من رأى آلان مورهد أن اللوحات التى رسمها فسلز بالألوان المائية للصحراء الغربية هى أروع ما رآه.

وقبل أن أهتدى إلى عنوان ذلك الفنان الألمانى، سافرت إلى ألمانيا كى امكث فى معكسر الاعتقال العاشر فى «أيزرلوهن» بضعة أيام، وأقوم بالبحث عن فسلز هناك.

وعند وصولى المعسكر المذكور، لقينى أحد الأصدقاء القدماء ممن كانوا ضمن أسرى الحرب الذين وضعناهم فى معسكر الاعتقال التاسع والعشرين فى إيطاليا، وقد أنبأت هذا الرجل أننى أود اللقاء بفنان ألمانى يدعى فسلز رافق رومل فى حرب الصحراء، فاخبرنى ذلك الرجل بأن فسلز يعيش فى «أيزر لوهن» وفى عصر اليوم نفسه لقيت الرجل، فوجدته فناناً ممتازاً، ذا أخلاق محببة إلى النفس. ولما أخبرته بما أريد، نصحنى بمقابلة الجنرال «فون أيزيك» الذى كان قائداً فى فترة من الفترات للفرقة المدرعة الخامسة عشرة فى الصحراء، والجنرال «فون رافنشتين» قائد الفرقة الحادية والعشرين. وقال الفنان الألمانى: إنهما يسكنان بيتين متقاربين على مدى خمسمائة ياردة من البيت الذى كنت فيه.

ورغم أنى اشتركت فى حربين ضد الألمان، فلم أكن أعرف الكثير عن الألمان. ومما لا شك فيه أننى لم أقابل ألمانياً برتبة جنرال، اللهم إلا رومل،

وقد كان لقائى بروميل رسمياً ولبضع ثوان. وان كراهيتى لتلك الطبقة المسئولة إلى حد بعيد عن تلك السنوات العشر المرهقة العقيم، لا تقل عن كراهية أكثر الناس لها. ولكننى بعد أن لقيت الجنرالين السالفى الذكر وجدتهما مقبولين إلى حد غير قليل.

كان الجنرال «فون أيزيك»: شيخاً تقدمت به السن، ظاهره الهدوء، يعيش لوحده فى حجرة فى الطابق الأخير، وقد علق على حوائط حجرته، لوحات لأجداده فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولقد جرح فون أيزيك فى وجهه، من جراء إحدى شظايا قنبلة انفجرت بالقرب من طبرق سنة ١٩٤١. وبعد أن التأم جرحه أرسل إلى الجبهة الروسية، وألقى القبض عليه حتى حامت حوله الشبهة فى ٢٠ تموز سنة ١٩٤٤، ثم أودع معسكرات الاعتقال.

أما الجنرال «فون رافنشتين» فأنت إذا رأيته فى الطريق، رأيت رجلاً ارستقراطياً، ولكنه من طراز مختلف أشد الاختلاف، ورغم أنه اشترك فى الحربين الماضيتين، كان يبدو دون الخمسين من عمره، ولا يزال قادراً على الاشتراك فى حرب ثالثة!

وقد أبلى الرجل فى الحربين بلاءً حسناً. وفى حزيران سنة ١٩١٨، منح وسام الاستحقاق لشجاعته فى القتال، بعد أن منح رومل ذلك الوسام بثمانية عشر شهراً. وقد اعتزل الرجل عمله العسكرى بين الحربين، وأصبح رئيساً لإحدى وكالات الأنباء فى دويسبرج. ثم عاد إلى الجيش برتبة عميد سنة ١٩٣٩، وقاد وحدة مدرعة فى بولندا. وبعد أن حارب فى بلغاريا واليونان فى شهرى آذار ونيسان سنة ١٩٤١، انتقل إلى الصحراء ليقود إحدى الكتائب المدرعة فى الفرقة الحادية والعشرين المدرعة، ثم قام بقيادة هذه الفرقة قبل معركة ممر الحلفاية والسلوم فى حزيران.

وكان الفون رافنشتين هو الذى قاد الهجوم المشهور الذى قام به رومل فى يومى ٢٤ و٢٥ تشرين ثانى سنة ١٩٤١، ولكنه ما لبث أن وجد نفسه

فجأة، وعلى غير إرادة منه، فى صفوف الفرقة النيوزيلندية. وكان ذلك فى فجر يوم ٢٨ من ذلك الشهر. وقد قال لى: «لقد كان ذلك شيئاً مروعاً، لأننى كنت أحمل معى خريطة رئيس أركان الحرب، وفيها كل ما أعددنا من خطط واستعدادت، ولم تكن لدى فسحة من الوقت لتمزيقها أو إتلافها. ولما أيقنت أنه ليس ثمة مخرج، اعتزمت أن أسمى نفسى العميد شميت، وكنت آمل الا يفطن القوم الى ما اعلقه من شارات واشرطة تدل على رتبتى العسكرية، ولكنهم اخطأوا فظنونى الجنرال فرايبورج. ولعلك تعرف أننا معشر الألمان نذكر اسماءنا عندما نقدم انفسنا. وهذا ما حدث تماماً، فقد ضربت زوج حذائى ببعضهما البعض، ثم انحنيت، وقبل أن أتمالك نفسى قلت: فون رافنشتين، جنرال!».

ولقد بلغ فون رافنشتين كندا أخيراً. وفى طريقه إليها أعد محاولة للاستيلاء على السفينة التى كانت تقله. ولكن خطته اكتشفت فى اللحظة الأخيرة من قبل ضابط برتبة نقيب وعلى الرغم من أنه لم يعد إلى ألمانيا إلا فى سنة ١٩٤٨، فهو لا يشكو من شىء. فقد عومل معاملة حسنة تماماً.. وبعد الحرب أعطيت له الحرية الكاملة. قال وهو يحدثنى بعد أول لقائى معه: «لا نقص هناك فأنا مازلت أستطيع تزويدك بسيكار من تبوغ هافانا اذ أننى مازلت أحتفظ ببضع صناديق منها». فهو الآن يعيش فى دار بمدينة أيزرلوهن، فى جو من الراحة والهدوء، وإن كانت تساكنه فى تلك الدار عائلتان. وهو لا يزال يحتفظ بقطع جيدة من الأثاث، وصور أجداده معلقة على الجدران. وزوجته الكونتس البرتغالية أكثر إجادة للإنجليزية والفرنسية منه. وقد عاد من جديد رئيسا لوكالة الأنباء التى كان يعمل فيها قبل الحرب.

ولما كانت الفرقة الهندية الرابعة قد قاست زمناً عصيباً، على يدى فون رافنشتين عند سيدى عمر، قبل أن يقع فى الأسر، فقد اقترحت عليه أن أبعث له بصور فوتوغرافية أخذناها، إبان هجماته غير الموفقة علينا، لسبع

من دبابته وقد اشتعلت فيها النيران!

ثم قابلت الجنرال فريتس بايرلاين، عن طريق مكتب القسم التأريخى الأمريكى فى فرانكفورت، وقد وجدته، وهو فى الخمسين من عمره، ممتلأ نشاطاً وحماسة. وقد اشترك فى الحرب العظمى الأولى وهو فى السادسة عشرة من عمره، جندياً عادياً، وحارب ضد البريطانيين، كما ساهم فى الهجمات الألمانية حول كيمل فى آذار سنة ١٩١٨، واشترك فى المعارك الفاصلة على السوم وحول بابوم وكمبارى فى الصيف. وبعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها لم تكن لديه أية فكرة عن معاودة الاندراج فى سلك الجندية.. ولكنه لم يجد شيئاً يعمله، فعاد إلى الجيش سنة ١٩٢١، ودخل إحدى الكليات الحربية من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٥، ثم انتقل بعد ذلك إلى إحدى الفرق المدرعة.

ولعل فريتس باير لاين كان أكثر من رومل والجنرالين السابقين، اشتراكاً فى حرب متصلة عنيفة فى الصحراء الغربية، فلقد جاء إلى إفريقيا من جيش جورديان المدرع فى روسيا فى تشرين أول سنة ١٩٤١، ولم يغادر الصحراء إلا فى آيار سنة ١٩٤٢ حينما جرح، ثم طار إلى المانيا قبل النهاية. ولقد كانت تلك الشهور التسعة عشر ملأى بقتال مستمر. وظل فريتس بايرلاين ضابطاً فى هيئة أركان حرب الفيلق الافريقى حتى آيار سنة ١٩٤٢، حين جرح الجنرال غاسى فأصبح هو رئيساً لهيئة أركان حرب رومل، وظل فى هذا المنصب حتى النهاية، اللهم إلا خلال الأسابيع الخمسة الأخيرة بعد أن وقع الجنرال فون توما فى العلمين، فاقتاد هو الفيلق الافريقى أثناء تقهقره.

ومن الواضح تماماً أن يكون الجنرال باير لاين خير حجة فى شئون المعارك الإفريقية. ففى المقر الامريكى فى «أوبر اوزل»، نشر أمامى الخريطة المعتادة للصحراء، من أجدابيه إلى العلمين، وذكر لى أن هذه هى المرة الأولى التى يسأل فيها عن إفريقيا، كما أنها المرة الأولى التى يلتقى فيها بضابط بريطانى كان يحارب هناك. ولقد كان الجنرال باير لاين حجة أيضاً فى كل

ما يتعلق بالمارشال رومل. ذلك أنه قبل أن يعيش معه خلال تلك الشهور فى الصحراء فى أماكن متقاربة، كان قد عرفه جيداً فى مدرسة المشاة فى درسدن، من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣٣. ولقد قضينا يوماً طويلاً نتذاكر الصحراء، وإننى أعتذر عن حبى للجنرالات الألمان، فما ينبغى لى أن أفعل ذلك، ولكننى أحببت الجنرال باير لاين فى النهاية!. فمن هؤلاء القواد الثلاثة، ومن غيرهم، استقيت أخبارى عن الجانب الألمانى لسيرة رومل.

ذكرت من قبل أن الجنرال ويفل أو هيئة أركان حربه، قد أخطأت التقدير حين ارتأى أن رومل لن يتمكن من شن هجوم، فى ربيع سنة ١٩٤١، على هذه الصورة الباكرة التى قام بها. واذا كانت هيئة أركان حرب رومل قد أخطأت، فإن قلم المخابرات السرية البريطانية معذور ولاشك، إذا نحن علمنا أن رومل لم يفاجىء قلم المخابرات فقط، بل فاجأ حتى رؤساءه فى برلين. لأنه شن هجومه فى ٣١ آذار، ولم تكن القيادة العليا قد طلبت إليه إلا فى ٢١ من ذلك الشهر، أن يهيئ خطة لإعادة الاستيلاء على برقة، وأن يعرض هذه الخطة للنظر فيها فى موعد لا يتجاوز العشرين من نيسان، لتكون خطة محكمة.

وكانت القوات البريطانية العاملة ترى أن رومل لن يذهب إلى ما وراء أجدابية، إلا إذا وصلت الفرقة المدرعة الخامسة عشرة، ولابد أن يكون هالدر وهيئة أركان حربه، قد أمضوا أسبوعاً أو أسبوعين فى دراسة هذه الخطة، ناظرين إليها نظرة الناقد الذى يتسقط هفوات خصم له. ولكن الفرصة لم تتح لهم. فقبل أن تصل إليهم الخطة بتسعة أيام، تمكن رومل من غزو برقة من جديد، مع استثناء طبرق، ثم بلغ الحدود المصرية!.

لقد قام رومل بأكثر مما كان منتظراً أن يطلب إليه أو يحاول القيام به، لو أنه انتظر الإذن من برلين. ولقد تجاهل رومل حتى هتلر. وفى الثالث من شهر نيسان أبرق إليه هتلر ناصحاً له، بأن يكون حريصاً على ألا يقوم بأى هجوم واسع النطاق قبل أن تصل إليه الفرقة الخامسة عشرة المدرعة، وكان

عليه بصفة خاصة ألا يعرض جناحه للعدو حين يستدير مهاجماً بنغازى.

وقد كان ممكناً أن يغفل روميل الشق الأخير من أمر هتلر آمناً، وذلك لأن بنغازى كانت قد أُخليت فى اليوم الذى وصلته فيه برقية هتلر.

أما الفرقة الخامسة عشرة المدرعة، فكانت قد نزلت إلى طرابلس، ويمكن أن يقال إنها «قد وصلت».

وقد قال لى ضابط قدير كان يعمل مع قلم المخابرات السرية فى القاهرة «إن روميل لسوء الحظ قد قامر وكسب. ولو انه اتبع القواعد والأوامر الصادرة إليه، ما قام بمثل ذلك الهجوم وعلى هذا النحو من السرعة».

ولاشك أن مثل هذه اللهجة فى الحديث عن روميل، مما يروق للعميد «هالدر» ولقد كان أمير اللواء وليامز الذى صار فيما بعد رئيس قلم المخابرات الخاص بالجنرال مونتجمرى، فقائداً لفيلق الحرس التابع للفرقة المدرعة الثانية، يشاطره فى هذا الرأى، إذ قال: إننى أعتقد أن روميل بدأ بتكتيكات سريعة ثم وجد من اليسير عليه أن يستولى على «العقيلة»، ذلك لأننى أتذكر هذا الأمر جيداً، لأننى كنت فى حصن العقيلة، عندما استولى روميل عليه، ثم بعد ذلك قام بخطة استكشافية انتهت إلى هجوم موفق.. ومما لا شك فيه أن روميل ما كان من الممكن له أن يجرؤ على مهاجمتنا بتلك السرعة التى قام بها».

وهكذا ظهر روميل لأول مرة على مسرح الصحراء فهذه السرعة التى غزا بها برقة، كان لها أثر قوى حتى فى نفوس الخبراء العسكريين، بل كان لها أثر قوى مؤلم فى نفوس عامة الناس الذين يقيسون الانتصارات على صفحات الخرائط، مع أن الأرض فى الصحراء لا تعنى إلا شيئاً تافهاً. ولكى يسهل عليك فهم هذه المعارك، ما عليك إلا أن تتصور أنها معارك بحرية وليست برية. فالعدو الذى تتعطل دبابته، يغير عليه اسطول الدبابات المنتصرة، فيظل هذا الأسطول يجرى إلى اقصى ما يسمح له البترول بذلك.

أما الشىء الذى روعنا حقاً فهو تلك السيادة الهائلة التى نالها السلاح الجوى الألمانى، ذلك لأنه من طراز رفيع. وقد ظلت هذه السيادة وذلك التفوق فى السلاح، إلى أن وصلت البريطانيين دبابات شيرمان قبيل معركة العلمين.

ولم تنل دبابات شيرمان تقدير القيادة العليا البريطانية، ولا الوزارة البريطانية التى كانت ترى العبرة بالكم لا بالكيف، أى أن كثرة الدبابات تغطى رداءة طرازها ولكن هذه النظرية، لا تجدى فى الصحراء على الأقل، ولقد امسك رومل بزمام قوته الدقيقة بجرأة وبراعة فائقتين. وله فى ذلك خبرة طويلة هائلة، فلقد اقتاد بنفسه فرقة مدرعة فى الحرب. وأسبوع فى القتال خير من ستة أشهر فى المناورات، وكان رومل يحارب جنوداً لا خبرة لهم ولا دراية، وقادة لم يروا مناورات على نطاق واسع، وذلك لنقص ما لدينا من الدبابات.

وفى كلمة واحدة، نستطيع أن نقول إن رومل كان يعرف من أمر مهمته أكثر مما نعرف نحن، وكذلك جنود دباباته!

ولقد قال أمير اللواء وليامز «إنهم كانوا يحاربوننا بأسلحة أخرى وأحسن من أسلحتنا، ولا أعتقد أنه كان من السهل وقف تقدم رومل أو صد زحفه». كما قال كذلك «لم يكن لدينا إلا مدافع مضادة للدبابات زنة رطلين، ومجموعة من الدبابات البالية». وحتى لو كانت هذه الدبابات جديدة، فانها كانت دون الدبابات الألمانية المدرعة فى الكفاية والقدرة.

ولقد التقى رأى رومل برأى الجنرال ويفل، نظيره فى الفن الاستراتيجى، وكان الإصرار على استقبال طبرق، عملاً جريئاً فى مثل هذه الظروف، ولكن دفاع حاميتها ذلك الدفاع القوى، كان ولا شك خطراً يتهدد مواصلات العدو، يؤدى إلى منع تقدمه، ولقد أدى الاحتفاظ بطبرق فى الواقع إلى هذه النتيجة- وربما يكون قد أنقذ مصر. ولطالما تحدث رومل مع ابنه منفرد عن الجنرال ويفل وقال له: «إنه قائد من طراز ممتاز، وهو عبقرى من الناحية العسكرية». ولقد وجدت فى مكتبة رومل بعض الكتب عن شمال افريقيا

لفوربنيوس، ثم كتباً أخرى لم تفتح أوراقها بعد، ولكنى وجدت مجلداً تدل صفحاته على أن روميل قد قرأه بعناية تامة، ذلك هو الترجمة الألمانية لكتاب ويفل عن «فن القيادة».

ولما كان روميل يقدر أهمية طبرق هو الآخر، فقد شن عليها هجوماً كاملاً فى أول آيار، حالما تم دعم قواته بالفرقة الخامسة عشرة المدرعة. ويقول النقيب الدنجر: إن الإيطاليين رغم أنهم كانت لديهم كل خطط الدفاع التى أعدوها بأنفسهم، فقد رفضوا استخدامها أو تنفيذها. وعلى أى حال فان الفرقة الاسترالية التاسعة، لم تكن ليفزعها روميل ولا غيره. ذلك لأن هذا الفن من القتال الذى يعتمد على الجرأة والمبادأة التى تقوم بها الجماعات والأفراد، هو ذلك الفن الذى يتقنه الاستراليون. ومن أجل هذا صدم روميل، ورد بقوة، متكبداً خسائر فادحة فى الرجال والدبابات. فوجدت القيادة الألمانية العليا فرصة للشماتة به، وذكّرته مرة أخرى بأن الاستيلاء على برقة، هو المهمة الرئيسية الأولى للفيلق الإفريقى، وليس من المهم أن يستولى على طبرق والسلوم والبردية. وأن استمرار الزحف إلى مصر ليس له إلا أهمية ثانوية.

وفى منتصف آيار، وقبل أن تنزل إلى الشاطىء إمدادات أخرى من الدبابات الجديدة الآتية من انجلترا، رأى الجنرال ويفل «أن أمامه فرصة سانحة وظروفاً مواتية لمهاجمة جنود العدو الذين تقدموا على الحدود المصرية بالقرب من السلوم». فقام ويفل ببعض العمليات الصغيرة مستخدماً دبابات كروزو وأخرى غيرها، «فاستولى على السلوم وكابوتزو. وفى اليوم التالى قام روميل بقواته وأرغم البريطانيين على الانسحاب. وفى يوم ٢٧ آيار تقدم روميل فى ممر الحلفاية، وهو المكان الوحيد، إذا استثنينا السلوم، الذى تستطيع الدبابات أن تصعد فيه إلى تلك الهضبة التى يبلغ ارتفاعها ٢٠٠ قدم، وتمتد خمسين ميلاً إلى الجنوب الشرقى فى الصحراء الغربية.

وكان الجنرال ويفل ما يزال مصراً على إنقاذ برقة. يضاف إلى ذلك أن

لندن كانت «تستحثه أن يهاجم دون أدنى تأثير» وليس من الصعب أن تحدس، من الذى كان يستحثه فى لندن. وكان الجنرال ويفل حينئذ قد تلقى دبابات جديدة كافية ليزود بها الفرقة السابعة المدرعة، التى لم تشترك فى القتال كفرقة منذ الانتصار على غرازيانى. ولقد كانت هذه الفرقة تعانى النقص فى معداتها، بحيث إنها لم تكن تملك دبابات، ولا أجهزة للإرسال لتواصل تمريناتها وتدريباتها العسكرية. ولقد كان بعض هذه الدبابات الجديدة من طراز لم يشاهد فى الشرق الأوسط، كما أن بعضها كان يعوزه الاختبار للتحقق من صلاحيته، وكان يجب أن تكون جميع هذه الدبابات مزودة بالأجهزة التى تحول دون نفاذ الرمال إلى داخلها، وكانت فى حاجة إلى تمويه لتخفيها عن عيون الطائرات. وكان جنودها غرباء بعضهم عن بعض، وكذلك كانت دباباتهم غريبة عنهم».

وكنا نقدر عدد الدبابات التى لدى الألمان بمائتين وعشرين دبابة متوسطة الحجم وسبعين دبابة خفيفة، وذلك مقابل مائتين من الدبابات البريطانية تقريباً. ومن هنا كان العزم على الهجوم جريئاً ولا شك. يضاف إلى ذلك أن الجنرال ويفل كان عليه أن يؤلّف بين لواءين مدرعين: أحدهما مزود بدبابات من طراز تتراوح سرعته بين ١٥ و٢٠ ميلاً فى الساعة، وأقصى طاقتها ان تعمل مسافة تتراوح بين ثمانين ميلاً ومائة ميل. والآخر مزود بدبابات من طراز «I»، سرعتها خمسة أميال فى الساعة، وأقصى طاقتها أن تعمل أربعين ميلاً. فكأن ويفل كمن أتى برجل وطفل، وأوقفهما جنباً إلى جنب، ثم ربط ساقيهما المتجاورتين، وطلب إليهما أن يشتركا فى سباق المائة ياردة!

وفوق هذا كله كان للألمان شىء آخر يعتزون به. أعنى ذلك المدفع الجبار من عيار ٨٨ مليمتراً الذى يستخدم لغرضين خطيرين. فهو مدفع مضاد للطائرات سريع الحركة، ويمكن استخدامه أيضاً ضد الدبابات، ويضاف إلى ذلك أن لدى الألمان عتاد حربى ينفذ فى الدبابات المدرعة، كما لو كانت قطعاً من الزبدة.

ويدل تقرير رومل عن «فرقة الأشباح» دلالة قاطعة، على أن هذا المدفع الجبار لم يستخدم ضد الدبابات البريطانية إلا بالقرب من آراس. ولكن المعلومات التى لدى البريطانيين تدل دلالة قاطعة ايضاً على أن هذا المدفع لم يستخدم فى آراس، واننا لم نصطدم به لأول مرة إلا فى ١٦ حزيران سنة ١٩٤١ فى الصحراء الغربية. وعلى أية حال فلقد ظل ذلك المدفع سلاحاً مروعاً، بل إنه ظل كالسحر تماماً لقادة الدبابات ولغيرهم إلى نهاية الحرب.

لقد كانت «عملية البلطة» بعد أن أحرزت بعض النجاح أول الأمر، فاشلة غاية الفشل. فقد خسرنا فيها أكثر من مائة دبابة. وكان بعضنا فى الوقت ذاته، يحارب دون سند من دبابات أو من ستار من الطائرات، فى سوريا وتطارده الدبابات والمدافع المضادة للطائرات التابعة لفيشى الفرنسية.. ولاشك أننا ابدينا اشد الاستياء عندما علمنا أن مثل هذه العملية التى تبدو تافهة تماماً، قد استخدمت فيها ستة اسراب من الطائرات المقاتلة، وأربعة أسراب من قاذفات القنابل، ومائتين من الدبابات. ولذلك فمن الطريف أن يكون الجنرال فون أزبك والجنرال فون رافنشتين والنجر قد قالوا، كل على حدة:

«إن هجومنا قد أولاه رومل غاية الاهتمام والعناية، واعتبره بالغ الخطورة». ويرى الجنرال فون رافنشتين أننا ارتكبنا خطأ جسيماً، حين «هاجمنا أقوى نقطة لدينا، وهى ممر حلفاية وخاصة بالدبابات، وأن التفافنا تحول الطرف الجنوبى للهضبة، كان يجب أن يكون أوسع نطاقاً ولو تناهى الى عملنا أمر المدافع من عيار ٨٨ مليمتراً التى اختبأت هناك، لكان من المحتمل أن نترك حلفاية وحدها، وإنما كان هذا المشط الهائل من صفوف دباباتنا هو الذى أُلزم دباباتنا من طراز «أ» التابعة للواء الرابع المدرع، لما لها من مدى محدود، بأن تنحرف شمالاً إلى كابونزو.

ومما يبعث على الرضا على الأقل أن «عملية البلطة» هذه قد ضايقت العدو. ولقد استمعت من الدنجر إلى قصة غريبة عن تلك الفترة.

فعندما ذهبنا إلى سوريا، أنكر الفرنسيون بشدة أنهم يساعدون الألمان. لقد كان الفرنسيون يقاومون تقدمنا، وكانوا على حد قولهم يفعلون ذلك لأننا نغزو أرضاً فرنسية. وأنهم كانوا سيقاومون الألمان مثلنا تماماً أو أى غازٍ آخر.

ولقد قضيت ثلاثة أيام أسيراً، بعد أن تحطمت سيارتى خارج «المزة» بالقرب من دمشق وسمعت مثل هذا التفسير من كثير من الضباط فى القيادة العليا الفرنسية، وكانوا يدلون به فى قوة وفى إخلاص ظاهر. أما حقيقة هذا الأمر، فلم أهتد إليها بعد، فلقد علمنا أن الفرنسيين، كانوا يمونون الطائرات الألمانية بالوقود فى طريقها إلى العراق، لتشد أزر ثورة رشيد عالى الكيلانى. ولم يكن يبدو فى ذلك الحين أنه يوجد أكثر من نفر قليلين من الألمان بالملابس العادية فى دمشق أو بيروت.

أما قصة النقيب فهى أنه قبل أو بعد «عملية البلطة»، هبطت طائرة فرنسية فى البردية قادمة من سوريا، وأدخل ملاحها فوراً إلى رومل ومكث عنده أكثر من ساعة، ثم عاد إلى سوريا مرة أخرى، فاذا صح هذا - والدنجر لا يكذب - فمن المحتمل أن يكون هذا الطيار قادماً من الجنرال دنتز قائد قوات فيشى الفرنسية.

■ ■ ■



الفصل الرابع عشر

رومل يريد احتلال البصرة

رأيه فى غزو مالطة- يهاجم طبرق دون أمر
يحاولون خطف رومل

ولت البقية الباقية من الصيف فى هدوء، وكان كل من الفريقين ينظم صفوفه ويستعد للقتال، ولم تكن الظروف فى ذلك الوقت مواتية لرومل. فالقيادة الألمانية العليا قد ركزت اهتمامها بالجبهة الروسية وحدها، وتخلت عن سواها، ولذلك فلم تكن تبدى أدنى اهتمام بالقتال فى شمال إفريقيا. ولم يكن مستبعداً أن يشن الألمان هجوماً على قناة السويس أو على إيران. ولكن هذا لم يكن لتفكر فيه القيادة الألمانية العليا على أية حال، إلا بعد أن تهزم روسيا، لأن مثل هذا الهجوم لا يتيسر إلا عبر الأناضول والقوقاز.

وإذن فلم يكن الدور الذى يقوم به الجيش الألمانى فى ليبيا سوى دور ثانوى للتدعيم، ولم يكن متوقعاً لذلك تزويده بفرق جديدة أخرى، ولا كان فى استطاعته تنظيم خطوط إمداداته إلا بمهاجمة جزيرة مالطة وإذن فليس على رومل إلا أن يقصر جهوده على وضع خطة يستولى بها على طبرق. فاذا سقطت فى يده، كان ذلك حسبه، وكان عليه أن يقف عند السلوم، دون التقدم إلى مصر. أما إن فشل فى الاستيلاء على طبرق، فعليه أن يبنى خطته على أساس الارتداد إلى الغزالة!

وكان كل من الألمان والبريطانيين ينظرون إلى رومل، على أنه- من الناحية العسكرية- ليس أكثر من شخص ماهر فى اقتناص الفرص، على أنه قد

يحسن التكتيك، ولكنه ليس أهلاً لأن تكون لديه أفكار عن الفن الاستراتيجى.

والواقع أن القول بأن رومل كان أعرف بالتكتيكات الكبرى منه بالأعمال الاستراتيجية، يكاد يكون صحيحاً. ولكن أليس من المدهش حقاً أن يعين رومل مدرساً فى بوتسدام، إذا لم يكن قادراً على استيعاب النظريات الاستراتيجية الكبيرة؟!

وهلا يكون أدعى للدهشة ألاّ يتعلم رومل شيئا من هذه النظريات خلال تلك السنوات التى قضاها هناك؟!

لقد أبدى رومل خلال تلك الفترة، من الخبرة الفنية الاستراتيجية أكثر مما يبديه الاستراتيجيون المحترفون!

ولقد ذكر لى «فون رافنشتين» أن الخطة التى وضعها رومل رسمياً فى تموز سنة ١٩٤١ للاستيلاء على قناة السويس، كانت خطة محكمة واسعة النطاق. وأن ذلك الهجوم أو التقدم الذى أحرزه رومل حينذاك، لم يكن سوى مقدمة لزحف آخر نحو البصرة، وكان الهدف الذى يرمى إليه من وراء ذلك هو وقف تدفق الإمدادات الأمريكية إلى روسيا عبر الخليج العربى. أما إمدادات رومل الخاصة بعد هذه المرحلة الأولى، فكان مقدراً لها أن تكون عبر سوريا. أضف إلى هذا أن رومل كان يرى أن تركيا قد ترغم على الانضمام إلى جانب ألمانيا إذا سارت الأمور على ما يرام فى روسيا وشمال إفريقيا لأن تركيا قد تهاجم وتستسلم فوراً.

وقبل أن يحكم القارئ على هذا المشروع بأنه وهمى أو خرافى، كما فعلت القيادة الألمانية العليا، التى لم تر إلا المرحلة الأولى منه، عليه أن يقرأ رسالة الجنرال أوكنلك رقم ٣٨١٧٧ عن حوادث الشرق الأوسط من أول تشرين ثانى سنة ١٩٤١ إلى ١٥ آب سنة ١٩٤٢.

وسيرى القارئ كم كان لدينا من الجنود لنحتفظ بسوريا بعد أن استسلمت قوات فيشى الفرنسية. وكم كان لدينا من الجنود فى العراق وإيران. وكيف كان من السهل على رومل أن يستولى على قبرص بجنود تنقلها الطائرات فى أى وقت قبل

صيف سنة ١٩٤٢، وكيف كانت جبهته الشمالية الشاغل الذى يشغله على الدوام. فقد كان روميل يخشى أن يشن هجوماً من القوقاز. ولكن حيثما كان هذا الهجوم ومن أية ناحية أتى، فإن قواتنا كانت من الضعف بحيث لا تستطيع الوقوف فى وجهه، وخاصة إذا كان الهجوم قوياً. ومن المناسب أن نتذكر أرقام هذه الإمدادات الأمريكية التى بلغت روسيا عبر الخليج العربى.

أما رأى روميل فى غزو مالطة، فكثيراً ما ذكر لهيئة أركان حربه، كما ذكر لزوجته فيما بعد، أنه لا يستطيع أن يفهم الأسباب التى جعلت القيادة العليا الألمانية تحجم عن الاستيلاء على مالطة، فى حين كان الاستيلاء عليها، فى رأيه، من الممكن أن يتم فى أى وقت خلال صيف سنة ١٩٤١ باستخدام الدخان الصناعى والجنود الذين تحملهم الطائرات.

ولعل من أسباب اهتمام روميل بالاستيلاء على مالطة أن ٥٣٪ من إمداداته كانت قد أغرقت فى آب، وأن ٦٣٪ منها أغرقت فى تشرين أول، ولم تصح القيادة الألمانية العليا من غفوتها فتدرك أهمية مالطة، إلا عندما ارتفع مجموع ما أغرق من إمدادات روميل إلى ٧٥٪ وحينئذ أدركت أن جزيرة مالطة تتحكم فى البحر الأبيض المتوسط. فأرسلت عدداً من زوارق الطوربيد، وعززت سلاح طيرانها فى صقلية. وكانت النتيجة أن الألمان فى أوائل سنة ١٩٤٢، أى حينما وضع روميل خطة هجومه، تمكنوا من الإشراف على المنطقة الوسطى للبحر المتوسط.

ويرجع جانب من هذا النشاط الألمانى إلى مساهمة أفراد الشبيبة الإيطالية، الذين شقوا طريقهم إلى ميناء الإسكندرية، وأغرقوا السفينتين الحربيتين البريطانيتين والوحيدتين «كوين إليزابيث» و«فاليانت» وهما فى مراسيهما.

ولم تشأ القيادة العليا الألمانية أن تعزز قوات روميل بفرق ألمانية أخرى. كما يبدو أنها لم تفكر حتى فى تعزيز قوات روميل. ويرى كسيلرنج أن القيادة الألمانية، رغم تمكنها من عزل مالطة وتعطيل استخدامها كقاعدة بحرية، لم تحاول قط الاستيلاء عليها. وظلت كذلك إلى نهاية نيسان ١٩٤٢ حين أذن

هتلر، بتأثير «الاميرال رايدر»، وبعد مباحثة مع موسولينى، فى أن يقوم جنود المظلات الالمان والإيطاليون بهجوم مفاجىء على مالطة فى أوائل شهر حزيران. ولقد كتب المندوب البحرى الألمانى فى ذلك الاجتماع يقول: على الرغم من أن تأجيل غزو مالطة والاستيلاء عليها ليس مما يرحب به، إلا أننى كنت مغتبطاً أشد الاغتباط، حين رأيت هتلر مهتماً أشد الاهتمام بهذه المنطقة الخطيرة. فالأمور الحربية جميعاً قد أصبحت موضع الاهتمام الشديد، بعد أن ظلت حتى ذلك الحين مسألة ثانوية، والانتصارات فيها تعد هبة سماوية، دون القيام بأى شىء جدى «من أجل مسرح الحرب الإيطالى».

على ان فكرة الهجوم قد أرجىء تنفيذها مرتين. ففى أول تموز وفى آخر لحظة أرجأ هتلر غزو مالطة إلى أن يتم غزو مصر. ولم يستشر فى ذلك حلفاءه الإيطاليين، بل لم يستشر حتى القيادة البحرية الألمانية، وربما كان قد استشار كيتل وبودل!

وفى أوائل صيف سنة ١٩٤١ شعر كبار ضباط الفيلق الإفريقى، بعد انتصارهم الأول بأن القيادة الألمانية العليا تنظر إلى مسرح الحرب فى شمال إفريقيا على أساس أنه ميدان جانبى أو أنه ليس أكثر من (التقاط «الكستنا» من النار، وإعطائها للإيطاليين).

لقد كانت التعزيزات الجوية ممكنة ولا شك، فلماذا لم ترسل إلى رومل أسراب أخرى من الطائرات المقاتلة؟ لقد تحدث الجنرال فون أيزيك فى ذلك فقال: أذكر أن الفيلد مارشال ميلخ، من سلاح الطيران الألمانى، جاء فى رحلة تفتيشية فى آيار سنة ١٩٤١، ورحنا نضرع إلى الله جميعاً أن يبعث إلينا بسلاح الطيران الملكى البريطانى فيغير علينا غارة جوية عنيفة ليرى المارشال ميلخ بأم عينيه شيئاً مما لا يعرف. واستجاب الله لدعائنا. وكان ميلخ يرتدى بزة بيضاء جميلة. ولم أر نفسى مسروراً، كما رأيتنى حين نزل ميلخ فى خندق، فلما خرج من الخندق كان سرورى أشد، لان ذلك الخندق

كان من الخنادق التى يلقى الخدم فيها فضلات المطبخ!

غير أن رومل كان قد اعتزم القيام بهجوم، سواء أكان ذلك بتشجيع القيادة العليا أم بغير تشجيعها، فكانت طبرق أول هدف رئيسى لهجومه ذاك.

وقد كتب الجنرال أوكنلك يقول: «إن سلامتنا من ارتباك خطوطنا فى منطقة الحدود مدة أربعة أشهر ونصف الشهر، مردها إلى حد كبير إلى حماة طبرق. فلقد كان حماة طبرق يدافعون عن هذه المدينة بحماسة بالغة، وكانوا على استعداد دائم لأن يقوموا بهجوم على العدو الذى يكاد يبلغ ضعفهم فى قوته. وقد حرصت حامية طبرق على أن تقلق بال العدو، حتى تمكنت آخر الأمر من صد أربع فرق إيطالية وثلاث كتائب ألمانية عن منطقة الحدود، من شهر نيسان حتى شهر تشرين الثانى».

ولقد اتخذ الجنرال ويفل قراراً وسط جو من الاضطراب والعجلة، وفى غمرة معركة خاسرة. لقد كان قرار ويفل انه من غير الممكن أن يكون ثمة تقدم للعدو على الحدود المصرية وطبرق ما تزال فى أيدى البريطانيين!

ولم يستطع رومل أن يحصل حتى على الإذن فى مهاجمة طبرق إلا بشق النفس. ولقد أراد أن يجعل الهجوم على طبرق فى تشرين أول أو فى تشرين ثانى، غير أن هتلر وبودل وكيتل لم يوافقوه على ذلك، حتى كانون ثانى سنة ١٩٤٢ ذلك لأنهم كانوا لا يريدون أن يقوموا بأية حركات عسكرية فى شمال إفريقيا، فى الوقت الذى لم ينفضوا فيه أيديهم من روسيا. ولقد علم الإيطاليون عن طريق عيونهم ووكلائهم فى القاهرة والإسكندرية، أكثر مما يعلم الألمان، بالهجوم القادم الذى سيشنه الجنرال أوكنلك. كما أن الإيطاليين وثقوا فى أية حركة يقوم بها رومل بقيادتهم الإسمية. وأخذ سلاح الطيران الألمانى يلتقط صوراً فوتغرافية للخط الحديدى الذى مدته القوات البريطانية غربى مرسى مطروح. وذكر الجنرال فوق رافنشتين أنه كان حاضراً عندما ألقى رومل بهذه الصورة الفوتغرافية إلى الأرض مغضباً وقال: لن أنظر إليها!»

ثم جاء تقرير من الأميرال كناريس، وفيه أن جنديا بريطانياً فى مستشفى القدس، أخبر ممرضة ألمانية تعمل جاسوسة للألمان، بأن البريطانيين يتهيئون للقيام بهجوم قوى عاجل على رومل، ولقد أدت هذه المعلومات التى بعثت بها هذه الجاسوسة الألمانية، إلى تزويد رومل بتعليمات من هتلر وبودل، بالتزام الهدوء والتخلى عن طبرق، والتهيؤ لملاقاة الهجوم الذى سيشنه أوكنلك. ويبدو أن هتلر وبودل لم يدركا ما يترتب على ذلك من صعوبة، فان من الصعب صد هجوم أوكنلك إذ ما ظلت طبرق فى قبضة البريطانيين.

ولكن رومل أصر على الاستيلاء على طبرق بأى ثمن، ولم يذعن لأمر هتلر وبودل، وطار إلى روما ومعه فون رافنشتين للمباحثة فى هذا الأمر. وكان فون رافنشتين فى مكتب رينتلن ضابط الاتصال الألمانى بين الألمان والإيطاليين، حين أفرغ رومل كل ما فى جعبته، وراح يلعن رينتلن، ويتهمه «بأنه جبان وصديق للإيطاليين» ثم أمسك رومل بالتليفون واتصل ببودل نفسه ودار بينهما هذا الحوار:

قال رومل: «بلغنى أنك تريدنى أن أقلع عن مهاجمة طبرق. إننى مستاء لذلك أشد الاستياء!».

فقال بودل: «إذن فاحتفظ بالفرقة الحادية والعشرين المدرعة لملاقاة الهجوم البريطانى، فى الوقت الذى يبدأ فيه الهجوم على طبرق».

وأراد بودل أن يتحلل من المسئولية فقال لرومل: هل تضمن لى أنه لن يكون هنالك خطر؟». فصرخ رومل قائلاً: «إننى أؤكد لك ذلك على مسئوليتى الشخصية!». ولما أصبح بودل غير مسئول عن هذا الهجوم الذى سيقوم به رومل، لم يسعه إلا الموافقة!

وحدد اليوم الثالث والعشرين من تشرين الثانى للهجوم على طبرق. وقد أعد كل شىء لذلك. وسافرت زوجة فون رافنشتين وزوجة رومل إلى روما،

وبقى رومل فى روما ليحتفل بعيد ميلاده فى الخامس عشر من ذلك الشهر.

ولم ير رومل شيئاً من مباهج روما أو متاحفها. ولكنه شهد، بدعوة من القيادة الإيطالية فى عيد ميلاده، فيلما «اسمه الزحف من بنغازى» وهذا الفيلم يصف التقدم الذى حدث فى نيسان الماضى. وقد أوضح هذا الفيلم بطولة الإيطاليين وهم يحاربون بالحراب، وبعض الضباط البريطانيين وهم يوّلون منهم الأدبار فى هلع وفزع، ولم يبن هذا الفيلم ألمانياً واحداً فى الميدان!.

ولقد علّق رومل على هذا الفيلم لمضيفيّه بقوله: «إنه فيلم ممتع حقاً، وإننى لأدهش حقاً مما حدث فى هذه المعركة!».

محاولة اغتيال رومل

ولقد سرت على ألسنة الناس تلك القصة القائلة، بأن تغيب رومل عن مقر قيادته العليا فى «بيدا ليوتوريا» بالقرب من «اتشيرينى»، قد انقذ حياته من الموت، أو من الوقوع فى الأسر، أو اختطاف البريطانيين إياه.

والذى حدث أن جماعة من الفدائيين البريطانيين، برياسة المقدم جيوفرى كيز «الذى منح وسام صليب فكتوريا» كانت إحدى الغواصات قد أنزلتهم على الساحل. فلقيهم هناك جون هازلدن الضابط البحرى، الذى قتل فيما بعد، ودلهم على الطريق. ولما كان هازلدن يتنكر فى ملابس الأراب، فقد تمكن من البقاء وراء خطوط العدو!

ولعلك تسأل أين كان يقع مركز القيادة العليا لرومل؟. لقد كان هذا المركز فى مدخل إحدى القرى القريبة من اتشيرينى، حيث يطالعك إلى اليمين مخزن صغير للغلال، ثم بعد ذلك يأتى صف طويل من البيوت المنعزلة بعضها عن بعض، ثم ترى وسط أشجار السرو بعيداً عن الطريق العام، بيتاً كبيراً مظلماً مؤلفاً من طابقين. فى هذا البيت كان رومل يعيش فى سنة ١٩٤١.

وفى منتصف الليل، جاء المقدم جيوفرى ومعه رجلان: كامبل، وتيرى، ووقفوا

جميعاً أمام الباب الخارجى للبيت، ثم طلبوا الدخول فوراً، وكانوا يتحدثون بالألمانية. ففتح لهم الحارس، ولكن عندما دخلوا البيت، أبدى الحارس ارتيابه فى أمرهم، وكاد يقتلهم لولا أنهم تغلبوا عليه. وفى أثناء ذلك ظهر ضابطان على الدرج، فأطلقت عليهما النيران. وكان البيت مطفأ الأضواء، كما كان الصمت يحتويه فى بردته. واخذ كيز يفتش الطابق الأرضى دون جدوى، وكذلك كان الطابق الأول خالياً تماماً، ثم انطلق عيار نارى من الطابق الثانى، أصاب كيز فهوى صريعاً. كما أصيب كامبل وأسر، غير أن تيرى أفلح فى الهرب.. ولقد دفن المقدم كيز فى بيدا ليتوريا على أحد التلال جنوبى القرية.

وفى أثناء ذلك كان رومل فى روما. وحتى لو أنه لم يكن فى روما، كان من الصعب أن يختطفه الفدائيون، من ذلك البيت المظلم الذى أحاطت به أشجار السرو. ذلك أن هذا البيت لم يكن مقراً لقيادته العليا، إنما كان مقراً لهيئة أركان حربه برياسة العقيد أوتو. أما مقر قيادة رومل فقد كان فى الصحراء غربى درنة. وكان رومل فى بعض الأحيان يأتى إلى بيدا ليتوريا، ولكنه لم يكن يبيت هناك.

إذن فلقد كانت معلومات جون هازلدن خطأ، لأنه استقاها من بعض الأعراب، وهؤلاء إما أنهم لم يروا رومل قط، وإما أن الأمر اختلط عليهم وظنوه من بعض الألمان الآخرين.

ولقد سقط جيوفرى كيز ميتاً متأثراً بجراحه على مسيرة ميل من القرية. بعد أن تمكن من أن يزحف على يديه ورجليه فى الليل، عندما اصيبت قدمه إصابة خطيرة، وبعد أن جرحت الأخرى.

ولقد ذكر لى الدنجر هذه القصة وقال: «إن كيز حقاً لشجاع».

■ ■ ■

الفصل الخامس عشر

كان رومل على وشك الانتصار

الإنجليز يموهون على رومل- قوى المحور فى إفريقيا
رومل يهجم مفاجأة- جرأة ومخاطرة نادرتان

إذا كنا لم نفلح فى مفاجأة رومل وهو فى مقر قيادته العليا، فإن بداية الهجوم الذى شنه الجنرال أوكنلك، قد فاجأ رومل وجنوده جميعاً مفاجأة تامة. ذلك أن الويتنا المدرعة مضت فى فجر يوم ١٨ تشرين الثانى، يتقدمها ستار من السيارات المصفحة لتخترق الأسلاك الشائكة على الحدود، وتأخذ طريقها إلى مراكزها فى المعركة عند «طريق العبد»، وقد انطلقت إلى غايتها هذه فى الصحراء الخالية.

ويعد هذا العمل الحربى الواسع النطاق، أول الأعمال التى قام بها الجيش الثامن[1]. وحينما بدأت المعركة كان البريطانيون يعلّقون عليها آمالا كبيرة، بل إن المستر تشرشل نفسه كان أكثرنا آمالاً فيها، وكان يتوقع أن تؤدى إلى انتصار مبين كذلك الانتصار الذى أحرزه البريطانيون فى بلنهايم أو واترلو!

ولكن الحظ السىء أبى أن تتحقق آمال المستر تشرشل على ذلك النحو، بل إن هذه الآمال لم تتحقق تماماً، وسرعان ما تلاشت فى تضاعيف الضباب

(١) الجيش الثامن: هو الجيش الانجليزى الرئيسى الذى قاوم الألمان فى الصحراء الغربية وهزمهم، بعد أن تولى مونتجمرى قيادته.

الذى أعقبها.

وقليلون من غير رجال الجيش الثامن، هم الذين يعرفون كيف كان الجيش الثامن قاب قوسين أو أدنى من النصر المبين. ذلك لأن الناس دائماً لا يعنيهم إلا النتيجة، أما إحصاء خسائر الفريقين قبل ذلك، فلا يكاد يعنى به الا القليلون!.

وما يقال مثله عن معركة، يصح أن يقال مثله عن معركة العلمين!

وأمامنا الأرقام خير شاهد على صحة ما نقول. فمن مجموع مائة ألف جندى يؤلفون قوات المحور فى إفريقيا، بلغت خسائر المحور فى الأرواح ستين ألفاً، من بينهم ٢١ ألفاً من الألمان- قتلى وجرحى وأسرى- أما الجيش الثامن الذى كان قوامه ١١٨ ألف مقاتل، فلم تزد خسائره على ١٨ ألف ضابط وجندى، أما فى معركة العلمين فكان الجيش الثامن مؤلفاً من مائة وخمسين ألفاً، خسر منهم ١٣,٥٠٠، بينما كان جيش المحور يعد ٩٦ ألفاً، خسر منهم ٥٩ ألفاً منهم ٣٤ ألف ألمانى.

وفى تشرين الثانى سنة ١٩٤١ كان عدد الدبابات البريطانية التى اشتركت فى المعركة ٤٥٥، يقابلها ٤١٢ من الدبابات لدى رومل أما فى العلمين فكانت لدى الجنرال مونتجمرى ١,١١٤ دبابة، يقابلها ٥٠٠ أو ٦٠٠ من دبابات المحور، وأكثر من نصفها دبابات إيطالية.

ولكن الأرقام لا تروى القصة بتمامها، فمن مجموع الألف والمائة والأربعة عشر دبابة التى كانت لدى الجنرال مونتجمرى، كانت ١٢٨ دبابة من طراز «غبرانت»، و٢٦٧ دبابة من طراز «شيرمان» فصبت عليها مدافع من عيار ٧٥ مليمتراً. ففى تشرين الثانى سنة ١٩٤١ لم تكن لدينا دبابات تستطيع أن تقف فى وجه الدبابات الألمانية من طراز «مارك ٣» و«مارك ٤». ولقد كانت دباباتنا لا تستطيع أن تهاجم دبابات العدو بصورة قوية، إلا إذا كانت على مدى ٨٠٠

باردة، وحينئذ تطلق مدافعها الواهنة التى تزن قذيفتها رطلين، وفى أثناء ذلك كانت مدافع دبابات العدو تصليها نيراناً حامية من مدافع ذات عيار ٥٠ مليمتراً (زنة أربعة أرطال)، ومدافع من عيار ٧٥ مليمتراً، ولا تملك الدبابات البريطانية بإزائها دفاعاً ولا مفراً.

ونستطيع أن نقول أيضاً إنه لم تكن لدينا أية مدافع قوية مضادة للدبابات. ولنا أن نتساءل الآن لماذا شن الجنرال أوكنلك هجومه مستعيناً بفرقة مدرعة ونصف فرقة، بدلاً من الاستعانة بالفرق الثلاث التى كان يعتقد هو نفسه بأنها لازمة لمثل هذا النجوم الواسع النطاق؟

قد يعود ذلك إلى أن المحور كانت له قوات كبيرة فى برقة، فهناك إذن ولا شك خطر مستمر يتهدد مصر. كما أن أوكنلك لم يكن يستطيع أن يطمئن إلى سلامة جناحيه الشمالى، من خطر أى غزو قد يقوم به الألمان من القوقاز!

وربما كان ذلك لأن الحكومة البريطانية كانت ترى من الضرورى أن يقوم أوكنلك بهذا الهجوم فى اقرب لحظة ممكنة. وكلمة «ممكنة» مطاطة للغاية وخاصة فى لندن! وأياً كان الأمر فقد لقى قرار أوكنلك قبولاً عاماً، ولم يكن ثمة غبار على خطته العامة. ولقد كانت فكرة صائبة حقاً، تلك التى تقول بأن تركز القوة الرئيسية على جغبوب، وأن تضرب ضربتها عبر الصحراء عن طريق «جيالو»، لقطع خطوط مواصلات رومل، فيتعرض بذلك جناح الجيش الثامن- أثناء تقدمه- لغارات لا تنقطع من المطارات الألمانية على الساحل فى الشمال. كما تستطيع هذه الطائرات ان تشن تلك الغارات إذا اشترك معها فى هذه الأعمال سلاح الطيران الألمانى الذى يهّب لنجدة رومل من مطارات اليونان وكريت.

وكان من الضرورى أيضاً أن يقوم سلاح الطيران البريطانى بالاستعداد لكل هذه الاحتمالات من أجل سلامة الحدود، وإلا قلب رومل خطتنا رأساً

على عقب وذلك بأن يهبط الهضبة التى تفصل الجيشين، ويتخذ طريقه فوراً إلى الإسكندرية، وهذا بالضبط ما كان روميل يهدف إليه، لو أننا هاجمناه من الجنوب. ولذلك فان الهجوم الذى قمنا به ببعض الجنود فى اتجاه جيالو، لم يكن سوى خدعة. ولقد كان لهذه الخدعة أثرها الفعّال. فقد ذكر لى الجنرال «باير لاين» أن الألمان كانوا يتوقعون أن يكون هجومنا الرئيسى فى الجنوب.

وكانت خطة البريطانيين هى التقدم نحو طبرق، ومخادعة روميل فى الوسط والجنوب. وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى تحطيم قواته المدرعة، فلقد كانت الفرقتان المدرعتان الخامسة عشرة والحادية والعشرون، هما العمود الفقرى لجيش روميل!.

فما هى إذن الوسيلة التى يمكن بها استدراج هاتين الفرقتين إلى المكان الذى يناسب البريطانيين؟. لقد رأى الجنرال أوكنلك أن الوسيلة الوحيدة هى محاولة رفع الحصار عن طبرق، تمهيداً لإخراج روميل من برقة أولاً، ومن طرابلس ثانياً، وبذلك تساهم حامية طبرق نفسها فى القتال. ولما كانت دباباتنا أقل من دبابات روميل، فلم يكن بد من أن نهاجم بدبابات تفوق دباباته فى العدد. وكانت الخطة أيضاً ألا تقع فرقتنا المدرعة بين فكى فرقتى روميل المدرعتين.

وكان من الجوهرى فى هذه الخطة، أن يفاجأ روميل بوقت الهجوم وباتجاهه ايضاً!

وباختصار كانت الخطة تقضى بأن يبدأ الهجوم الرئيسى الفيلق الثلاثون بقيادة اللفتنانت جنرال (ولوباى نورى)، مستخدماً فى ذلك القسم الأعظم من مدرعاته (الفرقة السابعة المدرعة واللواء المدرع الرابع)، يضاف إليهما لواءان من فرقة المشاة الأولى الخاصة بجنوبى إفريقيا، ولواء الحرس المدرع الثانى والعشرون، الذى كان عليه أن يتمركز حول «قبر صالح» فيهجم فى اتجاه الجنوب الشرقى أو الجنوب الغربى. وحين يتيسر لهذا الفيلق أن يهزم روميل،

ينفك الحصار عن طبرق. وحينئذ تقوم حامية طبرق (المؤلفة من فرقة المشاة السبعين، ولواء الدبابات واللواء البولونى) بالهجوم على الألمان فى الوقت المناسب الذى سبق ان قرره الجنرال ولوباى نورى.

وفى الوقت ذاته كان على الفيلق الثالث عشر الذى يقوده اللفتنانت جنرال جودوين أوستن، والمؤلف من الفرقة النيوزيلندية والفرقة الهندية الرابعة واللواء الأول للدبابات، أن ينحدر إلى الأسفل فيهاجم تحصينات القوات المعادية عن الحدود، ومن ثم يتقدم غرباً نحو طبرق لمعاونة الفيلق الثلاثين.

أما اللواء المدرع الرابع التابع للفيلق الثلاثين، فكان عليه أن يحمى جناحه الأيسر، وأما لواء المشاة الهندى الحادى عشر المرابط فى أسفل السلوم ولواء المشاة الهندى الخامس المتمركز فوقها، فكان عليهما أن يقابلا العدو وجهاً وجه، فيحميان قاعدتنا وخط مواصلاتنا الرئيسى.

كان ثلث قوات رومل فى إفريقيا من الألمان، والثلثان الباقيان من الإيطاليين، وكانت هذه القوات مؤلفة من ثلاثة فرق مدرعة، وفرقتين آليتين، وخمس فرق مشاة. وكانت فرقتا الدبابات الألمانية الخامسة عشرة والحادية والعشرون وفرقة المشاة الخفيفة التسعون، كانت هذه كلها تؤلف جحفل الدبابات الإفريقى. أما الفرقة المدرعة الحادية والعشرون فكانت على بعد ١٢ ميلا جنوبى جغبوب، على طريق كابوتزو، وكانت الفرقة المدرعة الخامسة عشرة وفرقة الآليات الخفيفة التسعون، ترابطان حول العضم، والدودة، وسيدى رزق. أما القوات التى كانت تحاصر طبرق فكانت مؤلفة من الفيلق الواحد والعشرين، وبه أربع فرق إيطالية من المشاة، تشد أزرها ثلاث أفواج ألمانية من المشاة. فالفرقة الإيطالية المدرعة كانت ترابط عند غوبى، وقد انشأت فيها مواضع للمدفعية. أما فرقة الآليات فكانت عند (بئر حكيم)، أما تحصينات الحدود فى حلفاية والسلوم وكابوتزو، فقد عهد بحمايتها إلى أفواج من المشاة الألمان، وكان سيدى عمر فى حراسة فرقة سافويا، ومعها

بعض المدافع الألمانيـة. وكـانت حـاميـة البـردية تتـألف من خليـط من الألمان والإيطاليين.

وكـان الاستـعـداد لهـذا الهـجـوم واضـحـاً تمام الوضـوح. فـقـد مـد الخط الحـديدى مسـافـة ٧٥ مـيـلاً غـربى مـرسـى مطروح. كـمـا مـد الأنابيب من الإسكندرية. واختـزنت مؤن زنتهـا ثلاثون ألف طن تقـريبـاً، من الوقـود ومـواد الطعـام، فى مناطق أمامية قبل بداية المعـركة. (وكـانت هذه الكمـيـة من المؤن تكفى لإزالة الفـرق بين الكميات المخصـصة للاستـهلاك والكميات التى تعطى فعـلاً لمدة أسبوع). وكان الأسطول وسـلاح الطيـران يواصـلان من البر والبـحـر، ضرب خطوط إمدادات العدو. وقـد تجمعت لدى البريطانيين معلومـات دقيقة عن اسـتـعـدادات العدو عند مـراكـزه، بفـضل سـلاح الطيـران، ولكن الألمان لم يكونوا يدرون شيئـاً عن حركات الإخفاء والتمـويه التى يقوم بها البريطـانيون، ومن هنا كانت المفاجأة تامة موفقة.

ولقـد كـانت المعـركة التـالية حـامـية الوطيـس. وكـان الفـريقـان يحـاربان فى بسـالة، وفى استمـاتة اليأس. كان جنودنا يحاربون بروح عـالية، تجـرفهم الرغبة العـارمـة فى النصـر، ولا أذكـر أننى رأيت مـثـل هذه الروح القـوية منـذ المعارك النهائية للحرب العظمى الأولى.

وإننى مازلت أذكر تلك الكلمـة التى فاه بها عـريف اسكتلندى جـريح، وقد ثنى سـاقـه وراح يشـيـر إلى بندقـيتـه وهو يلـوّح بها وكـأنهـا عـصـا. لقـد كـانت كلمتـه تلك: إعطنى دبابة.. لقـد أنجـزنا ذلك تمامـاً يا سـيدى، إننا نقـذف بهم إلى الجحيم».

لقد كان ذلك الجـريح على بعـد مائـة ياردة فحسب من السيارة التى كان الجنرال نـورى يركـبـهـا والذى تخلى عـن مـقـر قـيـادتـه فى نفس الوقـت الذى استولى فيه جنود نيوزيلندا على مقر قيادة الفيلق الإفريقى (الألمانى).

لقد كانت معركة عنيفة سريعة الحركات تطايرت فيها الرمال، وانعقدت فى سمائها سحب الدخان، صاعدة من القنابل المتفجرة هنا وهناك، ومن الدبات التى تحطمت. وكانت الرؤية متعذرة، وحتى أن المرء لم يكن يدرى ماذا يجرى أمامه على مسيرة ميل واحد!

وكان من الصعب أيضاً أن يلم المرء بالوضع، من الخرائط التى كانت تنشر ساعة فساعة. وقد اتاحت المصادفة هنا ظهور بعض الأبطال ومنهم «كامبل» الذى قاد رتلاً من الدبابات عند سيدى رزق وكان يركب سيارة مكشوفة وقد ظفر بوسام صليب فكتوريا تقديراً لشجاعته، بينما كان هناك المئات ممن ساهموا فى الظفر، لم يذكر لهم شأن.

فمن منا مثلاً قد سمع عن مغامرة الفريق «دنس ريد» قائد اللواء الهندى الذى تقدم من جغبوب، فاحتل «جيالو» بمفرده، وأسر ستين ضابطاً إيطالياً وهم على مائدة الغداء بينما لم يكن يحمل سوى مسدس!».

وكانت «سيدى رزق» قلب المعركة، كما كانت هى الطريق الرئيسى الى طبرق فهذه المنطقة صعبة قاسية للغاية. فدبابة تحارب دبابة، ورجل يحارب رجلاً!

ومن الغريب أن رومل قام بهجوم اخترق فيه الحدود عند «بير شفرزن» وذلك عصر يوم ٢٤ تشرين الثانى.

فلماذا تخلى رومل فجأة عن المعركة الرئيسية، واندفع بقواته إلى الشرق؟ هل كانت لديه خطة؟ أم أنه كان يذر الرماد فى العيون؟ هل كانت ضربته هذه ضربة معلم؟ أم كانت مغامرة يائسة؟.

لقد تناقش فى هذا الأمر كثيرون من القادة العسكريين، وكان من بين هؤلاء الفريق فولر واللفتنانت جنرال السير جفرد مارتل. وقد خرجوا جميعاً من هذه المناقشات بنتائج متغايرة تماماً، ولكنهم جميعاً اتفقوا على تقدير

رومل بوصفه قائداً عسكرياً!

ولنا أن نتساءل بعد ذلك لماذا لم تشعل الدبابات الألمانية نيرانها فى مستودعى الوقود الرئيسيين لقواتنا؟، وقد كان أحدهما على مدى ١٥ ميلاً جنوب شرقى بيرجوبى؟ والآخر على مدى ١٥ ميلاً جنوب شرقى قبر صالح؟. وذلك على الرغم من أن الألمان كانوا على مدى ميل أو ميلين من هذه المستودعين؟. ولو قدر للألمان أن يشعلوا النيران فى هذين المستودعين، لتعطلت الفرقة النيوزيلندية، ولانسحب الفيلق الثلاثون من سيدى رزق، إذ لا يبقى لحراسة هذين المستودعين غير لواء الحرس.

والإجابة عن هذا السؤال الأخير ممكنة، لأنها سهلة يسيرة. فعلى الرغم من أن مساحة كل من المستودعين كانت تبلغ ستة أميال مربعة فان الألمان لم يعرفوا مكانهما.

ولقد أبدى كل من الجنرالين: بايرلاين وفون رافنشتين، دهشته حين علما بمكان هذين المستودعين. وقالا: لو كنا نعلم شيئاً عن هذه المستودعات لكسبنا المعركة. أما بالنسبة للسؤال الأول فإن الجنرال بايرلاين كان يعرف تماماً مادار فى خلد رومل.

رومل والاستيلاء على طبرق

فقد كان رومل مايزال يصر على الاستيلاء على طبرق، ولكنه لا يستطيع ذلك فى الوقت الذى كانت تهاجمه فيه القوات البريطانية. ولقد فوجىء رومل مفاجأة غير سارة، حين تقدمت الفرقة النيوزيلندية فى طريق كابوتزو. ولو أن رومل ركّز كل قواه ضد هذه الفرقة لحطمها بلاشك، ولفتح الطريق من جديد إلى مراكزه على الحدود، وبذلك ينفسح الوقت أمام الفرقة السابعة لتنظيم صفوفها. وفى أثناء ذلك كانت الفرقة السبعون على جناحه. ولو أنه استدار بالفرقة السابعة المدرعة إلى جنوب شرقى سيدى رزق، لأدى

ذلك إلى أن تنضم الفرقة النيوزيلندية إلى الفرقة السبعين. ولو أنه آثر السلامة وعاد إلى الغزالة، لكان ذلك معناه أن يتخلى عن الحاميات التى رابطت على الحدود، وعلى مخازن المؤن ومستودعات البترول على طول الساحل. والحق أن قوة رومل كانت تتركز فى فرقتيه المدرعتين.

ولكن أليس هنالك من سبيل لاستخدام هاتين الفرقتين، لا لكى يخرج من موقف حرج أو مأزق أو إشعال نيران معركة حامية الوطيس حسب، ولكن ليستعيد قوته ومبادأته من جديد، وليحيل هزيمته إلى نصر بسحر ساحر وفى ضربة واحدة؟.

لقد اعتزم رومل ذلك، أعنى أن يتجه مرة واحدة نحو الشرق، نحو خطوطنا الخلفية فيقطع خطوط مواصلاتنا، وحينئذ يكون على الجنرال كننجهام أن ينسحب إلى مراكزه الأصلية، وبذلك يكون رومل قد تأخر فى هجومه على طبرق بضعة أيام، ولقد التفت رومل إلى الجنرال فون رافنشتين بعد أن أصدر إليه أوامره وقال له:

«أمامك فرصة لإنهاء هذه الحملة الليلة!». وكان على فون رافنشتين ان يقوم بالهجوم على رأس الفرقة الحادية والعشرين المدرعة، فتمرق هذه الفرقة وسط الأسلاك الشائكة الممتدة على الحدود، «دون أن تلتفت يمنة أو يسرة» ثم بعد ذلك تميل إلى اليسار حتى البحر عن طريق السلوم. وفى أثناء ذلك تقوم مجموعة من المقاتلين مؤلفة من فوج من المدرعات، وسرية من الدبابات، بهجوم على مقر القيادة العليا للجنرال كننجهام فى مدالينا. كما تقوم مجموعة أخرى من الفرقة الخامسة عشر المدرعة فتواصل سيرها بأن تهبط الهضبة الواقعة على الحدود، وتستولى على كميات هائلة من البترول. ولو كان الطريق خالياً بين هذه الهضبة والإسكندرية، لانطلقت الفرقة الحادية والعشرون المدرعة قدما نحو مصر. ولكن رومل استبعد أن تكون هذه الشقة خالية من قوات حربية، وكان مصيباً فى ذلك. ولو فعل ذلك رومل

لأدى هنا إلى اضطراب وارتباك فى صفوف الجيش، ولاختلط الحابل بالنابل، حين يرتد الجيش الثامن إلى مراكزه الأصلية.

والحقيقة أنه لم يكن عند حافة الهضبة ووراء حقل من الألغام غير أحد ألوية الفرقة الرابعة الهندية، ولم يكن وراء هذا اللواء إلا فرقة جنوب إفريقيا الثانية، وهى مؤلفة من جنود لم يتدربوا قط وليس لديهم الاستعداد الحربى الكافى، بل إنهم لم يروا إطلاقاً نارياً واحداً. وكان أقرب لواء من ألوية هذه الفرقة، فى مرسى مطروح!

لا يستطيع إنسان أن يقول: إن هذه الخطة التى صممها رومل فى معمعة القتال، ليست خطة مبنية على الجرأة والمخاطرة، فلماذا فشلت إذن؟ والجواب أن هذه الخطة قد نجحت، ولكن إلى حد ما. ففى ٢٣ تشرين الثانى رغب الجنرال كننجهام فى إنهاء هذه المعركة: وكان مما لاشك فيه انه سيفعل ذلك فى الليلة التالية، ولولا أن طار إليه من القاهرة الجنرال أوكنلك، وحال دون ذلك. وقد جاء فى رسالة كتبها الجنرال أوكنلك فى ليلة ٢٤ تشرين الثانى فى القيادة العليا للجيش الثامن، بعد أن قدّر خطورة الاستمرار فى القتال: «إن المرحلة الثانية التى ينبغى أن نقوم بها، هى ان نواصل هجومنا بكل ما فى وسعنا من قوة، وأن هذا الهجوم لينطوى على كثير من المخاطر، ولكن يجب أن نتقبلها بصدر رحب. وعلى ذلك فستواصلون الهجوم على العدو دون هوادة وبلا شفقة، مستعينين بكل ما لدينا من موارد، حتى آخر دبابة».

ولقد علّق الجنرال فولر على هذا الأمر الذى أصدره أوكنلك فقال: انه مثل رفيع عال، لما للقائد من نفوذ وتأثير فى الأعمال العسكرية».

وعلى العكس من هذا تماماً، ما حدث لرومل، فقد عطله وأعاقه عن العمليات العسكرية ضابط من مرؤوسيه. فلقد كان رومل كعادته فى الخطوط الأمامية للمعركة، فأرسل إلى الجنرال فون فرانشتين ظهر يوم ٢٥ تشرين الثانى، وهو مرابط وراء الحلفاية ومعه عشرون أو ثلاثون دبابة هى البقية

الباقية من دباباته الستين، طالباً منه أن يستعد للهجوم على مصر. غير أنه فى الساعة الثانية مساء تلقى رسالة لاسلكية تقول: «كل الأوامر التى صدرت إليك، قد ألغيت وعلى الفرقة المدرعة الحادية والعشرين أن تقتحم الخطوط الهندية فى اتجاه البردية».

ولقد ارتاب فون رافنشتين فى قدرته على خرق الخطوط الهندية، وخاصة بعد أن قام بهجومين فاشلين بل غير ضروريين فى صبيحة اليوم التالى وفى عصره، على اللواء الهندى السابع الذى رابط وراء حقول من الألغام فى سيدى عمر. ولكن فون رافنشتين عاد فارسل ضابطاً على رأس رتل من السيارات الثقيلة، وهو يأمل أن يوهم بها البريطانيين فى الظلام، فيظنوا أنها دبابات، وكانت مهمة هذا الرتل إحداث ثغرة بين السلوم وكابوتزو. وبعدهما تنطلق بقية الفرقة. وفى صبيحة يوم ٢٦ تشرين الثانى كان فون رافنشتين فى البردية. وهنالك وجد رومل جالساً على مقعد فى سيارته مستغرقاً فى النوم!

ومال فون رافنشتين على رومل وقال له: «يا سيدى الجنرال اننى سعيد حين اخبرك بأننى وفرقتى ها هنا!».

فانفجر رومل صارخاً: «ماذا تعنى بقولك إنك هنا؟! ماذا تصنع هنا؟ ألم أصدر إليك أوامرى بالاستعداد للهجوم من حلفاية فى اتجاه مصر؟!». فأخرج «فون رافنشيتن نسخة من البرقية التى تسلمها.

فصرخ رومل قائلاً: «هذه فرية! إن هذا أمر قد أصدره البريطانيون. لابد أنهم قد عرفوا الشفرة التى نتراسل بها!».

والحقيقة أن هذه الرسالة كانت من اللفتنانت- كولونيل فستفال الذى أصبح فيما بعد رئيساً لهيئة أركان حرب الفيلد مارشال فون رونشتدت، ولكنه لم يكن فى ذلك الحين إلا أحد الضباط بالقرب من طبرق. ولقد رأى فستفال كل التقارير التى تأتى بها طائرات الاستكشاف الألمانية، فأدرك أن خطة رومل للهجوم مستحيلة التنفيذ، فألغى هذا الأمر على مسئوليته الخاصة!

وكان رومل إنساناً عظيماً فلم يثر ولم يغضب، إنما هنأه فيما بعد وقال: «لقد أحسنت. إننى مدين لك بهذا الجميل!».

وفى أثناء ذلك كانت صيحات الاستغاثة صادرة من الفرقة الألمانية الخفيفة التسعين، وهى تحارب حرب اليائس المستميت ضد الفرقة النيوزيلندية، وتحاول جاهدة أن تحول بينها وبين بلوغ سيدى رزق وفى ليلة ٢٦- ٢٧ آب سقطت سيدى رزق فى أيدى النيوزيلنديين، وفى عصر ذلك اليوم سقطت الدودة فى يد الفرقة السبعين، ولأول مرة التقى الجيش الثامن بحامية طبرق، وفى السابع والعشرين من شهر تشرين الثانى التقط الجنرال ريتشى الذى خلف الجنرال كننجهام برقية تقول: إن الفرقتين الألمانيتين المدرعتين قد ارتدتا هاربتين!

وبذلك تكون الحملة التى اتجهت شرقاً قد انتهت.

ولم تحدث هذه الحملة إلا خسائر قليلة، وإن كانت قد أوقعت الرعب وأدخلت اليأس فى نفوس جنودنا فى المناطق الخلفية. حتى ليقال: إن بعض سائقى السيارات لم يرفعوا أيديهم عن عجلة القيادة إلا عندما بلغوا مصر، وربما كان ذلك مبالغاً فيه، ولكن مع ذلك فالسيارات ما تزال تجرى دون انقطاع رائحة غادية فى مرسى مطروح. ولقد منى رومل بالفشل فى استعادة المبادأة التى دأب عليها. ولما كان رومل قد خسر الكثير من سلاحه، وخاصة عند سيدى عمر بازاء مدفعية الفرقة الهندية الرابعة، فان حالته قد ساءت عما كانت عليه من قبل. ويعترف الجنرال أوكلنك صراحة بأن مباغتة رومل بهذا الهجوم العام «كانت صدمة قاسية».

ولو قدر لهذا الهجوم الذى شنه البريطانيون أن ينجح، لاعتبره المؤرخون العسكريون تحفة حربية حقاً.

■ ■ ■

الفصل السادس عشر

الإنجليز يؤدون التحية لرومل

يحاول أسر كنجهام-

الرمال تبتلع البترول

حينما يخلو الإنسان إلى نفسه، ويعود بذاكرته إلى تلك المعارك الحامية الوطيس بيننا وبين الألمان، يجد أن هناك لحظات غاية فى الامتاع حقاً، وأن هناك حوادث أغرب من الخيال والخرافة، ولكنها وقعت فعلاً.

ففى مساء اليوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الثانى، عبر رومل الأسلاك الشائكة على الحدود فى سيارته البريطانية المدرعة، ومعه الجنرالان: باير لاين، وركروفل. كان رومل يركب سيارة بريطانية مصفحة تسمى «الماموث» وحين حاولوا العودة، كان الليل قد ارخى سدوله، وصعب عليهم أن يهتدوا إلى تلك الثغرة التى نفذوا منها بين حقول الألغام. وأذكر أننى نفضت يدى ذات ليلة من محاولة العثور على ثغرة بين نطاق الألغام، وآثرت أن أنام نوماً هادئاً فى سيارتى حتى أتبين طريقى عند مطلع الشمس، ولكن كم كانت دهشتى حين ألفيت العجلتين الأماميتين للسيارة قد غاصتا فى حقول الألغام!

ولكن رومل وزميليه لم يتمكنوا من النوم الهادىء، كما فعلت وسط الجنود الهنود، إنما انطلقوا هاربين دون أن يقف فى طريقهم أحد عند أول شعاع للفجر.

وقد حدث بعد ظهر اليوم السابق، أن ذهب رومل إلى أحد المستشفيات العسكرية وحين كان ينتقل بين أسرّة المرضى، لاحظ أن المستشفى مازال فى

أيد بريطانية وأن الجنود البريطانيين هم الذين يتولون حراسته ورعايته، بل لاحظ أن أحد الأطباء البريطانيين العسكريين هو الذى كان يقوم بارشاده إلى حجرات المرضى، ولعل هذا الطبيب قد ظن أن روميل أحد القواد البولنديين، وكان الجرحى الألمان عندما يرون روميل يعتدلون فى فراشهم ويحيونه، وهنا همس روميل: «أظن أن من الأفضل أن نبرح هذا المكان» وعندما قفز روميل فى سيارته البريطانية المدرعة، حياه الجنود البريطانيون!

ومن طريف ما ذكره لى الجنرال فون رافنشتين قوله: «إن روميل كثيراً ما حاول، بل أصر على أن يأسر الجنرال كننجهام وهيئة أركان حربه. وكثيراً ما قال لى: ليس لدى متسع من الوقت لأسر أحد من الجنود! وفى الحقيقة أننى فى كثير من الأحيان حين أتوغل بين الوحدات البريطانية وأرى الجنود يستسلمون، فاننى أصرخ قائلاً: ابتعدوا! إننى لا أعبأ بكم! فماذا عساى أن اصنع بالأسرى وما حاجتى إليهم؟».

وأذكر أننى كنت مع روميل فوق هضبة مرتفعة شرقى الأسلاك الشائكة، عندما رأينا من خلال نواظيرنا، عدداً من الضباط ومعهم خرائطهم. وهنا صرخ روميل: هذا هو الجنرال كننجهام! اذهب وأت بهم! وعندما حاولت أن آتى بدبابتين وسيارة مصفحة، كان روميل قد نفذ صبره وقال: لا عليك! سأذهب بنفسى وآتى بهم. وقفز روميل فى سيارته، وكان قد رفع منظاره فوق جبهته، وراح يصرخ وينادى الجنود. ثم انطلق بثلاث سيارات غير مدرعة وعشرين دراجة بخارية. ولفتهم جميعاً سحابة من الرمال المتطايرة. سواء كان ذلك الضابط الكبير هو الجنرال كننجهام أم كان غيره، فانه ولا شك حين رآهم، وألفى نفسه غير مسلح وليس له سند من جنود، قفز إلى سيارته وهو وهيئة أركان حربه، وانطلقوا هاربين!».

ومازلت أجهل حتى الآن ما حل بتلك الجماعة المحاربة من الفرقة المدرعة الخامسة عشرة التى أفترض أنها تهاجم مادلينا. فالجنرال نيومن سلكوف

المولود من أم اسكتلندية، والذى قاد تلك الفرقة فيما بعد كان قد قتل ولم يعرف أحد بمقتله حتى بعد مرور عشرة أيام. فقد كانت قيادة الجيش الثامن فى ذلك الوقت منهمكة فى تنظيم قوة دفاعية من الدبابات، ولكنها لم تحصل على المؤونة الكافية، وبذلك أحبط الجزء المهم من الخطة التى وضعها الجيش الثامن آنذاك للهجوم. وبعد ذلك استؤنف القتال العنيف حول سيدى رزق.

وكان من الممكن أن تتحسن الأحوال الحربية إذا ما هب اللواء الأول من فرقة جنوب إفريقيا الأولى، إلى نجدة الفرقة النيوزيلندية، الحديثة العهد بالصحراء والحرب فيها، ومن أجل هذا حطم الألمان تماماً اللواء الخامس من ألوية هذه الفرقة، عندما قام رومل بهجومه الممتاز المتقن قبل ذلك بأسبوع.

كان الفريق بيانار وهو من الضباط الذين اشتركوا فى الحرب الأولى وعهدت إليه فى هذا الحرب قيادة الفرقة النيوزيلندية، كان هذا القائد متحرقاً للقيام بهجوم ماحق ضد الألمان، غير أنه خاف مغبة السقوط فى أيدى الأعداء إبان المعركة، ولذلك كان تقدمه بطيئاً هادئاً، وعندما بلغت الفرقتان الألمانيتان المدرعتان الخامسة عشرة والحادية والعشرون مكان المعركة، شنتا هجوماً عنيفاً ضد الفرقة الإنجليزية السابعة المدرعة فى مداخل سيدى رزق، وإذ ذاك وجد الجنرال فرايبورج قائد القوات النيوزيلندية نفسه غير قادر على الصمود فارتد عن سيدى رزق.

ولكن طبرق عزلت فى أول كانون أول مرة أخرى. ورغم ذلك وصل الجنرالان: ريتشى، وأوكنلك، إلى مدالينا حيث مقر قيادة القائد النيوزيلندى. وإذ أدركا بحق أن رومل قد تحطمت خطوطه، اعتزما مواصلة الهجوم عليه، وإرُهاقه ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً!

وقد حاول رومل محاولتين أخرتين: إحداهما حين أراد أن يبلغ حامياته على الحدود. فارسل رتلين مدرعين إلى الشرق، سار أحدهما على طول الطريق الساحلى إلى أن صده اللواء النيوزيلندى، وسار على طول طريق

كابوتزو، حتى انهزم أمام اللواء الهندى الخامس.

أما المحاولة الأخرى فكانت فى صبيحة اليوم التالى أى فى الربع من كانون الأول، حيث شن روميل هجوماً عنيفاً على خطوط طبرق، وكانت تشد أزره فى هذا الهجوم الهائل مدافع من عيار ٨٨ مليمتراً. وتقدم روميل حتى غدا على مدى قريب جداً، وكاد ينجح فى هجومه، ولو أنه واصل هجومه على طبرق فى اليوم التالى لبلغ ما يهدف إليه، وخاصة بعد أن أحدث ثغرات عميقة فى خطوطنا ومراكزنا. ولكن روميل أدرك فى تلك الليلة أن الجيش الثامن على وشك أن يعاود هجومه ثانية فبدأ ينسحب!

على أن انسحاب روميل لم يكن هزيمة مطلقاً. فالدفاع العنيف الذى أظهره الإيطاليون فى حصن الجوبى والذى أثار الدهشة، جاء دليلاً قوياً على أن روميل كان ينسحب ويقاتل فى براعة وسهولة. فلقد كان الجيش الألمانى ينسحب تحت ستار كثيف من المدافع المضادة للدبابات، وكان روميل يقود الانسحاب بمهارة ومقدرة مدهشة، وكان يقاوم كل محاولة للالتفاف حوله، وكلما سنحت له فرصة لضرب العدو، كان يتوقف أو يعود ليسدد إليه الضربات فى قسوة ومهارة. ومازلت أتذكر ذلك المساء القاتم من اليوم الخامس عشر من كانون الأول، عندما وقفت إلى جانب إحدى سيارات اللواء الهندى الخامس فى «علم الحازا»، وسمعت آخر مخابرة هاتفية جاءت من لدن ضابط أحد الأفواج الإنجليز والتى يقول فيها إن الدبابات الألمانية قد لاحقت فوجه فأضنته جرياً ومطاردة.

وكان روميل يطارد من كل مركز يريد التحصن فيه، أو يحاول الوقوف عنده، وكنا نفوقه فى ذلك الحين عدداً فى الدبابات ووقوداً، وخاصة بعد أن دمرت الكتيبة الإفريقية الرابعة المدرعة، أحد مستودعاته للبترول فى الجوبى.

ومن ثم فلم يكن أمام روميل إذن إلا أن يحارب حرباً يعطل بها سيرنا ويكتسب بها الوقت. وفى الحادى عشر من شهر كانون الثانى احتمى روميل فى مركز بالغ الحصانة والمنعة عند العقيلة، حيث امتدت السلاسل الصخرية

إلى الجنوب خمسين ميلاً، وحينئذ لم يبق لدى الجيش الثامن شىء يستطيع به أن يخرج رومل من هذا المركز الحصين!.

إن هؤلاء الذين يرقبون الحرب فى قلق من بعيد، لا يمكن أن يدركوا سر هذه التغيرات التى تعترى القتال، تلك الفرص التى تسنح خلاله، وكل ما يعرفونه هو اليأس الذى يعتريهم، وخيبة الأمل التى تنتابهم، فاذا ما جاء النصر وانهارت مقاومة رومل فى برقة، فانهم لا يستطيعون أن يدركوا ولا أن يقدروا إصرار رومل ذى القلب الصلب، أو العزم الذى كان سبباً للنجاح فى النهاية! وقد كتب العقيد كارفر من الفرقة السابعة المدرعة يقول:

«وأما هؤلاء الذين ساهموا فى القتال، فسيظل فى نفوسهم ذل الاحساس المرير، فهؤلاء الذين حاربوا بالدبابات يلعنون من بعثوا بهم إلى القتال بدبابات واهنة ضعيفة الدروع ينقصها العتاد، فتهوى أمام دبابات العدو القوية. أما مشاتنا الذين كانوا يحملون مدافع مضادة للدبابات، ويحاولون بها حماية دباباتنا ضد دبابات العدو، فانهم ينظرون فى حسرة حين يفشلون فى القيام بهذه المهمة».

واستطيع من جانبى أن أضيف إلى ذلك حقيقة أخرى، ورغم انى ذكرتها فى تقرير الجنرال أوكنلك فإن أحداً من الذين لم يحاربوا فى الصحراء لا يستطيعون أن يدركوا إلى أى حد يمكن أن تؤدى الأشياء البسيطة التافهة إلى الهزيمة فى الحرب. فالذين أرسلوا جنودنا ليقاتلوا، ثم أرسلوا إليهم صفائح من البترول سعة كل منها أربعة جالونات، هم المسئولون عن ذلك تماماً. ولقد قدر الجنرال أوكنلك ضياع ٣٠٪ من البترول بين المستودعات وبين استهلاك الجنود. فاذا ما نحن قدرنا أن ناقلات البترول تحتاج إلى ١٨٠ ألف جالون فى اليوم، فان ما نخسره من البترول لاشك أنه يؤلف كميات هائلة. كما أننا لا نستطيع أن نحصى عدد الدبابات التى تحطمت، والجنود الذين قتلوا أو أسروا من جراء نقص البترول. لاشك أن هذه الصفيحة التى تتسع لأربعة جالونات، قد أدت إلى عرقلة كبيرة فى وسائل النقل.

ولطالما تساءل الجنود: «ماذا نصنع بالصفيحة المثقوبة مادام الخزان ممتلئاً؟!» وكان جواب الجنود الإنجليز على مثل هذا التساؤل فى الغالب قولهم «اقذف بها إلى الطريق». فكم من ملايين الجالونات ابتلعتها رمال الصحراء!

وحتى بعد أن عدت إلى الهند فى بداية سنة ١٩٤٢، شاهدت معملاً خارج مدينة القاهرة، مازال منهمكاً فى إعادة صنع تلك الصفائح. وقد يعود ذلك الاهتمام بصنع الصفائح إلى الإشاعة التى راجت عن أن أحد موظفى وزارة التموين، قد طولب بتسليم بضعة ملايين من تلك الصفائح، فأصر على أن ينفذ ذلك الأمر وأن تسلم الصفائح فعلاً!

وفى أثناء هذا الاضطراب وبتفوق فى عدد الجنود المسلحين تسليحاً سيئاً، وبدبابات لا يعوّل عليها، وليس لدينا القدرة الكافية على إصلاحها، وبمدافع من عيار ٢٥ رطلاً أرغمنا على استخدامها، لعدم وجود مدافع مضادة للدبابات، لنقف فى وجهه الدبابات الألمانية المدرعة، وبفرقة كاملة لم تدرب قط على الحرب فى الصحراء، وبقوة من الجنود تكبر قوة العدو، بكل ذلك تمكن الجيش الثامن من هزيمة رومل وإخراجه من برقة. ولو كانت لدى الجيش الثامن مائة دبابة شيرمان لحطم العدو، ولانتهت الحرب فى شمال افريقيا. ولعل البقية الباقية من جنود الجيش الثامن لا يستطيعون أن يحملوا الرقم ٨، ذلك أن الجيش الثامن لم يولد بحق، ولم يقفز إلى الوجود إلا فى ٢٣ تشرين الأول سنة ١٩٤٢، فى معركة العلمين، وعلى أية حال ففى استطاعتهم أن يفخروا بأنهم قد حاربوا تحت لوائه فى أيام من أعظم أيامه!

وإذا كانت لرومل مواهب وصفات ممتازة كثيرة، فلاشك فى أن مرونته كانت من أعظم صفاته ومزاياه. فهو كتلك اللعبة التى يلهو بها الأطفال، لا تكاد تضغط عليها بيدك وتتركها حتى تستوى واقفة من جديد.

ففى الحادى عشر من كانون الثانى سنة ١٩٤٢، كان رومل مايزال يئن من جراحه عند العقيلة، وفى اليوم نفسه استولى جنود جنوب إفريقيا على

السلوم، على مدى ٣٠٠ ميل إلى الشرق. وفى ١٧ كانون الثانى استسلمت حامية حلفاية، بعد أن قطعت عنها إمدادات المياه، وبعد أن تضور أفرادها جوعاً. كما أخليت المعاقل الألمانية على الحدود بخسائر طفيفة، وقد تأكد الألمان من مصيرهم بعد أن شاهدوا رومل وقد بدأ ينسحب.

وحتى ذلك الوقت كان قد تحطم ثلث جنود المحور، وقد نجا ما يقرب من النصف من جنوب «الفيلق الافريقى» من الموت أو من الأسر أو من الإصابة بجروح خطيرة. أما الروح المعنوية للبقية من الفيلق الإفريقى فلا يمكن أن يقال إنها عالية جداً، أما فيما يختص بالإيطاليين فاذا كانت لديهم اية روح معنوية فلابد أنها قد هبطت إلى الصفر أثناء الارتداد الطويل من طبرق. فكثيراً ما اشتكى الإيطاليون من أن الألمان قد وضعوا أيديهم على كل وسائل النقل. ولقد سحب رومل الفرقتين المدرعتين أو ما تبقى منهما ليعيد تنظيمهما وليزودهما بالمعدات والعتاد. ومن دبابات رومل الأربعمائة تحطمت ٣٨٦ دبابة، وبدت حطامها السوداء المحترقة متناثرة فى الصحراء، ومن طائرات رومل الألف أسقطت أو حطمت على الأرض ٨٠٠ طائرة. ولم يكن يبدو ممكناً تزويده بأسراب أخرى من الطائرات إلا بعد حين.

كذلك كان يبدو أن كل ما كان يأمل فيه رومل فى تلك الفترة، هو أن يقف عند العقيلة إلى أن يخرجه منها الجيش الثامن، أو يرغم على الانسحاب لنقص فى المؤن والإمدادات. كما أدرك الجنرال أوكنلك هو الآخر انه لن يستطيع التغلب على المشاكل الادارية وأنه لن يتمكن من تركيز جنوده ليعاود الهجوم مرة أخرى إلا فى فترة غايتها شهر شباط.

وفى ٢١ كانون الثانى قام رومل بهجوم قوى.

«لقد حدث ما لم يكن محتملاً قط: وبدأت قوات المحور تتقدم دون إنذار سابق».

وربما كان روميل قد شن هذا الهجوم ليجس النبض، وليتلمس مواطن القوة والضعف في عدوه، كما فعل ذلك في ٣١ آذار سنة ١٩٤١. فهي إذن حركة واسعة النطاق، ولكن هذه الحركة لا يقوم بها إلا رجل قوى من الناحية المعنوية والجسمية أيضاً. ذلك لأن روميل، كقادتنا، قد اشترك في حرب لم يقف القتال خلالها في شهرين كاملين، وهو مثلهم أيضاً، كان ينام في سيارته أو بالقرب منها، دون أن يحظى بالهدوء أكثر من ساعة أو ساعتين، وهو مثلهم، قد أكل ما استطاع وما شاء من الطعام في الوقت الذى يشاء، وهو مثلهم قد عانى البرد القارس والأمطار والعواصف الرملية التي تحجب الرؤية وتعمى العيون. بل إن روميل كان أكثر منهم نشاطاً، فهو لا يكف عن التنقل بسيارته بين مختلف مراكزه على طول جبهة القتال.

ولم يداخل روميل الخوف أو الفزع، وهو يتقهقر أمام البريطانيين، ولما بلغ العقيلة، كان مرهقاً، وكان السير قد أضنى جنوده. ولكنه لم يشأ أن يحدد لجنود الفيلق الإفريقي أى هدف. بل أعطاهم مؤونة ثلاثة أيام، وكان عليهم أن يتبعوه بأقصى ما في طوقهم من سرعة، وكان روميل يزحف بما لا يزيد على مائة دبابة بعضها خفيف، دون أن تغطيها بحق، أسراب من الطائرات المقاتلة، وكان يسير على هيئة ثلاثة أرتال.

ويقول الجنرال أوكنلك: إن روميل، كما تعودنا منه، قد قام بسرعة وبراعة هائلة. بأنجح هجوم قام به. فلقد تحول الهجوم الاستكشافي، أو جس النبض، إلى هجوم حقيقي. فالفرقة الأولى المدرعة التي حلت محل «جرذان الصحراء» من الفرقة السابعة، كانت حديثة العهد بالصحراء وبالحرب فيها. ففقدت مائدة دبابة من باباتها المائة والخمسين، كما فقدت الكثير من مدافعها، فاختل بذلك توازن الجيش الثامن!

وفي ٧ شباط عادت قوات روميل، فوصلت الخط ما بين الغزال وبير حكيم، دون أن تخسر في ذلك أكثر من ثلاثين دبابة. لقد كان ذلك من روميل جرأة ومخاطرة وبراعة في فن القيادة!

كوارث تهدد البريطانيين

وبدأ البارومتر يسجل هبوط درجات البريطانيين فى برقة، وفضلاً عن ذلك، أخذت الرياح الباردة تهب من الشرق الأقصى أيضاً، فهنالك نسمات تدل على وقوع كارثة كبرى. فاليابانيون يخترقون بسرعة هائلة «الأحراش المنيعة» فى الملايو.. وحتى قلعة سنغافورة أصحبت هى الأخرى على وشك أن يهاجمها اليابانيون من ذلك الجانب الذى لا يمكن أن تهاجم منه. وفى بورما أرغمت فرقتان على الانسحاب، إن وجدتا إلى ذلك سبيلا!.

وهنا أخذت القيادة الألمانية العليا تختبر مدى مالمالطة من مناعة وأهمية استراتيجية فى البحر المتوسط. فالغارات الجوية لا تكف ولا تنقطع عن هذه الجزيرة، وكانت نتيجة ذلك أن رومل لم يفقد طناً واحداً من إمداداته خلال شهر كانون الثانى. وتمكنت الطائرات والغواصات الألمانية من سد المنطقة الوسطى من البحر الأبيض المتوسط فى وجه قوافلنا. كما تكبد الأسطول البريطانى خسائر جسيمة، فلم يتبق للأميرال كننجهام إلا بوارج ثلاث وإلا بعض المدمرات. أما سفينة الأميرال فقد استقرت فى قعر البحر عند الإسكندرية!.

هذه الحوادث كان لها رد فعل طويل.....

فكما أن الجنرال ويفل طلب إليه أن يساهم فى الحملة على اليونان، وأن يأخذ من قواته فى الصحراء، وبذلك يضعف موقفه أمام المحور، كذلك حيل بين الجنرال أوكنلك وبين تقوية جيشه، فطلب إليه أن يقدم معاونات لشد أزر البريطانيين فى الشرق الأقصى. ففى كانون الأول وقبل أن يطرد رومل من الغزالة، سحبت الفرقة الثامنة عشرة من الشرق الأوسط لترحل إلى الملايو، فوصلت إلى سنغافورة قبل استسلامها، فدخل لواءان من الويتها إلى المعكسرات اليابانية دون اطلاق رصاصة واحدة، وأوقف على أثر ذلك ترحيل الفرقة الهندية السابعة عشرة، وتكبدنا خسائر كبيرة فى الدبابات والمقاتلات والمدافع.

ولما كان من المؤكد أن مالطة ستسقط فى أيدى الألمان، ما لم نؤمن

مطاراتنا فى برقة الغربية، ونغطى الجزيرة ونحمى قوافلنا إليها بأسراب من الطائرات، فان الوزارة البريطانية قد أصرت أشد الاصرار على القيام بهجوم فى أسرع وقت ممكن. فما هو إذن أسرع وقت ممكن؟ ولقد كانت وجهة نظر رئيس الوزراء أن الهجوم «يجب أن يبدأ اليوم لا غداً» ولكن الجنرال اوكنلك كان يرى أن هذا الهجوم يجب أن يبدأ حينما توجد فرصة لنجاحه. ذلك ان الهجوم المبتسر، قد يفضى إلى تحطيم القوات تحطيماً كبيراً منظماً، وحينئذ تكون أية محاولة لإنقاذ مالطة مؤدية إلى ضياع مصر، والشرق الأوسط. فكل يوم يمر على مالطة دون أن تتدخل فى أعمال نقل الامدادات إلى رومل يضعف فرص نجاح الهجوم على رومل، وبذلك تتم الدائرة المفرغة!

وفى شباط وصلت إلى طرابلس قافلة تحمل عدداً من الدبابات إلى رومل.

وطال النقاش بين أوكنلك وبين لندن، فاضطر السير ستافورد كريبس والجنرال ناى، إلى المجىء إلى القاهرة مادام الجنرال أوكنلك غير قادر على ان يترك الشرق الأوسط ويسافر إلى لندن. وأفلح الجنرال أوكنلك فى أن يقنعهما بأن قواته فى الدبابات، والطائرات أضعف بكثير من أن تقوم بأى هجوم عاجل ناجح.

ولكن تم الاتفاق على أن يكون الهجوم فى شهر آيار. وفى أثناء ذلك وصلت إلى رومل دبابات كثيرة، حتى أصبح من المشكوك فيه ان نفوقه نحن فى عدد الدبابات. وعلى أية حال كانت الوزارة البريطانية قد اعتزمت إنقاذ مالطة، ولو أدى ذلك إلى ضياع مصر. وصدرت الأوامر الى الجنرال أوكنلك بألا يتأخر فى هجومه عن منتصف حزيران، ولكن رومل بدأ الهجوم فى ٢٧ آيار بدبابات تكاد تماثلنا فى عددها، وإن كانت تفوقنا فى قوتها ومتانتها، وحتى ذلك الحين لم يستول الألمان على مطاراتنا فى برقة الغربية، ولم تسقط مالطة. ذلك لأن هتلر قد أرجأ غزوها من الجو، ولكننا كدنا نفقد مصر إلى حد بعيد.

■ ■ ■

الفصل السابع عشر

على أبواب الإسكندرية
باثنتى عشرة دبابة!

رومل يريد احتلال طبرق بأى ثمن-
نقطة التحول فى المعركة

كانت الكارثة التى وقعت فى شهر حزيران سنة ١٩٤٢، صدمة هائلة للرأى العام البريطانى. ولعل شيئاً لم يهزه كما هزه سقوط طبرق، وإن كان مما لا شك فيه أننا لم نكن نهدف إلى الاحتفاظ بها إذا ساءت الأمور.

وروّعت هذه الصدمة جنوب إفريقيا، حين استسلم جنودها، كما روّعت استراليا، وحتى الجيش الثامن الذى ذاق طعم النصر فى الأيام الأولى القليلة، لم يدر هو نفسه كيف أفلت الزمام من يده.

ولكن أحداً لا يعرف أن رومل كان على وشك أن ينهزم وأن يستسلم!.

وقد صرّح لى الجنرال بايرلاين فقال: كان منقلبنا إلى اللواء المائة والخمسين المرابط فى «غوط الحالب». ولم نكن نعلم أن ذلك اللواء كان يرابط هناك. ولقد كانت هجمتنا الأولى فاشلة، ولو أننا لم نستول على هذا اللواء فى اليوم الأول من حزيران، لكان من السهل على العدو بعد ذلك أن يستولى على الفيلق الإفريقى كله. ففى مساء اليوم الثالث كنا محاصرين وكاد ينفذ كل ما كان لدينا من البترول. وإنها لمعجزة حقاً أن نتمكن فى ذلك

الحين من الإتيان بمواردنا ووقودنا عبر حقول الألغام!».

وقد كانت حقول الألغام هذه تمتد من الغزالة على الساحل الى بير حكيم على مدى ٤٠ ميلاً إلى الجنوب فى صميم الصحراء. وحقول الألغام وحدها لا تكفى لوقف الدبابات، ذلك لأن من الممكن شق طرق وسط هذه الحقول، إذن فلم يكن بد من وجود دفاع وراء هذه الحقول. ولهذا فكر الجنرالان: أوكنلك وريتشى، فى إنشاء سلسلة من المعاقل والحصون، أولها عند الغزالة وآخرها عند بير حكيم. وقد أحيطت هذه المعاقل بالأسلاك الشائكة والألغام، وأعدت للدفاع من كل الجهات، فكانت بذلك حصونا أو قلاعاً، كما جهزت حامياتها بالمؤن لتتمكن من الاستمرار فى القتال إذا ما حوصرت، وزودت بمدفعية ممتازة فى داخلها.

وكانت لهذه القلاع مهمتان: إحداهما حراسة حقول الألغام والحيلولة دون اختراقها من قبل الأعداء، والأخرى أن تقوم هذه القلاع بما كانت تقوم به القلاع فى العصور الوسطى، أى تكون مراكز للمقاومة لابد للعدو من الالتقاء بها والتوقف لمقاتلتها، وإلا اجتاحت جنوده، وضربته من الخلف وقطعت طرق مواصلاته. وحينما يوجه العدو قواه نحو هذه الحصون، تكون قواتنا الأخرى قد التحمت به والتفت حوله. وهكذا نستطيع إذا تيسر لنا استدراج العدو إلى الميدان الذى يروق لنا أن نقوم بالهجوم عليه، إذا واتتنا الظروف الملائمة، وسيكون موضع «الغزالة» بالنسبة للجيش الثامن، كميناء «سكابافلو» بالنسبة لمعركة بريطانيا البحرية.

رومل يهدف إلى احتلال طبرق

ولقد كان هدف رومل- كما أدرك الجنرال أوكنلك بحق- هو الاستيلاء على طبرق. فلن يجرؤ رومل على أن يتقدم إلى مصر، ما لم يستول عليها: وكان عليه لكى يهاجم طبرق أن يختار بين أمرين. إما أن يشق طريقه وسط حقول الألغام والحصون وينطلق إلى طبرق، وإما أن يلتف حول حقول الألغام

الممتدة من الغزالة إلى بير حكيم، ثم ينثنى إلى الشمال. واختار رومل الطريق الأخير. فكان على الفرق الإيطالية المدرعة المسماة «اريتا» أن تستولى عل بير حكيم فى الليلة الأولى اذا أمكن، وينطلق الفيلق الإفريقى فيشق طريقه إلى البحر. ولكى يستولى رومل على طبرق فى اليوم الثالث، كان عليه أن يهزم الجيش البريطانى! وكان على الفرق الإيطالية أن تحمى الجبهة، وان تحول بيننا وبين الاتجاه غربى الغزالة، أو حقول الألغام الممتدة من الغزالة إلى بير حكيم. وكان على فرقة تريستا أن تشق لها طريقاً وسط حقول الألغام، حيث يمتد طريق العبد. وكانت هذه الخطوة للاحتياط والتحرز، كى يتسنى تقصير خطوط الإمدادات إذا لم تسقط بير حكيم فوراً.

ووراء حقول الألغام هذه كان تقع قلعة اللواء المائة والخمسين.

وقال لى الجنرال بايرلاين: «طالما أخبرت رومل، بوصفى رئيساً لهيئة أركان حرب الفيلق الإفريقى، بأننى غير مطمئن إلى هذه الخطة، وإنى أرى من المخاطرة البالغة أن نمضى هكذا دون أن نضرب بير حكيم ضربة قاضية. وكان رومل قد سألنى قبل ستة أسابيع: ماذا كنت تستطيع أن تفعل لو كنت الجنرال ريتشى؟ فأجبت قائلاً: كنت أحتفظ بمراكزى إلى الشرق بالقرب من العضم، وارفض القتال فى أول الأمر.

فقال لى رومل: أنت مجنون؟ إنهم لن يفعلوا ذلك قط؟» هذا رغم أن رومل نفسه ما كان ليصنع غير هذا بالذات!

ومضى بايرلاين فقال: «والحق أن استعدادات الجنرال ريتشى كانت ممتازة. فلقد فوجئنا مفاجأة هائلة بالدبابات الأمريكية «جنرال جرانت» بمدافعها ذات عيار ٧٥ مليمتراً، حتى لقد فقدت الفرقة الخامسة عشرة المدرعة مائة من دباباتها، فى أول يوم «وقد وجهت ضربة قاصمة إلى الجنرال كوفل قائد الفيلق الإفريقى، فأجبر على الوقوف عند مواقع اللواء المائة والخمسين، حيث أخذ هناك أسيراً. وجرح الجنرال جاسى رئيس هيئة

أركان حرب رومل. واضطلع الجنرال «نهرنج» بمهمة قيادة الفيلق الإفريقى، بينما أخذت أنا على عاتقى العمل الذى كان يقوم به الجنرال جاسى».

ولما فشلنا فى الاستيلاء على بير حكيم، واخفقنا فى شق طريق لنا وسط الألغام، طلبنا من رومل وتوسلنا إليه أن يكف عن هذه المعركة، ولكنه لم يستمع لما قلناه له. ولقد كان ذلك، فيما أذكر، هو مسار ٣١ آيار وكان رومل فى مركز بالغ الحرج، إذ كانت ظهورنا إلى حقول الألغام، ولا طعام عندنا ولا ماء ولا بترول، وكذلك لم يكن لدينا غير قليل من العتاد. وليس ثمة سبيل تسير فيه قوافلنا خلال الألغام. فى حين عز علينا أن نأتى بامدادات من الجنوب لاستعصاء بير حكيم علينا، يضاف إلى هذا أننا كنا معرضين طول الوقت للغارات الجوية».

واختتم الجنرال بايرلاين حديثه بقوله: «ولاشك أننا بعد أربع وعشرين ساعة أخرى سنضطر إلى أن نلقى السلاح».

ولقد سمعت مثل هذه القصة تماماً بعد ذلك ببضعة أيام، عندما كنت فى أحد معسكرات الاعتقال. ففى أول يوم للهجوم لحق رومل باللواء الميكانيكى الهندى الثالث. ولقد تحطمت دبابة ضابط صديق لى، فألقى بنفسه بين الأسرى الهنود بالقرب من مقر القيادة العليا لرومل، شرقى حقول الألغام، وكان رومل قد أحاط قواته بحلقة محكمة من بطاريات المدافع عيار ٨٨ مليمترا ليحول دون تقدم قواتنا، وكان يحارب حرب اليأس ليستولى على قلعة اللواء المائة والخمسين، كى يحصل على حاجته من الطعام والوقود. وفى أثناء ذلك كان الأسرى الهنود يتضورون جوعاً ويحترقون عطشاً، وكانوا يقتتلون على قطرات الماء التى تعطى للجرحى. وكان من بين الأسرى المقدم أرشر- شى فطلب أن يقابل رومل وكم كانت دهشته حين ذهبوا به إليه. وكان يعرف بعض الكلمات الألمانية التى تمكنه من أن يدلى باحتجاجه إلى رومل. فقال: إذا لم يكن لدى الألمان من الطعام والماء ما يكفى الأسرى، فليس للألمان

حق إذن فى استبقائهم، ومن الخير أن يردوهم إلى الخطوط البريطانية». وكان رومل معقولاً ولطيفاً إذ أجابه بقوله: «إنك تنال من الماء مثل نصيب أى فرد فى الفيلق الإفريقى ومثل نصيبى أنا تماماً، فكل منا يحصل على نصف كوب من الماء، وإننى لأوافقك على أننا لا نستطيع أن نستمر على هذه الحال. وإذا لم تصل إلينا الليلة قافلة تحمل الماء، فاننى سأستسلم للجنرال ريتشى. وأنت تستطيع أن تحمل منى رسالة إليه!».

نقطة التحول فى المعركة

ويبدو أن حالة رومل كانت قريبة من ذلك، ولكن رومل لا يستطيع مطلقاً أن يتصور أن يبلغ به الهوان إلى حد أن يسعى إلى الأسر بقدميه. ولكن الجنرال أوكنلك، وهو فى القاهرة، ادرك قبل الجنرال ريتشى، أن أسر الألمان للواء المائة والخمسين قد غيّر كل شىء، وكتب إليه يقول: «إننى مسرور حقاً حين أسمع منك أن موقفنا لا يزال سليماً قوياً وآخذ فى التحسن. ولكننى أخالفك فى هذا، ذلك أن تحطم الألمان للواء المائة والخمسين المدرع، وتماسك قوى العدو فى منتصف مراكزك الأمامية، هو شىء خليق بان يبعث على القلق، ولاشك فى أننا إذا سمحنا للعدو بأن ينظم صفوفه وتتماسك خطوطه، فاننا لن نصبح قادرين على الاحتفاظ بالغزاله وبير حكيم، حتى إذا لم يقم العدو بهجوم جديد. ومادام العدو فى مركزه هذا، فانه سيكون قادراً من حين إلى حين على مبادأتنا بالهجوم».

ومن اليسير أن يصبح المرء حكيماً بالغ الحكمة بعد أن يفرغ من القتال! وهنا أود أن أسجل أننى كنت على صواب فيما ذهبت إليه من قبل، بشأن هذه المعركة. لقد أعاد المستر «آلان مورهيد» فى كتابه «عام المعركة» ذكر ما سبق أن أوضحته له فى اليوم الثانى أو الثالث من حزيران، عن خوفى من أننا سنخسر المعركة إذا لم نأمر الفرقة الهندية الخامسة برئاسة الجنرال «برغس» أن تقوم بهجوم ضد حقول الألغام. والحقيقة أن مثل هذا الهجوم

كان قد فرغ من بحثه.

وفى اليوم الثانى من حزيران شاهدت الجنرال برغس فى فترات متقطعة فأسفنا كلانا لتأخر الهجوم.

وفى اللحظة التى كنا فيها على وشك الهجوم، كانت الفرقة الهندية بكاملها قد اتخذت سبيلها إلى الجنوب من بير حكيم، حيث تواصل حركتها من هنا الى (درنه). فالخطأ الذى وقعنا فيه هو أننا بدأنا هجومنا فى الخامس من شهر حزيران. وكان يجب أن يتقدم هذا الهجوم ثلاثة أيام. وعلى أى حال سقط معقل اللواء المائة والخمسين. وتمكن الألمان من شق طريق لهم وسط حقول الألغام. ونهض الفيلق الإفريقى مرة أخرى واستوى على ساقيه، فلديه البترول والطعام والماء والمؤن وكثير من مدافع ذات عيار ٨٨ مليمترا، ووراءها حشد من الدبابات. ولقد أفلح اللواء العاشر من الفرقة الخامسة ببعض حركات هجومية على العدو، ولكننا فشلنا فى استغلالها. وفى المساء قامت الدبابات الألمانية واللوريات التى تحمل الجنود بالالتفاف حول اللواء العاشر، وتمكنت من النفاذ إلى خطوطه الخلفية. وكذلك تمكن الألمان الذين كانوا يركبون سيارات بريطانية من مداهمة الفوج الوحيد الذى كان يحرس جناح اللواء العاشر، دون أن ينتبه أحد إلى هذه الخدعة الألمانية، وبعد ذلك جاءت الدبابات وتلتها اللوريات التى تحمل الجنود! أما مقر قيادة اللواء والفرقة ذاتها فقد لفهما الدخان المتصاعد من الخيام المحترقة والسيارات المشتعلة، حيث استطاع الجنرالان برغس و«مسرفى» قائد الفرقة السابعة المدرعة، الإفلات من الأسر. وكرامير اللواء «بوتشر» قافلاً إلى مقر قيادته، وقد كنت انتظر هناك، فألفيته تبدو عليه دلائل التعاسة والأسى.

فى تلك الليلة كان من السهل أن ندرك أن رومل يتهيأ للمبادأة التى كان قد انتزعها منه الجنرال ريتشى، وظهر أن رومل لن ينزل عن هذه المبادأة، ولقد كان الخامس من شهر حزيران نقطة تحول فى هذه المعركة.

وأرسل رومل بايرلاين إلى بير حكيم، فاخذت تدكها المدفعية الألمانية وطائرات اشتوكا دكاً عنفاً لا ينقطع. ولكن الفرنسيين الأحرار ما يزالون يتشبثون بمركزهم فى بير حكيم. ومع ذلك لم يتمكنوا من المقاومة طويلاً، وأخيراً ارسل الجنرال ريتشى إلى الجنرال كينج أن يتخلى عن بير حكيم فى العاشر من حزيران، وأن يحاول الإفلات من قبضة القوات الألمانية، فانسحب الجنرال كينج ومعه الجانب الأكبر من قواته، وكانت تقود سيارته فتاة بريطانية.

أعظم معركة للدبابات

ولما أصبحت بير حكيم وراء قوات رومل، تحول فوراً إلى خطته الأصلية للاستيلاء على طبرق. وعند منتصف ليلة ١١ حزيران كانت الفرقة التسعون الخفيفة على مدى بضعة أميال جنوبى العضم، وأعقب ذلك يومان وقعت فيهما أعظم معارك للدبابات، وقد ألقى رومل بكل سلاحه فى هذه المعارك، تحت ستار عنيف من المدافع المضادة للدبابات التى استخدمها رومل فى هذه المعركة استخداماً لايدع مجالاً للشك فى قوته وبراعته. وضعفت الألوية المدرعة البريطانية، حين فقدت معظم دباباتها من طراز جرانت، فى محاولتها النفاذ من ستار المدافع الألمانية المضادة للدبابات، لتلتحم مع الدبابات الألمانية المدرعة.. ولقد افلحت المدفعية الألمانية فى تحطيم الدبابات البريطانية، فتساقطت واحدة إثر الأخرى. وفى منتصف ليلة الثالث عشر من حزيران كان معظم مدرعاتنا قد تحطمت وأبيدت. يضاف إلى ذلك، أن العدو كان قد ثبت أقدامه فى الميدان، وأصبح فى وسعه أن يصلح دباباته، أما دباباتنا فقد فقدناها إلى الأبد!

وبات من الوضاح حينذاك أن مركز الغزالة يجب التخلى عنه، غير أن كلاً من الجنرالين أوكنلك وريتشى، أبى أن يعترف بأن الجيش الثامن قد هزم، ذلك لان الجيش، وإن كانت مدرعاته قد تحطمت، فان قواته البرية ماتزال سليمة.

وفى أثناء ذلك دعيت الفرقة النيوزيلندية من سوريا، كما دعيت الفرقة العاشرة المدرعة، وهى فرقة جديدة، لتساهما فى المعركة. وكانت هنالك حوالى ١٥٠ دبابة يجرى اصلاحها فى مصانع التصليح التابعة للجيش. فلابد لنا من الحصول على دبابات أكثر عدداً من دبابات رومل. وكنا ما نزال متفوقين عليه فى عدد الطائرات. وعقدت النية على التخلى عن الغزالة، والاحتفاظ بخط يمتد من طبرق إلى العضم، مع وجوب الاحتفاظ بقوة ميكانيكية إلى الشرق، والإتيان بقوة أخرى بالقرب من الحدود. وهذا معناه أن طبرق أو جانباً منها، ستشمله هذه العمليات مما يخالف الخطة المتفق عليها، بعد أن أعلنت البحرية أنها لا تستطيع إمداد طبرق بالمؤن أو العتاد.

ولقد ذكر لى الجنرال بايرلاين أن هذا القرار كان مميتاً، وأن الجنرال ريتشى كان ينبغى له أن يمضى قدماً إلى الحدود، بعد استيلاء الألمان على بير حكيم، وتجاوزهم مركز الغزالة، وعلى أية حال كان ينبغى ألا يحتفظ بطبرق بما فيها من وسائل للدفاع غير كافية، ورغم تعذر إمدادها بالمؤن. أما إذا أصر الجنرال ريتشى على الاحتفال بطبرق، كما كنا نظن، فكان لزاما عليه أن يحتفظ بها منذ البداية، وأن يبث الألغام حولها، وأن يثبت بطارياته فى مراكز منيعة وهكذا.. وأولا وقبل كل شىء، كان يجب أن يجعل حامية طبرق برياسة جنرال ذى كفاءة. فلو كان فى طبرق الجنرال موسهيد، أو الجنرال جرت، أو الجنرال فرايبورج، إذن لتغير الوضع ولجاءت النتائج مخالفة لما وقع.

فقد كان هنالك وحدات من قواتنا تقاتل بضراوة. أذكر منها فوج كاميرون الاسكتلندى الذى استمات فى القتال بعد أن استسلم الجنرال كلوبر، ولكن يبدو أنه لم تكن ثمة خطمة منظمة للدفاع عن طبرق.

على حدود مصر

وقد أثبتت الأيام أن هذا القرار كان مميتاً حقاً. فبعد أن استولى رومل

على سيدى رزق فى ١٧ حزيران، وبعد أن هزم قواتنا هزيمة عنيفة فى اليوم نسفه، هاجم حصون طبرق من الدودة فى يوم ٢٠ حزيران، بالطريقة التى اقترحها فى ٢٣ تشرين الثانى من العام السابق تماماً. واستخدم رومل طائرات اشتوكا لتلقى بقنابلها على حقول الألغام ولتشق له طريقاً بينها، وسرعا ما نفذ إلى هذه القلعة من جانبها الجنوبى الشرقى. ولم يكن فى داخل هذه القلعة إلا الفوضى والاضطراب، فالجنرال كلوبر قد تقطعت به الأسباب، ولم يستطع الاتصال بأحد، وفقد سيطرته على جنوده، وأفلت من يده زمام الموقف تماماً. وعندما انطلقت الدبابات الألمانية من بين حقول الألغام فى طريقها إلى الميناء، كانت تكتسح جيوب المقاومة الصغيرة واحداً بعد واحد. وكانت قوات جنوب إفريقيا ترابط فى الجانب الغربى، والجنوب الغربى، ولم تعرف شيئاً من أمر ذلك الهجوم حتى داهمتها الفرقة التسعون الخفيفة وطعنتها من الخلف، فلم يسعها إلا الاستسلام آسفة مبتئسة عند فجر اليوم التالى، نزولاً على أمر قائدها الجنرال كلوبر، وقد ظل هؤلاء الجنود بضعة أشهر فى معكسرات الاعتقال، يجللهم الخزى والعار لاستسلامهم للألمان.

وهكذا، فالقلعة التى ظلت منيعة لا ينالها أحد مدة تسعة أشهر كاملة فى سنة ١٩٤١، سقطت فى يوم واحد. ولاشك أن جنود جنوب إفريقيا ملومون على ذلك، ولاشك أنهم يلومون الجنرال كلوبر أولا وقبل كل شىء!!

وفى الساعات الأخيرة، كانت تكتنف طبرق سحب من الدخان القاتم تولول فى سماء المدينة من جراء انفجار مستودعات البترول التى اندلعت النيران فيها قبل الاستسلام. فأحرقت ملايين من جالونات البترول كانت فى المخازن والمستودعات الكبيرة ورغم هذا، بقيت لدى رومل كميات من البترول تكفى لأن يزحف على مصر!

وكان الوقوف على الحدود بعد ذلك، محاولة جاءت بعد فوات الأوان.

وحينئذ طلب الجنرال ريتشى الإذن فى أن يرتد إلى مرسى مطروح. وقد قبل الجنرال أوكنلك ذلك، كارهاً له، وان كانت الوساوس قد ساورته، لأن مرسى مطروح لا يسهل الاحتفاظ بها، دون أن يكون لها سند من مدرعات قوية.

وفى ليلة ٢٣ حزيران، كان رومل مرة أخرى عند الاسلاك الشائكة المقامة على الحدود.

فهل كان ينبغى لرومل أن يواصل زحفه؟

يقول فون توما: «إن رومل قد خالف أمراً خاصاً جاءه من موسولينى يحمله إليه المارشال بادوليو، بالوقوف عند الحدود بعد الاستيلاء على طبرق». غير أن الجنرال بايرلاين ينفى ذلك. ويقول أيضاً: «إن اجتماعاً قد عقد فى ٢٢ حزيران غربى البردية، وأنه جاء إلى هذا الاجتماع عندما شارف نهايته، ولكن رومل أخبره بأن الجنرال باستيكو رئيسه المباشر كان من رأيه ألا يحاول القيام بهجوم على مصر.. ومهما يكن فانه لم يصدر إلى رومل أمر بالكف عن الزحف على مصر، لا من القيادة الألمانية، ولا من القيادة العليا الإيطالية، غير أن الجنرال باستيكو قد سلّم بوجهة نظر رومل، عندما اكد له هذا أن المارشال كسيلرنج سيمده بكل الامدادات التى يحتاج إليها. ولقد اتضحت هذه النقطة فيما بعد من مذكرات الكونت تشيانو. فقد كتب فى ٢٢ حزيران يقول «أرسلت برقية من روما تنصحه بعدم المخاطرة إلى ما وراء خط كبوتزو- السلوم» وفى اليوم التالى كتب تشيانو يقول:

«لقد علمنا من بعض البرقيات التى التقطت من المراقب الأمريكى فيلزر فى القاهرة، أن البريطانيين قد هزموا، وأن رومل إذا واصل زحفه، فأمامه فرصة طيبة ليذهب حتى منطقة قناة السويس. ومن الطبيعى أن موسولينى حريص على إنجاز هذا الهجوم!».

إذن فقد كانت فكرة الهجوم على مصر من تصميم رومل، أما الإقلاع عن

غزو مصر فلم يكن من تصميمه.

وهذا أمـر بديهى. فـان رجـلاً له طبـاع رومل لا يـمكن أن يقـف والجـيش الثـامن مـايزال يرتد أمـامـه، وليس من المعـقـول أن يقف رومل ويتيـح الفـرصـة للجيش الثامن، ثم يبدأ القتال من جديد من الخط الذى وقف فيه منذ أربعة عشر شهراً مضت؟..

وكان على القـيادة الألمانيـة العليا وعلى القيادة الإيطاليـة، أن تمد رومل بكل مـا يحـتـاج إليـه من امـدادات، خـاصـة بعـد أن أصـبـحت مـصـر دانيـة القطوف، ومن ورائها قناة السويس!

ويقـول الجنرال بـايرلاين: «إن أحـداً لم يكن فى اسـتطاعـته أن يدرك كيـف يستطيع البريطانيون أن يستعيدوا بتلك السرعة، إشرافهم على البحر الأبيض، ويفلحـوا فى وقف الشـحنات والقـوافل التـى تصل إلينا». ولا يسـتطيع أحـد أن يعـرف أيضـاً كيـف أن هتلر، وهـو صـاحـب البـداهـة المشـهـورة، ولا كـيـف أن كيتل وبودل وهـالدر، وهـم ذوو العـقـول العـسكرية المدربة، لم يـدركـوا تلك الفـرصـة الذهبية التى سنحت لهم. فرومل كان يجب أن يواصل زحفه على مصر.

ومما لاشك فيه أن الفيلق الإفريقى كان منهكاً مكدوداً. ولكن رومل بماله من حيـوية بالغة، يـرى أن الجنرال الألمانى يجب ألا يقـعـد عن مواصلة القـتـال فى الجولة الأخيرة!.

ومـضـى جنود رومل قـدمـاً، وفى سـرعـة هـائلة. فـفـى مسـاء ٢٤ حـزيران وصل رومل إلـى سيـدى بـرانـى. وفى اليـوم التـالى كـانت أرتاله على مـدى ٤٠ ميـلاً من مرسى مطروح. وفى هذه الليلة بالذات تسلم الجنرال أوكنلك بنفسه مقاليد القيادة للجيش الثامن. وقد قرر منذ اللحظة الأولى أنه يجب ألا يظل جانب من قواته محاصراً فى دفاعات مرسى مطروح التى لم يكن لديه العدد الكافى من الرجـال للدفـاع عنهـا. وكـمـا قـرر أن يـوقف رومل إن أمكن، فى

المنطقة بين مرسى مطروح والعلمين. وكان على الفيلق الثلاثين أن يحتل مركز العلمين كخطوة احتياطية. وفى مساء ٢٦ حزيران اقتحمت الدبابات الألمانية حقول الألغام إلى الجنوب.

وفى اليوم التالى اصطدم الألمان بالفرقة النيوزيلندية الجديدة وكان الألمان يحاربون بحيوية وقوة، كشأنهم دائماً. ولقد فقد الألمان الكثير من الأسلحة والرجال، ولكنهم واصلوا زحفهم على الساحل، وأفلحوا فى قطع طريق طوله عشرين ميلاً شرقى مرسى مطروح. وكان على الفرقة الخمسين والفرقة الهندية العاشرة التى وصلت أخيراً، أن تقاتلا طول الليل لتفلتا من قبضة الألمان، تاركين وراءهما كميات من المؤن والمعدات. ولم يكن أمامها من سبيل إلا الانسحاب إلى المركز الذى كان قد أعده الجنرال أوكنلك من قبل».

وفى الثلاثين من حزيران وصل رومل إلى خطوط العلمين. وكانت الإسكندرية على مدى ٦٥ ميلاً من مراكزه وقد أكد لى الجنرال بايرلاين أنه حينئذ لم يكن باقياً لديه سوى ١٢ دبابة ألمانية».

■ ■ ■

الفصل الثامن عشر

رومل أصغر مارشال فى الجيش الألمانى

إنسان من طراز فريد-
يتنقل فى الجبهة باستمرار

فى صبيحة يوم ٢١ حزيران، كان فى استطاعة رومل أن يقول بحق: «طبرق فى يدى». وفى اليوم التالى علم رومل باللاسلكى من هيئة أركان حرب هتلر، أنه رقى الى فيلد مارشال، وبذلك أصبح أصغر حامل لهذا اللقب سناً فى الجيش الألمانى كله، ذلك أنه لم يكن قد جاوز التاسعة والأربعين من عمره. وفى هذه الليلة أقام رومل حفلاً لهذه المناسبة فشرب كأساً من الويسكى، وتناول بعض الأطعمة من مخلفات الجيش الألمانى التى تركها فى طبرق. وبعد العشاء كتب إلى زوجه رسالة قال فيها:

«لقد أنعم علىَّ هتلر برتبة فيلد مارشال، وكنت أفضّل أن ينعم علىَّ بفرقة من الجنود!».

وكان رومل ماتزال روحه المعنوية عالية على صورة غير عادية، وتلك إذن هى القمة التى بلغها رومل بوصفه جندياً وقائداً فى شمال إفريقيا. وقد بلغ كل هذا المجد العسكرى خلال أربعة عشر شهراً، بعد نزوله إلى طرابلس، وكانت مهمته بالغة التواضع، وهى الحيلولة دون استيلاء البريطانيين على منطقة طرابلس. على أن موقفه كان يحتم عليه أن ينسجم والإقليم الذى يعيش فيه إلى أقصى حد، فيتعود تلك الحياة الجديدة الغريبة فى الصحراء،

وذلك النوع الجديد من الحرب. وسرعان ما ألف رومل حياة الصحراء كما تألف البطة الماء، وأصبح وكأنه بدوى أمضى حياته كلها بين الرمال! أو ما يوصف بكونه «أهلا للصحراء»، وقد كانت هذه العبارة تطلق أول مرة على وسائل النقل الملائمة للسير فى الصحراء، ثم شمل استعمالها الوحدات العسكرية والأفراد.

ويقول الجنرال بايرلاين: ربما لم يكن رومل استراتيجياً عظيماً، ولكن لا مراء فى أنه أعظم خبير فى الجيش الألمانى كله بشئون الصحراء».

ولئن كانت حرب الصحراء تتطلب نشاطاً وجلداً كبيرين لا يتوافران إلا للشباب، فان رومل بفضل السنوات التى قضاها فى الانزلاق على الجليد، وتسلق الجبال، كان وإن جاوز الشباب، ذا تكوين بدنى من الطراز الأول. وقد قال عنه أحد ضباط المظلات، وكان بطلاً سابقاً من أبطال الانزلاق على الجليد: «إن رومل له قوة خارقة، واننى لم أر فى حياتى رجلاً له مثل نشاطه وجلده، فهو لا يشكو قط من قلة الطعام أو الشراب أو ساعات النوم. وهو يفوق الشبان الذين يصغرونه بعشرين أو ثلاثين عاماً، فى قوة تحمله، ومن هنا كان قاسياً على نفسه وعلى غيره».

والحق يقال إن رومل كان يمتاز بروح اسبارطية[1] تجعله يفخر بان المتاعب والمخاوف لا تنال من نفسه ولا تقعد به عن إتيان أى أمر من الأمور العسكرية. فلم يكن الحر، ولا البرد، ولا الفراش الخشن الجاف، لتؤثر فيه. وحتى رياح الخماسين المعروفة فى الصحراء الغربية التى تثير الزوابع الرملية فتطرد أمامها الإبل والأعراب، والتى تنفذ إلى العيون فتعميها عن الرؤية، كان رومل ينظر إليها على أنها شىء مبالغ فيه!. وكان يركب طائرته المسماة «باللقلق»، ويهبط بها وسط العواصف الرملية الهائجة فى أول معركة يخوضها من معارك الصحراء. وكثيراً ما تعرض للموت عن طريق تلك

(١) إشارة إلى أهل اسبارطة القديمة فى اليونان الذين كانوا يربون أبناءهم تربية رياضية قوية جداً.

الطائرة، ذلك لأنه كان يدنو بها دائماً من مراكز البريطانيين، وليس ثمة ثغرة واحدة فى الجو يمكن من خلالها أن يرى شيئاً ويلمَّ بما يعده البريطانيون.

إنسان من طراز فريد

وكان رومل كنابليون فى استطاعته أن يكتفى بأن ينام بضع دقائق، جالساً فى سيارته، أو مستنداً برأسه إلى إحدى المناضد، ثم يصحو مستريحاً تماماً. ولقد سألت (جنتر) الجندى الذى أمضى فى خدمته أربع سنوات: «هل كان رومل يتضايق إذا أوقظ من نومه؟. فقال: كلا. إنه كان يصحو فى لحظة واحدة، وكان حين ينام- مهما يكن متعباً- لا يكاد جفناه ينطبقان، حتى اذا جاءته رسالة فسرعان ما يصحو عادة قبل أن أوقظه!».

ولم يكن رومل يعنى كثيراً بالطعام، وكان يقنع تماماً حين يخرج ليقضى يوماً فى الصحراء، ببضع قطع من «الساندويتش»، أو بقطعة من الخبز وعلبة سردين!. وحدث أن دعا مرة قائداً إيطالياً إلى تناول الغداء معه فى الهواء الطلق. ثم علّق على هذه المأدبة بعد ذلك فقال: لقد كنت محرجاً فلم يكن لدى إلا ثلاث شرائح من الخبز الجاف، ولكن لا بأس فالايطاليون يأكلون كثيراً!».

وكان رومل يعتقد أنه بقدر ما يسرف الإنسان فى الشراب وهو فى الصحراء يزداد عطشه، ولذلك كثيراً ما كان يأخذ معه فى تنقلاته زجاجة من الشاى المثلج الذى عصر عليه الليمون، ثم يعود بها كما كانت دون أن يتناول منها شيئاً!

وفى الليل كان رومل يتناول طعام العشاء مع صديقه القديم الدنجر، وكان يصر على أن يكون نصيبه من الطعام والمواد الغذائية، مثل نصيب أى جندى من جنوده.

ولم يكن الطعام جيداً على أية حال. ولقد قال لى «فون ايزبك» المراسل

الحربى: «إن أسباب مرض جنودنا، وخاصة إصابتهم بفقر الدم، هو أن المواد الغذائية التى كانت تصرف لهم لم تكن لتناسب جو الصحراء. فأين خبزنا الأسود الجاف، من خبزكم الأبيض الطازج؟. وكم تمنينا أن ننال شيئا من هذا الذى يأكله جنودكم. ومن لنا بالعصير البديع الذى تشربون؟! لقد ظللنا أربعة أشهر أو خمسة دون أن نحظى بشىء من الفاكهة أو الخضراوات، ولا بشىء من اللحوم غير اللحوم المعلبة التى ترد إلينا من إيطاليا!».

وكانت هذه العلب تحمل الحرفين «م.أ.» بصورة مكبّرة مما دعى جنودنا إلى أن يطلقوا عليهم اسم «حمار موسولينى!»[1].

ولم يكن ضباط الفيلق الإفريقى يشتكون من قلة الطعام ورداءته. وحتى اذا ما تجرأ أحدهم وشكا تفاهة غذائه، أجابه رومل بلطف «هل تتصور أن غذاءك أحسن طعماً لدى؟» والحقيقة أن رومل لم يكن يلاحظ طعم الغذاء ومذاقه. فكل ما يعرف عنه أنه كان ينفر من الشاى والقهوة الممزوجة بالماء المالح. ولذلك لم يبتهج رومل عند زيارته «جغبوب» لأن المياه تحتوى على كمية غير قليلة من الملح الافرنكى!

وكان يحدث عادة بعد أن يتناول رومل طعام العشاء، فى حوالى عشرين دقيقة، أن يتناول قليلاً من النبيذ، ثم يستمع لإذاعة نشرة الأخبار. وعلى أثر ذلك يكتب رسالته اليومية إلى زوجته. فاذا لم تكن لديه فسحة من الوقت لكتابة هذه الرسالة، تولى كتابتها «جنتر» نيابة عنه!

كان رومل شديد الحرص على مراسلة أفراد فوجه الأول فى الحرب العظمى السابقة، ولم يحدث قط أن بعث إليه واحد منهم برسالة فلم يرد عليها.

وفى خلال الفترة الباقية قبل أن يذهب إلى الفراش، كان ينظر فيما لديه من الأوراق الرسمية، وقد يقرأ بعد ذلك صحيفة أو كتاباً يعالج مسألة

(١) M.A. اى حمار موسولينى. Mossolini ASS.

حربية. «كان يجد متعة فى دراسة تاريخ شمال أفريقيا. وكثيراً ما أعرب عن رغبته فى معرفة شىء من الآثار القديمة هناك.

أما القصة القائلة بأن روميل كان عالماً أثرياً يقضى أوقات فراغه فى التنقيب عن الآثار الرومانية، فهى مما اختلقته وزارة الدعاية الألمانية. ولقد كان «فون أيزبك» نفسه مسئولا عن هذا الاختلاق!

فقد صرح لى ايزبك قائلاً: «كان البعض منا يقوم بالتنقيب، عندما عثرنا على قطع من المصنوعات الفخارية الرومانية. وبينما كنا نتفحصها أقبل روميل إلينا، وما أن عرضنا تلك القطع عليه حتى قال ياللجحيم! ماذا أنتم صانعون بكل هذه الانقاض؟».

وفى الأيام العادية، كان روميل يستيقظ من نومه فى الساعة السادسة صباحاً. وكان يترك لجنود الفيلق الإفريقى أن يلبسوا ما يحلو لهم فى الصحراء. فكان الألمان منهم يلبسون كالجنود الاستراليين بنطلونات قصيرة وأحذية خفيفة، ويضعون على رؤوسهم قبعات منتصبة الأطراف.

أما هو فكان لايبدو عادة إلا فى ملابسه العسكرية الكاملة، حليق اللحية والشارب. وما كاد يصل إلى الصحراء حتى ألقى بالخوذة التى تستخدم فى المناطق الاستوائية والحارة، كما فعلنا نحن أيضاً مثل ذلك، ولم يستعمل روميل قط تلك القبعة المستديرة التى تشبه العلبة المصنوعة من الصفيح. على أنه كان يضع حول عنقه «كوفية» فى الشتاء، وتحتها وسام الصليب الحديدى، كما هى عادة الألمان.

وهكذا يتبين أن روميل كان أكثر عناية بملبسه من قادتنا، الذين لا يمكن تمييزهم إلا بقبعاتهم الحمراء، أو علاماتهم العسكرية، حتى لقد حدث حين أسر الجنرال ماسرفى قائد الفرقة السابعة المدرعة، أن ظنه الألمان جندياً عادياً. ثم سأله أحد الضباط الألمان: «ألست من الكبر بحيث ينبغى أن تكون

أكثر من جندى عادى؟». فأجابه ماسرفى: «إننى جندى احتياطى، وما كان ينبغى لهم أن يستدعونى للخدمة العسكرية!».

وفى الساعة السادسة والنصف صباحاً، كان رومل يبدأ جولته اليومية فى مراكزه المختلفة. وفى بعض الأحيان كان ينتقل بطائرته التى يقودها بنفسه، ورغم أنه لم يحصل على شهادة أو تصريح بقيادة الطائرة، كان طياراً ماهراً.

أما أثناء المعارك فكان يركب سيارته البريطانية المدرعة، التى سماها «الماموث». وفى كثير من الأحيان كان يركب السيارة الألمانية المعروفة باسم «سيارة الشعب[1]» ويقودها بنفسه. ولم يخطىء رولم طريقه فى الصحراء منذ هبط إليها. ولم يكن يوجد فى الجبهة الألمانية مركز واحد لا يتوقع أن يزوره رومل، فقد كان حريصاً على زيارة جميع المراكز مهما تكن بعيدة!.

ومن الطريف أن رومل عاد من القتال ذات مرة إلى أحد الخطوط الخلفية، فشاء سوء طالع أحد الضباط الكبار هناك، أن ضبطه رومل نائماً فى الفراش بعد الساعة السابعة صباحاً. وما كاد الضباط الكبير، وهو برتبة عميد، يخرج للقاء رومل وهو يرتدى البيجاما، حتى صرخ رومل فى وجهه قائلاً: «يا لك من ثعلب كسول أو تظن أنك تنتظرنى لآتى لك بطعام الافطار؟».

ثم التفت نحو صديقه «الدنجر» واستطرد يقول: إنه لأمر عظيم أن تصبح فيلد مارشال، ومع ذلك ينبغى عليك أن تتذكر كيف تتحدث إلى الضباط، وكأنك رئيس عرفاء!».

ولم يكن رومل يزور الخطوط الأمامية زيارة عابرة، أو تنطوى على عدم الاكتراث أو التكلف، ولكنه كان يزورها زيارة الفاحص المدقق الخبير، فلا تفوت عينه النافذة الناقدة صغيرة ولا كبيرة، فهذا مدفع رشاش قد وضع فى

(١) هى سيارة فولكس واجون VOLIKSWAGEN الألمانية المشهورة حتى الآن.

غير موضعه، وهذه الغام لم يعن باخفائها تماماً، وذاك موضع للمراقبة ينقصه شيء من التمويه، وهكذا.

وحينما كان رومل لا يرضى عن وضع مراكز جبهته، كان يستقل سيارته إلى مكان يبعد بحوالى ميل عن هذا المركز، ثم يأخذ فى تأمله من تلك المسافة بعين العدو، ويسجل ملاحظاته على هذا الأساس! بل كثيراً ما كان يطلق النار على ذلك الموضع، ثم يعود إلى جناح ذلك الموضع من جديد.

وقد حدث ذات مرة أن كان رومل يزحف على يديه ورجليه فى طريق امتلأ بالألغام، فإذا به يفاجأ بإطلاق النيران عليه!. وقد علق على ذلك بقوله «إن هذه النيران قد صوبت إلىَّ، لأننى كنت أزحف على يدى ورجلى بسرعة، وكان ينبغى أن أزحف على مهل حتى لا يلتفت إلىَّ أحد»!

ولاشك أن جنود رومل وضباطه قد تأثروا بشخصيته إلى حد كبير، ولاشك كذلك فى انه اجتذب قلوبهم وعقولهم بعنايته الكبير بمشاكلهم، وبعبقريته النادرة فى تصميم التكتيكات الصغيرة السريعة الحاسمة، وببراعته فى التنقل بجيشه فى الصحراء. والواقع أنه كان محبباً إلى نفوسهم كانه واحد منهم، وكان يتودد إليهم ويتلطف كثيراً فى حديثه معهم.

ويقول فون أيزبك «لقد كان رومل دائم المرح حين يتحدث إلى الشبان، وكان يبتسم ويتفكه مع كل جندى يؤدى عمله. ولم يكن شيء أحب إليه من الحديث مع رجل من أبناء بلدته باللهجة الأسفابية. لقد كان رومل ذا قلب دافق بالحرارة والحماسة، جذاباً على نحو لم أر له مثيلاً!» ولاشك فى أن جاذبية رومل هذه التى أثارت إعجاب فون أيزبك- وهو الكاتب الذى خبر المجتمع- لابد أن تكون جاذبية قوية خارقة.

وحين يجّد الجد، ويلتحم الجنود وتبدأ المعركة، كان رومل يبدو متيقظ الحواس، ذا روح معنوية عالية. فهو قائد بطبيعته، وهو يعتمد اعتماداً غريزياً على أن يقود المعركة بنفسه. ولقد أدرك رومل أن حرب الصحراء كالحرب

البحرية تماماً، يجب أن يكون القائد فيها وسط المعركة. فلم يكسب قائد بحرى معركة بحرية وهو على الشاطىء! وكان سريع التفطن إلى دقائق موقفه العسكرى أثناء القتال إلى درجة مدهشة. ولعل سر قدرته على اقتناص الفرصة السانحة، وقدرته على إحراز انتصارات سريعة، أنه لم يكن ينتظر حتى تأتيه المعلومات الرسمية عن قوافل إمداداته وغيرها، ولكنه كان يذهب بنفسه ليحصل على المعلومات التى يريدها فى طائرته الخاصة، أو دبابته الخاصة أو سيارته المدرعة الخاصة أو سيارة الشعب، أو على قدميه.

وهكذا تمكن رومل دون أن يستريح بعض الوقت من أن يجعل حركته الاستكشافية التى قام بها فى نيسان سنة ١٩٤١، وكانون الثانى سنة ١٩٤٢، هجوماً قوياً موفقاً. وهكذا أيضاً تمكن من أن يستخرج من براثن الهزيمة، بل من الطامة الكبرى التى كادت أن تحل به فى نهاية آيار سنة ١٩٤١، هجوماً بقدر ما تسمح به موارده، حتى ليمكن أن يقال إنه الرجل الذى ركب الزوابع ليقود العاصفة.

قدرته على الخروج من المآزق الحرجة

ولقد انتقد النقيب ليدل هارت، وكثيرون غيره، اقتحام رومل ميادين المعارك، وابتعاده فى بعض الأحيان عن هيئة أركان حربه. وربما كان فى هذا الانتقاد بعض الحق. غير أن ليدل هارت نفسه يعترف بأن لرومل «براعة فى الظهور عند بعض النقط الحيوية فى المعركة، وأن له قدرة على حسم الأمور فى اللحظات البالغة الحرج».

أما المقدم فولرز فهو يرتاب فى ذلك بعض الشىء. وقد كتب يقول: أما سرعة الحسم ومرونة الحركة فالألمان جميعاً يفوقون أعداءهم فى ذلك. وكان رومل خاصة يتولى بنفسه إبلاغ أوامره إلى مرؤوسيه، كما يتولى قيادة الجيش. وليس معنى هذا أن القادة البريطانيين أقل قدرة أو كفاءة من الألمان.. إنما هى تعاليمهم ودراساتهم العتيقة القائمة على حرب الخنادق

التى ترجع إلى الحرب العظمى الأولى، لا إلى الحرب المدرعة الحديثة التى دعوا إلى خوضها دون استعداد سابق. ولقد حدث أن انهزم رومل مرتين حينما كان الجنرال اوكنلك يقود المعركة بنفسه، ثم أفلت رومل من الهزيمة فى حزيران سنة ١٩٤٢، لأن مواصلاتنا كلها كانت بطيئة، وكان ينقصنا الكثير من حسم الأمور!».

ولا أحد يستطيع أن ينكر أن القيادة الشخصية فى المعارك الصحراوية لا تؤتى ثمارها المرجوة. ومن الخطأ أن نتصور رومل عصرياً كالأمير روبرت، وهو يلوح بقبعته إلى جنوده ثم يقود الدبابات فى الهجوم على العدو. فالواقع أنه كان على عكس ذلك تماماً. كان مقاتلاً قديراً، يأبى إلا أن يكون القتال على نحو ما يريد هو، لا كعادتنا نحن!

ولعل أهم ما أداه رومل من خدمات تكتيك الدبابات، استخدامه ستاراً من نيران المدافع المضادة للدبابات التى تدور من تلقاء نفسها، ثم تتقدم بعدها الدبابات المدرعة. فقد كان فى استطاعة هذه الدبابات أن تفعل ما تشاء ما دام ذلك الستار المنيع أمامها، فهى تستطيع أن تنسحب، وأن تزود بالوقود، أو تقوم بالهجوم على العدو. هذا فى الوقت الذى تتصيد فيه تلك المدافع دباباتنا واحدة إثر واحدة.. ولقد حدث غير مرة أن وقعت دباباتنا فى شرك المدافع الألمانية. وحدث غير مرة أن تمكن رومل بأسلحته المركزة من اقتناص أسلحتنا المبددة المتناثرة. ولقد كان رومل داهية ماكراً، فعندما أصدر أول أوامره بالنزول إلى طرابلس كان يهدف من وراء ذلك إلى تركيب دباباته الوهمية. وكان رومل يستخدم دائماً سيارات النقل كى تثير تراباً فيدخل فى روعنا أنها فرق مدرعة. وكان الألمان يستخدمون الناقلات وحاملات الجنود التى يأسرونها، لا لأنهم فى حاجة إلى وسائل المواصلات فقط، إنما ليحدثوا اضطرابا فى صفوفنا عندما يتقدمون فى زحفهم علينا!.

ولم يكن رومل يسير فى إصدار أوامره وفق خطة مرتجلة، كما كان يظن،

ولكنه لم يكن يندفع فى خطوط المعركة ثم يصدر أوامره إلى الجنود أو التشكيلات الصغيرة، إلا بعد رؤية وحسن تبصر لعواقب الأمور. ولولا هذا ما استطاع أن يقود مائة ألف من الجنود على تلك الصورة الموفقة التى رأيناها!.

لقد كانت أوامره تصدر شفوياً فى كثير من الأحيان. وحينما يشتد القتال، أو حينما يدرك رومل أن العدو ليس لديه الوقت للاستفادة من أوامره إذا التقطها، كان رومل يصدر أوامره إلى الجنود باللاسلكى. ولكن الدنجر أكد لى أن الأوامر كانت تصدر اختزالاً وعندما يكون هناك متسع من الوقت كانت تصدر موضحة كاملة. وعلى أية حال فإن هذه الأوامر كانت موجزة بينة الوضوح لا تقبل لبساً. ولم يشك رومل قط فيما يريد، كما أنه لم يكن يترك للشك سبيلاً إلى أذهان مرؤوسيه.

وكثيرة هى المخاطر الكبيرة التى عرضت لرومل أثناء القتال. فلطالما أشرف على الموت، أو أصبح قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى الأسر. فمثلاً حدث ذات مرة أن قتل سائق سيارته، والسائق الاحتياطى، وكانا جالسين جواره، فاضطر إلى أن يقود سيارته المدرعة بنفسه. ولقد كان رومل شجاعاً إلى درجة نادرة، وكان رابط الجأش تماماً فى خطوط النار، ولكن ضباطنا الكبار كان من الممكن أن يكونوا مثله لو أنهم تعودوا ذلك كما تعود. فلم يكن بين رجالنا، على مستوى واطىء، أكثر شجاعة وجرأة من الجنرالات: فرايبورج وكامبل (جوك) وغوت (سترافر).

لقد كان رومل بحق كنابليون وولنجتون، يضطر إلى المخاطر مادام سيقود المعركة بنفسه مباشرة. وكذلك كان شأن مرؤوسيه. وهم يعزون مناعته ضد الموت والخطر، إلى حاسته السادسة التى تدرك إدراكاً واضحاً ماذا يقدم عليه العدو، وما هو بسبيل أن يفعله!

ويقول الجنرال بايرلاين: «فى ظهر يوم ٢٥ تشرين الثانى كنا فى مقر هيئة أركان حرب الفيلق الإفريقى فى جسر العبد. وفجأة التفت إلىَّ رومل

وقال: بايرلاين. إننى أنصح لك بمغادرة هذا المكان: إننى لا أستريح إليه. وبعد ذلك بساعة واحدة هوجم مقر هيئة أركان حربنا على صورة غير متوقعة ثم دمر! وأذكر أيضاً أنه فى عصر اليوم ذاته كنا نقف معاً. وفى لحظة تلفت رومل إلىَّ وقال: «لنتحرك بضع مئات من الياردات. إننى أظن أننا سنكون هدفاً لبعض القذائف هنا فأية قطعة من الصحراء تشبه الأخرى تمام المشابهة. ولم تمض خمس دقائق على ابتعادنا من ذلك المكان، حتى هوت القذائف فوقه تماماً! وكل الذين حاربوا مع رومل يروون قصصاً مشابهة لما أقول لك».

وحقاً، لقد حدثنى كل من لقيت ممن حاربوا مع رومل قصصاً تؤيد ما قاله الجنرال بايرلاين كل التأييد!

ربما كان من السهل، ونحن ندرس طريقة رومل فى القيادة والاشراف على المعارك من الناحية الأكاديمية، أن ننسى هدفه الرئيسى وأثره القوى، اعنى بث الشجاعة فى جنوده وتقوية إرادة النصر فيهم. وعلى ذلك تتوقف معاركه وحروبه. وربما خسرت المعارك من جراء سوء القيادة. ولكن القيادة مهما تكن قوية وممتازة فلا يمكن أن ترجح كفة الروح المعنوية الضعيفة فى الجندى المقاتل. ولقد قال نابليون وغيره من القادة العظام: «إن ثلاثة أرباع شئون الحرب هى تلك التى تخص الروح المعنوية فى الجند». وربما كان تنقل رومل المستمر بين مراكزه الأمامية، يحدث الاضطراب لمرؤوسيه من الضباط. وكان من الممكن فى بعض الأحيان أن يعكف على دراسة الخرائط والرسائل فى مقر قيادته، بدلاً من أن يندفع بسيارته وسط الرمال والاضطراب الذى يسود مثل هذه المعارك الحامية الوطيس، على أن الفيلق الإفريقى لم يبلغ ما بلغه من قوة وجَلد على القتال إلا لأن رومل نفخ فيه من روحه، وأن رؤية الجنود لقائدهم القوى البنية الممتلىء ثقة فى عمله، لخير دافع لهم على القتال فى شجاعة وإيمان!

رجال الفيلق الإفريقى

ولقد كنا نعتقد فى ذلك الحين أن الفيلق الإفريقى هو الفيلق من الصفوة الممتازة المختارين أحسن اختيار من المتطوعين ذوى الأبدان القوية، والمدربين تماماً على حرب الصحراء. والواقع أنهم ليسوا كذلك. فالجنود لم يكونوا متطوعين، وإلا،- على حد قول فون رافنتشين- كان الجيش الألمانى كله من المتطوعين. كما أنهم لم يتدربوا تدريباً خاصاً للحرب فى الصحراء، اللهم إلا أن بعض ضباطهم كانوا قد التحقوا بالإيطاليين فى الصحراء ليكتسبوا خبرة فى شئون القتال. خلال الرمال وتحت ستار من الزوابع والعواصف.

هذا، والجندى الألمانى الشاب، جندى شجاع، قوى العزيمة، مدرب تدريباً ممتازاً على استخدام أسلحته. ثم هو مطيع محب للنظام، غيور على وطنه. قوى الشكيمة. ولعله من الناحية الجسمية لم تكن تناسبه الأعمال فى قيظ الصحراء المحرق. وحتى المحاربون القدماء فى الحرب العظمى الأولى من الألمان، لم يستطيعوا أن يتكيفوا مع الأحوال الصحراوية، بالسهولة التى تكيف بها الاستراليون والنيوزيلنديون وجنود جنوب إفريقيا والهنود والبريطانيون. ولذلك كانوا لا يعرفون شيئاً عن إفريقيا. وكان من الصعب إقناعهم بأنها لا يوجد فيها مشروع لتنقية المياه.

ويقول فون أيزبك: «إننا طالما عانينا من جراء الدوسنتاريا[1] وغيرها، ولم يتمكن أطباؤنا وأطباؤكم أن يعرفوا كيف يجعلون الجنود فى حالة تناسب الصحراء! فمستشفيات الميدان الألمانية كانت تختلف تمام الاختلاف عن مستشفياتكم، ولم يكن فيها أول الأمر من مادة «البلازما» ما يستعمل فى عملية نقل الدم، وهكذا كان علينا أن نمضى وقتاً طويلاً كى نتعلم كيف نواءم أنفسنا والصحراء».

(١) مرض التهاب الأمعاء المعروف لدينا بالدزنترى المحرف عن الكلمة الإنجليزية.

وكانت للفيلق الإفريقى أسلحة خير من أسلحتنا، وإن كان دوننا فى وسائل المواصلات، وكان الفيلق أعرف منا باستخدام أسلحته، كما كان يفضُلنا بأن جنوده يطالعون الصحف، إذ كانت لهم صحيفة خاصة به تسمى «الواحة» كما أن الألمان متجانسون جميعاً، بينما كان الجيش الثامن خليطاً متعدد العناصر من مختلف الأجناس والألوان.

وقد وصل الفيلق الإفريقى إلى شمال إفريقيا وروحه المعنوية قوية، واستطاع رومل وحده بتأثيره الشخصى، وبالمثل التى ضربها لجنوده، وبما قام به من مخاطرات، أن يجعل من جنوده تلك القوة التى حاربت فى مرونة وصرامة على النحو الذى رأيناه! لقد كان رومل وحده يمثل الفيلق الإفريقى وكان هذا الاعتقاد يغمر رجاله وأعداءه على السواء.

فرومل وحده الذى جعل منهم بسلاء، ممتلئين ثقة، حتى فى أشد أهوال القتال.

ورومل هو الذى علمهم ألا يعترفوا بالهزيمة، وعلمهم أن يهبطوا إلى ميناء السويس، بعد أن وقعوا فى الأسر، رافعى الرؤوس، يرتلون أنشودة: «إننا نسير اليوم ضد انجلترا!»، ولا يزال جنود الفيلق الإفريقى فى ألمانيا حتى سنة ١٩٤٩، يحتفظون فى محافظ جيوبهم بصور زاهية لنخيل شمالى إفريقيا.

وإذا سألت أحد الألمان الآن: «هل ذهبت إلى شمال إفريقيا؟». فإنه يجيب فى كبرياء قائلاً: «نعم، كنت فى الفيلق الإفريقى، ولقد حاربت مع رومل!».

هنيئاً لهم، لقد حاربوا فى براعة، وكما يقول الألمان، إن العدو الممتاز صديق ممتاز أيضاً!.

■ ■ ■



الفصل التاسع عشر

الفيلق الإفريقى يعبد رومل!

الإيطاليون لا يصلحون للحرب-

رومل يحتقر الضباط الإيطاليين

بين رومل وموسولينى

كان رومل معبوداً للفيلق الإفريقى، يستمتع بجانب كبير من احترام الرؤساء والمرؤوسين، رغم أنهم كانوا يرون فيه رجلاً قاسياً صلباً ليس من السهل التعامل معه!

والواقع أن رومل- وإن اشتهر فى المعارك بدقة الاحساس وسرعة التفطن لاتجاهات العدو، لم يكن كذلك فيما بينه وبين رؤسائه من كبار القادة والمسئولين، فكثيراً ما بدأ فى معاملته لهم نافذ الصبر، ذا لسان قاس سليط، لا يرى مالا يحب أن يراه. ويحب ألا يناقشه أحد فى أمر يصدره، بل لا يطيق أن يسمع من أحد من الناس كلمة «مستحيل».

وأكثر من هذا، كان من العادات المتأصلة فيه أنه يملى أوامره وتعليماته على مرؤوسيه، غير ملق بالاً إلى ما تقضى به الرسميات والتقاليد، كما كان من عاداته أيضاً أن يصطحب معه فى تنقلاته بين خطوط القتال، رئيس هيئة أركان حربه، دون أن يترك من يخلفه فى مقر قيادته، لحسم ما قد يطرأ من الأمور.

وفوق هذا وذاك كان رومل يولى بعض الأمور الصغيرة عناية شخصية كبيرة، كما حدث عند ذهابه بنفسه لمحاولة أسر الجنرال كننجهام، وهى محاولة قلما يقوم بها أى قائد عام سواه.

هذا إلى أن رومل، خارج الميدان، كان رجلاً غير اجتماعى. وقد قيل فى تفسير هذا الخلق عنده، أن رومل لم يستفد من حياته كما استفاد منها المارشالات الألمان أمثاله. وذلك لأن الحياة لم تتح له من الظروف ما يجعله سهلاً ليناً يحسن الإمتاع والمؤانسة.

وفيما عدا هذه الملاحظات التى يرددها حاسدوه وخصومه، كان الجميع يقدرون، إلى أقصى حدود التقدير، بقية ما توافر له من المزايا والصفات.

على أننا لو أمعنا النظر فى تلك الملاحظات نفسها، لوجدنا أنها فى الوقت نفسه من جملة محامده ومفاخره، وإن أثرها كان ملحوظاً فى نجاح قيادته لجنوده وحسن طاعتهم له، ذلك لأن إصراره على أن يؤدى عمله بنفسه دون وساطة، جعله دائم الملاحقة لمرؤوسيه من القواد، لكى يملى عليهم أوامره وتعليماته، ويقف بنفسه على كل كبيرة وصغيرة من شئون جبهته. وكان يقوم بذلك فى غير تكلف ولا تضرر.

وكان من المحتم على كبار الضباط الألمان أن يعدلوا عن نظام الاتصال بالمرؤوسين، وهو النظام الذى كان يستخدمه نابليون، لأن الحرب الحديثة جعلت هذا الاتصال مستحيلاً أو كالمستحيل! ومن الإنصاف أن نقول إن الحق معهم فى العدول عن هذا النظام. ولكن رومل كان من طراز آخر غير طراز هؤلاء الضباط، فهو إلى شجاعته وجرأته وعبقريته، كان محبوباً من جنوده جميعاً إلى درجة العبادة، كما كان يمتاز بحاسته السادسة التى أشرنا إليها. ومن هنا كان من السهل التحدث إليه اذا ما فرغ من القتال، وهدأت نفسه، وكثيراً ما عاد فاعتذر عن استقلاله باصدار بعض الأوامر والتعليمات، بغير علم رؤسائه ومرؤوسيه، بل كثيراً ما كان يسخو فى إطرائه لجنوده وضباطه،

وفى الاعتراف بأى خطأ يقع فيه!.

فهل يستطيع أحد بعد ذلك أن يقول: إن الضباط الألمان كان بينهم من هو اولى من روميل بقيادة الحرب فى الصحراء؟!. أن خصومه قبل انصاره، ليشعرون بأنه ليس فى الجيش الألمانى كله من يفوق روميل، أو يضارعه، أو يبلغ نصف مبلغه من البراعة والمقدرة والاقدام!

الإيطاليون لا يصلحون للحرب!

وكان الفيلق الإفريقى يسوده الانسجام العام. فجنوده جميعاً متشابهون، متفاهمون، ممتلئون حماسة وقوة وشجاعة. ولم تكن كذلك قوات المحور كلها فى شمال إفريقيا. ويكفى أنه كان بينها عدد كبير من الإيطاليين!

مساكين هؤلاء الطلاينة فإنهم فى الغالب ينطبق عليهم المثل العسكرى الذى أطلقناه عليهم فى الحرب العظمى الأولى، عندما اسميناهم بالحلفاء العاجزين.

وكثيراً ما تحدث روميل إلى ابنه «منفرد» عن الإيطاليين، بالإضافة إلى ما كان يقصه النقيب الدنجر عنهم، وروى له الكثير من قصصهم. ومنها قصة الجند الذين أرغموا منهم على مهاجمة طبرق، فما كادوا يبلغون منتصف الطريق، ويجدون أنفسهم بعيدين عن متناول الألمان، حتى ألقوا السلاح ورفعوا أيديهم مستسلمين، ثم سرعان ما ارتدّوا على أعقابهم مذعورين، وأخذوا يصرخون لاهثين قائلين: «يا ماما إنهم ليسوا بريطانيين، ولكنهم استراليون!».

وقد حدث أن زار روميل بعض الخنادق التى يكمن فيها الإيطاليون، عندما قام الاستراليون بهجوم عليهم، وأخذ الإيطاليون يصرخون ويهوون إلى الأرض فى فزع، مبتهلين إلى الله أن ينقذهم من الهول. وحينئذ التفت روميل إلى أحد الضباط الإيطاليين وقال له: قل لهم إن هذا ليس وقت الدعاء، ولكنه وقت إطلاق النار على الأعداء!».

ويقال إن الاستراليين عندما وقع فى أيديهم عدد كبير من الأسرى الإيطاليين، لم يسعهم إلا أن أطلقوا سراحهم، وأعادوهم إلى خطوطهم ومعهم رسالة إلى الألمان يقولون فيها: «إننا نريد عدداً مماثلاً من جنود الفيلق الإفريقى!».

على أننى أنظر إلى القصة بعين الارتياب. وأذكر أنه كان يقال إن الألمان قد فعلوا بالإيطاليين سنة ١٩١٨ فى (مرفى) مثل هذا الذى فعله بهم الاستراليون. إذ ردوا حينذاك جميع الذين أسروهم منهم، بعد أن وضعوا على ظهورهم علامات زرقاء مميزة، وبعثوا معهم برسالة قالوا فيها: «لا حاجة بنا إلى هؤلاء الآن، وإذا اقتضى الأمر فسنأتى بأنفسنا لنحصل على عينات من الإيطاليين!».

وليس يخفى ما بين هاتين القصتين من تشابه غريب!

وعلى أية حال، يلوح أن رومل كان مقتنعاً بما ذكره أحد الجنود الإيطاليين، حين قال له: «لماذا لا تقومون أنتم الألمان بتحمل أعباء القتال، وتتركونا نعبّد لكم الطرق؟!».

ولكن رومل لم يكن يرى أن الإيطاليين جبناء جميعاً. فلقد حاربت فرقة ارتريا المدرعة على أحسن وجه فى الجوبى. ولم تكن فرقة «برسشيا» رديئة إلى حد ما. وعدا ذلك فقد أبلى الفوج الذى كان يقوده المقدم مونتميرو بلاءً حسناً. وكان رومل يرى أن الإيطاليين لو زودوا بمعدات جيدة، وكان لهم ضباط ممتازون، فلاشك فى أنهم يكونّون قوة لا بأس بها.

هذا، والعتاد كالضباط تماماً، لا غنى عنه فى الحرب. ولقد كانت الدبابات الإيطالية الأولى «كعلب السردين». كما كانت الدبابات والسيارات المدرعة غير مزودة بأجهزة الراديو، حتى اضطر الإيطاليون إلى أن يستعملوا الأعلام فى المخابرة!

ولابد أن هذا لم يكن ليخفى على موسولينى، وقد جاء فى يوميات «تشيانو» ما يؤيد ذلك، كما يؤيد أن موسولينى كان يضمر لقواده، ولكل

مواطنيه العسكريين، كل احتقار. والعجيب بعد هذا أن موسولينى كان يتوقع من مواطنيه هؤلاء «أن يعيشوا كالأسود!».

على أن الإيطاليين- وان لم يكن بينهم من يستطيع أن يكون أسداً إلا أن البعض منهم كانوا يكنون لرومل كل إعجاب وتقدير. ولقد حدث فى اجتماع لمجلس الوزراء الإيطالى برياسة موسولينى، وكان هذا فى اليوم السابع من شباط سنة ١٩٤٢ حدث أن موسولينى، بعد أن ألقى باللائمة على القواد الإيطاليين، راح يروى للمجلس كيف فتن الجنود الإيطاليون برومل، حتى لقد حملوه على أعناقهم، وراحوا يهتفون: «مادام رومل معنا، فلابد لنا من بلوغ الإسكندرية!» قد يكون من الجائز أن هذا الأمر قد وقع مصادفة، ومع ذلك فان روما، كان يبدو لطيفاً مع «أصناف أخرى» من الإيطاليين.

رومل يحتقر رؤساء الإيطاليين

أما ضباط القيادة العليا الإيطالية فالواقع أن رومل لم يكن لطيفاً قط معهم، بل كان ينظر إليهم بعين الاحتقار، ولقد كاد رومل يذهل حينما علم أن هناك ثلاث درجات متفاوتة فى توزيع الأغذية، أكبرها لكبار الضباط وأصغرها للجنود. وشد ما كانت دهشته حين علم أن الضباط الإيطاليين لا يكادون يعنون بشئون جنودهم، وقد عزا ذلك إلى أن الإيطاليين ليست لديهم تقاليد عسكرية، وإلى أنهم بفطرتهم لا يميلون إلى أن يكون لهم شىء من هذه التقاليد. وليس بدعاً إذن أن ينظر الضباط الإيطاليون إلى رومل «على أنه فظ غليظ القلب يطلب المستحيل دائماً!».

ولما كان رومل، فيما تقضى به الرسميات، خاضعاً لقيادة الإيطاليين، لم يكن بد من أن يتعرض لنقد كبار قوادهم. وقد كان الجنرال غاريباً لدى أول رئيس إيطالى لرومل ولكنه كان رجلاً طيباً لطيفاً، على أتم استعداد لأن يدع رومل يقوم بما يشاء. ثم جاء بعده الجنرال باستيكو، فكان متعباً لرومل إلى حد كبير.

ورغم أن الجنرال بايرلاين يصف باستيكو هذا بأنه «لا شئ» غير أننا نرى أن له آراء خاصة ووجهات نظر لا بأس بها. فبعد معركة سيدى رزق فى كانون أول سنة ١٩٤١، جاء باستيكو مع كسيلرنج إلى الغزالة، حيث تشاجرا مع رومل، واختلفا معه فى شأن رغبته فى الانسحاب إلى أجدابية، لأن هذا الانسحاب سيكون له أسوأ الأثر فى إيطاليا، وربما أدى إلى ثورة. ولكن رومل أجاب بقوله: «إننى على يقين من أننى سأخرج بالفيلق الإفريقى سالماً وإذا رغب الإيطاليون فى أن يبقوا حيث هم، فهذا شأنهم!».

وكذلك كان الجنرال باستيكو ممن حاولوا من قبل، أن يحولوا دون تقدم رومل إلى مصر!

وحينما تولى الجنرال كونت كافليرو رياسة هيئة أركان حرب الجيش الإيطالى، بعد اعتزال بادوليو فى كانون أول سنة ١٩٤٠، كان رومل فى أول عهده به يميل إلى تصديقه والركون إليه، كما كان يعتمد عليه فى إمداداته. وكان كافليرو يجيد الألمانية اجادته للإيطالية. ولقد وسمه تشيانو فى مذكراته «بأنه أحد اللصوص أو قاطعى الطريق، وبأنه تاجر جشع استطاع أن يجد السبيل إلى قلب موسولينى، وهو على استعداد لأن يسير فى طريق الأكاذيب والدسائس. ولهذا يجب أن يوضع تحت المراقبة، حتى لا تؤدى تصرفاته إلى متاعب!». وكذلك وصفه فى مكان آخر من مذكراته «بأنه لا يعرف الخجل، وبأنه قد يحنى هامته لأحقر الناس إذ رأى فى هذا ما يوصل إلى هدفه. كما أنه خادم للألمان، وخائن للدوتشى!».

وحينما اقترح موسولينى ترقية كافليرو إلى رتبة فيلد مارشال، اسوة بترقية رومل إلى هذه الرتبة، وذلك «حتى لا يكون كافليرو بين رومل وكسيلرنج كما كان المسيح بين اللصوص»، عارض تشيانو هذه الفكرة قائلاً: «إننا إذا رقينا باستيكو سنكون سخرية فى أفواه الناس، أما إذا رقّينا كافليرو، فان الناس سيشعرون بالمهانة والخجل!».

بين رومل وموسولينى

وبعد ذلك يجئ دور موسولينى نفسه فى رياسة رومل. ومن المفيد لمن يزالون على اعتقاد بأن الدكتاتوريات فى استطاعتها أن تفعل ما تشاء، أن يدرسوا موقف موسولينى من رومل كما سجله تشيانو فى يومياته. ففى آيار سنة ١٩٤١ كتب موسولينى احتجاجاً شخصياً لهتلر، بعد أن قرأ الأمر اليومى الذى أصدره رومل للقواد الإيطاليين، وأنذرهم فيه بأنه سيقدمهم للمحكمة العسكرية!. وفى ٥ كانون أول سنة ١٩٤١ كان موسولينى «فخوراً لأنه أسلم قيادة الجيش للألمان!».

وفى ١٧ منه، عندما سارت المعركة على غير ما يرام، راح يلقى باللوم على رومل ويتهمه بأنه «أفسد الموقف بتهوره».

وفى ٧ شباط ١٩٤٢ بعد هجوم رومل، أخذ موسولينى يمجده، وينوه بأنه «البطل الذى يستقل دبابته، ويتقدم بها أرتال دباباته المهاجمة!».

وفى ٢٦ آيار كان موسولينى يجد متعة أية متعة فى التفكير فى الهجوم القادم فى ليبيا. وكان يرى «أن رومل جدير بأن يبلغ الدلتا ما لم يجد عائقاً فى سبيل ذلك لا من البريطانيين، وإنما من القادة الإيطاليين».

وفى ٢٢ حزيران كان الدوتشى فى حالة جيدة، وكان يتهيأ للذهاب إلى إفريقيا. والواقع أنه كان يعمل على القيام بذلك الهجوم الحاسم، رغم تحذيرات القيادة الإيطالية العليا. وكان يخشى ألا تدرك هذه القيادة أهمية الانتصار الذى أحرزه رومل، ومن ثم تفشل فى الإفادة منه. ثم يصرّح بأنه لا يثق إلا فى رومل.

وبعد ذلك بأربعة أيام كان الدوتشى سعيداً، بهذا التقدم الذى صاحب هذه العمليات العسكرية فى ليبيا. ولكنه استشاط غضباً لأن هذه المعركة تنسب إلى رومل وحده، ولأن النصر سيبدو ألمانياً أكثر منه إيطالياً. ثم يقول:

«إن ترقيـة روميل إلى فيلد مارشال إنما أراد بها هتلر أن يؤكد أن المعركة كانت ألمانية!».

وفى ٢١ تموز كان موسولينى مرحاً، وكان على يقين من أنه سيبلغ الدلتا، حتى أنه ترك حقائبه فى ليبيا، ثقة منه بأنه عائد إليها عما قريب.

وفى ٩ أيلول كان موسولينى «حانقاً على روميل» لأنه اتهم الضباط الإيطاليين بإفشاء الخطط للعدو.

وفى ٢٧ منه اقتنع موسولينى بأن «روميل لن يعود. لأن روحه المعنوية قد هبطت، كما أن حالته الجسمية قد وهنت!».

وفى ٥ كانون الثانى سنة ١٩٤٣ «أخذ موسولينى يعنّف كافليرو، ويعرض بذلك الرجل المجنون روميل، الذى لا يفكر فى شئ إلا فى الانسحاب من تونس!».

إن روميل ليس من طراز كافليرو، إنما هو من طراز آخر يصعب عليه أن يتفاهم مع الديكتاتوريين أو الطغاة.

ولقد أحب روميل موسولينى حينما التقى به أول مرة، وذلك لأنه رأى فيه يومئذ «رجلاً يفهم نفسه تماماً ويستطيع أن يصدر أوامر». وقد توهّم روميل عن حسن نية، أن موسولينى صديق له. ولم يدر أن صداقة الدوتشى تروح وتجئ مع الأيام!.

ولكن ما يزال ثمة شئ آخر، عن آراء الإيطاليين فى روميل.

انهم يذكرون أن روميل ماكر حريص وهذا صحيح، ولكن ليس هذا أقوى ما فى روميل من صفات ومزايا. فعندما كان روميل يوشك أن يقوم بهجومه المقابل فى كانون الثانى سنة ١٩٤٢، لم يشأ أن يخبر رؤساءه الإيطاليين بذلك، حتى لا يتسرب الخبر إلى أحد. وانما كان يطلب إلى هيئة أركان حربه أن تبعث بالأوامر التى يصدرها روميل إلى القيادة الإيطالية العليا. بعد أن

يكون الهجوم قد بدأ فعلاً.

وكانت القيادة الإيطالية تشعر بالمهانة حين تتلقى هذه الأنباء المتأخرة. ولقد طلب رومل لمقابلة رئيسه الجنرال باستيكو، فأجاب رومل بأنه فى الخطوط الأمامية، وأنه يسّره أن يرى الجنرال باستيكو هناك. ولكن الجنرال لم يذهب، وبعد ذلك ببضعة أيام. علم رومل أن باستيكو قد اقترح سحب القوات الإيطالية جميعاً، وعلق رومل على ذلك بقوله: «إن هذا لا يهمنا فى شئ، فبقاؤها وانسحابها سيان!».

ومن الأمور التى أثارت بعض الإيطاليين لرومل، مسألة تقسيم الغنائم، فقد كان هناك اتفاق رسمى وضع شروطه كافليرو، يقضى بأن يسلم الإيطاليون لحلفائهم الألمان كل ما يقع فى أيديهم من غنائم فى روسيا، على أن يقوم الألمان بمثل ذلك فى شمال إفريقيا ولطالما شكا الإيطاليون من أن الألمان لا ينفذون هذه الاتفاقية فى إفريقيا!

ويقول تشيانو فى صيف سنة ١٩٤٢ «إن هناك سخطاً عنيفاً على الألمان من تصرفاتهم فى ليبيا. إنهم قد أنشبوا أظافرهم فى كل شئ، ووضعوا حراساً من الألمان على الغنائم والأسلاب. والويل لمن يدانيها».. ولكن أهم ما أثار غضب تشيانو أن «كافليرو» وحده قد أفلح فى أن يحصل على كثير من تلك الغنائم!».

وإذن، فلم تكن إيطاليا وألمانيا خير صديقين كما قيل!

ورغم هذا كله، فلم يسع رومل وهو يدلى برأيه فى الإيطاليين إلى ابنه «منفرد»- إلا أن يقول فى عبارة لا تنم عن الطابع الألمانى المألوف: «مما لاشك فيه أن الإيطاليين ليسوا شيئاً فى القتال. ولكن يجب ألا نحكم الأمور على أى إنسان بما له من صفات عسكرية فقط، وإلا لما كانت لدينا أية مدنية».

■ ■ ■



الفصل العشرون

آراء رومل فى القيادة البريطانية

الألمان يحاربون حرباً نظيفة-
رومل يكره فرق الاس أس
معاملة الأسرى

لم يكن موقف رومل من أعدائه موقف القادح المستتكر على طول الخط، ومن هنا كانت معاملته لأسراه منهم، أقرب إلى معاملة الصديق للصديق!. ولقد كان رومل، ككل المانى، ينظر بعين السخط فى أول الأمر إلى استخدامنا الفرق الهندية فى الحرب ضد الأوروبيين ثم تغيرت نظرته هذه بعد أن التقى مع الفرقة الهندية الرابعة، وتبين أن الجندى الهندى ليس أقل من غيره من الجنود إطاعة للأوامر، أو قدرة على الحرب فى الصحراء.

وقد كان رومل لا يحتمل السخرية الهادئة- ولو لغرض الدعاية- من قبل الإنجليز الملونين الذين رافقوا قوات جنوبى إفريقيا، وإن كان على علم بأن أولئك الإنجليز غير محاربين.

وكان رومل يرى أن الاستراليين قساة، وأنهم أشد قسوة على الإيطاليين خاصة. على أن هذه القسوة كانت من النوع الذى يروقه ويعجبه. وقد صرّح غير مرة بأن الاستراليين جنود ممتازون، وبأنه يود لو كانت لديه فرقة منهم، ولكنه كان يعجب بهم حين يحاربون فرادى، أما أن يحاربوا جماعة فإن قيادتهم فى رأيه لمن أصعب المهام!.

أمـا جنود جنوب إفـريقـيـا، فكان رومل يرى أنهـم «خـامـات» لا بأس بهـا، ولكنه مـازالوا فى حـاجـة إلى الصـقل والتـهـذيب، ويـرى أن سـيـاراتهـم المدرعـة قـامت بدور كبـيـر فى حـرب الصـحـراء، كـما حـاربوا أخيـراً فى العلمين بصـورة ممتازة، أما عن النيوزيلنديين فكان إعجابه بهم قد بلغ درجة متناهية.

ولطالما صـرح رومل لابنه منفـرد، ولصـديقـه الدنجـر، ولغـيـرهمـا، بأن النيوزيلنديين «أبدع جنود لدى البريطانيين!».

أما موقفه من البريطانيين أنفسهم، فالثابت انه كان يصفهم بأنهم «هواة حرب، يمكن الاعتماد عليهم إلى حد كبير فى العمليات الصغيرة المستقلة عن غيرها، كما هو شـأن قوة مصلحة الطيران الخاصة، ورجال جـحفل الصحـراء. فـقـد كـان هؤلاء خـيـراً من الألمان الذيـن لم تكن لديهم نـفس الثـقـة، أو أن يظهـروا كـثـيـراً من الإقـدام خلف خطـوط الأعـداء. وكـان يصـف التـشكيـلات البريطانيـة بأن فيـها صـلابة وشجـاعـة فى الدفاع، ولكنها ليست مـدربة تدريباً كافياً!»، وقد استثنى من ذلك الفرقة السـابعة المدرعـة، وعلى الأخص فـوجى حملة البنـادق وفـوج الخـيـالة الخـفـيـفـة الحـادى عشـر. وفـيـمـا يـخـتص بحـرب الدبابات كـان يرى أن وحداتنا المدرعـة، ودباباتـنا الفـردية «تميل إلى الاشتـراك فى القتال والهجوم فى جرأة وإقدام!».

أمـا فـيـمـا يخـتص بنظم القـيـادة البـريطـانيـة فكان رومل يتـهـمـهـا بالبطء، واضـاعـة الوقت سـدى، فى إصـدار الأوامـر المكتـوبة وإعـدادهـا وتوزيعـهـا. وقد بحـثت ونقبت كثـيراً للوقـوف على آراء رومل فى القادة البـريطانيين، فلم أقف إلا على رأى له فى الجنرال ويفل، قال فيـه: إن حملته ضـد الإيطاليين يجب أن تدرّس دائماً علـى أنها أسمـى مثل للدقة فى التـصميم والجرأة فى التنفيذ لقائد ليست لديه إلا موارد ضئيلة».

وهـكذا يتـضـح أن رومل كـان يقـيس منـافسـيـه بمقـيـاس عـسكرى صـرف، ويحـكم علـيـهم حكمـاً منزهـاً عن الـهـوى والعـاطفـة، ومن هنا لم يعـرف عنه أنه

أبغض واحداً منهم لشخصه، بل يمكن القول بأنه على عكس ذلك أحب كثيرين منهم، وأنه كان يحب النيوزيلنديين على الإطلاق، أفراداً وجماعات!

حرب الجنتلمان!

وقد أدلى الجنرال يوهان كرامر- آخر قائد للفيلق الإفريقي- إلى مندوب صحيفة «التيمس» بعد أن وضعت الحرب أوزارها بحديث قال فيه:

«إن الحرب فى شمال إفريقيا كانت حرب الجنتلمان».

وكان رومل فخوراً بتلك الصفحة النظيفة لسلوك جنوده وجنودنا، ذلك لأنه يرى وجوب مراعاة السلوك السليم السوى، واتباع القوانين العسكرية. ولم يكن ذلك غريبا منه، فان الآداب الحربية كانت مرعية تماماً من السواد الأعظم من الضباط النظاميين، وبخاصة ممن التحقوا منهم بالخدمة العسكرية قبل سنة ١٩٣٣. على أن هناك بعض استثناء من هذه القاعدة فيما يختص بفريق من أصحاب الرتب العليا، أمثال كيتل وبودل وغيرهما ممن باعوا أنفسهم لهتلر، وكانوا على استعداد تام لأن ينفذوا أكثر أوامره قسوة وحماقة، حتى إذا كان رأيهم فيهم غير ذلك!.

ومن هنا كانت دهشتنا شديدة حين رأينا آداب الفروسية معمولاً بها فى دقة واضحة من قبل رومل وجنوده.

ولم نكن نعرف شيئاً من أمر العداء المستحكم بين حزب النازى والجيش فى ألمانيا، أو بعبارة أخرى حقد النازى على الجيش، واحتقار الضباط للنازى ولكثير من القادة الخائرى العزيمة أمام طغيان هتلر، فكان من الطبيعى أن يختلط الأمر علينا، وأن نضع الألمان جميعاً فى كفة واحدة.

وليس يخفى ان الأمم تؤخذ بجرائم حكوماتها، وقد كنا نعلم أن ألمانيا أسلمت قيادها لهتلر، كما أسلمت إيطاليا قيادها لموسولينى، فلم يكن بدعاً أن نعد الألمان والإيطاليين جميعاً من المجرمين. وهل كان الألمان يتوقعون منا نحن

أعداؤهم أن نميّز من يلبسون زى الجيش منهم، عمن يلبسون زى النازى؟!

وأياً كانت أعمال الجيش الألمانى فى بولندا وروسيا، فلاشك فى أنه قد حارب حرباً نظيفة فى جميع الميادين. بل لاشك فى أن حربه العالمية الثانية، كانت أكثر نظافة من حربه العالمية الأولى. وربما كان ذلك لأن الضباط كانوا على علاقة طيبة بالجنود، أو لأن الجنرال فون سيكت ومن جاءوا بعده، قد بذروا فى الجيش تقاليد جديدة أفضل، فلم يحدث فى الحرب الأخيرة ما عهدناه فى الحرب الأولى من قتل الأسرى!

وعلى أية حال، سرعان ما أدرك البريطانيون أن الفيلق الإفريقى يريد أن يحارب وفقاً للقوانين الحربية السليمة. ومن أجل هذا وضعت الثقة كلها فى رومل، الذى كان المثل الأعلى للفيلق الإفريقى فى كل شىء، والحق أن رومل كان جديراً بهذا كله وبما هو أكثر منه!

ويقول الجنرال بايرلاين: «إننا نحمد الله، على أنه لم يكن بيننا فى الصحراء جنود من (فرق الدفاع)[1] وإلا فالله وحده يعلم ماذا كان يحدث. ولاشك فى أن الحرب ما كانت لتجرى بالصورة التى جرت بها».

وحدثنى مرة أخرى فقال: «إن أى ضابط ألمانى لم يكن يستبعد أن يعيّن قائداً لفرقة من «فرق الدفاع» «الاس أس» فى الميدان، ولكن المستبعد حقاً أن يستطيع إخضاعهم له، وإلزامهم بتنفيذ أوامره، مهما تكن قدرته وبراعته، وويل له إن حاول الاصرار على ذلك، فأقل ما ينتظر أن يبلّغ اسمه إلى هملر- المشرف الأول والأخير على تلك الفرق- فيكتب عنده فى القائمة السوداء!».

وحدث يوماً أن هبط الجنرال بايرلاين إحدى محطات السكك الحديدية ومعه ملء قطار من جنوده. وهناك رأى بعض جنود فرقة الدفاع يسوقون

(١) فرق الدفاع هى التشكيلة النازية التى عرفت باسم فرق اس. اس. S.S والتى اشتهرت بالقسوة والعنف.

أمامهم قطيعاً من الأسرى الروسيين، ويضربونهم بمؤخرة بنادقهم. ولم يطق السكوت على هذا المشهد الوحشى، فحاول منعهم من الاستمرار فيه، وما كاد يفعل حتى تصدى له واحد من جنود فرقة الدفاع وقال له فى وقاحة:

«ومن تكن أنت؟ وما شأنك وهذا؟» فلما أنبأه بأنه جنرال فى الجيش، هز كتفيه وقال: «إننا لا نتلقى أوامرنا من جنرالات الجيش، إننا جنود الدفاع، نتلقى أوامرنا من هملر وحده!».

وأخذت الجنرال حمية العسكرية والفروسية، فصرخ فى ذلك الجندى الوقح قائلاً: «إذن فلتصعد إلى هذه الشجرة، لأننى، إن لم تطع ما آمرك به، فسأشنقك ويتدلى جسمك منها خلال ثلاث دقائق!».

ولما كان الجنرال يصحب قطاراً مليئاً من جنوده، لم يسع جندى فرقة الدفاع، إلا أن يكف عن ضرب الأسرى، ويقدم اعتذاره للجنرال فى الحال!

ولكن لم يمض أسبوعان حتى كان اسم فريتس بايرلاين بين الأسماء التى تحتويها قائمة هملر السوداء، ويضيف بايرلاين إلى ذلك قوله: «ولو أن مؤامرة ٢٠ تموز أفلحت لوقعت حرب أهلية بين فرق الدفاع وبين الجيش فى إيطاليا».

لم يكن أفراد الفيلق الإفريقى إذن يضربون الأسرى، بل كانوا على عكس ذلك يعاملونهم بشىء من الملاطفة واللين يذكرنا بعهود الفروسية القديمة[1]!

ولقد التقيت فى (جمبوط) بعد معركة آيار سنة ١٩٤٢، بأحد مصورى الجيش، وكان اسكتلندياً، وقد أفلح فى الإفلات من قبضة الألمان بعد أن أسروه بساعتين. فكان مما قاله لى: (أى قوم هؤلاء الألمان؟ إننى لا أكاد أصدق ما

(١) لا نقر المؤلف على هذا أبداً، فلقد كشفت الحرب العالمية الثانية عن مدى تعطش الألمان إلى الدماء، ومدى استهتارهم بكل القيم والمعايير. فالفظائع التى ارتكبوها فى البلدان التى احتلوها، وعلى الأخص الاتحاد السوفيتى وبولندا وغيرها، قد دللت على وحشيتهم المتناهية وبرهنت على تفوقهم على الطليان والفرنسيين فى هذه الوحشية.

رأيت. لقد جاءنى ضابط ألمانى، ثم طلب منى آلة التصوير، فاعطيته إياها طبعاً معتقداً كل الاعتقاد أنى فقدتها إلى الأبد، فهذا أقل ما ينتظر فى مثل هذه الحال، وشد ماذهلت، حين وجدته يلاطفنى وكأنه صديق حميم قديم، ثم يسجل بجانب اسمى وصف تلك الآلة، وتاريخ تسلمها منى. ويعدنى بان ينظر فى أمرى وأمرها مع رئيسه المسئول عقب الفراغ من المعركة!).

بهذه القصة وأمثالها كنت أتحدث عن معاملة الألمان للأسرى، ثم جاء دورى أنا الآخر ووقعت أسيراً فى أيدى الألمان، فماذا رأيت؟ رأيت كثيراً مما هو أروع من ذلك. وكانت القصة الأولى قصة الجندى الألمانى الذى فتشنى. فقد رد إلىّ فى أدب جم علبة السجاير الذهبية التى وجدها بين ملابسى. ثم تلطف فى الاعتذار عن عدم استطاعته أن يرد إلىّ ناظورى قائلاً: «إن علبة السجائر لا خير فى تركها معك، أما هذا المنظار فأنت تعلم أنه من المعدات العسكرية!».

وهكذا كانت معاملة جميع الأسرى فى المعتقلات الألمانية، اللهم إلا إذا كان سوء حظ الأسير قد أوقعه فى أيدى الإيطاليين!

ومما هو جدير بالتسجيل، أن الحوادث السيئة التى وقعت للأسرى البريطانيين فى المعتقلات الألمانية بالصحراء، كان أكثرها راجعاً إلى أخطاء البريطانيين أنفسهم!

وقد حدث- مثلاً- أننا أصدرنا أمراً يقضى بألا يقدم الطعام للأسرى إلا بعد استجوابهم، وكان الهدف الذى يرمى إليه هذا الأمر غاية فى السذاجة فالمهوم أن الأسير إذا استجوب عقب وقوعه فى الأسر مباشرة، فقد يؤدى ذلك إلى نسيانه، وهو فى غمرة ذهوله، معلومات قد تكون على جانب كبير من الأهمية. أما إذا استجوب بعد أن يأكل ويشرب ويدخن سيجارة، فانه يكون قد ذهب عنه الروع ويستطيع أن يجمع شتات ذهنه والإدلاء بما لديه من معلومات.

ولم يكن من الحكمة فى شىء أن يطبع هذا الأمر، ويوزع فى المناطق الأمامية، حيث يحتمل وقوعه فى أيدى الألمان. ولم أتحقق من مدى ما فى ذلك التصرف من حماقة، إلا بعد أن بلغت مطار التميمى، وقد كاد يقتلنى التعب والظمأ والجوع.

لقد أمضيت اثنتى عشرة ساعة واقفاً فى السيارة تحت أشعة الشمس المحرقة، دون طعام ولا ماء، ولم أكن ذقت طعاماً قبل ست ساعات أو سبع من وقوعى فى الأسر، منذ أربع وعشرين ساعة، فلا عجب أن انصرفت كلياً إلى التلهف على قطرات من الماء، وكسرة من الخبز الجاف!

ولم تكن حال زملائى الأسرى خيراً من حالى بكثير!.. ولكن نقمتنا على الألمان الذين تركونا نعانى كل هذا الحرمان، لم تكن شيئاً مذكوراً، بالقياس إلى نقمتنا على من أصدروا ذلك الأمر السخيف من قادتنا الأجلاء!.

فقد صرح لنا به الضابط الألمانى الشاب الذى كان يشرف على نقلنا، وكان يجيد الإنجليزية، اذ قال لنا بلهجة تقطر اسفاً: «آسف يا سادة، ليس باستطاعتى أن أقدم لكم طعاماً أو شراباً، فما دمتم فى أوامركم المطبوعة قد أبيتم إلا أن يتضور الأسرى الألمان جوعاً، ويحترقوا ظمأً إلى أن يبلغوا القاهرة، ويتم استجوابهم هناك ثم فاننا مضطرون إلى أن نعاملكم بالمثل، فلن تناولوا شيئا من الطعام والماء إلا بعد استجوابكم فى بنى غازى! وإلا إذا ما وجدت الحكومة البريطانية أنه من الأصلح لها ان تلغى هذا الأمر، وقد طلب إليها ذلك!».

وفعلاً فقد ألغت الحكومة البريطانية ذلك الأمر وقد تحققنا من إلغائه حين بلغنا (درنة) فى اليوم التالى، فأعطانا القوم بعض الشراب، ووجبة من الطعام قبل الاستجواب!

وقد يعد هيناً ذلك البلاء الذى ترتب على إصدارنا ذلك الأمر، إذا، قارنا

بينه وبين النتائج، التى ترتبت على أمر بريطانى آخر، وجد مع ضابط فدائى أسر أثناء قيامه بهجوم على طبرق فى آب سنة ١٩٤٢.

ولم أطلّع على النص الإنجليزى لهذا الأمر، ولكنه كما علمت كان يرمى إلى تأكيد أهمية تكبيد العدو خسائر فى الأرواح، وان اسر جنوده ليست له مثل هذه الأهمية. ولكن الترجمة الإيطالية لهذا الأمر جعلت معناه وجوب قتل الأسرى اذا لم يمكن نقهلم فى سهولة!

ومهما يكن من خطأ الترجمة الإيطالية، فقد كان على حضرات ضباط أركان الحرب الذين يتولون إصدار مثل ذلك الأمر، أن يتذكروا أن الظلال الجميلة للمعانى، قد لا يوجد لها نظير فى اللغة التى تترجم إليها، كما كان عليهم أن يتذكروا أن أوامرهم معرضة لان تقع فى أيدى العدو، وحينئذ يدفع مواطنهم من الأسرى، ثمن تلك الحذلقة غالياً. وهذا هو ما حدث مع الأسف الشديد، إذ وضعت الأصفاد فى أيدى جنودنا المأسورين، بعد أشهر من الإغارة على دييب، وذلك لأن الأوامر التى أصدرناها بوضع القيود فى أيدى الألمان، وقعت فى أيدى الألمان أنفسهم!.

هتلر لا يرحم اعداءه

وكانت النتيجة المريرة أن أصدر هتلر أمره المشهور فى ١٨ تشرين أول سنة ١٩٤٢ وفيه يقول:

«من الآن فصاعداً يجب أن يقتل جميع الأعداء الذين يحاربون الألمان فى أوروبا أو افريقيا سواء أكان أولئك الأعداء فى ملابسهم العسكرية أو كانوا من جنود التخريب والفدائيين وسواء أكانوا مسلحين أم غير مسلحين. وليس ثمة أى فرق بين هؤلاء وبين الجنود الذين تنزلهم السفن إلى الشاطىء أو الذين ترمى بهم الطائرات للقيام بأعمالهم العسكرية، أو يهبطون بالمظلات. ويجب ألا يقبل منهم أى عذر، ولو أبدوا استعدادهم لأن يسلموا أنفسهم قبل قيامهم بأى عمل عدوانى!».

وفى فقرة أخرى من هذا الأمر، استثنى هتلر ممن يجب تطبيقه عليهم، جنود العدو الذين يؤسرون أو يستسلمون فى المعاركة العادية (كأعمال الهجوم الواسع النطاق، وعمليات النزول إلى الشاطىء، أو الجنود الذين تحملهم الطائرات).

وختم هتلر ذلك الأمر بقوله: وسأحمل تبعة عدم تنفيذ هذا الأمر أمام القانون العسكرى، كل القواد والضباط الذين يتجاهلون واجبهم فى ابلاغه إلى الجنود، أو الذين يحجمون عن تنفيذه ايما كانت الأسباب».

وفى الثامن عشر من شهر حزيران سنة ١٩٤٦ مثل الجنرال فستفال أمام محكمة نورمبرج، وتضمن استجوابه ما يلى:

س- هل كنت فى الجبهة الإفريقية؟

ج- نعم، ولبثت هناك أكثر من سنة ونصف السنة.

س- وكيف كان سير القتال؟

ج- أستطيع أن أجيب عن ذلك فى عبارة واحدة، هى ان المعارك كانت تسودها كلها روح الفروسية ولا غبار عليها.

س- من كان رئيسك؟

ج- المارشال رومل.

س- ألم يصدر أوامر أو يتخذ عقوبات فيها خرق لقوانين الحرب؟

ج- كلا.

س- أى منصب كنت تشغله فى تلك الجبهة؟

ج- كنت رئيس أركان حرب رومل أخيراً؟

س- إذن فقد كنت على اتصال دائم به؟

ج- نعم.

س- هل تذكر الأمر العسكرى الذى أصدره هتلر فى ١٨ تشرين أول ١٩٤٢؟

ج- نعم أذكره.

س- هل تسلمتم هذا الأمر فى الجبهة الإفريقية؟

ج- نعم تسلمنا هذا الأمر فى الصحراء بالقرب من سيدى برانى، على يد ضابط اتصال.

س- ماذا كان موقف المارشال رومل حين تسلم الأمر؟

ج- لقد قرأت الأمر أنا والمارشال واقفين إلى جوار سيارتنا، فاتفقنا على ألا ننشره وأحرقناه فى المكان الذى كنا فيه. وكانت لدينا أسباب وجيهة لذلك، رغم علمنا بالبواعث القوية التى دفعت هتلر إلى إصداره، ومن بينها الأوامر المماثلة التى أصدرها البريطانيون ووقعت فى أيدينا. فقد قالوا فى أحد هذه الأوامر:

اقتلوا الألمان حيثما وجدتموهم!

وأصدر لواء بريطانى مدرع أمراً صريحاً بألا يعطى الأسرى أى شىء يشربونه!.. ورغم هذا كله لم يشأ المارشال رومل أن يبلّغ ذلك الأمر الذى أصدره هتلر إلى جنودنا، تلافياً لما يؤدى إليه ذلك من فظائع يقترفها الفريقان. فكان أن أحرقناه بعد مضى عشر دقائق على تسلمنا إياه. وما أظن أن قائداً فى الشرق أو فى الغرب كان يستطيع أن يفعل حينذاك أنبل مما فعلناه! والحقيقة أن رومل لم يكن الجنرال الألمانى الوحيد الذى تجاهل مثل ذلك الأمر وإحراقه.

وكذلك سئل الجنرال فستفال عن الحكاية الغريبة التى رويت عن ابن

اخت الفيلد مارشال الكسندر، الذى أسره جنود روميل خلال اشتراكه فى بعض الأعمال الفدائية. فأجاب الجنرال فستفال بقوله:

فى خريف سنة ١٩٤٢ وقع فى الأسر وراء الخطوط الألمانية فدائى بريطانى شاب، كان يلبس قبعة من قبعات الفيلق الإفريقى، ومعه مسدس ألمانى، وكان المفروض أن يقتل ذلك الفدائى رمياً بالرصاص لمخالفته قوانين الحرب. ولكن المارشال روميل أصدر أمره بأن يعامل هذا الفدائى كما يعامل بقية الأسرى العاديين. وذلك لأن ذلك الفدائى ابن اخت المارشال الكسندر! وحينما اقترح على روميل أحد ضباطه بأن يطلق الرصاص على ذلك الأسير، صرخ روميل فى وجهه قائلاً: «يا لك من أبله!.. ألم تعلم أنه ابن اخت المارشال الكسندر؟. هل تريد فرقاً إضافية أخرى يحاربنا بها البريطانيون؟».

ومن الطريف أن ذلك الفدائى الأسير لم يكن من أقارب الفيلد مارشال الكسندر. ولكن روميل وفستفال قد صدقا ادعاءه ذاك. وقد روى روميل لاسرته قصة ذلك الفدائى على ذلك الأساس!

ولا يتسع المقام لسرد كل القصص التى تروى عن حسن معاملة روميل للأسرى، وهى كلها تحسب من حسناته ومزاياه. ومن أروع تلك القصص ما رواه لى أمير اللواء ج.هـ. كلفتن الذى قاد اللواء النيوزيلندى فى إحدى المعارك فأسره رجال روميل، وأودعوه فى معكسر الاعتقال التاسع والعشرين. وفى الليل حاول كلفتن الهرب من المعتقل بأن أدلى نفسه من شباك الطابق الثانى إلى جدار يقع وجهاً لوجه أمام مكان الحرس، وإذ أحس الحارس بوجود حركة بالقرب منه أدار كلفتن وجهه إلى الجدار، حتى إذا ما ابتعد الحارس عن المكان، أخذ يزحف على بطنه داخل منطقة الأسلاك الشائكة ثم واصل سيره بسرعة هائلة فبلغ محطة «بونت دوليو» ومن هناك استقل القطار إلى ميلانو وعندما وصل محطة «كومو» وقع فى غلطة فاضحة. فقد عزم على أن يتبع الطريق التى تمر بمدينة «فيلاديست»- كما حاولت أنا ذلك- ومن هناك

يجتاز الحدود الجبلية إلى سويسرا.

ولكيلا يذهب وقته سدى، فقد استأجر عربة من محطة «كومو» وفى اللحظة التى كانت يحاول الصعود إليها، أطبق عليه شرطيان كانا يراقبان حركاته من قبل، وهكذا أعيد إلينا كلفتن ثانية ومن هناك نقل إلى ألمانيا فى عربة قطار يحرسه فيها جنديان، وقد حاول المروق من نافذة العربة أثناء سير القطار.

وعندما التقيت بأرملة رومل كان أول سؤال وجهته هو قولها هل:

تعرف أمير اللواء كلفتن؟ أين هو الآن وهل استطاع الإفلات من الاعتقال؟ لقد كان زوجى يحمل رأياً طيباً عنه وكان يتوقع هربه من إيطاليا دائماً».

ولكى أوجز فى بيان الروح التى كانت تسود حرب الصحراء، أنقل هنا بعض ما أورده فون رافنشتين عن ذلك فى مذكراته، قال: «حينما بلغت القاهرة، استقبلنى أحد مساعدى الجنرال أوكنلك، فى لطف ملحوظ، ثم أوصلنى إلى الجنرال أوكنلك نفسه فى مكتبه. فصافحنى وقال: إننى أعرف إسمك جيداً. لقد حاربت أنت وفرقتك حرب الفروسية، وأحب أن أعاملك على أحسن صورة ممكنة».

ومضى فون فرانشتين فقال: وقبل أن أبرح القاهرة بلغنى أن الجنرال كامبل، قد منح وسام صليب فيكتوريا، فاستأذنت فى أن أكتب إليه مهنئاً، وسرعان ما حصلت على هذا الإذن، ولا تزال عندى صورة من الرسالة التى كتبتها إليه وهى:

«العباسية فى ١٩٤٢/٢/١٠

عزيز الفريق كامبل

«لقد قرأت فى الصحف أنك كنت خصمى الشجاع فى معركة الدبابات

عند سيدى رزق فى يومى ٢١ و٢٢ تشرين الثانى سنة ١٩٤١. ولقد كانت فرقتى الحادية والعشرون المدرعة، هى التى تنازل فرقتك السابعة المدرعة التى أكن لها أعظم الإعجاب والتقدير. إن مدفعيتك قد جعلت القتال عسيراً علينا، ولن أنسى قط القذائف التى أسقطتها حولنا..

«إن زملائى من الألمان ليبعثون إليك بأحر تهانيهم على منحك وسام صليب فكتوريا.

وتقبل تحيات من كان فى الحرب عدواً لك».

فون رافنشتين

ولقد قتل كامبل بعد ذلك بقليل، عندما انقلبت سيارته عند «بقبق»، وما أظن أنه قد تلقى هذه الرسالة. ولو أنه تلقاها فرح بها!!.

أيزنهاور يحتقر الأسرى

وهناك رايان مختلفان فى المحافظة على روح الفروسية فى الحرب. وأنا اكتفى هنا برأى للجنرال ايزنهاور ذكره فى كتابه «الحرب الصليبية فى أوروبا» فقال:

«عندما جىء إلينا بفون أرنيم من الجزائر في طريقه إلى المعتقل، رأى بعض الضباط فى هيئة أركان حربى، أن علىَّ- مراعاة للتقاليد الحربية التليدة- أن آذن له فى أن يزورنى. ولكنى رأيت أن تلك التقاليد، كان لها ما يبررها فى العهود الماضية حين كان المحاربون أكثرهم من المرتزقة. فكانوا يحاربون رغبة فى المال أو رغبة فى القتال، دون أن تكون هناك عداوة بين الفريقين، ومن هنا كان القائد الذى يقع فى الأسر فى القرن الثامن عشر، ينزل لدى أسيره ضيفاً معززاً مكرماً، ويبقى كذلك أسابيع أو شهوراً.. ولكن هذه الحرب العظمى الثانية، فيما أرى ليس فيها مجال مثل تلك العواطف. واننى لأزداد يقيناً يوماً بعد يوم، بأن القوى التى تدافع عن الصالح الانسانى

وحقوق الإنسان، قد واجهتها فى هذه الحرب مؤامرة شريرة لم يحدث مثلها من قبل، فلا ينبغى لذلك إبداء أى تهاون فى عقاب القائمين بها، مادمنا مؤمنين بأنه لا سلامة للعالم إلا بالقضاء على مؤامرتهم. وعلى هذا، لم أسمح قط بأن يزورنى، ولا بأن يرانى، أحد من أولئك القواد الأعداء الأسرى، ولقد اتبعت هذا الأسلوب حتى نهاية الحرب. فلم أتحدث إلى جنرال ألمانى واحد، اللهم إلا الفيلد مارشال بودل الذى وقّع شروط الاستسلام فى ريمس سنة ١٩٤٥، بل لقد حرصت فى ذلك الحين على الاكتفاء فى حديثى معه بكلمات أوجزت فيها كل ما أراده، من أنه سيكون المسئول الأول عن تنفيذ شروط التسليم».

والجنرال أيزنهاور رجل حكيم طيب، لا يمكن أن يختلف معه الإنسان مختاراً. ولكننى رغم ذلك أقرر إن هناك كثيرين من كبار القواد مازالوا يرون أن تلك التقاليد الحربية الماضية جديرة بالتقدير والإجلال، وتستحق البقاء، ولاسيما أننا، بعد انتهاء الحرب، لابد لنا من أن نعيش معاً فى عالم واحد يسوده السلام!

■ ■ ■

الفصل الحادى والعشرون

رومل يدق أبواب الإسكندرية

الإنجليز يقررون الانسحاب من العراق

مونتجمرى يؤجل الهجوم

لِمَ لم ينسحب رومل؟

تركنا رومل فى نهاية شهر حزيران، يدق أبواب الإسكندرية، وقد وجد نفسه إذ ذاك فى مركز لا عهد له بمثله فى الصحراء. أو- بعبارة أصح- وجد أعداءه فى مركز منيع ليس من السهل أن يزحزحهم عنه!

فقد كانت ميمنة البريطانيين تشرف على البحر، وكانت مسيرتهم تقع على مدى ٤٠ ميلاً إلى الجنوب، أى على رمال منخفض القطارة التى لا يمكن اجتيازها.

وقد وجد «رندال بلنكت» نفسه غير مرغوب فيه من لدن مركز قيادة القاهرة، عندما نجح فى سحب سياراته المدرعة عبر واحة «سيوة» أثناء عملية الانسحاب. وليس من شك فى أن الألمان لم يكونوا يتوقعون أن يكون مركز البريطانيين على ذلك النحو الذى بدا لهم أخيراً، من المناعة والاستعداد.

والواقع أن موقف الجيش الثامن، فى ذلك المركز، كان أعظم من أن يوصف بأنه موقف دفاع. وكان ذلك التحول السريع أشبه بالمعجزات. فحتى ذلك الحين كان الشعور السائد فى انجلترا، أن رجال الجيش قد ارتدوا عن الحدود المصرية مهزومين مدحورين، وأن الخوف والخور قد استوليا على

قلوب الجنود المرابطين فى العلمين. وفى الوقت نفسه راح المسئولون من رجال الجيش فى القاهرة، يحرقون جبالاً من الوثائق العسكرية وغيرها، ويعدون العدة للتقهقر إلى فلسطين أو شرق إفريقيا، بعد أن فقدوا الأمل، ونال منهم الرعب والفزع أى منال، وإذ ذاك انتشرت الأسطورة المحبوبة: لقد هبط مونتجمرى من السماء، وقد خلق المعجزة الساحرة، بأن احال الاندحار إلى انتصار. غير أن تلك الأسطورة لم تكن محببة إلى رجال الجيش الثامن، بل إنها فى الواقع كانت مناقضة للحقائق وللأعمال التى قام بها ذلك الجيش.

الإنجليز يقررون الانسحاب إلى العراق

وفى ذلك اليوم الذى عرف بأربعاء الرماد، نظراً لما أحرق فيه الكثير من الوثائق، أخذت السلطات البريطانية فى ترحيل كثير من المدنيين والنساء. وغادر الأسطول مياه الإسكندرية حتى لا يكون هدفاً مباشراً لقنابل الطائرات المغيرة، واتخذت الاستعدادات للدفاع عن الدلتا إذا افلح الألمان فى اختراق خطوط العلمين، بل تهيأ البريطانيون للانسحاب من الدلتا بعد ذلك، على ان يواصلوا القتال خلال انسحابهم، فى فلسطين، أو العراق اذا اقتضى الأمر ذلك. وكانت هناك خطط واستعدادات أخرى للطوارىء، ألفت للقيام بها هيئات عسكرية خاصة. ومما لا ريب فيه أن خططاً أخرى كانت تعد لمواصلة القتال فى كندا، إذا ما أرغمت الحكومة البريطانية على مغادرة انجلترا.

والواقع أن الجنرال أوكنلك لم يكن أكثر ميلاً للتخلى عن العلمين من المستر تشرشل للجلاء عن لندن، ويمكن القول بأن الجيش الثامن ظل طوال شهر تموز، يواصل هجومه على العدو قصد انتزاع المبادءة منه، وتحطيم مراكزه. وقد بدأ ذلك الهجوم فى اليوم الثانى من شهر تموز، أى فى اليوم التالى مباشرة لفشل رومل فى الهجوم على العلمين، واستمر القتال والالتحام بين الفريقين بضعة أيام، وما منع الفيلق الثالث عشر من أن يواصل تقدمه إلا نقص الاحتياطى الذى لديه!

وفى اليوم العاشر من شهر تموز تمكنت الفرقة التاسعة الاسترالية من الاستيلاء على مركز (تل العيصى) المهم غربى العلمين، والاحتفاظ به ضد الهجمات المضادة القوية المتكررة. وفى الرابع عشر من شهر تموز قامت الفرقة النيوزيلندية واللواء الهندى الخامس بهجوم ليلى، انتهى بالاستيلاء على مركز حيوى جديد هو هضبة الرويسات. وفى ليلة اليوم السادس عشر من شهر تموز استولى الاستراليون على هضبة (المخاض) إلى الجنوب!

ولقد رد رومل بعنف على توغلنا فى خطوطه، ولكننا قمنا برد هجماته على هضبة الرويسات فى يومى ١٨ و١٩. وبعد يومين اثنين كان الاستراليون يقومون بالهجوم فى الشمال، فى حين كانت الفرقة النيوزيلندية، بتأييد بعض قواتنا المدرعة، تقوم بمحاولة جريئة لدق إسفين فى مركز العدو وشطره إلى شطرين. ورغم فشل هذه المحاولة، وهزيمة قواتنا المدرعة، كنا قد استولينا على أماكن لها قيمتها!

وفى شمالى تل العيصى قامت قواتنا بهجوم كبير أيضاً، ولكن الألمان تمكنوا من صده بهجوم مضاد قوى. وقد قيل إن مرد الفشل الذى منيت به قواتنا فى ذلك الهجوم، هو أن المشاة لم يفلحوا فى تطهير الثغرات التى فتحناها بين حقول الألغام، لتتقدم دباباتنا عبرها. ولكن السبب الأول لذلك الفشل هو أننا لم يكن لدينا العدد الكافى من الجنود المدربين الذين يستطيعون أن يحتفظوا بقوة الهجوم واندفاعه!

مونتجمرى يؤجل الهجوم

وفى اليوم الثلاثين من شهر تموز، قرر الجنرال أوكنلك، على مضض منه، أنه ليس فى استطاعته القيام بعد ذلك بأى هجوم إلا بعد منتصف ايلول، أى بعد أن يكون قد تسلم الفرقة الرابعة والأربعين التى وصلت أخيراً من انجلترا، وأعيد تسليحها بدبابات أمريكية متوسطة الحجم، والفرقة العاشرة المدرعة التى يعاد تدريبها وتزويدها بالعتاد.

وعلى الرغم من ضغط الوزارة البريطانية فيما يختص بتعجيل الهجوم، فلم يسع الجنرال الكسندر والجنرال مونتجمرى، حين تشاوروا فى هذا الشأن، إلا إرجاء الهجوم، لأكثر من شهر!

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الجنرالين الكسندر ومونتجمرى، قد توليا القيادة فى ١٥ آب سنة ١٩٤٢.

وكان مفهوماً أن الجنرال مونتجمرى سيكون لديه فى ذلك الموعد الذى حدد للهجوم، فرقتان آخريان، وبعض الدبابات والمدافع الجديدة التى لم يشهدها الجيش الثامن من قبل.

ولا ريب فى أن ذلك الإرجاء الذى عمد إليه مونتجمرى، قد برره فيما بعد، بأنه قد استفاد من هاتين الفرقتين، وتلك الدبابات الجديدة إلى أقصى حد، حين بدأ هجومه على رومل، ذلك الهجوم الذى انتهى باندحار المحور على الصورة المعروفة. على انه مما لا ريب فيه أيضا أن ثقة مونتجمرى بنفسه تلك الثقة الهائلة، كان لها أثرها السحرى فى جنوده، كما أنه كان قائداً جديداً، وبذلك أثار فى نفوس جنوده حب الاستطلاع ثم الإعجاب. ولاشك أن مونتجمرى خليق بالإعجاب!

وعلى أى حال، فليس ثمة ما يحملنا على أن نغلو فى الحديث عن مواهب مونتجمرى الشخصية، إلى حد إغفال الاعتبارات الأخرى التى أدت إلى ذلك النصر العظيم. وليس حقاً أن يقال إن الجيش الثامن لم يكن قوة محاربة موجودة حينما تسلم مونتجمرى قيادته. فهذا الجيش نفسه قد تمكّن قبل ذلك من أن يأسر سبعة آلاف من الأعداء فى شهر تموز السابق، كما تمكن قبل ذلك من وقف زحف رومل على الدلتا، ومهد السبيل للقيام بهجوم كبير، لم يستطع هو إتمامه فى ذلك الحين لنقص فى العدد والعدة، لا يد له فيه.

ومما هو جدير بالذكر، أن الألمان أنفسهم لم يبخسوا مواقف الجيش

الثامن حقها من التقدير، وقد قال لى الجنرال باير لاين: «كثيراً ما أخذتنا الدهشة، واضطربت خطوطنا للطريقة التى هاجمتمونا بها طوال شهر تموز. ولقد أوشكتم أن تنجحوا فى اقتحام مركزنا بضع مرات بين اليوم العاشر واليوم السادس والعشرين من ذلك الشهر، ولو أنكم واصلتم الهجوم بضعة أيام أخرى لحالفكم النجاح التام».

ويمضى باير لاين فيقول: «لقد كان اليوم السادس والعشرين من شهر تموز يوماً حاسماً. فلم تكن لدينا فى ذلك الحين أية مؤونة لمدفعيتنا الثقيلة، وصمم رومل على الانسحاب إلى الحدود إذا استؤنف القتال..».

وما عدا الاعتبارات الشخصية نقول، لقد كان من الخير لنا والضرر لرومل، ان ذلك القتال لم يستأنف. ذلك أن رومل رغم قصر خطوط مواصلاته، وتركزه فى موقع دفاعى طبيعى حصين، كان فى حاجة ماسة إلى قدر كبير من المداورة والتراجع. فهو على أكثر احتمال كان يستطيع تفادى الهزيمة الساحقة التى أدركته، منذ لم يعد هنالك أى مانع سياسى أو نفسانى يحول دون تراجعه عن الحدود.

وأياً كانت الحال فان مصيره النهائى كان قد أرجئ، بعد أن أصبح من اللازم علينا الاستعداد فى مواقع تبعد عن مراكزه ثلثمائة ميل إلى الغرب.

والحق يقال إن استعداداتنا تلك ما كانت لتنجز قبل الإنزال الذى قام به البريطانيون والأمريكيون فى شمالى إفريقيا فى الثامن من شهر تشرين الثانى. ففى تلك الحالة أدرك رومل الخطر، فقفل عائداً إلى تونس على الفور.

لِمَ لم ينسحب رومل؟

وقد يسأل سائل بعد ذلك: لماذا لم ينسحب رومل حينما تحقق بأنه لا يستطيع أن ينطلق إلى القاهرة؟ والجواب عن ذلك نجده عند كثير من النقاد البريطانيين والألمان أيضاً. فقد أجمع هؤلاء وهؤلاء على أن رومل كان يجهل

منطق الأرقام، وقد بالغ فى ذلك ميلتون شولمان إذ قال فى كتابه «الهزيمة فى الغرب»: «إن ضعف رومل الواضح فى الإدارة ليجرده من أية صفة للقائد العظيم» ولكن (ليدل هارت) كان أكثر اعتدالاً ورفقاً إذ قال: «إن عيب رومل الوحيد هو ميله إلى إغفال الجانب الإدارى من الاستراتيجية».

ويبدو أن هذه الانتقادات مرجعها إلى أن رومل كان قد قال مرة لهالدر: (إن مشكلة الإمدادات هى من اختصاصك أنت!) وإذن فيمكن القول بأن هذه الانتقادات ليس لها أساس مادى واضح وليس ثمة ما يدل على أن رومل لم يكن يدرك أهمية المنطق الرياضى فى الحرب.

ومشكلة التموين أو الامدادات هى أولاً وقبل كل شىء، مشكلة القيادة العليا الألمانية والإيطالية. وما كان لرومل، وهو منعزل فى الصحراء، إلا أن يتحدث عما هو فى حاجة إليه، وحسبه أنه استمر فى اصراره على أن تجاب مطالبه. وهل كان فى وسع رومل أن يترك جيشه، ويمضى لمراقبة أعمال الشحن الخاصة بامداداته؟ وهل كان فى وسعه أن يرغم الإيطاليين على ان يبعثوا إليه بالفائض من حاجتهم من البترول فى جنوب إيطاليا؟ أو يرغم القيادة العليا الألمانية على ان تمده ببعض الفرق الألمانية التى كانت فى فرنسا حينذاك، ولا تكاد تقوم بأى عمل؟!

كان كل ما يستطيعه رومل هو أن يناقش وأن يحتج باستمرار، غير عابىء بمضايقة الإيطاليين والقيادة العليا الألمانية. فلم يكن رومل إذن فى ذلك المركز السعيد الذى كان فيه الجنرال أيزنهاور، حين أراد تركيز قواته فى أحد المراكز فى شمال إفريقيا فى العام التالى.

ويقول الجنرال أيزنهاور: (لقد عارضت الهيئات الاحصائية هدفى.. إذ ذكرت أن مواصلاتنا لا تستطيع أن تقوم بنقل أكثر من فرقة واحدة مدرعة وكتيبة واحدة. ولكننى على الرغم من ذلك أمرت باحتشاد أربع فرق وطلبت إيجاد وسيلة لتموين هذه الفرق).

ولم يقل أحد: إن الجنرال أيزنهاور كان يجهل منطق الأرقام والإحصاء!
وهناك مقطع آخر من كتاب «الحرب الصليبية فى أوروبا» يستحق الاقتباس هنا لأنه يوضح لنا مدى ما تنتجه الأدمغة التى تفكر بسرعة من أعمال.

«كان من نتائج العمل الواسع الذى تم اعداده فى واشنطن، أن شحنت كمية إضافية من سيارات النقل يبلغ عددها ٥٤٠٠ سيارة، وقد عززت هذه السيارات لدى وصولها الميدان مواصلاتنا، وحسّنت من وضع التموين عندنا، وكان لها تأثير عميق فى المعارك التى حدثت مؤخراً.

وقد تطلب شحن هذه السيارات تهيئة قافلة خاصة من السفن، فى وقت كانت فيه السفن التجارية والبواخر الحربية لا تقدر بثمن.

وقد حدث آنذاك أن زار الجنرال «سمرفيل» مقر قيادتى، وهناك أوضحت له شدة حاجتنا الماسة إلى شحن تلك السيارات، وقد أوضح لى الجنرال سمر فيل أن باستطاعته تحميل تلك الشحنة من أحد الموانئ الأمريكية فى مدى ثلاثة أيام، إذا ما هيأت إدارة البحرية سفن الحراسة وفى التو أرسلت طلباً بذلك إلى الأميرال كنج، الذى قدم فيما بعد إلى كازابلانكا، وبعد بضع ساعات تسلمت منه جواباً بالموافقة، وهكذا شرعت السيارات تتدفق على إفريقيا بعد مرور ثلاثة أسابيع على الطلب الذى تقدمت به».

أما الجنرال هالدر حين طلب إليه رومل إمداده بالرجال والعتاد فانه لم يستطع أن يكتم ابتسامة وقحة لاحت على شفتيه!

ولو علم رومل أن مطلبه لم يكن مقبولاً، أو لو أن القيادة العليا صرحت له بذلك، لما كان ثمة عذر له فى الإلحاح، ومعاودة طلب الإمدادات من حين إلى حين. ولكن أحداً لم يقل له شيئاً. والحق انه كان من السهل فى سنة ١٩٤٢ إمداد رومل بالجنود الذين يحتاج إليهم ليستولى على القاهرة. ذلك لأن الجنود والمؤن ومختلف الإمدادات، كان من الممكن ان تبلغ آمنة سالمة فى ذلك الحين.

وفى صيف سنة ١٩٤٢ حينما استعاد البريطانيون اشرافهم وسيطرتهم على المنطقة الوسطى من البحر الأبيض، وأصبح من الصعب أن تمر القوافل الألمانية بالقرب من مالطة دون أن تتعرض للخطر، كان رومل ما يزال مخدوعاً بوعود كسيلرنج وكافليرو، وكانا ما يزالان يؤكدان له أن كل القوات التى يحتاج إليها سترسل إليه، وأن مشكلة الإمدادات هى فى طريق الحل.

وفى السابع والعشرين من شهر آب أى قبل معركة علم الحلفا، عقد اجتماع، فيه قرر الرجلان لرومل ٦٠٠٠ طن من البترول، تنقل الطائرات إليه ألفاً منها، ومما قاله لهما رومل يؤمئذ: «هذه هى حالتى، والمعركة كلها تتوقف على البترول» فأجابه كافليرو قائلاً: «تستطيع أن تواصل القتال، فالإمدادات فى طريقها إليك».

وعلى أى حال فان هذه التأكيدات ما كان ينبغى- على الأقل- أن تعطى من كسيلرنغ، فقد كان يعلم أكثر مما يعلم أى إنسان آخر، أن هذه الإمدادات الضرورية لرومل ليس إلى وصولها من سبيل!

ولقد ارتابت هيئة أركان حرب رومل فى شأن كسيلرنج، إذ كان يكتب دائماً إلى جورنج بما يسئ إلى رومل والفيلق الإفريقى، وكان يؤكد لقيادة الجيش أن كل شئ يسير على ما يرام فى شمال إفريقيا!

ولقد أخبرت فيما بعد ان كسيلرنج لم يكن يستطيع أن يقوم بشىء إلا عن طريق الإيطاليين. ويقول تشيانو فى التاسع من شهر أيلول سنة ١٩٤٢ (أن كسيلرنج ذهب إلى برلين ليشكو من رومل!) وقبل ذلك بأسبوع كان كافليرو ما يزال يكرر عباراته المتفائلة، ويؤكد انه خلال أسبوع، سيستأنف السير إلى الدلتا!

وربما كان فى تعليق تشيانو على النتيجة بعدئذ، ما يجلو كل تلك الأمور، وذلك أنه يقول: (إن النصر يجد مئات من الآباء دائماً.. أما الهزيمة فطفل يتيم!».

ولا يفوتنا أن نذكر أن كسيلرنج كان القائد الأعلى للقوات الألمانية فى الجنوب، أى انه كان الرئيس المباشر لرومل، فكان فى استطاعته ان يأمره بالا يتقدم إلى العلمين، وأن يأمره بالا يهاجم أو الا ينسحب، كما يشاء.

رومل مريض بتضخم الكبد!

ولقد أيقن الجنرال أوكنلك فى نهاية تموز، أن رومل يجب أن يهاجم قبل نهاية آب، وذكر أن رومل لن تتيسر له القوة الكافية لمحاولة غزو الدلتا، فلن يقوم بهذه المحاولة إلا إذا شاء أن يقامر بالبقية الباقية لديه من الرجال والعتاد!

ولقد حارب رومل فى معركة علم الحلفا، التى بدأت فى ٣١ آب، وكانت ظروفه فيها سيئة للغاية، هذا بالإضافة إلى أنه كان يهاجم عدواً فى مراكز دفاعية أعدت من قبل. وعلى الرغم من أن قوات رومل كانت أكثر عدداً إلى حد ما، وكان بينها ست فرق إيطالية. وهذه الفرق الإيطالية لم يكن بد من أن تدعم وتسند بالألمان، كفرقة المشاة ١٦٤، ولواء رامكة لجنود المظلات، أما المدافع والأسلحة، فلم يكن رومل يملك منها مثل ما نملك. وكان سلاح الطيران الملكى البريطانى يسيطر على الجو تماماً، هذا إلى أن مركز العلمين بطبيعته، جعل من المستحيل على رومل أن يقوم بمباغتة أعدائه، أو ان يستفيد من براعته فى المناورة!

وأخيراً كان رومل نفسه مريضاً، فقد أصيب أنفه بالتهاب، وتضخمت كبده، فلم يكن ليستطيع أن يغادر سيارته. وكان ذلك أكبر عائق لقائد مثله، يعتمد اكثر ما يعتمد على ملاحظاته الشخصية أثناء سير المعركة.

ولقد حاول رومل أن يحسم الموقف بالوسيلة الوحيدة التى يمكن القيام بها، وذلك بأن يخادع أعداءه فى الشمال، ويوقف تقدمهم فى الوسط، ثم يركز كل جهوده الرئيسية فى الجنوب. وكان هدفه أن يخترق المراكز

البريطانية شمالى منخفض القطارة، ثم يضرب ضربته إلى الشمال، أى إلى البحر، وبذلك يتسنى له أن يلتف حول ذلك المركز كله، كما التف من قبل حول مركز الغزالة منذ ثلاثة أشهر. ولو أفلح رومل فى ذلك، لحوصر الجيش الثامن كله، ولانقطعت مواصلاته. ولكن شاء سوء حظ رومل، الا ان يدرك ذلك الجنرالان: الكسندر، ومونتجمرى!

ومنذ وصل الجنرال مونتجمرى إلى الصحراء، لم يأبه لمسيرة رومل، وراح يدعم هضبة علم الحلفاء التى لا يجرؤ رومل على اجتيازها، والقى بأسلحته وقواته المدرعة فيها. وقد استدعى لذلك كل الفرقة الرابعة والأربعين، وحفر لها الخنادق على الهضبة، وثبّت مدفعيتها هناك، وأرسل الدبابات لتشد أزرها، ثم لفّق خريطة للتضليل، وتعمّد أن تقع فى أيدى الألمان، ليفهموا ان السير جنوبى علم الحلفاء سهل يسير، فى حين أنه فى الواقع جد عسير!

ولكن ننصف رومل نقول: إن حاسته السادسة قد أسعفته فوراً، على الرغم من أنه مريض فى سيارته، ويقول بايرلاين: «إن رومل كان يريد أن يكف عن القتال، مادام لم يفلح فى مفاجأة العدو. وكنت أنا الذى أقنعته بأن يواصل القتال) ويضيف الجنرال بايرلاين إلى ذلك قوله: «إن قوة تحصينات هضبة علم الحلفاء، كانت مفاجأة تامة لى، فقد كنت على يقين من أننى سأخترقها، وظللت أهاجمها من أجل ذلك!».

ولما أطلعت الجنرال بايرلاين على إحدى فقرات كتاب (آلان مورهد) عن حياة مونتجمرى، وهى التى يصف فيها كيف وضع مونتجمرى اصبعه على علم الحلفاء، وهو يرى الخريطة لأول وهلة، نظر بابرلاين فى اسف وقال: (هذا رائع! هذا ممتاز!) قالها فى لهجة القائد الذى يكن الاحترام لزميل له. ثم قال: (إنها لبراعة فى القيادة حقا!) ومن الإنصاف أن نقول: إن قصة مونتجمرى هذه مبالغ فيها إلى حد بعيد. فمركز علم الحلفا كانت الألغام قد

بث فيه، وأعد لمواجهة الطوارئ، قبل أن يصل مونتجمرى إلى الصحراء، وكل الذى صنعه مونتجمرى أنه استمر فى تنفيذ الخطة التى وضعت من قبل!

وقد اثنى الجنرال بابرلاين على سلاح الطيران الملكى البريطانى. وقال: (لقد كانت الطائرات تغير علينا فى قسوة، كل ساعة من الليل والنهار، وقد كبدّتنا خسائر أفدح وأكثر مما تكبدناه لأى سبب آخر. إن تفوقكم الجوى كان مهماً جداً، بل ربما كان الحاسم الأول فى المعركة!).

وحينما فشلت مقامرة رومل فى الثالث من شهر أيلول، بدأ الانسحاب. ولم يحاول الجنرال مونتجمرى، وكان حكيماً فى ذلك، أن يتعقب رومل، ذلك لأن من الخير له ان ينتظر.

■ ■ ■



الفصل الثانى والعشرون

رومل يهاجم وهو مريض

سلاح سرى خطير

شتومة يموت بالسكتة

مونتجمرى يخدع رومل

رومل يضرب ضربته الأخيرة

اضطر رومل، بعد ثلاثة أسابيع من مرضه دون أى تحسن، إلى أن يبلغ السلطات العليا أمر مرضه. وللمرة الثانية ترك جيشه وطار إلى ألمانيا للعلاج. وكانت المرة الأولى حين جرح من قبل!!.

على أنه قبل أن يدخل المستشفى فى اتسميرنج، اجتمع بهتلر فى مقر قيادته العليا، وصرح له بأن جيشه يقف أمام باب الإسكندرية، ولكن من المستحيل عليه أن يدفع البقية الباقية، ما لم تتحسن حالة الإمدادات وتشد أزره قوات جديدة.

وحرص رومل خاصة على أن يؤكد لهتلر أن هذه القوات لن تستطيع أن تقوم بشىء دون أن يكون لديها ما تحتاج إليه من البترول.

وفى اليوم الثانى من أيلول نجد تشيانو يقول فى يومياته «إن ثلاثاً من ناقلات بترولنا قد أغرقت خلال يومين». وفى اليوم الثالث منه نجده يقول: «إن اغراق سفننا لا يزال مستمراً فقد أغرقت الليلة سفينتان» ثم يقول فى

اليوم التالى «أغرقت الليلة سفينتان آخريان»!.

والثـابت أن هتلر لم يدخـر وسـعـاً فى ارضـاء رومل، إذ قـال لـه: «هوّن عليك، فسأعطى الفيلق الإفريقى كل ما يحتاج إليه، وسندخل الإسكندرية آمنين!». والثابت كذلك أن هتلر روى لرومل قصة السفن الصغيرة التى أمر بأن تنتجها المصانع الألمانية بالجملة خصيصاً لقوات إفريقيا، وقال له: إن مائتين من هذه السفن، والزوارق قد تم إنتاجها، وستزود بمدافع من عيار ٨٨ مليمتراً، ثم تبدأ فوراً مهمة نقل البترول إلى إفريقيا، حيث تستطيع المضى فى سبيلها متسترة بالظلام، وتكون أقل تعرضاً للخطر من الناقلات الكبرى للبترول، وبذلك ستحل مشكلة البترول.

على أن حديث هذه الزوارق الجديدة، لم يرد ذكره فى مؤتمرات الشئون البحرية التى عقدها هتلر سنة ١٩٤٢، وكل ما هناك انه أشار إلى قطع بحرية خفيفة الحجم، غير صالحة تماماً للعمل فى البحر، كانت ما تزال راسية فى الموانئ للقيام بما تحتاج إليه من إصلاحات.

وإذن، فلم تكن هناك زوارق حربية جديدة تنتجها المصانع الألمانية بالجملة ولا بغير الجملة، ولم يكن الأمر إلا خيالاً فى خيال!.

بيد أن هتلر بعد أن أجتمع برومل، اصطحبه معه إلى حيث أراه نموذجاً لدبابة «النمر»، ونموذجاً لمدفع المورتار العنيف الذى فوجئنا به بعدئذ فى ايطاليا، وكانت المصانع الألمانة تنتج هذين السلاحين بالجملة حقاً فى ذلك الحين. وقد صدق هتلر ما وعد رومل به، فكانت إفريقيا أول ميدان أرسل إليه هذان السلاحان، كما صدق هتلر وعده بارسال مقادير من ذلك المدفع الجديد الى إفريقيا، واستخدمت فى ذلك كل وسائل النقل الجوى الممكنة!

سلاح سرى خطير

ولم يكتف هتلر بذلك، بل أسر إلى رومل سلاحاً سرياً حديثاً، يبلغ من

قوة قصفه «أنه يسقط عن ظهر الجواد أى فارس يسمعه على بعد ميلين!».

ولم يستطع رومل أن يكتم الضحك بهذا التعبير، أو عجباً من أمر ذلك السلاح الخطير.

ولعل هتلر لم يكن يلقى الكلام على عواهنه حينذاك. فقد ثبت بعد أول تجربة للقنبلة الذرية فى نيو مكسيكو، أن أحد الأبنية، التى تبعد عن مركز الانفجار أربعة أميال. قد ارتفع عن قاعدته المصنوعة من الأسمنت المسلح، بمقدار قدمين!

وأيا كان الأمر، فقد أخذ رومل كل وعود هتلر مأخذ الجلد، ولا سيماً بعد أن رأى بعينه دبابات النمر، ومدافع المورتار. وفى ذلك ما يفسر ذلك الحديث المتفائل الذى أدلى به رومل إلى الصحفيين فى برلين فى الثالث من شهر تشرين أول، وقوله لهم فيه: «إن الألمان سيبلغون الإسكندرية عما قريب!»

ويرى الجنرال «فون توما» أن رومل لم يكن يعنى تماماً ذلك الذى أعلنه عن إيمانه بالنصر، ولكنه تعمد ذلك لتقوية الروح المعنوية، لدى جنوده، ولا سيما الإيطاليين منهم، وكان هذا الحديث قبل مقابلته لهتلر.

ولم يبدأ الشك يساور رومل فى تلك الوعود إلا بعد أسبوعين. إذ قال لزوجته: «لست أدرى، هل هتلر مازال عند وعوده لى، أم أنه أدلى بها إلىّ للتهدئة والترضية؟!»

وتلك هى المرة الأولى التى وجد الشك فى أقوال هتلر، سبيله إلى نفس رومل!

وفى ذلك الاجتماع استقر الرأى على ألا يعود رومل إلى شمال إفريقيا بعد أن يغادر المستشفى، إذ رأى هتلر أن صحة رومل فى حاجة إلى تغيير الجو، واشار إلى أن تسند إليه قيادة أحد الجيوش الألمانية فى جنوب أوكرانيا، على أن يخلفه الجنرال اشتومه فى إفريقيا.

* ولعل هتلر كان يرمى من وراء ذلك أيضاً إلى ألا تنكشف خدعته لروميل! على أن هتلر عاد فاتصل بروميل فى مستشفى اتسنيرنج ظهر يوم ٢٤ تشرين أول وقال له: «هناك أخبار سيئة تتابع من إفريقيا. وأن الموقف فيها ليبدو جد قاتم، ولا يدرى أحد ما الذى يحدث لاشتومه!»

ثم أختم معه معرباً عن أمله فى أن تكون صحته قد تحسنت إلى حد يمكّنه من العودة إلى أفريقيا!

وكان روميل ما يزال مريضاً جداً. ولم تتقدم صحته خلال الأسابيع الثلاثة التى قضاها فى المستشفى، فلم يكن هناك أى أمل فى استطاعته العودة إلى الميدان والاشتراك فى القتال.

ولكنه ـ رغم ذلك ـ لم يخطر بباله قط أن يرفض العودة: أنه كان بجسمه فقط فى المستشفى، اما قلبه فكان مع الفيلق الإفريقى.

وفى الساعة السابعة فى صباح اليوم التالى، كان روميل يمتطى إحدى الطائرات فى طريقه إلى الميدان! وعرج فى طريقه على إيطاليا، حيث تحدث مع المسئولين فى شأن إمداده بالبترول، ثم هبط مرة ثانية فى كريت. وفى الساعة الثامنة مساء كان فى مقر قيادته العليا فى شمال إفريقيا!

ويقول الجنرال فون كريمر، «لقد خسرنا معركة قبل أن نحارب فيها، فلم يكن لدينا بترول» ويقول الجنرال بايرلاين هو الآخر «لم يكن فى طوق روميل أن يفعل شيئاً لتغيير النتيجة المحتومة، فقد تسلم قيادة المعركة وهو لا يملك أية قوة احتياطية، إذ أن كل الاحتياطى الذى كان لدينا، كنا قد استخدمناه فى الميدان!».

والواقع أن قوات المحور كانت، لنقص عددها وعدتها، ولليأس من وصول الإمدادات إليها، ولا سيما البترول، قد زايلتها الثقة بقدرتها على القتال. وليس أدل على ذلك من أنها لم تصنع شيئاً ما، حين أكد لها قلم

المخابرات الألمانى، أن البريطانيين لن يستطيعوا القيام بأى هجوم خلال شهر تشرين أول، وقد جاءها ذلك النبأ فى بداية الشهر، على يد ضابط خاص مرسل من القيادة العليا لهذا الغرض!

اشتومة يموت بالسكتة القلبية

وليس عجيباً بعد هذا أن يموت الجنرال شتومة بالسكتة القلبية، قبل أن يقوم الجنرال مونتجمرى باغارته الهائلة، بأربع وعشرين ساعة. وكان اشتومة قد فوجئ باحدى الغارات الجنوبية البريطانية التمهيدية، وهو فى عربته خارج مقره، فلما عاد سائقها مسرعاً، لم يتنبه إلى أن الجنرال ليس فيها، الا بعد حين. وهكذا وجد الجنرال ملقى على الرمال وقد سكت قلبه إلى الأبد. وليس يدرى أحد أسقط من العربة أم قفز منها خلال عودتها!

ومن الإنصاف للجنرال أشتومة أن نذكر هنا أنه ورث نظم الدفاع عن رومل. فقد أكد لى الجنرال بايرلاين أن رومل، لم يغادر أفريقيا إلا بعد أن أعد كل شئ ورتبه بالتفصيل وفق طريقته الخاصة!

وكان جلياً أن الخطة التى سار عليها رومل، لم تكن تتسق مع ما عرف عنه هو نفسه، وذلك لأنه مزّق شمل قواته المدرعه، فجعل الفرقة الخامسة عشرة المدرعة فى أقصى الشمال، والفرقة الحادية والعشرين المدرعة فى أقصى الجنوب، وقسّم كل فرقة منهما إلى أقسام عدة.

ولكن رومل لم يفعل ذلك إلا مضطراً. فقد كان لا يثق بالفرقة الإيطالية. ولا شك فى أنه كان على حق فى هذا، وقد ثبت فيما بعد أن الإيطاليين ما كادوا، حين بدأ الهجوم، يجدون أن أكثر من ألف مدفع تصوب عليهم نيرانها باستمرار، حتى تملكهم الرعب والفزع، ولم تبق لديهم أية رغبة فى القتال، ولولا أن بعض المشاة وجنود المظلات الألمان كانوا بين صفوفهم، لكانوا أسرع إلى إلقاء إلى السلاح والاستسلام منهم فى المرات السابقة!

مونتجمرى يخدع رومل

وينبغى ألا نغفل من الحساب أن الجنرال مونتجمرى كان فى هذه المرة متفوقاً إلى حد كبير فى عدد الجنود والدبابات والمدافع، وفى وفرة المؤن الحربية. ويمكن القول بأن معركة العلمين، كانت قائمة على العتاد والرجال، كما كان الشأن فى المعارك الحربية القديمة تماماً. ثم إن هذه المعركة سبقتها من جانبنا استعدادات كبيرة للتغطية. فكانت لدينا كل الاحتياطات الممتازة اللازمة لتغطية الهجوم المزمع القيام به فى الجنوب، ولإخفاء الاستعدادات الخاصة بالهجوم الحقيقى فى الشمال، ولبيان أن الترتيبات التى اتخذت فى الجنوب ماتزال آخذة فى الازدياد.

وقد استخدمنا الخدع الحربية على أوسع نطاق، فغطينا الدبابات فى مناطق احتشادها بهياكل السيارات، ووضعت اللوريات الكاذبة فى مراكز مدافع الميدان، لكى يتيسر تحرك هذه المدافع ونقلها تحت جنح الليل مستترة بهياكل اللوريات، وكذلك وضعت الدبابات الوهمية بدلاً من الدبابات الحقيقية، كما وضعت مدافع زائفة بدلاً من المدافع الحقيقة فى الخطوط الأمامية، وشرعنا فى انشاء مستودعات وهمية للبترول فى المنطقة الجنوبية، وكان هذا الانشاء يجرى فى بطء ملحوظ لإيهام الألمان بأنه لن يتم قبل تشرين الثانى. ونشرت شبكة واسعة من اللاسلكى تبعث برسائل وهمية للتضليل. هذا إلى جانب مد أنابيب وهمية للبترول، وإقامة محطات ومستودعات للبترول، وهمية أيضاً. كما روعى فى حركات السيارات إيهام الأعداء بأنها تسير فى غير الطرق الصحراوية المألوفة!

ولقد خدع الألمان بهذه الظاهرة التى أحكم تنفيذها إلى أقصى حد، فلم يدركوا أى شئ عن تاريخ الهجوم أو اتجاهه، ولا عن مراكز احتشاد أسلحتنا المدرعة. وكان النصيب الأوفى من تلك المظاهر الخادعة المضللة، يعود لسلاح الطيران البريطانى، فقد تعمد أن يترك الفرصة لسلاح الطيران الألمانى كى

يقوم باستكشافاته الجوية، ليسجل تلك المظاهر المضللة الكاذبة على أنها حقائق لاشك فيها. وقد عزز الخداع الألمان بها، ماكانوا قد تلقوه من المعلومات الخطأ من قلم مخابراتهم!. كذلك كان من أكبر الخدع التى جازت على الألمان، وكان لها أثرها فى نتيجة المعركة، أن استطاع البريطانيون إخفاء ٢٤٠ مدفعاً و١٥٠ دبابة أخرى و٧,٥٠٠ طن من البترول، داخل الفيلق الثالث عشر الذى يرابط فى الشمال!.

وقد كتب الفيلد مارشال الكسندر فى ذلك يقول: «لم يحدث أن ركز العدو دفاعاً قوياً جدياً ضد المنطقة التى سنهاجم فيها، إلا فى السادس والعشرين من شهر تشرين الأول!».

ففى ذلك اليوم اعتزم رومل القيام بهجومه. ولعل من المستحسن هنا أن نحزر ما إذا كان رومل قد خدع حقيقة بتضليلاتنا طيلة شهر تشرين الأول، أما أنه لم يعتمد على قلم المخابرات السرية الألمانى فذلك عائد إلى الفكرة السيئة التى أخذها عنه.

رومل يضرب ضربته الأخيرة

ولقد اعترف رومل لبايرلاين وحده بأنه قد خسر المعركة. ولكنّ هذا الاعتراف لم يمنعه من القيام بمحاولة يائسة للاحتفاظ بالموقف. ففى الشمال كانت الفرقة الخامسة عشرة المدرعة، مبددة تعانى من الضربات التى يكيلها لها الفيلق العاشر المدرع باحتشاداته القوية. ولم يكد يبلغ رومل الصحراء حتى قام خلال بضع ساعات بجمع البقية الباقية من الفرقة الحادية والعشرين المدرعة، وجعلها تنطلق من الجنوب إلى الشمال، كما أمر الفرقة التسعين الخفيفة، بالاتجاه إلى الشمال أيضاً، وبذلك يكون رومل قد وجه حركاته الهجومية المضادة إلى النقطة الحقيقية للهجوم البريطانى فى الشمال!

ورغم أن روميل كان طريح الفراش في مستشفى انسمرينج قبل ذلك بيومين، فقد خرج في عصر ذلك اليوم، وراءه، ليقود بنفسه ذلك الهجوم المضاد بالدبابات، ومن ورائه فرقتاه الوفيتان اللتان طالما تبعتاه فى كل هجوم. وما من شك فى أن روميل كان يدرك حقيقة الموقف تماماً، إذ وجد متسعاً من الوقت ليفكر فيه وهو على متن الطائرة التى أقلته إلى الجنوب. ورغم السرعة التى تم بها رسم خطة ذلك الهجوم المضاد، وتنفيذها، كان الجهد الذى بذله روميل فيه، يدل على ما اتصف به من الجرأة والبراعة.

على أن هذا الهجوم مالبث قليلاً حتى توقف تحت ضغط نيران المدفعية والغارات الجوية البريطانية، قبل أن يبلغ أهدافه ويضرب ضرباته الكبرى. وقد تمكن من أن يستأنف هجومه مرة أخرى فى اليوم التالى، ولكنه اضطر إلى التراجع مرة أخرى على يد لواء البنادق الثانى والفرقة الاسترالية، بعد أن فقد عدداً كبيراً من البقية الباقية لديه من الدبابات دون أن يكون عنده أى أمل فى الحصول على غيرها!

وأعقب ذلك قتال عنيف بالغ القسوة بين الفرقة الاسترالية التاسعة التى اتجهت إلى الشمال مرة أخرى وبين الصفوة الممتازة من الألمان. وحينئذ قام الجنرال مونتجمرى بتوجيه دفة هجومه صوب روميل، فقام فى الساعات الأولى من اليوم الثانى من شهر تشرين الثانى بضربته القاصمة عند اتصال الألمان بالإيطاليين. واخترق المشاة ثغرة بينهم طولها ٤٠٠٠ ياردة فمهّدوا الطريق بذلك أمام القوات المدرعة. على أن الطريق مع ذلك لم يكن بالسهولة التى توقعتها هذه القوات، ففقدت الفرقة التاسعة المدرعة ٧٨ دبابة، بفعل الستار القوى الذى نصبه روميل أمامها من نيران مدافعه المضادة للدبابات!

لقد قاتل روميل فى ذلك الحين قتال الجبابرة، رغم أنه كان موقناً بالأمل فى تدارك الموقف. ولقد استخدم فى ذلك كل ماله من براعة وخبرة طويلة فى القتال بالأسلحة المدرعة، وكاد يخترق خطوطنا!

وفى تلك الليلة صمم روميل على الانسحاب. وكان عليه أن ينقذ الألمان بكل ماالديه من وسائل النقل. أما الايطاليون فعليهم أن يسيروا على أقدامهم، ولكن أكثرهم آثروا الوقوع فى الأسر، على غارات سلاح الطيران الملكى البريطانى فى طريقهم إلى العودة!

وفى اليوم الثامن من شهر تشرين الثانى، عندما بدأ الانسحاب، جاء أمر من القيادة الألمانية العليا يقول: «إن الموقف يقتضى الاحتفاظ بمركز العلمين حتى آخر جندى. فلا ينبغى أن يكون هنالك انسحاب، ولا إلى مليمتر واحد! النصر أو الموت!» وكان هذا الأمر بإمضاء «أدولف هتلر!»

■ ■ ■



الفصل الثالث والعشرون

رومل ينسحب من العلمين

أسر الجنرال فوق توما وسقوط طرابلس
مع جورنج إلى إيطاليا

كان أمراً يبعث على الحيرة والحنق والضحك معاً، ذلك الأمر الذى أصدره هتلر إلى رومل، وألزمه فيه بأن يستمر فى القتال، وألا يتزحزح عن العلمين قيد انملة، فإما انتصر، وإما خسر آخر جندى معه!

ورغم أن رومل كان قد اعتزم الانسحاب، بعد أن أفرغ كل ما فى جعبته، وفشل مرتين فى الهجوم المضاد الذى قام به. ورغم أنه كان على يقين من أن تنفيذ أمر هتلر لا يعنى إلا أن تحيق الكارثة بالفيلق الإفريقى، فلم يشأ تجاهل هذا الأمر، وأمر بتوزيعه على جنوده!.

ولم يكن كذلك رأى الجنرال بايرلاين ولا رأى الجنرال فون توما، قائد الفيلق الإفريقى، وقد استأذن هذا الأخير فى الانسحاب بالفيلق إلى الفوكة والضبعة فلم يأذن له رومل. ورغم هذا، فما أن أرخى الليل سدوله على الميدان حتى سارع فون توما إلى التراجع بجنوده قائلاً: إننى لا أستطيع أن أتحمّل مسئولية تنفيذ أمر كهذا، إن هتلر يأمرنا بالانتحار!.

ولقد علم رومل بما صنعه توما وسمع مقالته، ولكنه سكت متجاهلاً وتركه يواصل الانسحاب!.

وفى صبيحة اليوم التالى خرج فون توما ليستوثق من صحة ما قيل من أن الارتال البريطانية قد اقتحمت الخطوط إلى الجنوب، فأصبحت بذلك غرب القوات الألمانية. ولم يشأ رومل أن يصدق ذلك، فلما حان وقت الظهر دون أن يرجع فون توما، استقل الجنرال بايرلاين سيارته الخاصة، وانطلق فى إثره يتنسم الأخبار، فلما اقترب من هضبة المنسر، أرغمته النيران الشديدة على مغادرة سيارته، والذهاب إلى الهضبة راجلاً. وهناك على مدى مائتى ياردة منها، رأى دبابة تندلع منها النيران، وإلى جوارها فون توما واقفاً يتطلع فى حسرة إلى ما تناثر حوله من حطام الدبابات الألمانية والمدافع المضادة للدبابات. ولم يطل بكل منهما الوقوف إذ جاءت إحدى ناقلات الجنود البريطانية إلى حيث كان فون توما واقفاً، فحملته وانطلقت عائدة به من حيث أتت. وفى الوقت ذاته عاد بايرلاين من حيث جاء!

وفى تلك الليلة، تناول فون توما طعام العشاء مع الجنرال مونتجمرى فى مقر قيادته العليا، وكان مونتجمرى حفياً إلى أقصى حدود الحفاوة بضيفه الخطير. ورد فون توما هذه التحية بمثلها، فطلب إلى مونتجمرى أن يبقى معه فى ألمانيا بعد الحرب!

ولقد كانت هذه المجاملات اللطيفة التى تبادلها القائدان الكبيران، مثار نقد عنيف فى انجلترا. على أنها لم تكن شيئاً جديداً ولا غريباً على متتبعى أمثالها فى حرب شمال إفريقيا أو «حرب الجنتلمان»!.

بايرلاين يقود الفيلق الإفريقى

وفى اليوم التالى كان بايرلاين قد أصبح قائداً للفيلق الإفريقى، وإن لم يكن لهذا الفيلق وجود حقيقى فى ذلك الحين. وقد سأل بايرلاين حينئذ رومل قائلاً «ترى ماذا أستطيع أن أصنع بهذا الأمر الذى أصدره هتلر؟» فأجابه رومل فى دبلوماسية بارعة قائلا: لا أستطيع أن أمنحك السلطة التى تخولك عصيان هذا الأمر!».

ولم تكن ثمة شك فى أن رومل القائد المريض، قد أثرت فيه الهزيمة الساحقة، فبدا واهن البنية، لا تكاد هيئة أركان حربه تستطيع التفاهم معه إلا بشق الأنفس!.. ولكنه رغم ذلك كله استطاع أن يقود ذلك الانسحاب فى براعة فائقة.

ولم يكن فى استطاعته أن يتوقف فى هذه المرة، ليكر على البريطانيين الذين يتعقبونه. فالقوات التى كانت باقية لديه لم تكن تزيد إلا قليلاً على فرقة منوعة، ولم يكن يملك أكثر من ثمانين دبابة، فى حين لا تقل الدبابات البريطانية عن ستمائة دبابة!.

وفى ليلة اليوم السادس من تشرين الثانى. هطلت الأمطار بغزارة خلال ذلك الانسحاب، فأحالت الصحراء إلى مستنقعات، وحالت دون تقدم القوات البريطانية التى أرسلت لتقطع خطوط مواصلات رومل، وتعوق انسحابه، ولولا هذه الأمطار لحوصرت قوات رومل عند مرسى مطروح!!.

ولو أن وسائل النقل الجوية كانت قد تقدمت فى ذلك الحين، كما تقدمت بعدئذ على يد الجنرال سليم فى أشد الأحوال تعقداً فى بورما، إذن لهبط الجنود البريطانيون وراء خطوط رومل، وتوالت عليهم الإمدادات من الجو، فلم يستطع الألمان الإفلات منهم!

وأخذ كثير من الألمان والبريطانيين، على مونتجمرى قعوده عن اللحاق برومل، وقال لى الجنرال بايرلاين: «ما أظن أن الجنرال باتون كان يتركنا نتراجع بمثل تلك السهولة»! وكثيراً ما كان بايرلاين يشبه باتون بجودريان، ومنتجمرى برونشتيدت، على أنه أضاف إلى ذلك قوله: «إن أعظم عمل قام به رومل فى شمال إفريقيا، هو انسحابه من العلمين!!».

والحق، أنه ليس هناك ما يستحق أن يؤخذ على القائدين البريطانى والألمانى فى ذلك كله، فالبريطانيون قطعوا المسافة بين العلمين وبنى غازى-

وهى تبلغ سبعمائة ميل- فى خمسة عشر يوماً، وكانت الأوامر الصريحة التى تلقاها رومل، تقضى بألا يقف عند العقيلة.

وفى الثامن من شهر تشرين الثانى نزلت قوات الحلفاء فى شمال إفريقيا، فأصبحت بذلك طرابلس ذات أهمية ثانوية. ولم يتسلم رومل أى إمدادات تشد أزره، اللهم إلا تلك القوات التى كانت تتدفق براً وبحراً، والتى أصبحت كلها بعد ستة أشهر لا أكثر، أسيرة فى أيدى الأعداء!..

وشد ما آلم رومل وحز فى نفسه، أنه رأى القيادة الألمانية العليا، تفيق من سباتها بعد فوات الآوان، وتنطلق محاولة أن تكسب قضية خاسرة، بعد أن خسرت بتهاونها قضية رابحة!.

ففى شهر تشرين الثانى أرسلت القيادة الألمانية إلى إفريقيا، كتيبتين من الجنود على متون الطائرات، ثم أرسلت فوجاً من سلاح المهندسين، فوحدات من المشاة والدبابات والمدفعية، فتجمعت للقوات الألمانية من ذلك فرقة كاملة!.

وفى منتصف كانون الأول وصلت الفرقة العاشرة المدرعة. وبعد أيام قليلة وصلت فرقة المشاة (٣٣٤) كما وصلت أيضاً كتيبة من قاذفى القنابل اليدوية من كريت، ثم وصلت الكتيبة ٥٠١ من الدبابات الثقيلة، (دبابات النمر التى وعد بها رومل من قبل)، ثم وصلت وحدات ألمانية أخرى، وقيل إن فرقة جورنج المدرعة كانت فى طريقها أيضاً إلى رومل. وهذا كله عدا التشكيلات الإيطالية التى أرسلت قبل النهاية بقليل.

فما الذى كان يحدث؟.. أوما الذى كان رومل يستطيع القيام به لو أن نصف هذه القوات أرسلت إليه قبل خمسة أشهر أو ستة أشهر؟!

سقوط طرابلس

وأيا كان الأمر، فلم تكن هناك أى جدوى من وراء تعقبنا رومل، وتقدم الجيش الثامن فى منطقة طرابلس.

ولقد كان رومل يتقهقر بدباباته الستين، وعليه أن يحمى ظهره ٢٥ ألفا من الإيطاليين، وعشرة آلاف من الألمان.

وعرف رومل كيف يستفيد فى براعة فائقة من بث الألغام وتخريب الطرقات، ومن استخدام مختلف الخدع فى إعاقة متعقبيه. وكان عليه أن يتخلى عن أكثر استحكاماته مناعة، لأنه لا يملك قوات تكفى للاحتفاظ بها، وهكذا تنحت الفرقة التسعون الخفيفة عن طرابلس نفسها، ثم قام ضحايا رومل القدامى فى سان فاليرى فامتطوا ظهور دباباتهم، وقاموا بالهجوم على طرابلس فى ضوء القمر، فتمكنوا من احتلالها دون أدنى مقاومة، ودخولها فى الثالث والعشرين من شهر كانون الثانى، وكان لواء الخيالة الخفيفة الحادى عشر أول من اقتحم الأسلاك الشائكة التى أقامها الإيطاليون، فدخل طرابلس قبل غيره من الوحدات.

حقاً، إن أشد ما يبتلى به جندى أو قائد فى الحرب، لهو الانسحاب الطويل المدى، أمام عدو متفوق فى العدد والقتال، وإنها لمعجزة حقاً أن استطاع رومل أن يحتفظ بشىء من قوة الروح المعنوية فى جنوده المنسحبين!

ولقد كان رومل، مع ذلك محطم النفس، عليل الجسم، طوال فترة ذلك الانسحاب الطويل، وقد حرص على أن يكافئ كل الذين أخلصوا لهتلر، ودانوا له بالطاعة والولاء.

وفى نهاية شهر تشرين الثانى، دعى رومل إلى ألمانيا ليقابل هتلر، ولأول مرة قابله هتلر بجفاء بل عامله بقسوة وازدراء!..

ولقد صارحه رومل بأن الموقف فى شمال إفريقيا ميئوس منه تماماً. وقال: إن الحكمة تقضى بأن يضحى بالعتاد والمؤن فى سبيل إنقاذ الفيلق الإفريقى ليواصل قتاله فى إيطاليا. ولكن هتلر صرخ فى وجهه مقاطعاً واتهمه وراح يكيل له التهم جزافاً. فرماه بأنه من دعاة الهزيمة وبأنه وجنوده

جبناء. ثم قال له أخيراً: «إن القادة الذين ظهروا بمثل هذه الروح فى روسيا قد ألصقت ظهورهم بالحائط واطلقت عليهم النار» وقد لا يصنع هتلر بروميل ما صنعه بهؤلاء، ولكن على روميل أن يأخذ حذره بطلاقة!

أما بالنسبة لطرابلس فكان من المهم الاحتفاظ بها بأى ثمن كان، وإلا اضطر الإيطاليون- فى حالة فقدانها- إلى عقد صلح منفرد مع الحلفاء.

ووجّه روميل سؤالاً إلى هتلر «أيهما أفضل: أن نفقد طرابلس أم الفيلق الإفريقى؟» فصرخ فيه هتلر قائلا: «إن الفيلق الإفريقى لا أهمية له على الإطلاق!!».

وحينئذ أدرك روميل لأول مرة- كما أخبر بذلك زوجته فيما بعد- أن هتلر لا يعبأ بمن يحاربون من أجله، وأنه لا يكن للشعب الألمانى وقواد جيشه وجنوده غير الاحتقار!!

وذكر روميل لزوجته أن نفسه حدّثته بأن يطلب إلى هتلر أن يذهب وحاشيته إلى إفريقيا ليريه كيف يقود المعركة، وكيف يحيل الهزيمة إلى انتصار، ولكّن هتلر لم يمهله واستطرد فى تأنيبه وتهديده، إلى أن أنهى مقابلته له قائلا: «إذهب! فلدىّ ما هو أهم من التحدث إليك».

ولم يزد روميل على أن اعتدل فى وقفته، ورفع يده بالتحية لهتلر ثم استدار خارجاً فى سكون!!

وبعد أن جاوز الباب، انطلق هتلر وراءه حتى لحق به، ووضع يده على كتفه ملاطفاً، ثم قال له «يجب أن تعذرنى. إننى فى حال لا أملك فيها أعصابى. ولكن ثق أن كل شىء سيكون على ما يرام، فتعال غداً لنتحدث فى هدوء، ولتعلم من الآن أنه من المستحيل أن أفكر فى تحطم الفيلق الإفريقى العظيم!».

مع جورنج إلى إيطاليا

وفى اليوم التالى مضى روميل لمقابلة هتلر فوجد عنده جورنج. وبعد

حديث طويل فى جو [illegible] [illegible]، قال هتلر لجورنج «يجب أن تمد الفيلق الإفريقى بكل ما يحتاج إليه رومل من عتاد ورجال!» وقال له جورنج:

«تستطيع أن تشيدّ القصور على كتفى هاتين. وسأتولى ذلك بنفسى!».

ورأى جورنج، أو مارشال الرايخ، أن يثبت لرومل أنه رجل أعمال لا أقوال، وأنه منجز ما وعد به دون أى إهمال وإمهال، فدعاه وزوجته إلى محطة ميونخ، ليستقلوا منها قطاره الخاص إلى روما، وهناك يعد لرومل كل ما يريد!

وتروى زوجة رومل قصة هذه السفرة فتقول: «حينما التقينا فى محطة ميونخ كان جورنج يرتدى بذلة رمادية لها «قلاّبات» من الحرير الأخضر. وكان رباط عنقه يمسكه دبوس من الزمرد. وكذلك كان غطاء ساعته مطعماً بالزمرد. على أن ما أثار دهشتى ودهشة رومل حقا، أن جورنج كان يتحلى بخاتم من قطعة كبيرة من الماس، وقد أخذ يرينى خاتمه هذا مزهوا به منذ اللحظة الأولى لتلاقينا، فقال عنه إنه من أغلى الأحجار الكريمة فى العالم. وأفظع من هذا أن أظافر جورنج كانت مجلوة ملتمعة على نحو ما تفعل النساء»!

وكان مما قاله جورنج لرومل وزوجته خلال السفر: «انهم يسموننى مايسمونيش، تشبيهاً لى بذلك المستشار القانون القديم، والحق أنى كذلك بالنسبة للرايخ الثالث!» ثم راح يصف لهما ما يقتنيه من التحف الثمينة، ومن بينها تمال لافروديت أهداه إليه بالبو.

ولم يذكر جورنج شمال إفريقيا طوال الطريق بخير ولا بشر، وكان يقاوم كل محاولة يبذلها رومل ليغير مجرى الحديث عن التحف والتماثيل والحلى، إلى الإمدادات. ولم يكن فيما عرض له جورنج ما يتصل بالحرب أو الجيش اللهم إلا «صليب الطيران» الذى عرضه على رومل وزوجته مفاخراً بمنحه إياه. وكان هذا الصليب هو الآخرَ مزداناً بالماس!

ولما بلغوا روما بقى جورنج مشغولاً كل الوقت بالتفرج على التماثيل

واللوحات، وبقى حديثه كله مقصوراً على التفكير فى هذه «التحف» وعلى أمانيه فى أن يملأ بها قطاره الخاص ويضيف روميل إلى ذلك قوله «ولم يحاول جورنج قط أن يقوم بأى شىء من أجلى!».

ولقد لاحظ جورنج أن روميل فى حالة غير عادية. فقال لزوجته «إن روميل يبدو عليه اليأس!» فقالت له حقاً إنه ليس على سجيته، ولكنه عادة متفائل جداً، وإن كان ينظر إلى الأمور من الناحية الواقعية! فرد عليها جورنج قائلاً: «يبدو أنه لا يفهم الموقف كله كما أفهمه، وعلى كل حال سنعنى به، وسنعمل كل شىء من أجله!».

ثم مضى جورنج يزهو بنفسه، وبما حقق فى ماضيه وحاضره ومستقبله، وهكذا ظهر جورنج أمام زوجة روميل بمظهر لم يدع لديها شكاً فى إصابته بجنون العظمة.

وإذا نحن استبعدنا عناية جورنج باللوحات الفنية الى حد ما، لم نجد ثمة ما استحق عنايته خارج نطاق الأعمال العسكرية، غير السكك الحديدية، ولعل هذا يفسر لنا، لماذا عنى بأن يصور جورنج مرتدياً ملابس زى أحد حراس السكك الحديدية ومعه علم أخضر، وقد انتشرت فى روما قصة تقول إنه ذهب إلى إحدى الحفلات التى أقيمت فى روما وهو يرتدى الزى الرومانى القديم!

ولقد صبر روميل على جورنج ثلاثة أيام أخرى. ثم قال له: «إننى لا أفعل شيئاً ها هنا، اللهم إلا فقدان أعصابى، وخير لى أن أعود إلى الفيلق الإفريقى!».

وفى اليوم الرابع طار روميل إلى إفريقيا، وهو معتقد كل الاعتقاد أن جورنج مجنون، وأن هتلر ليس أحسن حالاً من جورنج!.

وكانت هذه هى المرة الثانية التى انكشف فيها الغطاء عن عينىّ روميل، فرأى حقيقة ذلك الوهم الذى كان غارقاً إلى ذقنه فيه!

■ ■ ■

الفصل الرابع والعشرون

انتصار جديد يحرزه رومل

معركة علم الحلفا- يقود جنوده وهو مريض
استسلام الفيلق الإفريقى

إذا كانت طرابلس قد سقطت فى أيدى البريطانيين رغم إرادة هتلر، ورغم ما أصدره للاحتفاظ بها من أوامر وتعليمات، فليس معنى هذا أن قيادة رومل لقوات المحور فى شمال إفريقيا قد انتهت، وكل ما هناك أن لقبه العسكرى أبدل به لقباً آخر جديداً. ومن الطريف أن اللقب العسكرى لرومل تغير ثلاث مرات ابان سنة ١٩٤٢. فحتى الواحد والعشرين من شهر كانون الثانى من تلك السنة كان رومل يحمل لقب «قائد الجحفل الإفريقى المدرع».

ثم أصبح لقبه بعد ذلك «القائد الأعلى للقوات المدرعة فى إفريقيا». وظل كذلك حتى الرابع والعشرين من شهر تشرين أول، حين عاد إلى العلمين بعد موت اشتومة، يحمل لقب «القائد العام للجيش الألمانى الإيطالى المدرع!».

وفى الثانى والعشرين من شهر شباط تألف جيش إفريقيا، وعين رومل قائداً له. وكان هذا الجيش يتألف من الفرقة الخامسة المدرعة بقيادة الجنرال فون أرنيم، وقوامها القوات الجديدة التى أرسلت إلى تونس، ومن الجيش الإيطالى الأول بقيادة الجنرال ميسه، وكان هذا الجيش يشتمل على الفيلقين الإيطاليين العشرين، والواحد والعشرين، وعلى الفيلق الإفريقى الذى سحب أخيراً من ليبيا، أى أن الجيش الإيطالى الأول، لم يكن فى الحقيقة إلا

الجيش الألمانى الإيطالى المدرع!

وهكذا رأينا رومل بدلاً من أن «يلصق ظهره بالحائط وتطلق عليه النار» كما هدده هتلر، قد رقى، وأسندت إليه قيادة قوات المحور فى تونس، حيث كانت قيادة الألمانية العليا تعتقد أن فى إمكانه تعطيل عدد كبير من قوات الحلفاء، عن طريق الاحتفاظ برأس جسر حول تونس وبيزرته، كما حدث فى سالونيك فى الحرب العظمى الأولى.

ومما يبعث على الدهشة حقاً، أن تسند إلى رومل قيادة الأعمال العسكرية الخاصة بتنفيذ هذه الخطة، فى حين أنه كان آخر من يؤمن بصحتها أو فائدتها.

ومما يبعث على الدهشة من ذلك، أن رومل قبل أن يعلن رسمياً نبأ تعيينه فى منصبه الجديد، أبى إلا أن يقوم على عادته بحركة خاطفة، فانسحب من طرابلس إلى خط مريت. وكان الفرنسيون قد حصّنوا استحكامات هذا الخط، وجعلوا منه خط ماجينو آخر فى إفريقيا، ليحول دون أى تقدم إيطالى من ليبيا. وكانوا يعتقدون أن اختراقه يستحيل على أية قوة تهاجمه من الأمام، كما أن الالتفاف حوله يعد كذلك فى حكم المستحيل، لأنه يقتضى القيام بحركة تمتد إلى حوالى ١٥٠ ميلا!.

وقد أدرك رومل بحق أن الجنرال مونتجمرى ليس لديه وقت للتفكير فى هذا الموقف يضاف إلى ذلك أن رومل لم يكن قد فقد روح الهجوم، وأنه بطبعه- لم يكن يميل إلى الإخلاد والسكون والانتظار حتى يهاجمه الأعداء، وهكذا رأى أن يقوم بتلك الحركة الهجومية الخاطفة الجريئة ولم يكن من الضرورى لرومل أن يجابه الجيش الثامن، فقد كان إلى جانبه الجيش الأول الحليف الذى لابد أن يهاجم رومل من المؤخرة عندما ينحدر إلى الأخدود الذى يفصل بينه وبين مونتجمرى.

واختار رومل أضعف النقط ليوجه إليها هجومه. وهناك فى القطاع الجنوبى من جبهة الجيش الأول، عبر وادى فيض بين جفصه وفندق، كان يرابط الفيلق الأمريكى الثانى أمام ممر قصرين، وكانت المراكز الدفاعية قد أعدت إعداداً سريعاً، وقد تناثرت الفرقة الأمريكية المدرّعة الأولى وراء الجبهة، ونصفها إلى الشمال تجاه فندق، حيث أكد قلم المخابرات أن أى هجوم يشن فى هذه المنطقة سيكون مآله الفشل.

على أن تلك القوات الأمريكية كانت حديثة عهد بالحرب، ولم تجرب القتال من قبل، ولم تكن لقيادتها ادنى خبرة بوسائل الحرب الحديثة!

وهكذا عرف رومل كيف يتخير فريسته، أو كيف يضرب ضربته! ولقد سحب رومل الفرقة الحادية والعشرين المدرّعة، تلك الفرقة الوفية التى طالما تبعته فى كل هجوم قام به، ثم أعاد تسليحها بالدبابات، بفوج مستقل جديد ارسله لتعزيز مراكزه فى تونس. ثم هاجم بها الفرقة الأمريكية المدرّعة فى الرابع عشر من شهر شباط، بمائة دبابة تشد أزرها طائرات أشتوكا، وسرعان ما اقتحم المراكز الأمامية، وتداعت أمامه استحكامات ممر قصرين التى شيّدت على جناح السرعة. وزاد فى اضطراب المدافعين أنهم كانوا خليطاً من الجنود البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين، فلم تكن ثمة أية خطة متناسقة للدفاع، فضلاً عن اضطراب قيادتهم!

وأفلح رومل فى دق إسفين كبير فى خطوط الحلفاء. كما تمكن من أن يطهّر المراكز التى أمامه ويفتح جبهة واسعة، فلم يبق أمامه إلى الشمال إلا بعض عقبات طبيعية ضئيلة، وأصبح فى استطاعته أن يقوم بمثل المحاولة التى قام بها حينما كان فى مركز الغزالة!

كان هذا هو الموقف حينما تولى القيادة الجنرال الكسندر. وقد كتب فى ذلك يقول: «لقد أصبح من الواضح لى تماماً أن رومل لديه أفكار وخطط أوسع نطاقاً ومدى من تأمين ميمنة مؤخرته بتحطيم الفيلق الثانى، وبذلك

يتهيأ لملاقاة الجيش الثامن.

وإنى لأعلم من تجاربى السابقة أن رومل لا يحجم عن محاولة النجاح بكل الوسائل الممكنة، وأن محاولاته الجريئة قد تبلغ حد التهور، وبخاصة بعد أن لاحت أمامه مخايل نصر تكتيكى!».

وفى العشرين من شهر شباط بدت الأمور قاتمة أمام الجنرال السكندر، حتى أنه أبرق إلى الجنرال مونتجمرى طالباً إليه «أن يقوم بأى شىء يحدث تحولاً فى الموقف». فوافق مونتجمرى على ذلك ووعد بأن يجيب الجنرال الكسندر إلى طلبه فوراً. ثم أضاف إلى ذلك قوله: «ولن يمضى وقت طويل حتى نجعل رومل يجرى بيننا كالدجاجة التى ابتل ريشها!».

ولقد ادرك الجنرال الكسندر بفضل براعته فى القيادة أن رومل سيتجه شمالاً، حيث تتراءى أمامه أشباح النصر. فتمكن الحلفاء بذلك من صد اندفاعه إلى الشمال بعد ذلك بيومين، واضطروه إلى الانسحاب، مخلفاً وراءه تسع دبابات، وكثيراً من الألغام التى تعوق تعقبنا له!.

وقد اعترف الجنرال الكسندر فى رسالة بأن «معركة قصرين لم تخل من لحظات شديدة الحرج. وذلك لأن رومل يستغل دائماً- وإلى أقصى حد مستطاع- كل فرصة تسنح له، كما فعل خلال تقدمه إلى العلمين، ولأنه كثيراً ما يرمى بنفسه فى وضع أسوأ من أى وضع سابق، توصلا إلى إحراز نصر كبير، ولئن جاءت النتيجة كارثة بالنسبة له، فإن أحداً لا يمكن أن يلومه، لأن النصر، لم يكن مستحيلاً عليه!.

معركة علم الحلفا

وليس أدل على أن رومل خلال انسحابه الطويل لم يفقد أعصابه، ولم يغير عاداته فى القتال، من تلك الحادثة التى وقعت فى ذلك الحين ورواها الدكتور ليفلر- أحد القناصل الألمان- فى محاكمة نورمبرج، وكان يعمل فى

سلاح الدبابات بالجيش الألمانى فى تونس، قال:

«كان رومل يستقل سيارة القيادة تحت وابل من نيران مدفعية العدو. وحدث أن كان قائد إحدى كتائب الدبابات، واقفاً بدبابته عند مدخل إحدى القرى، وقد جلس فى داخلها مطبقاً غطاءها عليه. فمضى رومل إليه، وطرق غطاء الدبابة سائلاً: «ماذا تصنع هنا أيها القائد؟». وفتح هذا غطاء الدبابة، ثم أجاب بقوله: «من المستحيل أن أتقدم!». ثم سرعان ما أطبق غطاء الدبابة كما كان، لأن نيران المدافع البريطانية التى انطلقت من حولهما تكفلت ببقية الجواب. ومضت عشر دقائق، لم يخالج قائد كتيبة الدبابات خلالها أدنى شك فى أن رومل قد مات. وشد ما كانت دهشته حين سمع طرقاً جديداً على غطاء الدبابة. وكان الطارق هو رومل نفسه، وقد عاد إليه بعد أن مضى بسيارته متفقداً أطراف القرية، ليقول له فى هدوء:

«إنك على حق فيما ذهبت إليه. فهناك أربعة مدافع مضادة للدبابات عند الطرف الآخر للشارع. ولكن عليك فى المرة الثانية أن تحصل بنفسك على هذه المعلومات!».

ولم تكن هذه المعركة هى الأخيرة لرومل فى إفريقيا، فقد تلتها معركة مدنين التى وقعت فى الخامس من شهر آذار ولاشك فى أن حركات رومل جاءت متأخرة عن حركة مونتجمرى. فعندما قامت الفرقتان المدرعتان الخامسة عشرة، والحادية والعشرون، بهجومهما العنيف، كانت تنتظرهما من جانب الحلفاء قوات قاسية الضربات، وهكذا تكررت مأساة معركة علم الحلفا، فدارت الدائرة على رومل، بعد أن كان قوى الأمل فى الانتصار!

ويقول الفريق دى جونجان رئيس هيئة أركان حرب الجيش الثامن: إن القتال كان سجالاً بين الفريقين. فالمشاة الأقوياء يتشبثون بمراكزهم ضد المشاة الأقوياء، وضد هجمات الدبابات، ولا عاصم لهم من أسلاك شائكة أو ألغام. وكانت مدافعنا المضادة للدبابات تركز نيرانها على دبابات العدو بدلاً

من أن تحمى المشاة، وبذلك أخفق رومل فى اختراق مراكزنا، واضطر إلى الانسحاب مخلفاً وراءه اثنين وخمسين دبابة من المائة والأربعين دبابة التى شن بها هجومه، فى حين لم نفقد نحن دبابة واحدة. ولم تزد خسائرنا فى الأرواح على ١٣٠ رجلاً من جميع الرتب بين قتيل وجريح، وكانت معركة دفاعية من الطراز الأول».

يقود جنوده وهو مريض!

ومما ذكره الجنرال دى جونجان رئيس هيئة أركان حرب الجيش الثامن: أن الأسرى يقولون إن رومل راح يتنقل بين الجنود ليلهبهم حماسة، ويؤكد لهم أهمية هذه المعركة، ولكنه كان فى ذلك الحين رجلاً مريضاً، تحيط الضمادات بعنقه، وانتشرت فى وجهه القروح الصحراوية!.

ونقل الجنرال الكسندر- نقلاً عن شاهد عيان- أنه رأى رومل يخطب فى جماعة من الجنود وقفوا حوله فقال لهم: «إننا، ما لم نكسب هذه المعركة فستذهب سدى كل آمالنا فى إفريقيا!».

وبعد ذلك بأسبوع سافر رومل إلى ألمانيا. وهناك تفسيرات عدة متغايرة لهذا السفر المفاجئ قبل معركة خط مريت. ولعل أبعد التفسيرات عن التصديق، ما قاله الجنرال أيزنهاور من أن روملى قد أفلت حتى لا يشهد الكارثة النهائية، بعد أن تنبأ «رومل بوقوعها، ورأى من الخير له وهو المريض أن يهرب بجلده». ولاشك فى أن رومل تنبأ بما لابد من وقوعه. ولكن إنساناً ممن تتبعوا سيرة رومل حتى تلك اللحظة من حياته، لا يرى أن رومل يمكن أن يحاول الهرب على تلك الصورة.

ويقال إن الإيطاليين طلبوا إلى رومل الانسحاب، ولكن ليس ثمة دليل واضح على ذلك. ومن التفسيرات التى يمكن السكوت عليها أن رومل ساءت صحته، واحتاج إلى علاج آخر.

أما أن هتلر استدعاه خوفاً من أن يقع فى الأسر، فيؤثر ذلك على الروح المعنوية للشعب الألمانى، فهذا التفسير بعيد الاحتمال، وذلك لأن هتلر لم يكن قد أيقن بعد بأنه قد خسر تونس. ولم يحدث، قبل الثامن من شهر آيار أن أصدرت القيادة الألمانية العليا أمرها بالتخلى عن إفريقيا، أو بأن القوات الألمانية والإيطالية يجب أن تنسحب عن طريق البحر. وفى ذلك الحين، لم يكن من الممكن أن ينفذ أمر هتلر، شأن كثير من أوامره، ولقد حدث الاستسلام بعد ذلك بأربعة أيام!.

أما التفسير الذى أدلى به رومل لأسرته، فهو أنه طار إلى ألمانيا بمحض اختياره، ودون أن يصدر إليه أى أمر بذلك، وكان يهدف من وراء سفره المفاجئ إلى أن يعاود التوسل إلى هتلر ليأذن فى إنقاذ الجنود الألمان على حساب العتاد العسكرى. ولقد رفض هتلر مرة أخرى مطلب رومل، واتهمه بأنه من دعاة الهزيمة الجبناء.

ولما اقترح رومل أن يعود إلى إفريقيا ليتباحث فى الموقف هنالك، رفض هتلر مطلبه أيضاً. ولست أرى ما يجعلنى أرتاب فى هذا التفسير.

غير أن الفيلق الإفريقى لم ينس رومل لحظة من ليل أو نهار. فلقد حاربت فرقه القديمة فى عناد وإصرار كما لو كانت تحارب قيادته، وما كانت ذكرى رومل بالتى تنسى أو تتلاشى حتى من رؤوس خصومه، فلطالما ذكر الجنرال دى جونجان فى كتابه «عملية النصر» أنه ترك إفريقيا قبل معركة خط مريت. ولكنه رغم ذلك بقى، على غير شعور منه، يذكر جنود رومل!.

وبعد أن سقطت تونس، دعى رومل إلى «عرين الذئب» أو مقر قيادة هتلر فى راستنبورج فى بروسيا الشرقية. وكان هتلر بادى اليأس، غير أن أعصابه لم تكن ثائرة. وقال لرومل: «كان ينبغى أن أنصت إليك من قبل أما الآن فقد ضاعت إفريقيا». وأخذ رومل يشرح الموقف العام للقوات الألمانية ثم سأل هتلر فجأة «هل تظن أننا نستطيع أن نحرز النصر التام الذى كنا نهدف

إليه؟». فأجابه هتلر قائلاً: «لا».

وعاد رومل فسأل هتلر: «هل تدرك تماماً ما وراء الهزيمة؟». فقال هتلر: «إنه لابد من أن تكون هناك شروط للصلح من أى جانب، ولكننى لا أتقدم بطلب شروط الصلح!».

وعندما كان رومل يروى لزوجه وولده نتائج هذه المقابلة، حرص على أن يقول: «إن هتلر هو لويس الرابع عشر فى العصر الحديث، فهو غير قادر على أن يميز بين رغباته الشخصية، ورغبات الشعب الألمانى، ولهذا لم يخطر بباله قط أن ينزل عن الحكم إذا كان الحكم عقبة فى سبيل السلام!» ثم أضاف رومل إلى ذلك قوله: «عندما يكون هتلر يائساً تماماً، فإنه يمكن التفاهم معه».

ولقد تحقق رومل من أن الكراهية والحقد، هما لب لباب شخصية هتلر. ومن هنا كان إذا كره إنساناً لا يستطيع أن يضبط أعصابه أو يتحكم فى إرادته، فكل ما يشتهيه هتلر هو أن يكون قاتلاً».

انتهاء معركة إفريقيا

ولقد ذكر الجنرال الكسندر أن الفرقتين: الخامسة عشرة المدرعة، والتسعين الخفيفة، كانتا تقومان بأحسن قتال اشتركتا فيه خلال هذه الحرب فى وادى «العكاريت»، وقد تمكنتا من الإفلات مؤقتاً من كارثة كادت تحل بهما، ولكن لم تتيسر لهما الحيلولة دون اتصال الجيشين الأول والثامن. وفى التاسع والعشرين من الشهر ذاته أظهرت هاتان الفرقتان والفرقة الحادية والعشرون المدرّعة، روحاً عالية فى القتال رغم الخسائر الفادحة التى الحقت بها. وفى الثلاثين منه كان على الجيش الأول أن تشد أزره أحسن تشكيلات الجيش الثامن، ولقد اختار الجنرال مونتجمرى الفرقتين: السابعة المدرعة، والرابعة الهندية، اللتين أحرزتا أول نصر فى إفريقيا بقيادة الجنرال ويفل،

وكان معهما اللواء رقم ٢٠١.

وفى السابع من آيار دخل «جرذان الصحراء» تونس. وفى الثانى منه استسلم الجنرال جراف فون اشبونك بفرقته التسعين الخفيفة لأقدم أعدائه أى الجنرال فرايبرغ، وللجنود النيوزيلنديين. أما البقية الباقية من الفيلق الإفريقى، فقد وقعت فى الأسر وحدها دون قائدها.

وبذلك تكون حرب الصحراء الغربية قد انتهت.

نعود الآن إلى آراء كبار قادة الجيش الألمانى فى معركة إفريقيا فنقول إن المارشال كيتل صرح وهو على فراش الموت: بأن أعظم الأحداث التى مرت بنا قد وقعت فى العلمين. ويمكننى أن أقول إننا فى ذروة الحرب كنا على قاب قوسين أو أدنى من النصر الحاسم، منه قبل أى وقت آخر أو بعده. فما كان علينا سوى خطوات حتى نفتح الإسكندرية، ونندفع إلى الأمام نحو قناة السويس ففلسطين.

أما الجنرال هالدر فقد ظل غير آسف لما حدث. ففى كتابه الركيك العبارة الكثير المبالغة والذى اسماه «أمير الحرب هتلر»، حاول أن يلقى تبعة هزيمة ألمانيا كلها على عاتق هتلر، وأن يجرد من التبعة، القيادة العليا، التى كانت ترى أن ضرب انجلترا فى شمالى إفريقيا أمر مستحيل، ذلك لأن سيطرة انجلترا على خطوط التموين عبر البحر الأبيض المتوسط لا يمكن انتزاعها منها، ولأن الغواصات الألمانية لا تبلغ تلك المناطق إلا بعد أن تخسر النصف من موجوداتها، فى حين أن الواقع هو أن الألمان فقدوا غواصتين من مجموعة ستين غواصة.وكذلك يقول هالدر إن باستطاعة بريطانيا أن تحصل على كل شىء تريده عن طريق البحر الأحمر، وفاته أن يدرك أن السفن البريطانية لم تستطع المرور من قناة السويس، إنما كانت تمر بطريق رأس الرجاء الصالح.

ويضيف هالدر إلا أن حرب إفريقيا كانت منذ البداية مسألة وقت فحسب» والحقيقة أنه كان من حسن حظ الإنجليز أن تضم القيادة العليا الألمانية رجالاً من أمثال هالدر!!.

■ ■ ■

الفصل الخامس والعشرون

هتلر يتوقع استسلام الإيطاليين

روميل يقود جيشاً فى إيطاليا

حائط الأطلنطى من ورق

بين روميل وورنشتدت

وفى صيف سنة ١٩٤٣ كان روميل فى مركز يحسده عليه كل القواد الألمان فى مختلف جبهات القتال، وخاصة قواد الألمان فى روسيا. ذلك أنه كان على رأس جيش ألمانى فى شمال إيطاليا، وكان مقر قيادته العليا على ضفاف بحيرة جاردا..!

وكان بعد عودته من شمال إفريقيا، قد دخل المستشفى فى استمرنج من جديد، ولبث فيه بضعة أسابيع، ثم عيّن بعد ذلك «مستشاراً عسكرياً» فى هيئة أركان حرب هتلر، ولكن هتلر لم يكن يستشير روميل فى أى شىء!.

وأخيراً اضطر هتلر إلى أن يرسل روميل إلى اليونان، على إثر الإشاعة التى راجت عن اعتزام تشرشل غزو أوروبا من طريق البلقان. على أنه لم تمض على وجود روميل فى اثينا ٢٤ ساعة، حتى عاد هتلر فاستقدمه بالتليفون، وكان ذلك حينما علم بسقوط موسولينى فى الخامس والعشرين من شهر تموز.

وكان هتلر يرتاب فى نوايا الإيطاليين ويرى أنهم على وشك أن

يستسلموا أو أن ينضموا إلى الحلفاء ضده.

وقد أثبتت الأيام صحة رأى هتلر فى الإيطاليين، وتجلى ذلك حين ذهب رومل والمارشال بودل، إلى مقر قيادة بادوليو ليتباحثا معه فى شأن إرسال قوات ألمانية أخرى إلى إيطاليا، فقد راح الجنرال رواتا- رئيس هيئة أركان حرب بادوليو- يبذل كل ما فى وسعه ليحول دون إرسال تلك القوات، بحجة أن وجودها يثير الشعب الإيطالى. كما أنه احتج على وضع حارس على بيته من جنود فرقة الدفاع «S.S»، وتساءل مستنكراً: «أى حق لبودل فى أن يأتى بجنود سياسيين إلى إيطاليا؟ وهل يقبل بودل أن يكون حراسه هو شرذمة من اليهود الذين يحتقرونه؟!».

وأصر بودل على إبقاء جندى فرقة الدفاع يحرس رواتا، وحينما سمع بأنه وروميل معرضان لأن يدس لهما السم فى طعامهما، لم يعر ذلك أى اهتمام!

روميل فى شمال إيطاليا

وكان الجيش الألمانى الذى يقوده رومل. موجوداً حول ميونخ حيث يقوم ببعض التدريبات، فرأى أن من الحكمة أن يعجل بتحرك هذا الجيش إلى إيطاليا. وكان مزوداً بدبابات النمر وقد أتيح لى أن أشاهدها يوم ٩ أيلول وهى تتحرك على طول شارع ريفير جارو، فى طريقها إلى احتلال بياتشنزا.

وتناهت إلينا ونحن فى معسكرات الاعتقال، أنباء استسلام الإيطاليين بلا قيد ولا شرط.

ولقد قررت أن أحتفل بذلك الحادث، فأسرعت بارتداء بدلة جيدة مصنوعة من قماش «الباكا»، ووضعت على رأسى قبعة قش كبيرة، وما لبثت أن قمت باستطلاع للموقف، وكنت فى ملبسى هذا لا أفرق قيد أنملة عن أى فلاح إيطالى. ولشدة سرورى عندما استطعت أن أميل بجسمى على جدار الحديقة، وأن أنعش نفسى بتقبل أشعة الشمس، وتذوق طعم الحرية بعد ستة

عشر شهراً قضيتها فى الأسر:

على أن ظهور الدبابات الألمانية فى بلدان إيطاليا، لم يكن يرحب به. فقد كانت تلك الدبابات تخترق شوارع المدينة، فتثير عاصفة من الكراهية لدى الإيطاليين.

أما الشىء الذى أثار حنقى، فهو ظهور رجلين من فرقة الدفاع الألمانية، وهما يحملان رشاشات «تومى» فى الحديقة وعلى قيد بضع خطوات منى. فلم أشأ والحالة هذه إلا أن أنساب بسرعة فائقة تحت أشجار الكروم، فأختفى بينها، ومن هناك اجتزت الحقل وعدت قافلاً إلى معسكر الاعتقال لأروى لأصدقائى ما شهدته.

ولقد علمت فيما بعد، أن كل من رآنى- عدا رجال ألاس أس لحسن الحظ- قد دهش من مغامرتى، واحتار فيما كنت أريد أن أفعله وأنا أرتدى مثل تلك البدلة.

ولقد علمنا ونحن فى معسكر الاعتقال، ما لم يعلمه أفراد دائرتنا السرية، لقد علمنا قبلهم أن الألمان كانوا يتوقعون استسلام إيطاليا. ذلك أن أحد حراس فرقتنا قد أنبأنا قبل استسلام إيطاليا بأسبوعين على أقل تقدير، أن الفرق الألمانية تتدفق على إيطاليا عبر ممر برنر، ولم نكن نتوقع أن يكون رد الفعل لدى الشعب الإيطالى كبيراً وبمثل تلك السرعة.

والحق يقال إن البعض منا كان يأمل أن يغادر معسكر الاعتقال فى الحال، فيأخذ القطار من بياتشنزا ذلك المساء، إلى روما فجنوبى إيطاليا.

ولما كان معظمنا قد أُسر فى شمالى إفريقيا، وإذ علمنا أن رومل هو الذى يقود الحملة الألمانية فى إيطاليا، فقد تخلينا عن الإسراف فى التفاؤل والآمال التى عقدناها على استسلام الإيطاليين. لقد كنا نحن الأسرى الإنجليز، والبالغ عددنا خمسين ألفاً، نعيش فى معسكر الاعتقال فى معزل

عن العالم، ولم تصلنا أى أوامر أو معلومات عن الهدنة مع إيطاليا. وكانت نتيجة ذلك أن ظل معظمنا يتمسك بالأوامر التى صدرت إليه منذ ستة أشهر بالمكوث» حيث تم نقلهم فيما بعد إلى ألمانيا. وقد استمرت مفاوضات الاستسلام مع المارشال بادليو، من شهر تموز حتى شهر ايلول، واذ ذاك اطلعنا على أطراف من الوضع المحيط بالألمان والحلفاء على السواء.

وقد سار رومل فى حركاته بشمالى إيطاليا، على نفس الخطة التى سبق له أن استعلمها فى شمالى إفريقيا، ذلك أنه وجه اهتمامه قبل كل شىء إلى البترول والزيت فالماء فالطعام، وأخيراً الأسرى الذين اعتاد أن يقول عنهم «إننا سنلتقطهم مؤخراً!».

ولقد شدد الألمان قبضتهم على شمالى إيطاليا، فأبدوا اهتماماً كبيراً بسلب حلفائهم الإيطاليين، كل ما لديهم من طعام وآلات، وبعثوا بالشباب الإيطالى وبوفرة هائلة، إلى ألمانيا للعمل الإجبارى.

وكان أبغض شىء إلى رومل، تعيينه فى هذا المنصب الذى تغمره الراحة والسكون، فضلاً عن بغضه العودة إلى العمل تحت إمرة المارشال كسلرنج، فكانت امنيته الكبرى أن يتولى قيادة إحدى الفرق المحاربة، ولم يكن قضاء الصيف فى البحيرات الإيطالية ليتفق وآراءه عن الحرب.

وفى الفترة التى أعقبت استسلام الإيطاليين، عانى رومل كثيراً من مضايقات جنود فرقة الدفاع، ومضايقات قائدهم سب ديتريش!

وبلغ الأمر مداه حين ترامت الشائعات مهولة فيما يقوم به جنود فرقة الدفاع من أعمال النهب والسلب، وما إليها من الأمور الشائنة، فى ميلان وغيرها من مدن شمال إيطاليا، وحينئذ لم يجد رومل بدا من أن يتدخل لحسم هذه الأمور، ووقفها عند حد، فأرسل إلى الجهات المختصة بياناً بأسماء طائفة من ضباط تلك الفرقة، طالباً معاقبتهم فلما رأى أن ذلك لم

يجد نفعاً، اضطر إلى أن يصدر هو نفسه أمراً يقضى باخراج كل من كانوا فى ميلان من ضباط تلكم الفرقة وجنودها!.

وكان طبيعياً أن يغضب هملر، المشرف الأول والأخير على تلك الفرقة، وقد حدث أن سأل هملر بعد ذلك رومل: كيف تسير الأمور فى ميلان؟ فأجاب رومل بقوله: «لاشك فى أنها الآن أحسن كثيراً مما كانت عليه، وجنود فرقة الدفاع يعيثون فيها الفساد!».

حائط الأطلنطى من ورق؟

وفى بداية شهر تشرين الثانى، عهدت إلى المارشال رومل مهمة جديدة، فقد اسند إليه الفوهرر مهمة القيام بتفقد الاستحكامات الساحلية فى الغرب، والممتدة من مضيق سكاجراك فى الشمال حتى الحدود الإسبانية. وكان لابد لرومل من الاستعانة ببعض الخبراء البحريين، وقد نصحه الجنرال جاسى الذى كان رئيس أركان حرب رومل فى إفريقيا إلى أن جرح فى الواحد والثلاثين من آيار ١٩٤٢، نقول نصحه جاسى بأن يصطحب معه الفيس أميرال «روجه»، الذى قاد فيما بعد القوات الألمانية البحرية فى إيطاليا، والذى كان يشرف قبل ذلك على أعمال كنس الألغام من البحار.

وقد اعتقل روجه بعد الحرب العالمية الأولى لاشتراكه فى إغراق الأسطول الألمانى فى مضيق «سكابافلو» ببريطانيا.

ولقد التقى جاسى بالأميرال روجه فعترف إليه، وأحبه ووافق رومل على اصطحاب روجه معه، بناء على توصية غاسى، لقد اختار فأحسن الاختيار. ولا يزال ألفيس أميرال روجه يعيش الآن فى كوكسهافن، ويقوم بتعليم الألمانية لضباط البحرية الإنجليزية.

وروجه هو المثل الأعلى للضابط البحرى، الذى تحتاج إليه البحرية البريطانية. فهو وليد الأسطول، وقد جمعت فيه كل الصفات التى يتطلبها

عمله من خبرة طويلة. وجلد وذكاء، وبراعة ممتازة. وقد اطمأن رومل إليه، فأصبح فى مدة قصيرة رفيقه المقرب إليه، والذى يضع كل اعتماده عليه.

ولقد شعر الأميرال روجه، من ناحيته، بالميل الشديد إلى رومل منذ لقائهما الأول، حتى بعد أن عاد رومل وعلى غير انتظار إلى مقر قيادته وهو يرتدى سترته القديمة ويضع شالاً حول رقبته. لقد سألت روجه عن رومل فى عمله الجديد فساعدتنى إجابته على سؤالى ذاك، فى استجلاء شخصية رومل وتفسير غوامضها، لكثير من القراء الإنجليز. لقد كان جواب روجه هو: أن رومل من ذلك الطراز الذى يلتقى المرء به فى الخدمة البحرية أكثر من أية خدمات أخرى!».

وقد يكون سبب تفهمى لشخصية هذا الجنرال الألمانى غير الاعتيادى، أن والدى كان بحاراً، واننى نفسى قد أنفقت الشطر الأول من حياتى فى البحار.

إن الميزات التى أبرزها المارشال رومل فى الصحراء وفى أى مكان آخر، ليست غريبة عن البحارة، فالجنود بدورهم يستطيعون أن يكونوا ذوى عزم وشجاعة، وتحمل للمصاعب والمتاعب. وأن باستطاعة هؤلاء أن يصبحوا ذوى عقول نيّرة وآراء صائبة، دون أن يقرأوا الكثير من الكتب أو يعنوا بالفنون.

وبعبارة مختصرة أقول إن كلا من رومل وروجه. يتمم أحدهما الآخر. فكلاهما عنود لا يتزحزح قيد أنملة عن رأيه. ومع ذلك فإن كلا منهما يفهم الآخر فهماً تاماً.

وفى العاشر من شهر تشرين الثانى أرسل روغه إلى برلين، ليقوم بجمع الخرائط والوثائق والمعلومات عن حائط الأطلنطى، غير أن هذه الأوراق والخرائط التى جمعها ما لبثت، أن ضاعت أثناء وقوع غارة جوية.

ولم يستطع رومل وروجه بدء رحلتهما إلا فى كانون أول، حين سافرا

إلى الدانمارك!.

وقد استغرقت رحلتهما التفتيشية للساحل الدانمركى عشرة أيام، ثم نقل رومل مقر قيادته إلى فونتنبلو، وشرع فى تفقد الساحل الفرنسى، وشد ما كانت قاسية، هى الصدمة التى فوجئ بها هناك وهو يتفقد الاستحكامات الساحلية، أو «حائط الأطلنطى العظيم»، الذى طالما طبلت له وطنطنت بمناعته الدعاية الألمانية، وظلت تغالى فى قيمته الدفاعية حتى صدّقها الحلفاء والألمان!.

لقد تبين رومل أن تلك الدعاية لم تكن سوى فرية متقنة هائلة، وأنه ليس ايسر على الحلفاء من أن يقتحموا تلك الاستحكامات التى كأنما هى من ورق!.

صحيح أن البحرية الألمانية نصبت بطارياتها لحماية الموانئ الرئيسية، وأن هذه البطاريات اتصلت بها إلى حد ما، بطاريات المدفعية الساحلية. ولكن الكثير من هذه المدافع الساحلية كانت ظاهرة فى العراء هدفاً طيباً لقنابل الأعداء.

وقد أوضح الاميرال روجه أن القيادة الألمانية لم تكن لتوافق على تركيز مدافعها فى مواضع مسلحة، وذلك بسبب تحديد ميادين المدفعية. فمنذ سنة ١٩٤٢ فيما بعد، أدى نقص الفولاذ فى ألمانيا إلى استحالة الحصول على أبراج المدافع.

أما بالنسبة للمواقع القوية على الساحل، فقد تركت فى العراء دون ابنية واقية مسلحة، وكانت مثل هذه المواقع تمتد بصفة خاصة بين نهرى «اورن» و«فير». وإذا وجدت مثل تلك الأبنية الواقية فانها غير مجدية. إذ لم تكن لتخفى أكثر من ستين سنتيمترا من رؤوس البطاريات، وفى الوقت ذاته لا تستطيع القيام بعمل ما ضد القصف الجوى المتوقع عليها.

ومن الغريب حقاً أن الاحتياطات الأولية تجوهلت تماماً، فلم تكن هناك

حول النقاط المهمة على الساحل، حقول كافية من الألغام، ولم يزد ما بثه الألمان منها خلال السنوات الثلاثة السابقة، على مليون وسبعمائة ألف لغم. وهو لا يساوى غير جزء ضئيل مما تركناه نحن بين السلوم والحلفايا، عند انسحابنا سنة ١٩٤١، كما أنه لم تكن هناك ألغام فى المياه الضحلة، وكانت الألغام التى وضعت بالقرب من الساحل غير كافية أيضاً. هذا إلى جانب أن العقبات التى وضعت على الخلجان ومداخل السواحل، كانت من الوهن بحيث لا تقوى على درء دبابة، بل كانت لا تحول حتى دون تقدم المشاة!

فالألمان إذن لم يقوموا بأية محاولة جادة لأن يجعلوا من الساحل الفرنسى حائطاً دفاعياً ضد أى غزو! فلم يحصّن الألمان تلك المواقع. إلا بعد غارة الكومندو البريطانى على مينائى سانت نازير ودييب.

ولقد عتب الأميرال روجه على الجنرال الذى كان منوطاً به الإشراف على سلاح المهندسين، لأنه لم ينهض بعبء واجبه، ولم يفكر فى حماية السواحل على نطاق واسع، ولا فى صنع شىء ما لتنسيق أعمال الجيش والبحرية. والحقيقة أن القيادة الألمانية العليا، هى الملومة أولاً على هذا الإهمال، لأنها تركت الحبل على الغارب للقادة الذين تشرف عليهم، ولم تسأل أحداً منهم عما فعل، فمضوا يقدرون الأمور كما يحلو لهم، وينفذون من الخطط ما يروق لهم أن ينفذوه!.

وهكذا يمكن القول بأن فرنسا فى ذلك الحين، كانت بمثابة ملجأ للقادة والمحاربين الألمان الذين أجهدهم النضال العنيف فى روسيا. فالحاميات الألمانية فى فرنسا حينذاك كانت تنقصها الكفاءة والقدرة، ولم يكن بين جنودها وضباطها من يصح الاعتماد عليهم، وذلك لانشغال الاكفاء بالعمل فى الميادين المهمة الأخرى، وانهماك الموجودين منهم فى ألمانيا، وفى إصلاح ما حطمته الغارات الجوية من خط سيجفريد!

تحت الثلوج والأمطار!

وبدأ رومل عمله لوضع الأمور فى نصابها، قبل عيد الميلاد، فراح يطوف بسيارته، ومعه أركان حربه، على القطاعات والاستحكامات المختلفة على الساحل، ويفحص كل شىء بنفسه فى دقة ونشاط، وحينما كان الشتاء يحول دون مواصلة التفتيش، كان يعقد الاجتماعات والمؤتمرات لمشاورة كبار الضباط.

ويقول الأميرال روجه: إن رومل كان يستيقظ فى ساعة مبكرة، وكان ينتقل بسرعة عجيبة، ويفطن إلى مواطن الضعف بسرعة أعجب. ويبدو لى أن رومل يمتاز بحاسة خاصة تهديه إلى السبق فى هذا المضمار. وإنى أضرب لذلك مثلاً إحدى الرحلات التى صحبته فيها. فقد كان الوقت شتاء بارداً، وقد وصلنا بشق النفس إلى بيبنيان فى ساعة متأخرة من الليل، فبدأ رومل تفتيشه الدقيق دون أن يستريح، وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى، كنا فى الطريق إلى بايون بالسيارة، قبل أن نفطر. فبلغناها فى الساعة الثانية بعد الظهر، عبر بحر من الجليد والأمطار والأوحال. ولبثنا فيها ساعة، أتم فيها رومل تفتيش كل شىء هناك، ثم أمر بمواصلة الرحلة إلى سان جان دى ليز على الحدود الإسبانية، دون أن نتناول طعام الغذاء، ففتش ما فيها من البطاريات.

وفى الساعة السابعة مساء، كنا فى بوردو، حيث تحدثنا مع الجنرال فون بلاسكوفيتس، ثم بدأنا بعد ساعة تناول طعام العشاء. وكان رومل يعتزم مواصلة الرحلة عقب العشاء مباشرة، ولم ينقذنا من ذلك إلا استغراق قائد سلاح المهندسين فى النوم العميق وهو جالس إلى المائدة!».

ولقد كان رومل ينقّض على الضباط المشرفين على البطاريات، كما تنقض ريح الشمال الثلجية على الأماكن الدافئة، بغيضة قاسية غير محببة إلى النفوس، وعندما انتقل مقر قيادته إلى روش جايون شمالى غربى باريس، لم يكن رومل ليشاهد فيه إلا قليلاً أثناء الليل. ذلك أن مقر القيادة كان يقوم

فى قلعة ضخمة قديمة فخمة ملأى بالتحف والآثار التاريخية، إنها قلعة «لاروشفوكو» ودوق روش جايون.

رومل وروندشتدت

على أن رومل لم يكن مطلق اليد بحيث يستطيع أن يفعل ما يريد، فلم يكن فى استطاعته- مثلاً- أن يصدر أوامر مباشرة إلى الجنود، بل كان عليه أن يعد مقترحات تعرض على الفيلد مارشال فون رونشتدت القائد العام للقوات الألمانية فى الغرب، أو تعرض على القيادة الألمانية العليا.

ومن عجب أن رومل وفون رونشتدت لم يختلفا كثيراً، كما كان متوقعاً.

والواقع أن رونشتدت، رغم أنه ضابط ارستقراطى وقور من المدرسة الألمانية القديمة، ورغم براعته الاستراتيجية الممتازة، فإنه لم يكن قاسياً جافاً كما يدل على ذلك مظهره، بل كان لطيف المعشر ذا روح مرحة، ولهذا لم يضايقه ما ضايق غيره، من طفرة رومل الذى لم يتدرب على الحرب الأوروبية، وقفزه فجأة إلى رتبة فيلد مارشال!

وقد صرح رونشتدت للنقيب ليدل هارت، وكان ذلك بعد موت رومل بوقت طويل، بقوله: «ليس لدى ما آخذه على رومل، لقد كان ينفذ فوراً كل ما أصدره إليه من تعليمات. وإذا لم يكن لدى رومل فى رأيى القدرة الكافية لأن يكون قائداً أعلى، فهذا لا يمنع قط أنه كان قائداً بارعاً، وشجاعاً إلى أقصى حدود الشجاعة!».

والثابت أن رونشتدت ما كاد يعين قائداً أعلى للقوات الألمانية فى الغرب سنة ١٩٤٢، حتى أدرك ما أدرك رومل بعد ذلك، من ضعف حائط الأطلنطى، وفقد الأمل فى دعمه ليكون عقبة ضد الغزو، أو ضد قوات الحلفاء إذا بدا لها النزول إلى الشاطىء.

ولم يتمكن رومل من أن تكون له قيادة مستقلة.. إلا فى بداية سنة ١٩٤٤. وفى نهاية كانون الثانى من تلك السنة، أصبح قائداً للجيوش الألمانية فيما بين هولندا واللوار، ومن بينها قوات الاحتلال فى هولندا، والجيش الخامس عشر المرابط فيما بين الحدود الهولندية ونهر السين، والجيش السابع المرابط بين السين واللوار.

وكان الجنرال بلاسكوفيتس قائداً للجيش الأول المرابط على خليج بسكاى والبرانس، والجيش التاسع عشر المشرف على ساحل البحر الأبيض. أما رونشتدت فكان قائداً أعلى لكل هذه القوات كما تقدم.

وسواء أكان رومل صاحب الاقتراح الخاص بهذا النظام، كما أكد ذلك الأميرال روجه، أم كان رونشتدت هو الذى اقترحه، فالثابت أن رونشتدت كان لا يرى فائدة من محاولة إصلاح «حائط الأطلنطى» السالف الذكر، ولكنه لا يعارض أن يقوم رومل على مسئوليته الخاصة بما يعّن له من هذا القبيل.

ولقد بذل رومل فى هذا السبيل جهوداً جبارة، ما كان أحد غيره يستطيع القيام بها فى مثل تلك الظروف الشديدة التعقيد.

على أنه- لحسن حظ الحلفاء- لم تتح له فرصة كافية لاستكمال تلك الجهود.

ويقول الأميرال روجه: «كان رومل يملك بعض النفوذ والتأثير الى حد ما، فيما يختص بالبحرية. أما فيما يختص بسلاح الطيران، فلم يكن له أى نفوذ أو تأثيرا».

ولم يتمكن رومل من أن يكتب إلى فون رونشتدت إلا فى أول تموز، أى بعد ابتداء الغزو بثلاثة أسابيع(١).

(١) يقصد المؤلف بذلك الغزو الذى قامت به القوات الأمريكية والبريطانية لأوروبا فى أوائل سنة ١٩٤٤، وهو ما عرف باسم فتح الجبهة الثانية فى أوروبا وكان نجاح هذا الغزو مقدمة لانهيار ألمانيا وانتصار الحلفاء.

وقد جاء فى كتابه ذاك قوله:

«بالنظر لما يتطلبه توحيد قيادة الجيش، وتركيز جميع القوات، فاننى اقترح أن أتولى أنا بنفسى قيادة المصالح الأخرى العاملة فى منطقة الجيش والمتعاونة معه».

ذلك أن التعاون الوثيق بين سلاح الجو والوحدات البحرية والقوى البرية الثقيلة، لا يمكن ضمانه إلا عن طريق أكثر القيادة شدة وضبطاً من مقر الجيش ذاته. أما ازدواج الأوامر فانه لا ينجم عن غير أنصاف الحلول!

لقد كان روميل مصيباً فى فكرته تلك، غير أن الاختلاف الناشئ بين المصالح ونظام الجيوش الخاصة التى تتبع كلاً من هملر وجورنج وإضرابهما، كانت من أعظم الأسباب التى أدت إلى هزيمة ألمانيا.

وفى الثانى والعشرين من نيسان عاد روميل فكتب إلى رونشتدت يقول:

«تدل رحلتى التفتيشية فى القطاعات الساحلية على أن تقدماً غير عادى قد حقق. على أنى لاحظت خلال الرحلة أن بعض الوحدات لا تدرك مدى خطورة الموقف الراهن، كما أن بعض هذه الوحدات لا تنفذ أوامرى، أو تهمل تنفيذها، فالأوامر التى أصدرتها باعداد الألغام على طول الساحل، لم ينفذ منها شىء، وفى بعض الحالات أصدر أحد القواد الصغار أمراً يبطل ما أصدرته من أوامر، وفى حالات أخرى أرجئ تنفيذ أوامرى بضعة أيام. وكثيراً ما تدرك بعض الوحدات أهمية أوامرى، ولكنها لا تقوم بتنفيذها، هذا فى الوقت الذى احرص فيه ألا أصدر أى أمر إلا إذا كانت هناك ضرورة ملحة لإصداره وتنفيذه».

وهكذا فقد روميل تلك الطاعة التى كان يجدها من الفيلق الإفريقى فى الصحراء، حيث كانت أوامره تجد سبيلها بسرعة إلى التنفيذ!

وصحيح أنه تعود قبل ذلك ألا يجد سنداً من رؤسائه، ولكنه لم يتعود إلا

تحمس مرؤوسيه لتنفيذ ما يصدره من الأوامر والتعليمات!.

ورغم أن هذا كله مما كان عوناً للوقت ضد رومل، فلم يكن هناك من هو خيراً منه فى إحياء الروح المعنوية وتقويتها بين الجنود المتعبين الذين أعياهم الإرهاق.

ويقول الأميرال روجه: «كان رومل حيثما توجهنا فى فرنسا، يتحدث دون أدنى كلفة مع الجنود من مختلف الرتب، وكان يعرب لهم عن وجهات رأيه، ويبثهم ذات نفسه فى صراحة وجلد عجيبين. وكان طبيعياً أن يحسنوا الاستماع له، فهو إلى جانب شهرته، كان ذا رأى واضح، وفهم صحيح لدقائق الأمور، وروح مرحة فى أحرج الظروف. وكان بفطرته سريع التفطن للجانب الإنسانى من كل شىء، وهى ميزة قلما تتوافر فى كبار الضباط من هيئة أركان الحرب. ومن هنا سرت روح جديدة فى الجنود، وبدأ العمل والإعداد لمقاومة الغزو».

بين رومل ومونتجمرى

وهناك على الجانب الآخر من القنال الإنجليزى، كان الجنرال مونتجمرى يتحدث إلى جنوده الذين سيقومون بالغزو، بمثل ذلك الأسلوب السهل البعيد عن كل تكلف، وكذلك كان يتحدث إلى عمال المصانع الذين يتوقف نجاح الغزو على ما يبدونه من همة ونشاط فى إمداد القوات الغازية بما تحتاج إليه من مؤن وعتاد!

ولاشك فى أن مونتجمرى، كان هو الآخر لا يجد من يقدّر أسلوبه هذا من السلطات العليا. فالصحف البريطانية- على حد قول مورهد مؤلف كتاب مونتجمرى- كانت تشجعها تلك السلطات على أن تكف عن الدعاية لمونتجمرى[1]. وكذلك كانت مصلحة الدعاية الألمانية فى سنة ١٩٤١ تتلقى

(١) كان مونتجمرى ايرلندياً ولذلك فان الكثيرين من الإنجليز كانوا يحسدونه بل يمقتونه لأنه من أبناء ايرلندا.

الأوامـر من الجنـرال هالدر، بأن تكف عن الحـديث عن رومل. وحـينـمـا طلب البـارون فون أيزبك السمـاح له بالذهاب إلى شـمال إفريقـيا، بوصـفه مراسـلاً حربياً، قوبل طلبه بالرفض!

والواقع أن كلا من رومل ومونتجمرى كان يدرك فائدة استغلال اسمه فى الدعاية للجيش وتقوية روحه المعنوية.

ومما يؤثر عن رومل قوله ذات يوم لمصوره الخاص: «لك أن تصنع بى ما تشاء، إذا كان فى ذلك ما يؤخر الغزو، ولو لأسبوع».

ويقـول الأمـيـرال روجـه عن رومل: «إنه لم يكن مـغـروراً، بل لم تـكن لديه أدنى رغبة فى أن يرفع نفسه، ويدفع بها دفعاً إلى الأمام!».

■ ■ ■

الفصل السادس والعشرون

وسائل دفاع روملية جديدة!

حيل لتضليل الأعداء

يقترح استعمال الصواريخ

يتبأ بخطة الحلفاء

استطاع رومل أن يتغلب على الحزازات الشخصية، فلم يعبأ بها، وذلل العقبات التى ألقتها فى سبيله، ما عدا عقبة قلة العتاد، فلم يتمكن من التغلب عليها.

وفى تلك الفترة كانت الحاجة ماسة إلى مقادير كبيرة من الصلب والأسمنت المسلح، لاستخدامها فى إنشاء مكامن للغواصات، وقواعد تنطلق منها القنابل الصاروخية «ف١» و«ف٢» وكان هتلر يعتمد على هذه الأسلحة السرية الجديدة لكسب الحرب، أو إطالة أمدها إلى أجل غير مسمى. ومن هنا كانت هذه الأسلحة تعطى الأولوية على ما عداها من الاستحكامات وغيرها. وكان رومل يستفيد إلى أقصى حد من كل ما يقع تحت يديه، لكى ينفذ تعليمات هتلر الخاصة بأن تقام كل البطاريات الدفاعية فى الساحل، على قواعد من الأسمنت المسلح، وأن تكون لها كذلك سقوف من الأسمنت المسلح سمكها ستة أقدام. ولكن الحصول على الأسمنت لم يكن من الميسور لرومل فى تلك الفترة، لقلة الموجود منه.

ولما بدأ الغزو، وهاجم الحلفاء حائط الأطلنطى، كان الكثير من

البطاريات الساحلية عارياً من الغطاء، فسهل على الطائرات المغيرة أن تسقط عليها قنابلها وتبيدها!

ومن الإنصاف لرومل أن نذكر هنا أنه وفق إلى إنجاز كثير من أعمال الدفاع على صورة ممتازة بارعة، كشفت عن مواهبه وقدرته على اتخاذ الاستعدادات لدرء خطر الغزو. وقد استطاع فى أشهر قليلة أن يبث أربعة ملايين من الألغام، فى مقابل مليونى لغم بثها الألمان خلال السنوات الثلاث السابقة، وقد حدث هذا رغم ما اعترض سبيل رومل من قلة الإمدادات. وصعوبات النقل، والغارات الجوية المستمرة. ولو أنه وجد فسحة من الوقت. لأحاط كل المعاقل بالألغام الأرضية البعيدة الغور، لتكون شركا مروعاً ضد أى هجوم بالدبابات، ولنفذ ما تضمنه برنامجه فى هذا الشأن، فبث من الألغام ما يتراوح بين خمسين مليوناً ومائة مليون، وحوّل بذلك كل المناطق الفرنسية إلى مستنقعات من الألغام!

ولم تبرز هذه النقطة فى المؤتمر الذى عقده الفيلد مارشال مونتجمرى فى كمبرلى خلال آيار ١٩٤٦، وإن كانت تلك النقطة قد انكشفت لقائد مشهور، وتلميذ لامع من تلامذة الحرب، هو اللفتنانت جنرال السير فرانسيس توكر، بل قد يكون الجنرال باتون نفسه قد احتار فى أمر تلك المسألة ونعنى بها مسألة الألغام.

فقد كانت الألغام، كغيرها من مواد العتاد الأخرى، غير متيسرة، ولكن رومل استطاع بعبقريته الفذة أن يحصل على ذلك العدد الهائل منها. وذلك أنه خلال إغارته على المستودعات الحربية والترسانات، كان يستولى على ما يجد فيها من أغلفة القنابل والمقذوفات القديمة ثم يحيلها إلى ألغام، على صورة بدائية تشبه إلى حد ما تلك الألغام التى استعملها اليابانيون فى بورما.

غير أن اليابانيين كان لهم نظامهم الفدائى الخاص فى تفجير الألغام، وذلك أنهم كانوا يضعون اللغم وإلى جواره أحد الفدائيين ليفجره مضحياً

بنفسه حينما يحس أن دبابة تسير فوقه أو على مقربة منه!.

ولم يلجأ رومل إلى النظم المألوفة فى بث الألغام، لأن خطته كانت تقوم على أن يبثها فى أنحاء متفرقة، وعلى صور شتى، ليتعذر على العدو التقاطها أو تفاديها. ويعلق الأميرال روجه على ذلك بقوله: «إن رومل كان يقوم هذه المرة بحرب ضد سلاح المهندسين، فهؤلاء كانوا يأبون إلا أن يسيروا فى عملهم وفقاً للقواعد والقوانين المسطورة فى الكتب، فى حين كان رومل ينشد التغيير والتجديد!».

والحقيقة أن كلا من رومل والأميرال روجه كانا يدرسان تكتيك الألغام على الشواطئ والبحر، عندما فوجئا بغزو الحلفاء لأوروبا.

وقد وصف روجه شعوره نحو رومل فى تلك الفترة بقوله: «لقد وجدت فيه رجلاً عسكرياً غير عادى، فهو يخالف جميع ضباط هيئة أركان الحرب فى ولعه الشديد بالأمور الفنية، وفى أنه سرعان ما يوفق إلى الحلول المبتكرة الطريفة. فإذا عرض عليه أى تصميم جديد، أو فكرة جديدة لأحد المشروعات، وكان ذلك فى المساء، فإن الصبح لا يكاد يطلع حتى يكون المشروع الجديد! ولم أعرف قائداً له ما لرومل من ولع بالميكانيكية وخبرة بها، ولقد كانت كل الاقتراحات التى يبديها عادة، جديرة بالإعجاب والتنفيذ!».

ونلمح فى عدد كبير من «استنباطاته» تلك، آثار رومل الشاب الذى ما كان يشترى دراجة بخارية حتى يفكها ويعيد تركيبها من جديد.

حيل لتضليل الأعداء

ولقد قام رومل بحيل وخدع على الساحل تجعل نزول الجنود والدبابات صعباً، وهى جميعاً تذكّرنا بذلك الخصم العنيد الماكر الذى عرفناه فى شمال إفريقيا.

ومن بين الحيل التى اتخذها رومل فى فرنسا، تلك الألغام العائمة التى

بثها هناك مدلاة من أعمدة خشبية مزودة بقوائم حديدية مدببة، وكانت توضع فوقها الألغام أيضاً فى بعض الأحيان.

ومنها استعماله فى تعويق هجوم المشاة، تلك الخوازيق الحديدية التى كانت تتخذ فيما مضى لتعويق سير الدبابات. وبثه كثيراً من الألغام فى المياه الضحلة، وإقامة أعمدة طويلة فى الحقول، مزودة فى أعلاها بالغام تتصل بأسلاك خاصة لتفجيرها عند محاولة الطائرات الشراعية الهبوط فى تلك الحقول!

على أن الكثير من هذه الحيل وغيرها، لم يكن قد تم حتى السادس من شهر حزيران، وذلك لصعوبات الإمداد والنقل والعمل.

ولم يكتف رومل ببث حقول الألغام الوهمية المألوفة، فأمر بجعل بعض الماشية ترعى فوقها، تضليلاً لطائرات العدو الاستكشافية، وكذلك برع رومل فى إعداد البطاريات الوهمية، حتى لقد أغارت عليها طائراتنا فيما بعد إغارات عنيفة.

وذلك لأنه إمعاناً فى التضليل والتمويه، لم يكتف بتغطية مراكز هذه البطاريات بالعشب الأخضر والشباك السوداء، كما كان المتبع فى مثل هذه الحال، بل رأى اتخاذ تدابير أخرى جديدة من ابتكاره، هى تغطيتها بالأعشاب وأوارق الشجر الجافة، ثم إحراقها بحيث يتصاعد منها دخان يوهم العدو بأنها بطاريات حقيقية! وهذا لتعذر الحصول على الأجهزة الكافية الخاصة بإثارة الدخان!.

وقد أصدر تعليماته إلى قادة المشاة والبطاريات بأن يكونوا على استعداد لإطلاق ذلك الدخان من البطاريات والقواعد الوهمية، والخنادق التى تقع وراء الخطوط، لتضليل مدفعية العدو عن المراكز الحقيقية المقامة على السواحل!

وحتى الثانى والعشرين من شهر نيسان لم ترد أية تقارير من أى مكان تدل على اتخاذ شىء من تلك الاستعدادات.

يقترح استعمال الصواريخ

اقترح رومل لمواجهة الغزو الذى تبين ضرره، استخدام القنابل الصاروخية «ف:١» ضد احتشادات البريطانيين فى جنوب انجلترا. ولكن هذا الاقتراح رفض رغم وجود الكثير من القواعد لهذه الصواريخ، لأن الألمان لم يكن لديهم من الصواريخ نفسها ما يكفى لموالاة إطلاقها على العدو.

وقد لا يكون فى استخدام تلك الصواريخ فى ذلك الحين ما يغير النتيجة التى حدثت، ولكن الجنرال أيزنهاور اعترف بأن الألمان لو أفلحوا فى استعمال هذه الأسلحة الخطيرة قبل ذلك بستة أشهر وركزوها ضد منطقة «بورتسموث- سوثهامبتون» خاصة، لتعذر على الحلفاء غزو أوروبا بل لأصبح الغزو فى حكم المستحيل!

وكذلك رغب رومل فى أن تقوم البحرية الألمانية ببث الألغام فى القنوات الملاحية، وأن يقوم سلاح الطيران بإلقاء الغام الأعماق الجديدة حول جزيرة وايت. ولكن البحرية لم توافق على وضع الألغام بالقرب من الساحل. كما رفض هتلر استخدام الألغام الجديدة، إذ لم تكن هناك وسيلة لالتقاطها، ولأن الحلفاء قد يبثون ألغاماً مماثلة لها، وبذلك تصبح مخارج الجزيرة مغلقة تماماً!.

رومل يتنبأ بخطة الحلفاء

لم يكن هناك من يخالف رومل فى وجوب الاستعداد لمقاومة الغزو، وكان الخلاف كله محصورا فى اختيار الوسائل الكفيلة بهذه المقاومة على أحسن صورة ممكنة. ولم تكن تساور رومل أى شكوك حين قال: «يجب أن نوقف العدو فى الماء، ونحطم كل معداته قبل أن يغادر ظهور سفنه». وكان يرى أن الساعات الأربع والعشرين الأولى من مقاومة الغزو، ستحدد الموقف تماماً، وأن الحلفاء إذا أفلحوا خلال هذه الساعات فى تأمين رأس جسر، بمعونة

طائراته المتفوقة فى العدد، فلن يمكن ردهم إلى البحر، أو الحيلولة دون تقدمهم!

ولم يكن رومل قد نسى بعد، أن سلاح الطيران البريطانى اضطره فى شمال إفريقيا إلى أن يبقى هو وجنوده الثمانون ألفاً ملتصقين بالأرض يومين أو ثلاثة أيام!، إضافة إلى يقينه من أن القوة الجوية التى سترافق الغزو ستكون هائلة على نحو لا مثيل له، فلن تتاح الفرصة لوصول الطائرات الألمانية التى وعد جورنج، بارسال الإمدادات عليها، وستكون الطرق والسكك الحديدية معرضة لأن تحطمها طائرات الأعداء، كما يستحيل القيام بأية حركة فى المناطق الخلفية، لأن حركات الأعداء الهجومية المنتظرة لابد أن تكون واسعة النطاق، ولن تكون من ذلك النوع العتيق الذى يصل فيه الجنود مضطرين أو متأخرين.

وهكذا استقر رأى رومل على أن يكون الساحل نفسه هو خط المقاومة، وعلى أن ينهض كل جندى فى الفرق الأمامة للقتال فوراً إذا حاول العدو إنزال جنود فى منطقته الساحلية. كما رأى أن يكون الاحتياطى وجميع القوات المساعدة الأخرى، وراء الجنود. فضلاً عن قيام الأسلحة المدرّعة بشد أزرهم، حتى تتمكن مدافع الدبابات من تطهير الساحل من الغزاة.

وكان من رأى رومل أن هذا الخط من المقاومة إذا لم يستطع الصمود فى وجه الغزاة، فإنه على الأقل سيؤخرهم لبعض الوقت.

وليس ثمة ما يمكن أن يؤخذ على الإجراءات التى اتخذتها القيادة الألمانية العليا، والقائد العام للقوات الألمانية فى الغرب، وهيئة أركان حربه، ومعظم قادة الفيالق والفرق، لمواجهة ذلك الغزو. فقد تم تحصين خط ساحلى طوله ٣٠٠٠ ميل، واستخدمت فى ذلك ٥٩ فرقة أكثرها من الدرجة الثانية ومن بينها عشر فرق مدرعة. ولما كان المكان الذى سيهبط الحلفاء فيه غير معروف يقيناً، فقد أرتؤى إبقاء القوات الاحتياطية، ومن بينها الفرق

المدرّعة، فى المؤخرة، إلى أن يتبين الاتجاه الرئيسى للغزاة، وحينئذ يقوم الألمان بهجوم مضاد واسع النطاق فى الوقت المناسب.

وقد أثبتت الأيام صحة تقدير روميل لمدى قوة سلاح الطيران البريطانى، وأثره فى سير الغزو ونتيجته، إذ حال هذا السلاح دون استطاعة القوات الألمانية الموجودة وراء الجبهة، أن تتحرك محاولة أى تقدم، اللهم إلا فى الليل، وفى تشكيلات صغيرة، وقد قطعت إحدى هذه الفرق المسافة من جنوب فرنسا حتى نورماندى، وقدرها أربعمائة ميل فى اثنين وعشرين يوماً، وكان عليها أن تقطع أكثر هذه المسافة سيراً على الأقدام!

كان الجنرال بايرلاين يقود فرقة «لير» المدرّعة، على بعد تسعين ميلاً جنوبى مدينة «كان» على الساحل الفرنسى، وقد أمضى أكثر من ثلاثة أيام، وفقد خمس دبابات ومائة وثلاثين سيارة نقل، حتى استطاع بلوغ ميدان المعركة، رغم ما بذله فى تدريب أفراد فرقته، واستعمال مختلف وسائل التضليل والتمويه.

ويقول الجنرال أيزنهاور: «إن الطرقات والحقول كلها وجدت ملأى بالأسلحة المدمرة، وجثث القتلى والحيوانات، وكان يستحيل أن يسير المرء هناك مائة ياردة دون أن تتعثر قدمه ببعض الأشلاء المتعفنة المتروكة هناك!».

وعلى أية حال قد يؤخذ على روميل مبالغته فى تقدير الفرص التى رآها كافية للاحتفاظ بحائط الأطلنطى، ومن ذلك قوله مثلاً فى نهاية نيسان: «يجب علينا، فى هذا الوقت الباقى لدينا، أن نجعل استحكاماتنا الدفاعية من القوة بحيث تقف فى وجه أى هجوم مهما تبلغ قوته!».

فالواقع أنه لكى يحقق هذا، كان عليه أن يبدأ العمل قبل ذلك بسنتين على الأقل، وأن يستخدم مواد أكثر من المواد التى استخدمها مئات المرات، ويملأ الساحل على طوله، بالرجال والمعدات، أما ذلك «الطوق الدفاعى» الذى

تمكن من إعداده، فما كان من الممكن بحال أن يصمد فى وجه ذلكم الهجوم الهائل! وكان ذلك درساً له ولفرقته «الأشباح» تعلموه جيداً سنة ١٩٤٠.

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن الاستحكامات التى أشار روميل إلى اتخاذها، لم يتم إلا أقل من ربعها، يضاف إلى ذلك أن ثقته بمن كان يقودهم فى هذه المرة، لم تكن فى قوة الثقة التى أولاها لرجال الفيلق الإفريقى!.

لقد كان جنود روميل فى أوروبا أضعف كثيراً من جنوده فى إفريقيا. فكلهم أو أكثرهم جئ بهم من الجبهة الشرقية متعبين، وكان بينهم كثيرون مازالوا فى طور النقاهة، أو الشبان الصغار الذين لا خبرة لهم، ولا جلد على تحمل الغارات الجوية والغزو البحرى.

وكان من الممكن أن تظل لروميل شهرته كاستراتيجى من الطراز الأول، لو أنه وافق فون رونشتدت على اقتراحه بالجلاء التام عن جنوب فرنسا حتى اللوار. فلو أن هذا الجلاء تم، لاستطاع روميل أن يحارب على النحو الذى يتفوق فيه عادة. ولكن خطته هذه، كما علم من بعد، كانت خطة متفقاً عليها. وعلى أية حال فهناك فرق كبير بين مهمة الانسحاب والتراجع التى برع روميل فيها، وبين مهمة الدفاع عن حائط الأطلنطى.

ومهما يكن من أمر، فسنرى فيما بعد، أنه من الانصاف لروميل ألا نصدر أحكامنا عليه، تبعاً لما قال أو صنع فى هذه الفترة.

مونتجمرى يتنبأ بخطة روميل

ولم يكن الجنرال مونتجمرى يرتاب فيما سيقوم به روميل، وأنه لرائع حقاً تحليل مونتجمرى لخطط روميل خصمه القديم ولشخصيته فقد قال عنه فى شهر آيار «أصبح روميل فى شهر شباط الماضى قائداً للقوات الألمانية من هولندا إلى اللوار، ولاشك فى أن هدفه الجديد هو أن يهزمنا على الساحل. وأنه لقائد قوى حازم حاسم، وقد تبدل الموقف تماماً منذ ولى هذه القيادة.

وهو خير من يقوم بهجوم للتخريب والتعويق، وبراعته كلها تتركز فى قدرته على التمزيق. ولهذا أرى أنه سيبذل أقصى جهده لكى يعيد معركة دنكرك، فهو لن يقوم بمعركة الأسلحة المدرعة على الأرض التى يختارها، ولكنه سيتفادى ذلك إلى أقصى حد، وسيحول دون تقدم دباباتنا، مستخدماً فى ذلك دباباته هو، وسيحاول فى يوم الغزو أن يصدنا عن الساحل أولاً، ثم يعمل على الاحتفاظ بكل من: كان وبابيه. وكارنتان، وبعد ذلك يوالى هجماته المضادة».

ثم يضع مونتجمرى خطته للانتصار على رومل فيقول: «وعلى ذلك يجب أن نشق طريقنا إلى الساحل، ثم نحتفظ بمكان آمن للهبوط قبل أن يجلب رومل قواته الاحتياطية فيحول دون ذلك، ويجب أن تتوغل أرتالنا المدرعة فى خطوط الألمان بسرعة، لكى تستولى على مكان فى داخل هذه الخطوط. وفى الوقت نفسه يجب أن يحول سلاح الطيران دون نقل أى احتياطى للعدو بالقطارات وفى الطرق العامة، إلى منطقة هبوط قواتنا. وستكون المعركة البرية مروعة حقاً، وسنحتاج إلى مؤازرة سلاح الطيران لنا دائماً، كما يجب الهبوط على جناح السرعة!».

ولقد حدث الغزو كما تنبأ الرجلان فلقد حاول رومل أن يعيد معركة دنكرك كما قال مونتجمرى. وكان سلاح الطيران مسيطراً على الموقف، وكانت الساعات الأربع والعشرون الأولى للغزو حاسمة، كما قال رومل!.

■ ■ ■



الفصل السابع والعشرون

سبب نكبة الألمان فى فرنسا

رومل وورونشتدت يتفقان

ولو بدرت من الحلفاء أية غلطة- أثناء تأسيسهم رؤوس جسور لهم فى الشاطئ الفرنسى- لكان مصيرهم أن قذف الألمان بهم إلى البحر.

فهل كان فى استطاعة رونشتدت أن يهزم الحلفاء فى حرب مكشوفة بعد أن تخلصوا منها؟

لقد كان يبدو على رونشتدت أنه عاجز عن أن يلحق الهزيمة بالحلفاء، مادامت القوات التى تحت تصرفه قليلة، ومادام الحلفاء يمسكون بزمام السيادة الجوية.

وفضلاً عن هذا لم يكن الجنرال مونتجمرى ذلك الرجل الذى يمنح خصمه فرصة الانقضاض عليه. وإذن فقد يكون التقدم بطيئاً غير أن المرء يشعر مع ذلك بأنه أمر مؤكد تمام التأكيد.

والواقع أن الخطط التى وضعت لمقاومة الغزو، لم تجر تجربتها. كما أن كلا من رونشتدت ورومل، لم يكن مطلق اليدين ليفعل ما يشاء!

فقد كان هتلر يرى رأى رومل، فى أن الخط الأساسى لمقاومة غزو أوروبا، يجب أن يكون على الساحل. ولهذا لم يتمكن فون رونشتدت من تنفيذ ما كان يراه من وجوب تنظيم جيش خاص للقيام بالمناورات.

ولما كان فون رونشتدت، على النقيض من تنبؤات هتلر وروميل، يرى أن إنزال الجنود البريطانيين سيكون عند «كاليه»، وهى أقرب نقطة فى الساحل الفرنسى إلى انجلترا، وعلى رأس الطريق المباشر إلى الروهر، لذلك فإن روميل لم يتمكن من تركيز قواته المدرعة وراء سواحل نورماندیا مباشرة، حيث كان هو وهتلر يتوقعان أن يبدأ الغزو من هناك. ولم تكن لدى روميل سوى ثلاث فرق ضعاف تقوم على حراسة الجبهة من شلدت إلى اللوار. أما البقية الباقية من القوات فكانت احتياطية يشرف عليها اسماً «فون رونشتدت القائد العام للقوات الألمانية فى الجبهة الغربية، ولكنه لا يستطيع تحريكها إلا بعد وقت طويل، ريثما يوافق على ذلك كل من هتلر وكيتل وبودل!».

وكان روميل على رأس الفرقة الحادية والعشرين المدرعة فى المنطقة الأمامية من نورماندیا، وقد أعيد تنظيم هذه الفرقة فلم يكن فيها من جنودها وضباطها القدامى إلا القليلون.

وقد ذكر فون أيزيك المراسل الحربى أن هذه الفرقة قد انضمت إلى القوات المدرعة الأخرى التابعة لقيادة فون رونشتدت، ثم أسندت قيادتها إلى الجنرال «فويختنجر»، وارجأ رونشتدت استخدامها ليستفيد بها فيما بعد، وافلح فى اليوم الأول للغزو فى أن يحول دون استيلاء الحلفاء على «كان». غير أن روميل لم يكن ليشعر- إن خطأ أو صواباً- أن فويختنجر كان يتحلى بنفس العزم الذى كان يتحلى به الجنرال فون رافنشتين فى الصحراء الغربية. فالذى ذكره فون ايزيك أن روميل كان قد اجتمع بهتلر فى اليوم السابع للغزو. فلما عاد إلى الجبهة وجد الفرقة قد اعاقتها القوات البريطانية، التى نقلتها الطائرات، عن التقدم. وهنا سأل روميل الجنرال فويختنجر عن عدد الطائرات الشراعية المعادية هناك، فأجابه هذا بقوله: «مئات ومئات!» فعاد يسأله: «وكم طائرة أسقطت منها؟» فلما علم أن كل ما أسقطه منها لا يتجاوز ثلاثاً أو أربعاً، قال له: «لقد أضعت الفرصة!».

على أن فويختنجر اعتذر بأنه كان حتى عودة رومل ممنوعاً من القيام بأية حركة، إلا إذا صدر الأمر إليه بذلك، وقد حاول الحصول على هذا الأمر فلم يستطع!

وإذن، فالذنب فى ذلك لم يكن إلا ذنب القيادة الألمانية العليا، التى أبت إلا أن تسير فى الجبهة الأوروبية، على نفس الخطة التى سارت عليها مع رومل فى شمال إفريقيا، فأصرت على تركيز السلطة العليا فى يدها، ثم لم تستعمل هذه السلطة إلا فى إهمال مطالب القادة المختصين، وشلهم عن الحركة بالتقاعد عن إصدار الأوامر إليهم، أو إرسالها ولكن بعد فوات الآوان!.

ولقد حاول رومل كثيراً قبل الغزو بأسابيع أن يحصل من القيادة العليا على الإذن له فى نقل فرقة الدفاع «S.S» المدرعة الثانية عشرة، المؤلفة من شبيبة هتلر، إلى مصب «الفير» بالقرب من كارنتان، حيث هبطت القوات الأمريكية فيما بعد، ففشلت كل محاولاته! وقد تنبأ الجنرال مونتجمرى بأن رومل لابد أن يحصّن كارنتان هذه كى ترتكز عليها قواته.

ولاشك فى أن فرقة الدفاع السالفة الذكر، قد أبلت بلاءً حسناً بقيادة كورت ماير زعيمها النازى المتطرف، حين انضمت إلى القوات النازية المدافعة فى «كان»، وقد قيل:

إنها لم تكن لتستطيع أن توقف هبوط القوات التى تحملها الطائرات، وهذا صحيح ولكن رومل لم يكن يريد منها أكثر من هذا الذى فعلته، أى وقف تقدم الغزاة!.

ومن الإنصاف لفون رونشتدت أن نعفيه من اللوم على أنه لم يجب طلب رومل فيما يختص بهذه الفرقة، ذلك لأن رونشتدت كان يتلقى الأوامر من بودل، وكان هذا يتلقى الأمر من هتلر، ولم يكن فى مقدور أى جنرال أن يسيطر على المعركة فى مثل هذه الأحوال.

رونشتدت يقر رأى روميل

وقد تلاقت وجهة نظر رونشتدت بوجهة نظر رومل، بعد أن صح ما تنبأ به هذا، وتمكن الحلفاء من تأمين رأس الجسر الذى اعدوه فى بداية الغزو.

وحينما سأل النقيب ليدل هارت فيما بعد، رونشتدت: هل كان لديه أمل فى تحطم الغزو فى أية مرحلة من مراحله؟، أجابه بقوله: «لم يكن لدينا أى أمل فى ذلك بعد الأيام القليلة الأولى من الغزو، فقوات الحلفاء الجوية شلت حركتنا طول النهار، وجعلتها صعبة عسيرة فى الليل، وقد أفلحت هذه القوات فى تحطيم الجسور القائمة على نهرى اللوار والسين، فأغلقت المنطقة كلها بذلك فى وجهنا، وكانت من أهم العوامل التى أخرت احتشاد قواتنا الاحتياطية هناك، وجعلت نقلها إلى الميدان يستغرق ثلاثة أمثال الوقت المقرر لذلك!».

وثبت من الوثائق التى وجدت بعد وفاة رومل، صحة تحليله للموقف، وسلامة الخطط التى اقترحها من قبل، والتى لم تتح له الفرصة لتنفيذها!.

ويروى الأميرال روجة أن رومل، قبل هذا الحادث، صرح له برغبته فى إنهاء الحرب بأى ثمن، وقال له: «من الخير أن ننهى هذه الحرب، وأنه لخير لألمانيا أن تعيش دولة من دول الدومنيون البريطانى، من أن تتحطم بيتاً بيتاً فى هذه الحرب اليائسة!».

ثم يقول الأميرال روجة أيضاً: «لقد تحدثت مع رومل ساعتين فى اليوم الحادى عشر من شهر حزيران، وصارحته بما أراه، من أن على هتلر أن يعتزل الحكم أو ينتحر ليفتح الطريق للصلح، فقال رومل: إننى أعرف هتلر فهو لن يعتزل الحكم ولن ينتحر، ولكنه سيمضى فى الحرب دون أن يقيم أى وزن للشعب الألمانى ولن يهمه فى شىء ألا يبقى بعد ذلك فى ألمانيا بيت واحد!».

على أن التقارير التى أرسلها رومل إلى السلطات العليا، كانت كلها تتسم بالحصافة والحرص. ففى اليوم الثانى عشر من شهر حزيران، بعث رومل

بتقرير استهله بالإعراب عن شدة الموقف، ثم نوه بالمقاومة العنيفة التى يبديها الجنود كالعهد بهم، ضد قوات الحلفاء، وبعد أن أشار إلى تمكن الجنود فى القطاعات الساحلية من تعويق تقدم الغزاة، مضى فقال فى لهجة بالغة التشاؤم: «إن قوات العدو على البر تزداد على نحو يبدو أسرع كثيراً من الوقت الذى نحصل فيه على حاجتنا من القوات الاحتياطية، وعلى هذا يبدو أنه سيتعذر، أو يستحيل علينا أن نقوم بعمل مجيد فى نورمانديا، إزاء التفوق الجوى الهائل للحلفاء، وإزاء مدفعيتهم البحرية الثقيلة!».

ثم يمضى رومل فى تقريره على هذا النحو المتشائم ثم يقول: «ولطالما أوضحت أنا وهيئة أركان حربى، وبعض قواد الوحدات مثل «سب ديتريش»، أن العدو متحكم تماماً فى جبهة المعركة، بل هو متحكم كذلك فيما لا يقل عن ستين ميلاً وراء الجبهة!.. فوسائل النقل فى الطرق وعبر الحقول، قد عرقلتها قاذفات القنابل المقاتلة نهاراً، وأسراب قاذفات القنابل ليلاً. وفى الوقت الذى يتحرك فيه العدو نهاراً وليلاً فى ميدان القتال كما يشاء، لا تستطيع قواتنا أن تتحرك حتى فى الليل إلا بمقدار!. وفضلاً عن تعذر وصول ما نحتاج إليه من المؤن والإمدادات، تتعرض مراكز مدفعيتنا كما تتعرض دباباتنا المنتشرة هنا وهناك، للتحطيم والإبادة بما ينهال عليها من قنابل الأعداء ويضطر جنودنا وضباطنا إلى الاختباء طول النهار. وليس فى طوق سلاح الطيران الألمانى القيام بعمل جدى لوقف تلك الهجمات القاصمة المدمرة التى يقوم بها سلاح طيران العدو. كما أن المدفعية البحرية الثقيلة للعدو جعلت من المستحيل على جنودنا المشاة وعلى قواتنا المدرعة، القيام بأى عمل حربى. يضاف إلى هذا ما يمتاز به الأعداء من وفرة العتاد والأسلحة الجديدة، واستطاعتهم استخدام عدد كبير من جنود المظلات وغيرهم بالطائرات! ولذلك أصبح من العسير على قواتنا أن تدافع عن نفسها، وكان من سوء الحظ أن أصبح السلاح الجوى الألمانى غير قادر على العمل ضد

هذه التشكيلات الجوية المعادية، والتى حسبنا حسابها من قبل، ومنذ استطاع العدو تعطيل وحداتنا السيارة عن العمل بهجمات سلاحه الجوى أثناء النهار، بالإضافة إلى العدد الهائل من قواته البرية، منذ ذلك الحين أصبح مركزنا فى منتهى الحراج والدقة، وكل ما أطلبه هو أن يكون الفوهرر على علم بهذا الأمر!».

وإذا كان رومل قد ظن أن هتلر سيقتنع بهذه الآراء «الانهزامية»، مادامت مؤيدة بموافقة نازى مقرب من هتلر، مثل «سب ديتريش»، فلا شك فى أن ظنه هذا كان قائماً على الوهم والخيال. ذلك لأن هتلر ما كان لينسى ذلك الاجتماع الذى عقده فى اليوم السابع عشر من شهر حزيران سنة ١٩٤٠ فى مقر القيادة بمارجيفال قرب سواسون، حيث كان مقدراً أن يقود هتلر حملة غزو بريطانيا من هناك. ففى ذلك الاجتماع تحدث رومل وورونشتدت إلى هتلر، مؤكدين له أن الألمان سيلقون بالعدو إلى البحر! ولذلك لم يكن باستطاعة الألمان عمله حينذاك غير أمل الانسحاب وراء نهر «الأورن»، ومتابعة الخط إلى «جرانفيل» على الجانب الغربى من شبه جزيرة كوتنتان، ذلك لأن هذا الخط الذى يمتد فى الريف، وبشكل صفوف متعرجة فى الشرق، ينتهى أخيراً فى تلال تكتنفها الغابات، إن مثل هذا الخط يمكن الاحتفاظ به باستخدام قوات المشاة.

أما القوات المدرعة فقد يمكن فيما بعد، إعادة تنظيمها والاحتفاظ بها احتياطياً.

لقد كان جواب هتلر بعدم الانسحاب جواباً أتوماتيكياً فى الغالب.

غير أن رومل لم يستطع تحسين الجو، وذلك بأن احتج إلى هتلر عن حادث «اورادور سير جليد» الذى وقع قبل أسبوع من ذلك الاجتماع.

فقد حدث أن قتل الفرنسيون ضابطاً ألمانياً فما كان من فرقة الدفاع

الألمانيـة إلا أن ساقت عدداً من النسـاء والأطفـال إلى كنيسـة قـرية «اورادور سير جليد» وأشعلت النيران فيها وعندما فزع النساء والأطفال الذين كانوا داخل الكنيسـة وقـد أحـاطت بهم ألسنة اللهيب من كل جانب، عندما فـزع هؤلاء إلى الخارج تصدى لهم الألمان بنيران الرشاشات فاجبروهم على العودة إلى الكنيسة المشتعلة، وكان عدد القتلى والحرقى فى ذلك اليوم يزيد على ستمائة طفل وامرأة(١).

وقـد طلب روميل إلى هتلر أن يقـوم بانزال العـقـاب فى الجنود الألمان المسئولين عن ذلك الحادث، وخاطبه قائلاً: إن مثل هذه الحوادث من شأنها أن تثير السخط والحنق على أى ألمانى، فهل تعجب بعد هذا من تعاظم المقاومة الفرنسية وراء خطوطنا مادام رجال فرق الدفاع يزيدون- بأعمالهم- من عدد الفرنسيين المنضمين إلى المقاومة؟» وهنا رد هتلر على روميل غاضباً: ذلك أمر لا يهمك إنه خارج نطاق عملك. إن مهمتك هى أن تقاوم الغزو فحسب!».

وعندمـا تجـرأ كل من فـون رونشـتـدت وروميل على البـدء بالحـديث عن قضية مفاتحة الدول الغربية، انفض المؤتمر بسرعة، وعلى أى فلم يكن توديع الفوهرر لهما وديا خالصاً.

وبعد انتهاء المؤتمر بلحظات أصاب أحد الصواريخ «ف ١» العائدة إلى ألمانيا مقر القيادة ولحسن الحظ لم تحدث أية خسائر فى الأرواح.

وكانت التقارير التالية التى بعث بها روميل إلى القيادة العليا بعد ذلك المؤتمر بأسابيع، مقتصرة على وصف المعارك الجارية دون أن تتعرض إلى ما يجب عمله فى المستقبل. فقد كان تلك التقارير تردد أن «الجيش الثانى سيستمر فى محاولاته لإحباط جميع الجهود التى يبذلها العدو للاندفاع داخل خطوطنا!».

---

(١) هذا مثال واحد من مئات الأمثلة عما فعله الألمان فى فرنسا فماذا فعلوا يا ترى فى أوروبا الشرقية وغيرها وهو يفوق ذلك مئات المرات؟.

وعندمـا أشـار روميل فى أحـد تقـاريره إلى أن خسـائره من الجنود والضـبـاط قـد بلغت بين اليـوم السـادس من حـزيران والسـابع من تموز (١٠٠٠,٠٨٩)، وأن عـدد الذين ارسلوا إلى الجـبـهـة فى تلك المدة لم يزد على ٨٣٩٥ ضابطاً وجندياً انذر ٥٣٠٣ منهم بالنقل إلى جبهة أخرى، عندما أشار روميل إلى هذه النقطة كان تعليقه عليها هو «أن وضعية الاستبدال تؤلف أساساً فى القلق والاضطراب الذى يحدثه تعاظم الخسائر بين قواتنا».

وفى التاسع والعشرين من شهر حزيران استقدم هتلر إليه فى برختسجادن كلا من: روميل، ورونشتدت، وأعلن عليهما أن القوات الميكانيكية الألمانية يجب ألا تتدفق على الجبهة حتى لا تتعرض لقنابل طائرات الحلفاء، ويكفى انشاء جبهة للوقوف فى وجه العدو وحجزه عند رأس الجسر الذى أقامه، ثم العمل على تحطيمه تماماً باستعمال كل ما يمكن من أساليب حرب العصابات!

ثم أضاف هتلر إلى ذلك قوله لروميل، وعلى مسمع من كيتل وبودل: «إن كل شئ يمكن أن يتم على ما يرام إذا أنت حاربت فى صورة أحسن!».

ولقد عاد روميل يومئذ مغضباً إلى مقر قيادته فى «لاروش جيون» وهناك أدلى إلى الجنرال الدكتور هانس أشبيدل، رئيس هيئة أركان حربه، بتفصيل ما دار بينه وبين هتلر، فى ذلك الاجتماع التاريخى المشئوم!

كان الجنرال أشبيدل قد التحق بالجيش الألمانى سنة ١٩١٤، وهو فى السابعة عشرة من عمره، وقد ساهم فى معارك الجبهة الغربية وأمضى جزءاً من خدمته فى أحد الألوية كما كان روميل تماماً، ولم يسرّح من الجيش بعد الحرب الأولى، إذ أنه كان يحاول الالتحاق بكلية الأركان. غير أنه فى الوقت ذاته أغرم بدراسة التاريخ والفلسفة، فالتحق بكلية توبنجن فنال منها شهادة الدكتوراه فى الفلسفة فى شباط ١٩٢٥.

وكان أشبيدل يمتاز بقوة الحافظة وبصحة التحليل، ولذلك كان النجاح

حليف آرائه ونظراته دائماً.

وفى سنة ١٩٣٣ عين أشبيدل ملحقاً عسكرياً للسفارة الألمانية فى باريس، ثم أصبح رئيساً للفرع الغربى عند عودته إلى برلين.

ومما يذكر عن بعد نظر أشبيدل أنه عندما شهد المناورات التى قام بها الجيش الفرنسى سنة ١٩٣٧، وضع كتيباً عن تلك المناورات قال فيه «إن الجيش الفرنسى لا يستطيع أن يخوض غمار حرب هجومية حديثة غير أن بامكانه وقادته، القيام بمقاومة متقطعة إذا ما غزيت فرنسا».

وقد اخذ الدكتور أشبيدل على هتلر، إصداره الأمر بمنع فون بوك من استخدام فيلقى: جوداريان، وفون كليست المدرعين ضد البريطانيين فى دنكرك. ورأى أن استخدام هذين الفيّلقين كفيل بألا يمكن بريطانياً واحداً من مغادرة الشاطئ الفرنسى! ولم يمض على ذلك وقت قليل حتى كان هو والجنرال دنتز يكتبان معاً صك استلام فرنسا!

وكان أشبيدل يرى أن الجنرال دنتز «رجل وطنى وجندى فرنسى ممتاز».

وهذا عكس رأينا نحن فيه، ولاسيما بعد مسلكه الأخير فى باريس، وقد حكم الفرنسيون عليه بالإعدام أول الأمر، ثم استبدلوا ذلك بأن يسجن مدى الحياة.

وبعد ذلك أصبح أشبيدل رئيساً لهيئة أركان حرب الجنرال اشتيلبناجل، الحاكم العسكرى لفرنسا، وظل كذلك حتى سنة ١٩٤١، حين يئس من استطاعته القيام بشىء أمام إصرار (جنود الدفاع» على أن تكون كلمتهم هى العليا، فطلب نقله من فرنسا، وكان له ما أراد، ولعل فى هذا ما يلقى بعض الضوء على شخصية أشبيدل، فقد نقل من فرنسا إلى الميدان الروسى. وهناك وقف مع الجيش الخامس أمام موسكو، وكان مسئولاً عن تصميم الهجوم فى الجنوب فى صيف سنة ١٩٤٢، وهو الهجوم الذى كاد النصر يكتب فيه للألمان!

وقد سألت الدكتور أشبيدل عن الأحوال فى روسيا، فقال: «لقد كان البرد قاسياً حقاً، ويمكن أن يقال إن هذا البرد جعل من المستحيل على الضباط أن يكتبوا أوامرهم!» ولما سألته: «أكان هذا من أسباب فشلهم؟» قال: «نعم.. مع كثرة الروسيين ووجود هتلر!».

والدكتور أشبيدل فى الواحدة والخمسين من عمره وهو يحاضر فى الفلسفة فى جامعة تيبنجن.

رومل يجرح

وفى اليوم السابع عشر من شهر تموز هاجمت طائرات الحلفاء رومل فى الطريق، ولم يكن ثمة أى شئ غريب فيما حدث له. فلم تكن سيارته إلا واحدة من ألوف أمثالها ضربتها طائرات الحلفاء فى طرق نورمانديا، فى تموز سنة ١٩٤٤. وقد فصل هذا الحادث النقيب هلموت لانج، وكان مع رومل فى تلك السيارة، وأكد بأنهم كانوا سئّ الحظ إلى حد كبير، حين ساروا فى طريق معرض طول الوقت لإغارات طائرات الأعداء!.

ومن الطريف أن نذكر هنا أن مجلة «ريدرز دايجست» الأمريكية قد لخّصت مقالاً للكونتس فالدك قالت فيه: «إن الطائرة التى هاجمت رومل حينذاك، كانت طائرة ألمانية تحمل العلامات البريطانية، وأن هتلر هو الذى بعث بهذه الطائرة لتقضى على رومل بوصفه من دعاة الهزيمة، وكان قد ارسل إليه إنذاراً نهائياً فى ١٥ تموز!».

وليس هناك ما ينهض دليلاً على صحة الرواية، بل هناك بعض قرائن أخرى تدل على أن هذه الرواية ليست دقيقة تماماً!.

وقد كتب هلموت لانج يقول: «إن رومل كان يقوم على عادته بجولة تفتيشية فى جبهة القتال فى يوم ١٧ تموز، وبعد أن تفقد فرقتى المشاة ٢٧٦ و٢٧٧ خلال هجوم عنيف عليهما، زار مقر قيادة فرقة الدفاع «S.S» المدرعة،

وتحدث إلى الجنرال بتريش وسب ديتريش قائدها بعض الوقت. وكان علينا طول هذه الرحلة أن نحذر الطائرات المعادية التى لم تكن تكف عن التحليق فوق ميدان القتال، وكان الغبار الذى تثيره السيارات على طول الطريق مما يجلب انتباه تلك الطائرات، وفى الساعة الرابعة مساء غادر رومل مقر قيادة ديتريش، وكان حريصاً على العودة إلى القوات الألمانية فى الشمال، لأن العدو قد أفلح فى اقتحام منطقة هناك. فظللنا طول الطريق وعيوننا لا تقع إلا على وسائل النقل التى اندلعت فيها النيران. ومن حين إلى حين كانت قاذفات قنابل العدو ترغمنا على السير فى الطرق الضيقة. وفى الساعة السادسة مساء كانت سيارة المارشال رومل بالقرب من ليفارو، وعن اليمين والشمال أكداس من حطام وسائل النقل، فى حين كانت قاذفات القنابل المنقضة تواصل ضرب جنودنا وعرباتنا. وهذا هو السبب الذى جعلنا نأوى إلى طريق جانبى نتقى فيه خطر الطائرات المعادية، لنعاود مواصلة السير فى الطريق الرئيسى، على مدى ميلين ونصف ميل من فيموتيه.

ولما بلغنا ليفارو، رأينا ثمانى قاذفات منقضة تحوم فوقها، وعلمنا فيما بعد أن هذه القاذفات كانت تهاجم مواصلاتنا منذ ساعتين، ولما اعتقدنا أنها لم تتنبه لسيرنا، واصلنا اتجاهنا من ليفارو إلى فيموتيه. وبعد قليل حذرنا دليلنا «هولكه» من أن طائرتين تتجهان إلينا، فطلبنا إلى السائق أن ينحرف بسرعة إلى أحد الطرق إلى اليمين، على مدى ٣٠٠ ياردة منا، لعلنا نحتمى فيه.

وقبل أن نبلغ هذا المنحنى، كانت إحدى طائرات العدو تحلق فوقنا بسرعة هائلة، ثم عندما أصبحت على مدى ٥٠٠ ياردة منا، أطلقت نيرانها علينا. وكان المارشال رومل ينظر إلى الخلف فى تلك اللحظة. وقد اصيب الجانب الأيسر من السيارة، وأطارت إحدى الطلقات كتف السائق وذراعه اليسرى. وأصيب المارشال رومل فى وجهه بشظايا الزجاج الذى تحطم

وتناثر، كما أصيب بصدمة فى الجانب الأيسر من وجهه، وكسر فى كل من عظمة وجنته، وجمجمته!

وفى الوقت نفسه لم يتمكن السائق المصاب من قيادة السيارة فاصطدمت بجذع شجرة، وانزلقت إلى اليسار حيث هوت فى أحد الخنادق وتمكن النقيب لانج والعريف هولكه، من أن يقفزا من السيارة ويحتميا فى الجانب الأيمن من الطريق.

وعندما بدأ الهجوم أمسك المارشال روميل بمقبض الباب، ولما انحرفت السيارة، سقط على الأرض فاقد الشعور على مدى عشرين ياردة من السيارة.

ولقد حاولت طائرة أخرى أن تلقى قنابلها على روميل ومن معه ممن انبطحوا على الأرض. وعلى أثر ذلك سارع النقيب لانج والعريف هولكه إلى روميل لحمله إلى مكان يحتمى فيه، وكان ممداً على الأرض فاقد الشعور، وقد تخضب وجهه بالدماء التى كانت تسيل من الجروح الكثيرة التى أصابته، وبخاصة من عينه اليسرى وفمه والتى غطت الجانب الأيسر من وجهه.

«ولم يستعد روميل شعوره، بعد نقله إلى مكان أمين آخر، وحاول النقيب لانج، أن يجد معونة طبية لإسعاف روميل، وظل ثلاثة أرباع الساعة يبحث عن سيارة، فلما وجدها ذهب بها إلى أحد المستشفيات الخيرية، وعاد منه بطبيب فرنسى لتضميد جراح روميل. ولكنها كانت بالغة الخطورة، وأكد الطبيب أنه لا أمل فى الشفاء منها، ثم حمل روميل بعد ذلك، وهو ما زال فاقد الشعور إلى مستشفى برناى على مدى ٢٥ ميلاً. وهناك قام الأطباء بفحصه جيداً فوجدوا كسراً فى أسفل رأسه، وكسرين فى صفحة الوجه، عدا كسر عظمة وجنته اليسرى، والجرح الذى أصاب عينه اليسرى، من جراء تحطم زجاج السيارة وسقوطه على الأرض!

ومات السائق خلال الليل، رغم إسعافه بنقل كميات من الدم وغير ذلك. «وبعد بضعة أيام نقل رومل إلى مستشفى البروفسور ايش فى فينيه بالقرب من سان جرمان».

رومل يتوقع الهزيمة!

وفى أوائل تموز أعفى الفيلد مارشال فون رونشتدت من منصبه، وكان ذلك نتيجة للنصيحة التى أسداها لكيتل بعقد صلح مع الحلفاء، وقد خلفه الفيلد مارشال فون كلوجه الذى كان يومئذ فى الجبهة الروسية.

وهنا حاول رومل مرة أخرى أن يرد هتلر إلى صوابه، غير عابئ بما وصمه هذا به من أنه «من دعاة الهزيمة»، فأرسل قبل أن يخرج بيومين، إلى فون كلوجه تقريراً كتب مشروعه الدكتور أشبيدل، راجياً أن يعرضه فون كلوجه بنفسه على هتلر، وكان هذا التقرير أكثر تشاؤماً من التقرير السابق الذى كتبه رومل فى ١٢ حزيران، وقد استهله بقوله: «إن الموقف فى جبهة نورماندیا مازال يزداد حرجاً يوماً بعد يوم، ولن يمضى وقت طويل حتى نكون فى أزمة!».

ثم أشار رومل إلى تفوق الحلفاء، فى الجو والمدفعية والأسلحة، وإلى عدم دراية الفرق الألمانية التى جلبت إلى المعركة، وإلى تحطيم الحلفاء للمواصلات والطرق، واستطاعتهم نقل الإمدادات إلى خطوطهم فى سهولة تامة وبمقادير وفيرة، فى حين لم يفلح سلاح الطيران الألمانى فى القيام بشئ ما، خلال هذا النزال الجبار.

وختم رومل تقريره بقوله: «وفى هذا الظرف يجب أن نتوقع قرب تمكن العدو من اقتحام جبهتنا الرقيقة، وخاصة فى قطاع الفرقة السابعة المدرعة، وحينئذ يدخل العدو فرنسا، وليست فى أيدينا أية قوة ميكانيكية احتياطية تستطيع أن تقف فى وجهه، كما أن قواتنا الجوية لن تستطيع أن تصده أو

تعرقل تقدمه».

«إن جنودنا يحاربون حرب الأبطال، ولكن هذا لا يحول دون وقوع النتيجة التى بدت للعيان فى تلك المعركة غير المتعادلة!».

ثم أضاف رومل بخط يده إلى ما جاء فى ذلك التقرير قوله: «وانى اتوسل إليك أن تدرك أهمية المعنى السياسى لهذا الموقف. إننى أشعر بأن واجبى بوصفى قائداً عاماً، يقضى بأن أقول هذا فى صراحة!».

ورغم الآمال الكبيرة التى علقت على فون كلوجة، لم ينج من غضب هتلر عليه، كما غضب من قبل على فون رونشتدت ورومل، وقد كتب كلوجة إلى هتلر فى ٢١ تموز رسالة جريئة جديرة بالتقدير لم يعهد مثلها من قبل فى هيئة أركان حرب هتلر. وفيها يقول له:

« يا زعيمى أبعث إليك مع رسالتى هذه تقريراً من الفيلد مارشال رومل، بعثه إلىّ قبل حادثته الأخيرة، وقد تناقشت معه فيه. وإننى هنا منذ أربعة عشر يوماً أتباحث مع القادة المسئولين فى مختلف الجبهات، وخاصة قادة فرقة الدفاع (S.S) وقد انتهيت من مباحثاتى هذه إلى أن الفيلد مارشال رومل، كان لسوء الحظ، على حق فيما قال. فليس ثمة من سبيل على الإطلاق لأن نمضى فى القتال، وللعدو مثل هذه القوة الهائلة فى الجو، دون أن نرغم على الاستسلام فى البر. ولاشك فى أن الأثر النفسى لهذه السيول المنهمرة من قنابل العدو على مشاتنا، لابد أن يكون هائلاً، ولابد أن يكون موضوع الاعتبار أيضاً.. ولئن استطعنا المقاومة وقتاً آخر، فلاشك فى أن مقاومتنا لن تلبث أن تشل وتنهار».

«ولقد جئت إلى هنا ولى هدف واحد، هو أن أنفّذ بكل ما وسعنى من قوةٍ أمركم بوقف العدو بأى ثمن. ولكن الثمن الذى سندفعه لن يكون إلا دماراً مؤكداً لجنودنا، ومن بينهم فرقة شبيبة هتلر التى تستحق الإعجاب.

«وإننى لأرى من واجبى، بوصفى قائداً، أن أضع هذا كله تحت عينى زعيمى فى الوقت المناسب».

ولم تمض على ذلك خمسة أسابيع حتى اعفى كلوجة من منصبه، ثم أطلق على نفسه الرصاص. وكانت آخر كلماته إنه يأسف لأنه خيّب ظن زعيمه، ولم يتمكن من السيطرة على المعركة!.

■ ■ ■



الفصل الثامن والعشرون

الروح النازية فى ألمانيا

رومل بعد معركة العلمين

مؤامرة لاغتيال هتلر

رومل ينتخب خليفة للفوهرر

بعد أن انفجرت القنبلة الذرية فى بكينى، صعد بعض البحارة الأمريكيين إلى ظهور السفن التى اتخذت هدفاً لتجربتها، كى يزيلوا الآثار التى ترتبت على ذلك الانفجار. ورغم اتخاذهم كل وسائل الوقاية، لم يستطيعوا أن يصرفوا عن أنفسهم ما تملكها من الروع والرعب والفزع وراحوا يتساءلون «كيف نستطيع الوقوف على ظهور هذه السفن أكثر من بضع دقائق، فى حين أننا لا نستطيع أن نستنشق الهواء إلا من خلال كمامات، ولا أن نقرب الماء للاستحمام أو سواه، كما يستحيل علينا أن نمس سمكة واحدة فضلاً عن أكلها. أى عالم لعين هذا الذى نعيش فيه؟!».

ولم يكن هذا غريباً. فالواقع أن طبقة الطلاء التى غطت تلك السفينة نتيجة الانفجار الذرى، لم تكن ثمة من سبيل إلى إزالتها بالوسائل العادية المألوفة، كما أن الالينوترونات والإشعاعات الخطيرة التى ترتبت على الانفجار، لا يستطاع الاهتداء إليها بوساطة عداد «جيجر»، إذن فستظل نذيراً بخطر داهم فتاك. كما أن التفكك الذى يصيب الذرات سيظل مصدراً للرعب من ذلك الموت الذرى الجديد!.

وليس الإنسان فى حاجة إلى أن يكون عالماً نفسياً، أو مرهف الحس إلى أقصى حد، لكى يدرك أن شيئاً خطيراً، لا يمكن أن يسجله عداد جيجر، ما برح عالقاً بسماء ألمانيا حتى الآن!!

إن المدائن والقرى الألمانية قد أصبحت الآن نظيفة جميلة، لا تنعقد فى جوهر سحب الدمار والتخريب وويلات الحرب الأخرى. وقد أخذ الألمان بعد أن نفضوا أيديهم من ذلك الشقاء، يعاودون التوجه إلى أعمالهم فى مرح وهدوء.

وحتى فنادق القرى هناك، لا يكاد أحدها يخلو ليلة ممن يرتادونها فرادى وجماعات، للاستمتاع باحتساء الجعة والرقص والغناء.

وما من شك فى أن الألمان يبدون أكثر منا استمتاعاً بالمرح والهدوء. على أن مما لا شك فيه أيضاً، أنهم يضمرون البغضاء والكراهية لقوات الاحتلال!

وقد تسأل: لماذا- إذن- لا نجد بين الألمان الآن من يتبسط معك فى الحديث؟ والجواب أن هذا مرده إلى ما فتئ مستقراً فى نفوس الألمان من انتشار رجال الجستابو، وجنود فرقة الدفاع هنا وهناك.

والواقع أن كثيراً من هؤلاء الخطرين مازالوا منبثين فى كل مكان بألمانيا، ويحملون بطاقات شخصية مزيفة، تبيح لهم أن يسرحوا ويمرحوا كما يشاءون، واثقين، من أن الذين يملكون اتهامهم قد غيبّتهم القبور أو دفنوا تحت الانقاض!!

إن ذلك الشاب المؤدب الذى يقدم لك الشراب والطعام فى الفندق، ووجهه يشع رقة وأدباً، ليس بعيداً أن تكون يداه قد لوثتهما دماء مئات من الضحايا الأبرياء!!

ولقد حار البوليس فى أمر مجرم مجهول اقترف ستين جريمة قتل، واخيراً دلت التحريات على أن ذلك المجرم السفاح، ليس سوى أحد رجال الجستابو القدماء، ومن عجب أنه حين ضبط، كان يعمل مترجماً فى معسكر

بريطانى، ويؤدى عمله فى مرح وارتياح!

فالروح النازية- إذن- لم تختف من ألمانيا باختفاء قوادها وزعمائها الذين انتحروا أو أعدموا، وأكبر الظن أن تلك الروح لن تمحى من الوجود بموت آخر المتواطئين مع أولئك القواد الزعماء. ولكنها ستظل بعيدة الغور فى نفوس الشعب الألمانى. بجانب ما استقر فيها من حذر التجسس الذى لم يكن يقف عند حد، ومن الرعب الذى خلّفه الاعتقال عند الفجر، ومعاناة الوان التعذيب، ونزعات التشفى والانتقام، وتعود الرياء والنفاق، وتملق رجال البوليس!!

وما أشبه الآثار الخفية لعواطف الألمان الآن، بآثار ذلك الطلاء الذى كسا السفن التى اتخذت أهدافاً للقنبلة الذرية. فكلاهما لا يمكن الوقوف عليه، ولا إزالته بالوسائل العادية المألوفة. ولا يزال شبح هتلر والنازى يرين على ألمانيا ككابوس هائل مخيف، يبعث على مثل تساؤل البحارة الأمريكيين الذين ذهبت بأحلامهم آثار القنبلة الخفية: «أى عالم لعين ذلك الذى نعيش فيه؟».

ذلك كله ما كنت أشعر به، وما كان يدور بخلدى وأنا استمع لقصة الأيام الأخيرة فى حياة رومل، والأسلوب الذى استقبل به مصيره، وتلقى نهايته!

ولم تكن الظروف التى رويت لى فيها هذه القصة، يكتنفها أى ظل للريبة أو يؤخذ على أحد الرواة، بل على العكس من ذلك كنت أشعر مثلاً، وأنا جالس مع الجنرال أشبيدل فى بيته المشرف على الغابة السوداء عند مدينة فرويد نشتات، بشئ من الحنين إلى طفولتى التى عشتها فى العهد الفيكتورى، وعند الملك إدوارد. ونحن الإنجليز قد تعودنا أن نعيش مثل تلك الحياة المنظمة، حريصين على استثمار الأموال فى الشركات، وعلى الإيمان بالله والحكومة، وعلى أن فى البيت بعد ذلك خادم خفيف أمين، ومقعد بقرب المدفأة، وعلى أن يكون هناك خارج البيت رجل من رجال البوليس. أو على الأقل، كان هذا ما نريده منذ أربعين عاماً فى شمال اكسفورد!!

وكذلك كان البيت الصغير الذى استمعت فيه لقصة رومل من أرملته «لوتسى

ماريا». فرغم أنه ملئ بآثار رومل، وقد حفلت جدرانه بصوره الفوتوغرافية واللوحات الفنية التى أعجب بها، كان يسوده جو محبب من السكينة والهدوء.

وفى استطاعتى أن أقول مثل هذا، مع التأكيد التام، فيما يختص ببيت «الدنجر» وبيت الدكتور «شترولن» آخر من رجعت إليهم فى قصة الأيام الأخيرة فى حياة رومل. وهكذا، كانت ظروف كل رواة القصة عادية، لا غرابة فيها، مما يؤيد صحتها ويؤكدها كل التأكيد.

وفى كل بيت من هذه البيوت، كان يقطع علينا حبل الكلام. ويضطرنى إلى جمع أوراقى، ذلك المفرش الجميل الذى ينشر على المنضدة، ليقدم رب البيت عليه أقداحاً من الشاى..

فقد كان يبدو على الجنرال أشبيدل أنه أشبه بزعماء الإسبان، وقد كان ذلك فى الواقع. أما زوجه فكانت صغيرة السن، فقد اصبحت أماً وهى فى السابعة عشرة من عمرها، وكان أولادها ظرفاء جميلى الطلعة وافرى التهذيب.

أما الدنجر وزوجه فقد كانا نموذجاً لحياة المجتمع الذى ينشأ فى المدن الصغرى. بينما لم يكن يظهر الدكتور شترولن، إلا بمظهر الشخص الذى اعتاد السلطة والمنصب.

وكانت لوسى ماريا أرملة رومل تبدو- رغم الخطوط الظاهرة فى وجهها القاسى- بمظهر من لم يقاس التجارب فى حياته. وكان منظرها ينم عن طابع سكان شمالى إيطاليا، أكثر من الألمان. فهى بشعرها الفاحم وعينيها الدعجاوين، قد تجردت من رقة الإحساس والحنو، الذى تجده عند كثير من الألمان.

وحينما كانت أرملة رومل تتحدث عنه بكلمة زوجى «mein mann»؛ كانت تلفظها فى كثير من الزهو والابتهاج. ولا غرو، فقد سعدت فى حياتها الزوجية معه ثلاثين عاماً، دون أن يقلل من سعادتها شئ، قيام حربين عظميين خلال هذه الأعوام!.

وأنها لعلى استعداد دائماً، لأن تتحدث إليك عن مصير زوجها، ما دامت قد وثقت بك. ولن تلحظ فى حديثها أية مرارة أو ثأرة من الأسى والألم، ولكنك ستحس فى عباراتها ولهجتها، احتقاراً بالغاً لأولئك الذين كانوا مسئولين عن ذلك المصير. على أننى استشعرت ما تكنه جوانحها من اللوعة لفقد زوجها، رغم مضى خمس سنوات على وفاته، حين أقلتنا السيارة ذات يوم إلى «هرلنجن» لزيارة بيت روميل القديم الذى حوّل إلى مدرسة. فقد تركتنى اهبط من السيارة وحدى وقالت: سأنتظر فى الحديقة، فانى أحب أن ارى الأطفال يلعبون فى الحديقة ولا أريد أن أدخل البناء مرة أخرى».

أما «منفرد» إبن روميل، فهو الآن يدرس القانون فى جامعة تيبنجن وهو شاب متزن تماماً، يهب كل وقته، بعد الدرس، لأمه ولذكرى أبيه، وليست فى حياته قط أية «عقدة»، ولم تنل من نفسه تلك الأحداث التى شهدها، ولما يجاوز الخامسة عشرة من عمره!

نعود مرة أخرى فنقول: أن روميل غادر شمال إفريقيا فى آذار سنة ١٩٤٢، وهو يعلم قبل ذلك بأمد بعيد، أن كيتل وبودل عدوان لدودان له، لا بوصفه منافساً عسكرياً لهما فحسب، ولكن لشخصه أيضاً. وكان روميل يحتقر جورنج، ولا يثق به، ويرى أنه، تأثرا بكسيلرنج، يحقد عليه، وعلى الفيلق الإفريقى.

ولم يكن لروميل صديق بين المقربين إلى هتلر سوى الجنرال اشمونشدت. ولقد حذره هذا من هبوط أسهمه عند هتلر، منذ اصطدمت اتجاهاته باتجاهات زعماء حزب النازى، وبخاصة بورمان الذى له تأثير سحرى فى هتلر.

وقد بقى روميل، إلى ما بعد معركة العلمين، يعتقد أن هتلر لو تخلص من حاشيته، والملتفين حوله ممن يتملقونه، فانه سيكون قادراً على العمل السليم وعلى التبصر بالأمور.

وحينما انجابت الغشاوة عن عينىّ روميل، وتكشفت له الحقائق فى وضوح

تام، حزّ فى نفسه كثيراً ما تحققه، من أن هتلر ليس من طباعه الانصاف ولا الشفقة ولا الوفاء، حتى لمن يتفانون فى الإخلاص له، وتنفيذ مطامعه وشهواته، وانه ليس لديه أى استعداد للنقاش فى أى شأن من الشئون.

ولم يكن غريباً أن تكون هذه الصدمة قوية الأثر فى نفس روميل، وهو الرجل اللطيف المعشر، الذى لم يألف «اللف والدوران» اللهم إلا فى القتال. ولما كان روميل منصرفاً إلى الشئون العسكرية وحدها، بعيداً كل البعد عن الشئون الحزبية والسياسية، فانه تلقى هذه الصدمة على أنها موجهة إلى شخصه، وإلى صميم فنه العسكرى، وذلك لأنها أفقدته إيمانه بذلك الذى كان يعده صديقه وراعيه، فضلاً عن كونه رئيساً أعلى للقوات المسلحة، ولم يدرك روميل، إلا فيما بعد، وبالتدريج، أن هناك ما هو أعظم من هتلر، أعنى ألمانيا نفسها، وانها فى طريقها إلى الهاوية أو الهزيمة الساحقة، متأثرة بأخطاء هتلر نفسه.

ويمكن القول بأن روميل تفتحت عيناه على هذه الحقائق أبان الأشهر القليلة التى قضاها فى ألمانيا، قبل أن يصبح قائداً فى الجبهة الغربية. ففى تلك الفترة أخذ روميل يبدى استياءه من تلك «الشرذمة» وذلك بعد أن استمع لأول مرة من الضباط الألمان هناك، العشرات من القصص عما اقترفه الجستابو، وفرقة الدفاع، من الآثام والفظائع فى بولندا وروسيا، وعما يرتكبونه من وحشية فى الدول المحتلة من أوروبا الغربية، ولأول مرة وقف روميل على حوادث تسخير جنود الأعداء فى العمل، وحوادث القضاء على الأسرى. كما علم بألوان التعذيب المبتكرة كحجرات الغاز وغيرها، مما لوّث به النازيون تاريخ ألمانيا العسكرى. وكان روميل حتى ذلك الحين مازال عالقاً بسمعه ما قيل من أن ألمانيا حاربت فى شمال إفريقيا «حرب الجنتلمان!».

وكان من الطبيعي وهذه أخلاق روميل ومقوماته النفسية، أن يذهب إلي هتلر بنفسه، ويطلعه علي كل هذا الذي تكشف له.. وقد كان مما قال روميل لهتلر حينذاك:

«إنك إن تركت الأمور تسير على هذا النحو فسنخسر الحرب». ثم اقترح عليه حل هيئة الجستابو، وتوزيع أفراد فرقة الدفاع على القوات العسكرية الأخرى. ثم أشار عليه بأن يكف عن تجنيد الصغار قائلاً: «إنه لجنون حقاً أن تؤدى بالزهرات اليانعة من أبناء ألمانيا إلى الهلاك»!!.

ولابد أن تكون هذه الاقتراحات التى أبداها رومل، قد صدمت هتلر، ولابد أنها كانت مثار سخرية هملر رئيس الجستابو، حين نقلها هتلر إليه. وقد يكون عجيباً أن يذهب التواضع بهتلر إلى حد مناقشة هذه الأمور جميعاً مع رومل ولو إلى حد ما. ولكن الثابت أنه لم يدع فى ذهن رومل أدنى شك فى أنه لن يعدل عن تلك النظم!

مؤامرة اغتيال هتلر

وأمضى رومل صيف تلك السنة مفكراً فى هذه الأمور ولأول مرة فى حياته راح يفكر تفكيراً سياسياً، ثم انتهى به تفكيره إلى ما انتهى إليه قبله بعض القادة الألمان، فأيقن أن هتلر يقود ألمانيا إلى الخراب. وأنه مادام مؤيداً من حزب النازى وفرقة الدفاع والضباط وبعض رجال الجيش، فليس ثمة من سبيل للتخلص منه، دون حرب أهلية..

وأخيراً، استقر رأى رومل على وجوب كف أيدى مستشارى هتلر عن العمل، على أن يبقى هتلر رئيساً رمزياً دون أن تكون له أية سلطة حقيقية، ومضى يرسم الخطة لتنفيذ ذلك؟..

على أنه قبل أن يخطو خطوة واحدة فى هذا السبيل، عيّن قائداً فى الجبهة الغربية، ثم انتقل إلى شمال إيطاليا ثم إلى فرنسا، فاضطر مؤقتاً إلى إرجاء تنفيذ تلك الخطة، والاهتمام بما هو مكلف به كما هى عادته!!

ومهما يكن من أمر، فقد كان هناك غيره من القواد الآخرين الذين رأوا فى هتلر ما رآه هو، ولم يثنهم عن المضى فى سبيلهم مثل ما أثناه.

وكان على رأس هؤلاء القواد رجلان، أحدهما الدكتور جوردلر محافظ ليبزج. والآخر الكولونيل جنرال بيك الذى كان قائداً عاماً من قبل، ولقد أدركا، أن هذه المؤامرة لن يتم لها النجاح إلا إذا وجدا من يخلف هتلر فى زعامة الشعب الألمانى.

وقد قررا أن هذا الذى يخلف هتلر، لابد أن يكون ذا شخصية محبوبة من الشعب، كما يجب أن يكون من طراز هندنبرج آخر، ولكن من طراز حديث. وأن يكون متمتعاً بثقة الرأى العام، بعيداً كل البعد عن أن يتهم بالعمل لأغراض شخصية، كما يجب فى الوقت نفسه أن يكون جندياً يتبعه الجيش كله.

راح هؤلاء يستعرضون أسماء كثيرين من الزعماء والقواد، ثم يستبعدونهم واحداً بعد واحد. فالجنرال بيك- مثلاً- شخصية ممتازة، ولكنه لا يصلح لهذا المركز، لأن الأغلبية العظمى من الشعب الألمانى لم تعد تسمع به منذ نحاه هتلر عن منصبه سنة ١٩٣٨.

وأخيراً لم يجدوا بين الشخصيات الألمانية الكبيرة من هو خير من روميل، فهو أشهر شخصية فى ألمانيا بعد هتلر، وليس هناك ما يؤخذ عليه من الناحية السياسية، ثم إن الدعاية الألمانية كانت قد قدمته للرأى العام على أنه نازى ممتاز، وإن كان ذلك قد ضايق روميل بعض الوقت. وقد عرف الرأى العام الألمانى، أن البريطانيين يكنون الاحترام لروميل، وأنه يستطيع أن يتعامل معهم عندما تتحرج الأمور. ولم يعرف إلا قليلون من الألمان ذلك الاختلاف القائم بين هتلر وروميل فى وجهات النظر. ومن هنا، اختير روميل بالإجماع لرئاسة المؤامرة العسكرية الرامية إلى إقصاء هتلر عن تصريف الأمور فى ألمانيا!!.. أو على الأصح لرئاسة الرايخ!

■ ■ ■

الفصل التاسع والعشرون

يتآمرون على هتلر فى بيت رومل

اقتراح باعتقال هتلر

يطلبون عقد الهدنة مع الحلفاء

اتصل المتآمرون على اقصاء هتلر، بالدكتور كارل شترولن، الذى ظل محافظاً لمدينة اشتوتجارت منذ سنة ١٩٣٣، ولقد عرفه العالم خارج ألمانيا قبل الحرب، منذ كان رئيساً للاتحاد الدولى لبناء المساكن وتخطيط المدن.

والدكتور شترولن شخصية محببة لدى أهل اشتوتجارت لكفاءته ولنشاطه، كما كان أحد الأوائل الذين شدوا ازر هتلر وحزبه، وعلى هذا يمكن القول بأنه نازى.

ولقد كتب القنصل الأمريكى العام فى مدينة اشتوتجارت سنة ١٩٤٨، عن الدكتور شترولن، بعد أن عرفه سبع سنوات كاملة، من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٤١ فقال: «إنه رجل له مبادئ إنسانية رفيعة، ومما يؤيد هذا ما سمعته من الأمريكيين والألمان على السواء، عن نبل أخلاقه، وجهوده المتواصلة، لإنقاذ المظلومين والمنكوبين، وما إلى ذلك، مما يدل على نزاهته وعدالته وسموه عن الأغراض الشخصية، واستحقاقه أكبر التقدير والإجلال».

ولعل السبب الرئيسى الذى أثار الدكتور شترولن على هتلر هو ذلك العدوان النازى على تشيكوسلوفاكيا، كما يمكن القول بأن صداقة الدكتور شترولن للدكتور جوريدلر هى التى جعلته أحد المتآمرين على الزعيم النازى،

وأنه رغم إصراره على أن يظل محافظاً لاشتوتجارت حتى تضع الحرب أوزارها، كان يعمل ضد النازية منذ سنة ١٩٣٩.

ويروى عنه بعض رجال المقاومة الفرنسية أنه أنقذ واحداً وعشرين فرنسياً حكم عليهم بالإعدام فى الألزاس، وهذا دليل على ما لهذا الرجل من ذكاء وشجاعة عظيمة.

ولقد عمل الدكتور شترولن برتبه نقيب فى الحرب العظمى الأولى، واشترك مع رومل سنة ١٩١٨ بعد أن جرح مرتين، فى الفيلق الرابع والستين، وسرعان ما توطدت بينهما الصداقة، لأنهما كانا من جنود الصفوف الأولى فى الميدان، ولأنهما لم يكونا فى وفاق مع القيادة الألمانية. ورغم أن شترولن كان أوسع أفقاً وأكثر مشاغل فيما بين الحربين، إلا أنه ظل على صداقته لرومل، وأعانه على أن ينقل أسرته من فينر نويشتادت إلى فيرتمبرج. ولقد بدأ شترولن العمل بالاتفاق مع زوجة رومل.

ففى آب ١٩٤٣ بلغ من شجاعة شترولن أن وضع اسمه على وثيقة كتبها الدكتور جوردلر يطلب فيها الكف عن محاكمة الأبرياء وعن الاعتداء على الكنائس، وأن تعاد الحقوق المدنية، ويقصى حزب النازى عن الحكم.

وقد أرسلت هذه الوثيقة الخطيرة إلى وزارة الداخلية. وتلقى شترولن إنذاراً بأنه سيقدم للمحاكمة «بتهمة ارتكاب جرائم ضد الوطن إذا لم يلزم السكون» فعلق على ذلك بقوله: «إننى اقتنعت الآن على الأقل بانه لا يمكن أن ننجز شيئاً بالوسائل المشروعة!».

ولقد بعث الدكتور شترولن بنسخة من هذه الوثيقة إلى زوجة رومل. وفى نهاية تشرين الثانى حين كان رومل فى إجازة قصيرة فى عيد الميلاد، قامت زوجته باعطائه هذه الوثيقة، فكان لها أعظم الأثر فى نفسه، ذلك لأنه هو الآخر كان يفكر فى مثل ذلك.

وفى كانون الأول تمكن شترولن من زيارة زوجة رومل فى هرلنجن، عندما علم أن غاسى رئيس هيئة أركان حرب رومل سيكون هناك. وكان يهدف إلى أن يتمكن من مقابلة رومل، ولكنه وجد جاسى هو الآخر من المتآمرين ضد هتلر، وكان عليه أن يتفق مع بعض الضباط الكبار.

وتم الاجتماع الحاسم فى بيت رومل فى هرلنجن، عند نهاية شباط سنة ١٩٤٤. وكان على شترولن أن يتخذ طريقه إلى هناك خفية. ولقد حذّره رئيس بوليس اشتوتجارت وصرح له بأنه سيكون فى أوائل من سيقضى عليهم، إذا قامت حركة مقاومة عامة فى ألمانيا. وعرف شترولن أيضاً أن تليفونه مراقب، وأن أحاديثه مسجلة!

اقتراح اعتقال هتلر

واستمر الاجتماع وقتاً يتراوح بين خمس ساعات وست ساعات، ولا يزال شترولن يذكر كل ما دار فيه. وقد كتب فى ذلك يقول: «بدأت حديثى بأن ناقشت الموقف السياسى والعسكرى فى ألمانيا، فوجدنا أنفسنا جميعاً متفقين فى كل وجهات النظر. وحينئذ قلت لرومل: إذا كنت متفقاً معنا فى الموقف فيجب عليك أن ترى ما يحتاج إليه من تدبير. وذكرت له أيضاً أن بعض كبار الضباط فى الجبهة الشرقية يقترحون أسر هتلر، وإرغامه على أن يعلن فى الراديو أنه تخلى عن الحكم. وقد وافق رومل على هذا. والحق أن رومل لم يكن فى ذلك الحين، ولا فى أى وقت، يعلم بأمر خطة لاغتيال هتلر!».

وكذلك روى الدكتور شترولن أنه ذكر لرومل أنه من أعظم القواد الألمان، وأنه أشهرهم وأكثرهم استمتاعاً بتقدير خصوم ألمانيا، فهو وحده الذى يستطيع أن ينقذ ألمانيا من نشوب حرب أهلية فيها، ولكن شترولن يعترف بأنه فى ذلك الحين لم يشأ أن يذكر لرومل أن اسمه اقترح ليكون رئيساً للرايخ الألمانى. ثم يمضى فى حديثه فيقول:

«وقد سألت رومل: هل ترى ثمة فرصة لكسب الحرب، بالاستعانة بالأسلحة السرية؟ فأجاب بأنه لا يعرف شيئاً عن هذه الأسلحة السرية، اللهم إلا ما ذكرته الدعاية الألمانية عنها، ولكنه مع ذلك يرى أن ليس ثمة أية فرصة لكسب الحرب. فالحرب من الناحية العسكرية قد خسرتها ألمانيا! ولما سألته: أيعلم هتلر كيف ساءت الأمور؟ أجاب بقوله: إننى أشك فى ذلك، وعلى أى حال، فهو رجل يعيش على الأوهام!

«ثم سألته: أكان فى استطاعته أن يطلب مقابلة هتلر، ويحاول أن يفتح عينيه على هذه الأمور؟ فقال: لقد حاولت ذلك مرات عدة، ولكننى لم أوافق فى كل مرة. وسأحاول مرة أخرى، ومما لا شك فيه أن حاشيته ترتاب فى أمرى. ولهذا لن يتركونى أتحدث إليه وحدى. فذلك الشخص العجيب بورمان، هنالك دائماً».

ويختم شترولن روايته بقوله:

«واتفقنا حينئذ على أن يحاول رومل مرة أخرى، مقابلة هتلر فى الوقت المناسب، لكى يرده إلى صوابه. فإذا لم يوفق فى ذلك، فليكتب إليه رسالة يكشف له فيها عن جلية الموقف كله، ويعرب له عن استحالة كسب الحرب، ثم يطلب إليه أن يفكر فى جميع النتائج السياسية التى تترتب على ذلك.

«وأخيراً، كان على رومل أن يتخذ خطوة مباشرة. وقد فكر فى ذلك بعض الوقت ثم قال: إننى أؤمن بأن من واجبى أن أنهض لإنقاذ ألمانيا! ولم يخالجنى فى ذلك أى شك. ولم يكن رومل رجلاً مفكراً عالياً، فهو لا يفهم الكثير فى السياسة ولا فى الفنون.

ولكنه رجل شريف، لا يحنث فى عد إضافة إلى أنه، بعكس الكثيرين من القادة، كان شجاعاً إلى أبعد الحدود!».

يطلبون عقد الهدنة

وفى نيسان وجد الدكتور شترولن حليفاً آخر هو الجنرال الدكتور أشبيدل الذى عيّن رئيساً لهيئة أركان حرب رومل. وسرعان ما أصبح الجنرال أشبيدل وثيق الصلة بالمتآمرين. وراح شترولن يوالى اتصالاته بأشبيدل إما بوساطة البريد، وإما بوساطة رومل نفسه. وكذلك أخذ أشبيدل يتباحث مع رئيسه السابق الجنرال هينريش فون اشتيلبناجل الحاكم العسكرى لفرنسا، ثم مع الجنرال فالكنهاوزن الحاكم العسكرى لبلجيكا. وساهم رومل فى جانب من هذه المباحثات، وكان يقف دائماً على كل المعلومات والتفاصيل. وكان اشتيلبناجل فى صميم هذه المؤامرة. كما كان كل من أشبيدل واشتيلبناجل قد اتفق على الخطوط الرئيسية فى مشروع الهدنة، مع الجنرالين أيزنهاور ومونتجمرى. فاذا لم ينح هتلر، فستوقع هذه الهدنة دون علم منه. وكان شروط الهدنة جلاء قوات الاحتلال عن المناطق الغربية، وتضييق نطاق الجبهة فى الشرق.

غير أن الحلفاء الغربيين، ما كان فى استطاعتهم أن يقبلوا هذه الشروط، ذلك لأنهم تعهدوا ألا يعقدوا صلحاً منفرداً دون أن يشركوا روسيا معهم. على أن الحلفاء كانوا حريصين على أن يكون التسليم بلا قيد ولا شرط، وقد اتفقوا فى الدار البيضاء على ذلك، وإن كانوا يعلمون أن هذا «سيؤدى إلى التفاف الألمان تحت لواء الصليب المعقوف» كما أنه سيؤدى إلى تقوية هتلر، وإطالة أمد الحرب، ويكلفهم بضعة آلاف من البريطانيين والأمريكيين.

وعلى أية حال فقد كان أشبيدل واشتيلبناجل يريان، بأن المستر تشرشل والرئيس روزفلت، سيرحبان بهذه الفرصة التى أتيحت لهما للحيلولة دون تقدم الجيش الأحمر إلى الجبهة الغربية، على أساس أن الهدنة لن توقع مع هتلر أو مع أحد من النازيين.

وفى ٢٧ آيار انعقد اجتماع آخر فى بيت أشبيدل فى فرويدنشتادت.

وكان هذا الاجتماع إجابة لرغبة رومل. وقد شهده بالنيابة عنه أشبيدل، كما شهده شترولن وفون نويرات الموظف بوزارة الخارجية الألمانية حينذاك، والذى كان حاكماً من قبل لتشيكوسلوفاكيا، ممن حكمت عليه محكمة نومبرج فيما بعد بالسجن ١٥ عاماً. ولابد أنه يكون قد سخر من هذا العقاب الذى وقع عليه، والذى يراه أنه أقسى من عقاب هتلر له!

ولقد نهضت واقفاً فى دهشة عندما قال لى الدكتور أشبيدل: «لقد اجتمعنا هنا حول هذه المائدة، وكان فون نويرات يجلس حيث تجلس أنت!».

ولقد كتب الدكتور شترولن مذكرة خاصة، جرياً على عادة الألمان فى الولع بكتابة الوثائق والمذكرات. وروى لى شترولن أن هذه المذكرة كانت تتناول عرض الموقف عرضاً تاماً، وكان الهدف من هذه المذكرة إرشاد رومل وتوجيهه. وسألته: «هل أفهم من هذا أنك سجلت ذلك كله على الورق؟».

فأجاب بقوله: «نعم، فلقد كتب أحد موظفى مكتبى نسختين. ولقد بلغ من خوف هذا الموظف أن أحرق «ورق النشاف» فيما بعد. ولقد حمل الجنرال أشبيدل نسخته فى جيبه، وحملت نسختى معى إلى اشتوتجارت، وكان حامل هذه المذكرة كمن يحمل قنبلة نزعت كبسولتها!».

ولم يكن رومل حريصاً متحفظاً فى حديثه، فكان دائم التحدث مع جنوده وضباطه وهيئة أركان حربه عن الحرب وعن هتلر. وكان النقيب هلموت لانج، يدون مذكراته يوماً فيوماً، وكان يشعر بأن من واجبه أن يسجل بجانب الوقائع «حيثيات الحكم» أيضاً، وكل شىء يعمله الفيلد مارشال رومل!.

وكان رومل كثيراً ما يطرب عندما، يرى المذكرات تبدأ على هذا النحو: «الساعة السابعة صباحاً- طعام الافطار «أومليت»[1] الساعة السابعة والنصف- معركة (كان) تبدأ». وكثيراً ما يضحك رومل، عندما يجد فى المذكرات شيئاً على هذا النحو: «خرج رومل مع النقيب لانج للنزهة والفيلد

مارشال فون كلوجة» ولم يكن رومل يسر، عندما يتصفح اليوميات ويجد مثل هذه العبارات: «إن أوامر هتلر هراء: لابد أن يكون الرجل مجنوناً. فكل يوم يكلفنا أرواحاً لا ضرورة لإزهاقها، لابد من عقد معاهدة للصلح». وكان يقول للنقيب لانج: «أيها الرجل، إنك تريد أن تذهب بى إلى المشنقة!». ولقد أشار رومل على الدنجر بأن يعد نسخة منقحة مصححة من هذه اليوميات. ولقد احرق كل من منفرد ابن رومل، والدنجر النسخة الأصلية لهذه اليوميات، بعد أن كان الدنجر يريد أن يستبقيها ضمن أوراقه ومحفوظاته. والألمان من عادتهم أن يسجلوا كل شىء على الورق، ويحتفظوا بأكثر الوثائق خطورة وتعرضاً للقتل، وهذه العادة قد أدت بالكثيرين من المتآمرين إلى المشنقة.

وفى الاجتماع الذى انعقد فى ٢٧ آيار، قام الجنرال أشبيدل بعرض وتصوير للموقف العسكرى. ولما فرغ من ذلك تحدث فون نويرات فقال: «إننا لا نستطيع أن نعقد صلحاً مع الحلفاء عن طريق هتلر، ويجب عليك أن تطلب إلى رومل أن يقوم بشىء على مسئوليته الخاصة». لقد كان ذلك هو شعور المجتمعين جميعاً، وتلك كانت الرسالة التى حملها أشبيدل معه إلى رومل فى مقر قيادته فى لاروش جيون!.

■ ■ ■

(١) «أومليت» هو البيضة نصف الطازجة.



الفصل الثلاثون

رومل يضع معاهدة سرية؟!

يريد استخدام القنبلة الذرية

آخر رسالة لرومل يريد محاكمة الفوهرر

كان من نصيب رومل أن وجد فى تلك الفترة الحرجة، تأييدا من إنسان غريب ما كان ليخطر بباله أن يؤيده حينذاك. ونعنى به «أرنست يونجر» مؤلف كتاب «عاصفة من الصلب» وهو جندى من الطراز الأول، وقد ظل يعتقد- حتى بعد الحرب العظمى الأولى- أن الحرب أنبل عمل قام به الإنسان، كما أنه كان من أوائل الكتاب الذين كتبوا ضد النازية، وذلك فى قصته الرمزية التى صودرت وعنوانها «الصخور المرمرية».

وقد قام يونجر بإعداد مشروع معاهدة سرية للصلح، تقوم على أساس أن أوروبا يجب أن تتوحد، وتلغى فيها الحدود فى ظل الديانة المسيحية، فهذا هو الحل الوحيد للقضاء على البولشفية.

ولقد وجد رومل أن هذه المعاهدة مقنعة، ولكنه أبدى قلقه بشأن نشر هذه المعاهدة فى الوقت المناسب، وكان عليه هو نفسه أن يخلق المناسبة الملائمة لنشرها.

ومنذ شهر شباط ورومل يجد نفسه فى موقف بالغ الحرج والغرابة، لم يقع فى مثله أحد من القادة. فهو من ناحية كان القائد المختار للدفاع عن حائط الأطلطنى، وقد أولاه هتلر كل ثقته أن فى استطاعته صد غزو الحلفاء

على السواحل، وعلى هذا الأساس كان ينظر إليه من ناحية الصحف الألمانية والجيش الألمانى، بل من الحلفاء أيضاً.

ولكنه من ناحية أخرى كان مقتنعاً بأن الغزو لا يمكن دحره أو تحطيمه، ومن هنا اتهم بأنه سيتقدم خفية بشروط الهدنة إلى الجنرالين ايزنهاور ومونتجمرى، إذا ما نجح الغزو الحليف.

يريد استخدام القنبلة الذرية

وهذا الموقف الشديد الحرج، طالما استغرق من رومل مباحثات طويلة مع الاميرال روجة، وكان رومل يقول: «إن مواصلة القتال جنون، فكل يوم يكلفنا مدينة من المدن، لا لشىء إلا لجعل الشيوعية أكثر تمكناً من اكتساح أوروبا فلنأتى بالدول الغربية مرة أخرى معاً لتحاربها. وإذا كانت لدينا القنبلة الذرية فاننى ارى أن من واجبنا، أن نستخدمها لصالحنا، فأول من يملكها هو أول من يستخدمها. على أننى أعتقد- رغم كل ما يقال- إننا لا نملك القنبلة الذرية، ولهذا يجب علينا أن نتقدم للصلح».

وفى الوقت نفسه أدرك رومل أنه لا فائدة من التفكير فى محاولة التقدم للصلح دون تدخل هتلر، ما لم يفلح الغزو.

ويقول رومل: «فى إفريقيا كنت سيد نفسى، وكان الجنود يتسابقون إلى تنفيذ أوامرى، أما الآن فأنا مندوب هتلر!».

ولما كان الجيش الألمانى خاضعاً لتأثير الدعاية الألمانية القوية، ويعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الأسلحة السرية هى التى ستنهى الحرب لصالح الألمان، لذا فان أى إنسان يفكر فى الاستسلام، لابد أن ينظر إليه على أنه خائن للوطن، ولابد من أن الضباط الصغار لن يستطيعوا أن يسيروا وراءه، وهكذا لم يجد رومل بدا من القيام بمحاولة لدحر العدو وإحباط الغزو، كما أنه فى الوقت نفسه لم يجد بداً أيضاً من اتخاذ التدابير للتقرب من الحلفاء.

ولقد استطاع رومل بعقله المتزن، وبراعته الفائقة، أن يركب هذين الجوادين المتنافرين معاً فى وقت واحد! فمن الناحية الحربية بذل أقصى ما فى وسعه لإحياء همم جنوده وتقوية روحهم المعنوية فى الجبهة الغربية، ليحولوا دون نزول القوات الغازية، كما أنه كان يعمل ليلاً ونهاراً لتدعيم الاستحكامات الضعيفة فى حائط الأطلنطى. ولهذا أعلن فى أوامره أن هذا الحائط، سيكون منيعاً لا ينفذ منه شىء، فصدقه حتى قواد الحلفاء أنفسهم.

وحينما أفلح الحلفاء فى إنزال قواتهم، ظل رومل يقاتل قتال المستميت ليلقى بالغزاة إلى البحر، ويبعدهم عن الساحل. ولم يكن فى وسع أى إنسان مطلق الحرية فى تصرفاته أن يفعل خيراً مما فعل رومل، رغم القيود الكثيرة التى أحاطت به. وكذلك لم يكن فى وسع أى قائد أن يعرّض نفسه للخطر أكثر مما فعل رومل، فقد وضع كل ثقته وأمله فى الجيش، ولم تكن قيادته تتسم بالتردد قط، بل كان حاسماً حازماً.

ورغم أنه كان حريصاً دائماً على ألا يضحى بجنوده دون مبرر، فانه كان يلقى بهم فى الهجمات المضادة، وكان يقول للاميرال روجة: «لم أبعث فى حياتى برجالى إلى الموت المؤكد، كما أفعل اليوم!».

ولقد نفذ رومل تنفيذاً تاماً، كل ما وعد به فى اجتماعه بالدكتور شترولن فى شهر شباط فضمن التقرير الذى بعث به إلى هتلر فى ١٢ حزيران عن الموقف قوله «إن الأمور تحرجت إلى أقصى حد، وأن التفوق الجوى للحلفاء لم يدع إلا أملاً ضئيلاً فى الحيلولة دون هزيمة الألمان!».

وفى ١٧ حزيران تمكن رومل من الاجتماع بهتلر فى سواسون طبقاً لذلك الاتفاق أيضاً، فذكر له أن «الموقف يقتضى إما الاستسلام والتقدم لطلب الصلح، وإما اتخاذ خط الدفاع وراء الأورن». ولما رفض هتلر ذلك، أخذ رومل وفون رونشتدت يتدارسان معاً مسألة عقد الهدنة مع الدول الغربية!

آخر رسالة لرومل

وأخيراً أرسل رومل آخر رسالة له إلى هتلر فى يوم ١٥ تموز، ولكنه جرح قبل أن يتلقى الرد عليها، وقبل أن يتخذ الخطوة الحاسمة للاتصال بقواد الحلفاء، وبذلك يكون رومل قد وفى بما وعد به كله، اللهم إلا فى هذا الاتصال!.

ولقد أبدى رومل مرة أخرى مرونته وجلده وحيويته، فالبارون فون أيزبك المراسل الحربى المشهور، والذى نجا هو الآخر من الموت بأعجوبة، والذى كان يرافق رومل، لم يأو إلى مقر القيادة إلا فى ١٧ تموز ليكتب شيئاً عن رومل، وقد زار رومل فى مستشفى فينيه يوم ٢٣ تموز، وكان رومل جالساً على حافة السرير. ولم يكد رومل يراه حتى قال له: «إننى مسرور لرؤيتك. كنت أخشى أن تكون الطبيب. فانه لا يأذن لى فى الجلوس على هذا النحو!» وأضاف إلى ذلك قوله: «اننى على يقين من ان الدكتور يرى أننى ميّت لا محالة ولكن ليست لدى أية رغبة فى أن أموت. وخير لك أن تلتقط لى صورة!»، ثم نهض رومل وارتدى سترته العسكرية فوق البيجاما، وجعل فون أيزبك يلتقط الجانب الأيمن من وجهه، ذلك الجانب الذى لم تحطمه الجروح وأخطار القتال. ثم قال رومل: «فى استطاعة البريطانيين أن يروا أنهم لم يحطمونى بعد!».

ثم راح رومل يتحدث إلى فون أيزبك فى صراحة، فيما كان قد حدّثه عنه يوم ١٢ تموز، أى بعد أن أرسل إلى هتلر تقريره الذى أنذره فيه بأن ألمانيا خسرت الحرب ويقول فون أيزبك: «كان رومل شديد الأسف، ولاسيما على الفشل الذريع الذى منى به سلاح الطيران الألمانى، ولم يشأ أن يذكر رومل شيئاً عن محاولة الاعتداء على حياة هتلر».

ولقد زاره أيضاً كل من أشبيدل وزوجه، بعد أن جرح ببضعة أيام، فوجدا أنه قد أفلح فى أن يحلق لحيته بنفسه، رغم مرضه!. ولم يكد الطبيب الذى يحمل رتبة فريق يطلب إلى رومل أن يلتزم الهدوء، حتى ثار رومل فى وجهه قائلاً: «لا تقل لى ما ينبغى أن أعمل وما لا ينبغى أن أعمل، فاننى اعرف ما

استطيع عمله!» وكان الأميرال روجة يزوره كل يوم ليقرأ له. وقد روى أنه ذهب إليه يوماً، وأخبره بأنه قرأ كتاباً اسمه «النفق» تحدث فيه كيلرمان مؤلفه، عن بناء نفق يصل أوروبا بالولايات المتحدة، وكان رومل كالعهد به يبدى إعجابه بهذا اللون من التفكير، ولا يمل الحديث «عما بعد الحرب» كما أنه كان شديد التأثر لارتفاع المد ارتفاعاً هائلاً، وانخفاض الجذر انخفاضاً كبيراً على ساحل بريطانيا، وأعرب عن رغبته فى أن يدرس باهتمام مشروعاً لاستنباط القوى من المد والجذر لاستغلالها.

وليس أدل من هذا على أن رومل كان فى تلك الفترة تواقاً إلى القيام بأى عمل فنى، ينفق وقته فيه.

يريد محاكمة الفوهرر

وكان رومل يتحدث مع الأميرال روجة عن المؤامرة لإقصاء هتلر فى صراحة تامة. وكان يقول له: «إن هتلر هو الشيطان مجسماً، فلماذا نجعل منه بطلاً أو شهيداً؟. يجب أن يقبض عليه الجيش، ويقدمه للمحاكمة، فإن اسطورة هتلر ستظل عالقة فى أذهان الشعب الألمانى دون أن تتكشف أسرارها، ما لم يطلع الشعب الألمانى فى الوقت المناسب على حقيقة هذا الرجل!».

ويقول الاميرال روجة: «إننى كنت أخشى على حياة رومل، وكنت آمل أن يكون وقوعه فى أيدى البريطانيين، على أنى لم أجد لدىّ الجرأة الكافية لكى أحدثه فى شىء من هذا!».

وفى الثامن من شهر آب أصرّ رومل على أن ينقل إلى بيته فى هرلنجن، رغم معارضة البروفسور رايسن، كبير أطباء مستشفى فينيه، والدكتور سيننج أحد أطباء القوات الألمانية فى الغرب.

وتقول زوجة رومل: «لقد أصرّ رومل على ألا يقع وهو مثخن بالجروح فى أيدى الأعداء، وقد صحبه الطبيبان إلى البيت، وتركاه فى رعاية البروفسور

البرخت والبروفسور اشتوك من جامعة تيبنجن».

وكان الأول اخصائياً فى تشريح الدماغ. فلما فحص جراح رومل قال: «إن إنساناً لا يستطيع أن يعيش وفيه مثل هذه الجروح!» واضاف إلى ذلك، انه يفضل أن ينقل رومل إلى عيادته الخاصة فى تيبنجن.

وعلى عكس ما كان متوقعاً، التأمت جراح رومل بسرعة غريبة، وأخذت صحته تتحسن يوماً بعد يوم.

بعد فشل المؤامرة

ومما أثار عجب زوجته أن أحداً من زعماء الرايخ، أو قادة الجيش لم يكلف نفسه مشقة السؤال بالتليفون عن صحة رومل، ولعلها لم تكن تدرى فى ذلك ما يدعو إلى العجب، ولابد أنه ارتاب فى الأمر، وتذكر آراءه ومقترحاته التى أدلى بها إلى هتلر، وما اتهمه هذا به من أنه «من دعاة الهزيمة».

وفى ليلة ٢٠ تموز، حينما تبين أن محاولة الاعتداء على هتلر قد فشلت، وان هتلر ما زال على قيد الحياة يصدر أوامره، دعى الجنرال هينريش فون اشتيلبناجل إلى لاروش جيون، لمقابلة الفيلد مارشال فون كلوجه، وكان هذا على علم بالمؤامرة، وإن لم يشترك فيها ولو أنها نجحت لصرح باتصاله بالمتآمرين، ولذهب إلى الحلفاء فوراً متقدماً بشروط الهدنة.

وشد ما ارتاع فون كلوجة حين علم أن فون اشتيلبناجل أصدر أوامره فى باريس قبل أن يشخص إليه، باعتقال رجال الجستابو وفرقة الدفاع وسرعان ما صرح لاشتيلبناجل بأنه لا يريد الاستمرار فى الخطة المتفق عليها. وبعد مناقشة حامية بينهما، طلب إليه أن يعود إلى باريس، وأن يطلق سراح رجال الجستابو وفرقة الدفاع!

ولعل قائد الدفاع كان على استعداد لأن يسكت على ما حدث، وان يتستر عليه، فقد ذكر أن تلك الأوامر التى أصدرها اشتيلبناجل لم تكن تعنى أكثر

من تدريب المعتقلين، على أن ذلك اليوم نفسه لم ينته قبل دعوة اشتيلبناجل إلى القيادة العليا فى برلين لاستيضاح جلية الأمر منه!

وحينما وصلت به السيارة إلى قرب «فردون»، حيث قاتل فى براعة خلال المعارك الدامية هناك فى الحرب العظمى الأولى، أمر سائق السيارة بالتوجه إلى ضفاف الموز، وأن يتركه وحده.

وما كاد يهبط من السيارة، حتى دلف إلى النهر، ونزل فيه بثوبه العسكرى، ثم اطلق الرصاص على نفسه فأصاب عينيه، ولم يكن السائق يسمع صوت الطلق النارى، حتى سارع إلى القائد المنتحر، وحمله فاقد الوعى إلى مستشفى فردون. حيث أجريت له جراحة عاجلة، وتبين أنه فقد إلى الأبد إحدى عينيه. وحينما بدأ يسترد وعيه عقب الجراحة كان اسم رومل أول ما جرى على لسانه، وكان يردده مرات.

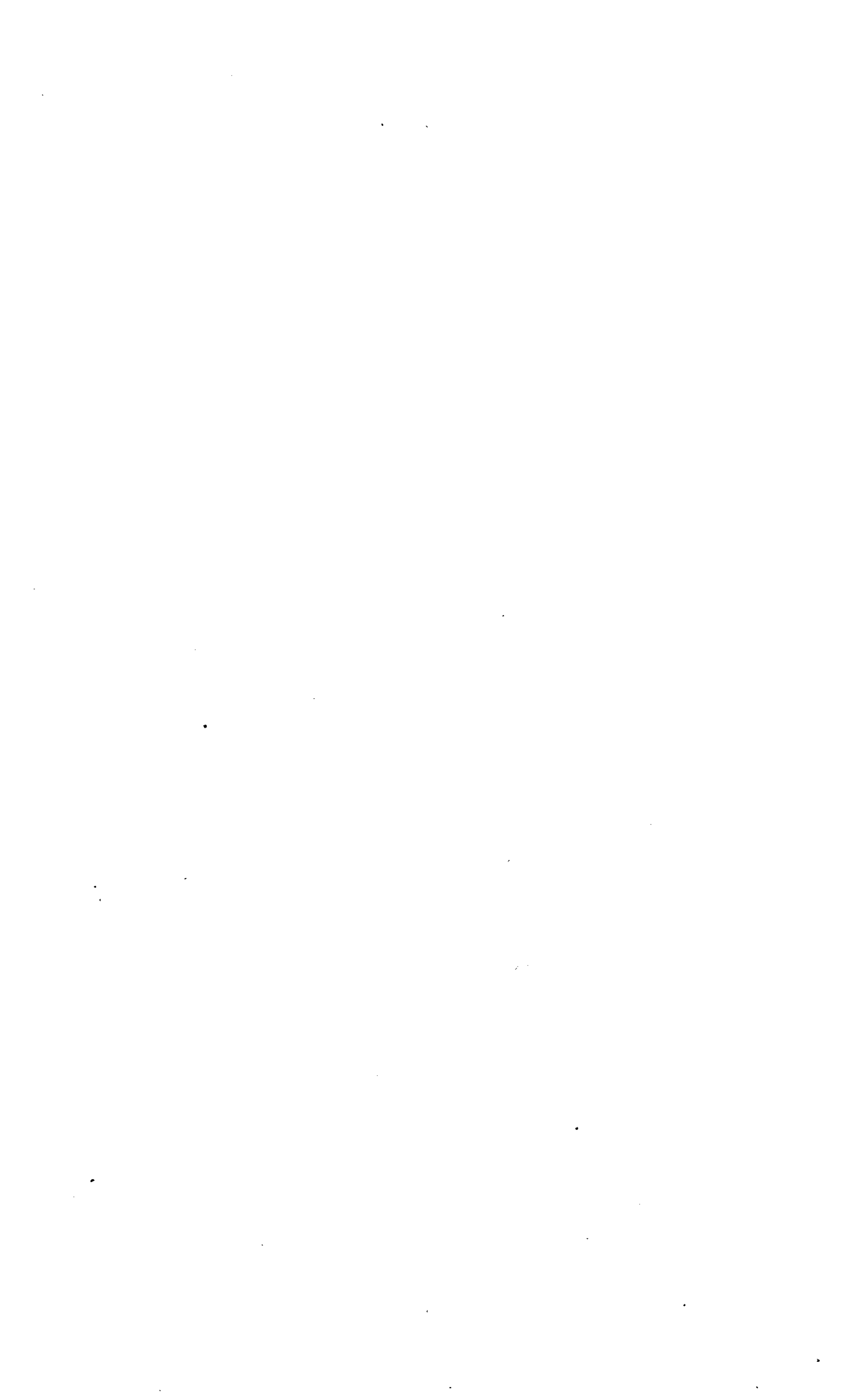
ويقول الكولونيل فولفجانج مولر: «إن الطبيب هو الذى نقل أخباره إلى الجستابو فى باريس» بينما يؤكد اشبيدل أن رجالاً من الغستابو وفرقة الدفاع كانوا حول سرير اشتيلبناجل فى المستشفى، وقد اصطحبوه بعد ذلك إلى برلين، حيث عومل بمنتهى القسوة، ولقى أشد ألوان التعذيب!

ولا يدرى أحد ما الذى قاله، أو كشف عنه من أسرار، خلال هذيانه حينذاك، وأياً ما كان الأمر فقد حوكم، ثم أعدم شنقاً!

ويقول أشبيدل: «إن اشتيلبناجل كان رجلاً شجاعاً شريفاً، لا يخشى لومة لائم فى أى شىء فعله!».

وفى ١٨ آب، دعى الفيلد مارشال فون كلوجة إلى برلين، فقرر أن يسلك السبيل الذى سلكه اشتيلبناجل من قبل، فانتحر بتناول السم. وكان أسعد حظاً من سلفه، فلم يخطئ طريق المنون!.

■ ■ ■



الفصل الحادي والثلاثون

شبيدل ورومل يعملان

اعتقال أشبيدل

رومل يدعي إلي برلين

رسولان يستجوبان رومل

مضت علي رومل أسابيع هادئة في هرلنجن، لم تتخللها إلا زيارات البروفسور ألبرخت لعيادته، وكان سروره عظيماً بتقدم صحة رومل، واستطاعته أن ينهض من فراشه، وان يجلس في الحديقة تحت أشعة الشمس، ويخرج للتنزه في بعض الأحيان.

ولم يحدث في فترة نقاهته هذه أي شيء غير عادي، اللهم إلا حادثة طريفة هي أن مجهولا حاول أن يتسلل إلي بيت رومل عبر نفق يفضي إلي أحد المخابئ التي أنشئت للوقاية من الغارات الجوية. فلما شعر به الحارس وأطلق عليه النار فر هاربا!

ولم يبد أحد اهتماماً كبيراً بهذه الحادثة. فقد كانت ألمانيا في ذلك الحين، صيف سنة ١٩٤٤، ملأي بعناصر غاية في الغرابة من المهاجرين، وأسري الحرب الهاربين، والعمال الأجانب.

وفي السادس من شهر أيلول، استقبل رومل زائراً لم يكن يتوقع زيارته، ذلك هو الجنرال اشبيدل الذي جاء ليخبره بأنه قد أعفى من القيادة إلي

حين، وبأنه ذاهب إلي برلين ليقدم تقريراً عن الموقف للجنرال جودريان، رئيس هيئة أركان الحرب في القيادة الألمانيا العليا.

وقالت لي زوجة رومل: «أن أشبيدل أخبرنا بأن كيتل وبودل كانا يتحدثان عن زوجي، علي أساس أنه من دعاة الهزيمة، ثم طلب إليه أن يحذرهما. ولم يشأ أن يذكر له ما هو أكثر من ذلك مراعاة لحالته الصحية. وظن زوجي أن كيتل وبودل يبحثان عن إنسان غيرهما، يحمّلانه تبعة الموقف العسكري في الغرب، كما رأي فيما تحدثا به عنه ما يفسر لماذا أسرفت الصحافة والاذاعة في ألمانيا في حديث اصابته دون أن تشير بشيء إلي هجوم العدو، ودون أن تهتم إلا مؤخراً بنقل ما نشرته الصحف الأجنبية عن الحادث منذ بضعة أيام».

ولم تسنح للجنرال أشبيدل فرصة الشخوص بنفسه إلي برلين ليقدم تقريره المشار إليه. وأكبر الظن أن القيادة الألمانية خشيت، لسوء فهمها شخصيته الممتازة، أن يسلك سبيل الفيلد مارشال فون كلوجة والجنرالان بيك وفون اشتيلبناجل. ففي الساعة السادسة صباحاً طرق باب بيته في فرويد نشتادت أحد ضباط فرقة الدفاع ومعه حارس مدجج بالسلاح. وكان علي ذلك الضابط أن يعود بالجنرال المطلوب، علي عجل، حتي أنه لم يجد الوقت الكافي لتفتيش البيت بدقة قبل ذلك، فاستطاعت زوجة اشبيدل أن تخفي صورة فوتوغرافية للجنرال بيك، كانت معلقة في مكان مرموق بقاعة الاستقبال، كما أنها أفلحت في إخفاء بعض الأوراق الخاصة بزوجها!

وحمل أشبيدل بالسيارة إلي اشتوتجارت، ومن هنالك بالقطار في حراسة شديدة إلي برلين، ثم إلي سجن الجستابو في شارع البرنس البرخت!

وفي صباح اليوم التالي اتصل مساعد اشبيدل الشخصي برومل في هرلنجن وأبلغه نبأ ذلك الاعتقال المفاجئ. ورغم أن رومل كان لا يزال رسمياً في عداد القواد، فلم يبلّغ إليه هذا النبأ رسمياً. علي انه سارع إلي كتابة خطاب احتجاج إلي هتلر، وبعث به إلي سب ديتريش رئيس فرقة الدفاع

ليقدمه لهتلر! وليس يدري أحد: هل اطلع هتلر علي خطاب رومل أم لا، ولكنه علي أية حال لم يرد عليه!

فرض الرقابة علي بيت رومل

وفي عصر ذلك اليوم اتصل بزوجة رومل في هرلنجن بعض الأصدقاء تليفونياً، وابلغوها بأن شخصين مريبين شوهدا بالقرب من المنزل، يحاولان التسلل إليه، وكلما دنا منهما أحد ابتعدا.

وتولي الدنجر مراقبة هذين الشخصين فلاحظ في منتصف الساعة الرابعة مساء أن أحدهما يخفي عينيه تحت منظار أسود، وقد كمن في الغابة المجاورة علي ربوة تشرف علي البيت. كما علم أنهما مزودان بجواز مرور بوصفهما مهندسين من روجنسبرج، ويزعمان أنهما جاءا إلي هرلنجن لأعمال حربية.

وذكر أحد أصحاب الفنادق الصغيرة لسكرتير رومل أن للرجلين سيارتين تقفان بجوار الفندق!

ولما علم شترولن باعتقال أشبيدل، تجشم مخاطرة المجئ من اشتوتجارت إلي بيت رومل في هرلنجن، فوجد البيت محاصراً بالحراس، ووجد رومل حزيناً مرتاعاً إلي حد ما، وهو يشير إليه أن يتحدث همساً، فقد يكون الجستابو وضعوا جهازاً في البيت لتسجيل ما يقال. وكان علي مكتب رومل مسدس. وقال له رومل: «إنني لا أخشي الإنجليز والأمريكيين، إنما اخشي الروس والألمان فقط».

ثم عرض رومل علي شترولن صورة من الرسالة التي بعث بها إلي هتلر، وتذاكرا ما يمكن لإنقاذ أشبيدل. وكان رومل قد اتصل بعد ذلك بالقيادة العليا للجيش، ولكنه لم يتلق منها رداً بل لم تعن بابلاغه أسباب اعتقال رئيس هيئة أركان حربه!

وتلك هي آخر مرة رأي شترولن فيها رومل علي قيد الحياة. فقد حدث

بعد ذلك بقليل ان اتصلت زوجة رومل باشترولن، وطلبت إليه ألا يجئ إلي البيت لزيارة رومل مرة أخري، خشية الجستابو!

وبعد ذلك بأيام جاء إلي بيت رومل زائر آخر هو صديق قديم له من زعماء حزب النازي في أو لم. وفيما هما يشربان الشاي، قال لرومل بعد أن تحقق أن ليس هناك من يخشي منه: «إن رئيس فرقة الدفاع في أولم قد حدثني غير مرة بأنك لم تعد تثق في إمكان النصر علي الحلفاء، كما سمعت منه أنك تسرف في انتقاد هتلر، والقيادة الألمانية العليا!».

ولاحظ منفرد بن رومل، أن أباه كان يتحدث مع صديقه الزعيم النازي دون أي تحفظ، وأنه صاح في دهشة وسخرية قائلاً له عقب سماعه ذلك الحديث منه: «أي نصر تعنيه؟ لماذا لا تنظر إلي الخريطة؟ لتري موقفنا الآن وقد أحاط بنا البريطانيون والأمريكيون والروس؟! لا .. لا .. إن التحدث عن استطاعتنا النصر بعد هذا كله، ليس أكثر من هذر وهراء!».

ولما تحدث الزعيم النازي عن هتلر صرخ رومل مرة أخري قائلاً: «اللعنة علي ذلك الأبله!».

وقد طلب إليه ذلك الزعيم النازي أن يتحفظ في كلامه، ويلزم جانب الحذر وقال له: «يا فيلد مارشال يجب ألا تقول كلاماً كهذا، فلن يمضي وقت طويل حتي يكون رجال الجستابو وراءك، إن لم يكونوا وراءك الآن!».

وهناك قصة رواها صحفي إيطالي وقال فيها: «إن ذلك الزعيم النازي الذي زار رومل، كتب تقريراً من ثلاثين صفحة، ضمنه كل المحاورات التي دارت بينه وبين رومل، ثم سلّمه لبورمان يداً بيد!».

وهذه القصة لا يصدقها آل رومل، وذلك لأن ذلك الزعيم النازي، جئ به بعد ذلك من هايدنيهم إلي لندن، حيث أمضي بضعة أشهر مع منفرد بن رومل في أحد معسكرات الاعتقال الفرنسية، وأكد له أنه علي يقين من أن

أباه قد اغتيل، ثم مات ذلك الرجل أخيراً في معسكرات الاعتقال الأمريكية فلم يتسن لاحد استجوابه في هذا الشأن.

على أنني لا استبعد- مع هذا- ان تكون القصة صادقة. ذلك لأن اتقان التظاهر بالمودة والإخلاص، كان في مقدمة الصفات التي عرف بها كبار الجواسيس الألمان!

رومل يدعي إلي برلين

وبعد شهر، أصبح رومل قادراً علي أن يقود سيارته بنفسه، وأن يذهب بها إلي تيبنجن للعلاج. وكان عليه أن يواصل ذلك حتي اليوم العاشر من شهر تشرين الأول، ثم يذهب إلي برلين لحضور اجتماع. ولن حدث قبل هذا بثلاثة أيام، أن جاءته رسالة تليفونية من الفيلد مارشال كيتل يستعجله فيها، ويبلغه أن قطاراً خاصاً أعد لنقله في مساء اليوم التاسع من تشرين أول. فاتصل رومل تليفونياً بالبروفسور البرخت ليؤجل علاجه، وذكر له أنه دعي إلي برلين. ولقد نصح له البرخت كما نصح له الدكتور اشتوك بتجنب القيام بأية رحلة طويلة، فطلب رومل إلي الدنجر أن يتصل تليفونياً بكيتل ويبلغه هذا.

وتقول زوجة رومل: «كان الذي رد علي الدنجر هو الجنرال بورجدورف، وبعد قليل جاء رومل فمضي إلي تلك الحجرة وبقي الدنجر معي. وقد طلب زوجي إلي الجنرال بورجدورف أن يبلغ كيتل نصيحة الأطباء له بتجنب السفر مراعاة لحالته الصحية. ثم استوضحه جلية الأمر وسأله: هل يمكن إرسال ضابط لمقابلة المارشال كيتل؟. فأجابه بورجدورف بأن هتلر قد أصدر أمره إلي كيتل بأنه «يجب مقابلة رومل عاجلاً لمباحثته في شأن منصبه الجديد!».

ولم يكن رومل يتوقع أن يعيّن في منصب آخر، بعد الذي حدث بينه وبين هتلر. ثم هو علي أي حال لم يكن في استطاعته أن يقوم باعباء قيادة جديدة تستغرق بضعة أشهر أخري!

ولم يشأ روميل أن يذكر لزوجه شيئاً، رغم أن الخوف كان قد ذهب بها كل مذهب بعد اعتقال أشبيدل. وكان منفرد قد عاد إلي بطاريته صباح ذلك اليوم.

ومضت خمسة أيام دون أن يتلقي روميل كلمة من برلين. وفي الحادي عشر من شهر تشرين أول، جاء إليه الاميرال روجة ليتناول معه طعام العشاء ويقضي ليلته عنده. وقد سهرا إلي ما بعد منتصف الليل يتحدثان. وذكر له روميل نبأ الأمر الذي صدر إليه بالذهاب إلي برلين، وتخلفه نزولاً علي مشورة الأطباء وأضاف إلي ذلك قوله: «لن أذهب إلي برلين: إنني أعلم أنني لن أبلغ برلين حياً!».

ولقد قال الاميرال روجة فيما بعد: «لقد سخرت من ذلك أول الأمر. ولكن روميل أكد لي أنه علي يقين من أنهم سيقتلونه في الطريق، ثم يزعمون أن موته طبيعي، أو نتيجة لحادثة عادية. وبقي هذا الشعور يتملكه بعد ذلك يومين!».

وفي الثالث عشر من شهر تشرين أول جاءت رسالة تليفونية من اشتوتجارت. وكان روميل والدنجر خارج البيت، فتلقي الرسالة أحد الجنود، فطلب إليه أن يخبر الفيلد مارشال روميل بان الجنرال بورجدورف سيصل إلي هرلنجن عند ظهر اليوم التالي، وسيكون برفقته الجنرال ميزل.

وكان الجنرال بورجدورف معيناً منذ ٢٠ تموز الماضي بالبحث عن الضباط الذين ساهموا في المؤامرة ضد هتلر. ولعل هذا سبب الوجوم الذي اعتري روميل، حين علم بأمر تلك الرسالة التليفونية. وقد لاحظ الدنجر أنه عزف عن الحديث إلا للضرورة. وحسب أن صمته للتفكير في أمر الغزو، لأن مجئ الجنرالين إليه لابد أن يكون للمباحثة والتشاور في هذا الأمر!.

وفي صبيحة التالي وصل منفرد في قطار الساعة السادسة في إجازة. فألفي اباه قد صحا من النوم، وتناولا معاً طعام الإفطار، ثم خرجا للتنزه مسافة طويلة. وسأله منفرد عن سب زيارة الجنرالين القادمين، حين انبأه بها فأجابه روميل بقوله: «يقولان انها لمباحثتي في شأن منصب جديد!».

ولاحظ منفرد أن أباه يبدو مهموماً علي غير عادته، ولم يفته أن يلاحظ تجلّد أبيه وتعمده أن يغطي ذلك، لكي يتحدث معه في شئونه الخاصة، وعن مستقبله. وكان رومل يريد من ابنه أن يكون طبيباً لا جندياً. ولم يعد رومل وابنه إلي البيت إلا في الساعة الحادية عشرة صباحاً!

وعند الظهر تماماً حضر الجنرال. بورجدورف وميزل. ومعهما المقدم أيرنجر، وكانوا يركبون عربة خضراء يقودها سائق يرتدي الزي الأسود الخاص بفرقة الدفاع «S.S».

وأحسن رومل استقبال ضيفيه، وقدم لهما زوجته وابنه والنقيب الدنجر وبعد لحظة أعرب الجنرال بورجدورف عن رغبته وزميله في حديث خاص مع رومل، فنهض هذا واقتاد الجنرال بورجدورف وتبعهما ميزل إلي حجرة في الطابق الأسفل من البيت. وصعدت زوجته إلي حجرتها.

وقبل أن يغادر رومل الحجرة مال إلي النقيب الدنجر وقال له: «هيء الأوراق ومجموعة الأوامر والتقارير، التي كتبت عن الموقف إبان القتال في نورماندیا».

وكان رومل يظن أن الجنرالين جاءا ليستجوباه في شأن الغزو. وكانت الأوراق التي كتبها الدنجر مهيأة تماماً، وقد ظل الدنجر يتحدث خارج البيت مع المقدم أيرنجر، في حين ذهب منفرد لتلوين بعض الخرائط التي طلبها أبوه.

وبعد حوالي ساعة غادر الجنرال ميزل حجرة الاجتماع، ثم تبعه بعد دقيقة أو دقيقتين الجنرال بورجدورف.

وصعد رومل إلي زوجه في حجرتها!

■ ■ ■



الفصل الثانى والثلاثون

يتجرع السم بدلاً من المحاكمة

الوداع الأخير

فى السيارة

أخت روميل

لم تكن زوجة روميل تتوقع أن ينتهى عاجلاً اجتماعه بالجنرالين الزائرين، رسولى القيادة الألمانية إليه. وقد قالت لى: «لقد تملكتنى نوبة من الدهشة والجزع، حين فوجئت بصعوده إلىّ فى الطابق الأعلى بعد قليل. وزاد فى فزعى أن وجهه كانت تعلوه سحابة رهيبة مريبة من القلق والكآبة. فصرخت: ماذا حدث، وما الذى اعتراك؟ هل أنت مريض؟ ونظر هو إلىّ متجلداً وقال فى هدوء: «لا فائدة من الجزع، لقد جئت لأودعك. ولن يمضى ربع ساعة حتى أكون قد فارقت الحياة!».

ومضت زوجة روميل تقص علىّ حديثه معها فى تلك اللحظة الرهيبة، فقالت: «ومضى زوجى فى حديثه فقال: انهم يرتابون فى أمرى، ويرون أنى اشتركت فى محاولة اغتيال هتلر، ويبدو أن قائمة جوردلر تضمنت اسمى، بوصفى الرئيس المنتظر للرايخ. على أنى لم أر جوردلر هذا فى حياتى كلها! ثم هم يقولون، جرياً على عادتهم المألوفة: أن فون اشتيلبناجل، والجنرال أشبيدل، والكولونيل فون هوفاكر، قد اعترفوا بأنى كنت شريكهم فى المؤامرة. وقد ذكرت لهم إننى لا أصدق ذلك، كما أن شيئاً من هذا ليس صحيحاً».

وحينما أنبأها روميل بأهم خيّروه بين أن يقدم للمحاكمة أمام محكمة الشعب، وبين أن يتجرع سماً، جاءوا به معهم مؤكدين أن نتيجته تظهر بعد ثلاث ثوان!، راحت تتوسل إليه وترجو منه أن يقبل المحاكمة أمام محكمة الشعب، فهذه المحكمة لابد أن تقتنع ببراءته.

وهنا صرح روميل قائلا لها: «إننى لا أخشى أن أحاكم أمام الناس جميعاً، وذلك لأننى أملك الدفاع عن كل شىء قمت به، ولكننى أعلم أننى لن أبلغ برلين حياً!».

الوداع الأخير

وعندما كان روميل يغادر الحجرة جاء «منفرد» ابنه مبتهجاً يكاد يطير من الفرح، ليعرف المنصب الجديد الذى عيّن فيه أبوه!. وكان الجنرالان ينتظران روميل. فودع ابنه أيضاً على عجل، ثم دخل حجرة أخرى مجاورة، وتبعه ابنه إليها. وهناك طلب روميل من الجندى المخصص لخدمته أن يدعو إليه الدنجر، فلما جاء هذا، وعلم بما حدث، وجم ووقف جامداً صامتاً. والتزم روميل الصمت أيضاً.

ولم يكن ثمة ما تخلل ذلك الصمت سوى أنين زوجة روميل، ينبعث من حجرتها. ولم يكن منفرد، والدنجر بأقل جزعاً منها وشعوراً بهول المصاب، ولكن الدنجر، ذلك الصفى الوفى الأمين، لم يكن على استعداد لأن يتلقى هذه الفجيعة باكياً مولولا!

وكان الدنجر حاضراً حينما كانت أرملة روميل تروى قصة تلك الساعة الأخيرة الخطيرة فى حياة زوجها، فصعدت زفرة حارة طويلة، ثم قال: «طالما قلت له: يجب أن تحاول النجاة بحياتك على الأقل، وطالما سألته: لماذا لا نأخذ طريقنا معاً هرباً إلى خارج ألمانيا؟ وذكرته بالمآزق الحرجة التى وقعنا فيها من قبل ثم أفلتنا منها. ولكنه كان يقول لى لا فائدة من ذلك يا صديقى،

إن الشوارع والمنافذ جميعاً قد غصت بسيارات رجال فرقة الدفاع والجستابو. وليس فى استطاعتنا أن نغادر البيت دون أن نكون مراقبين. كما أنهم وضعوا تليفونى تحت المراقبة، فلا سبيل إلى الاتصال بمقر قيادتى فضلاً عن العودة إلى الميدان!».

وذكر الدنجر أنه أشار على رومل، بقتل كل من بورجدورف وميزل. فرفض ذلك وقال: «لا. إنهما ينفذان أوامر صدرت إليهما. ثم لا تنس أنهما وعدانى، إذا قبلت تجرع السم، ألا يصيب زوجتى وولدى أى مكروه، وأن يصرف لهما معاش، فضلاً عن تشييع جنازتى رسمياً، ودفنى فى هرلنجن. أما إذا اخترت المحاكمة أمام محكمة الشعب، فأنت تعرف طبعاً ما سيحدث فى هذه الحالة!».

وأخيراً، صعدت من الدنجر زفرة حارة أخرى، وشرد بذهنه قليلاً، ثم استأنف حديثه فقال: «كان رومل إذا اقتنع بشىء فلا سبيل إلى إقناعه بالعدول عنه أو مناقشته فيه. وقد انهى حديثى معه ساعتئذ بقوله وهو يتحفز للقاء الجنرالين المنتظرين: «لقد حدثت زوجتى بما استقر عليه رأيى، ولن أسمح لنفسى قط بأن يشنقنى ذلك الرجل- يعنى هتلر- إننى لم أدبر أية خطة لاغتياله، وإنما حاولت أن أنقذ وطنى، كما فعلت طول حياتى. والآن، وبعد نصف ساعة على الأكثر، ستأتى رسالة تليفونية من مدينة أو لم تقول إن حادثاً وقع لى واننى مت لساعتى!».

ويرى بعض المتآمرين الأحياء أن رومل كان يجب عليه أن يصر على أن يقدم إلى محكمة الشعب، وبذلك كانت تتاح له فرصة يضرب فيها ضربته القاصمة لصالح ألمانيا، فيهتك ستر هتلر ويفضح خططه، كما أن ظهور رومل فى قفص الاتهام كان من شأنه أن يزعزع الإيمان بالنظام النازى.

ولو أن رومل كان على استعداد لأن يضحى بزوجته وولده، أو لو أنه كان فى صحة جيدة.. أو... لو أنه كان يعتقد إمكان وصوله حياً إلى برلين، إذن فلسك

مسلكاً آخر غير هذا الذين طال حوله الجدل والنقاش، واختلفت فيه الآراء.

وعلى أية حال. يجب ألا ننسى أن رومل كان عليه أن يختار فى خلال ساعة واحدة!

فى السيارة...

ولما حزم رومل أمره، هبط الدرج وبرفقته الدنجر ومنفرد. وكان الجنرالان يتمشيان فى حديقة البيت. ثم تقدموا جميعاً نحو السيارة، فركب رومل أولاً وجلس فى المقعد الخلفى، ثم تبعه بورجدورف وميزل. وقد تركوا المقدم ايرنبرجر ليقوم بالترتيبات الأخرى. وانطلقت السيارة تعدو إلى خارج هرلنجن.

وبعد خمس وعشرين دقيقة، دق جرس التليفون فى بيت رومل، فخف إليه الدنجر، فإذا بالمتحدث هو المقدم ايرنبرجر، من بلدة أولم، قال للدنجر: «إن حادثاً جللاً قد وقع! فالفيلد مارشال رومل حدث له نزيف دموى فى السيارة. وقد فارق الحياة».

ولما لم يجب الدنجر بكلمة صاح ايرنبرجر به سائلاً: «هل تسمع ما أقول؟» فأجابه الدنجر: «نعم، لقد سمعت!».

فقال ايرنبرجر: «أرجو أن تبلّغ أرملة رومل إننى قادم فوراً إلى البيت».

وصعد الدنجر الدرج ببطء يحمل نفسه حملاً، واتجه إلى أرملة رومل. ولم يكن فى حاجة إلى أن يقول شيئاً، فقد كانت تعلم سلفاً بكل شىء!.

وبعد نصف ساعة، سمع صوت سيارة أمام الباب. وتوجه الدنجر إلى الباب. فاذا بالقادم ايرنبرجر، يطلب مقابلة أرملة رومل.

وقال له الدنجر: «إنها لا تستطيع مقابلة أحد الآن!».

ولم يصر ايرنبرجر على مقابلتها، ثم انطلق هو والدنجر بالسيارة إلى مستشفى أولم، فبلغاه دون أن ينبس أحد منهما بكلمة خلال الطريق، وهناك

اقتيد الدنجر إلى حجرة صغيرة، وضع بها جثمان رومل!.

وقد ذكر لى الدنجر أنه لم يتمالك نفسه فى تلك اللحظة، فالتفت إلى الأطباء ورجال الجستابو، وقال لهم: «كنت أحب أن أكون وحدى مع جثمان رومل».

وكانت الدموع تتساقط على خدّى الدنجر، وهو يروى لى تلك القصة. ذلك أن رومل كان صديقه ثلاثين عاماً، كما كان رومل مثله الأعلى فى البطولة. ولا شك أنه من الصعب أن تتصور أن ذلك الانسان الرقيق، الذى خلق ليعمل فى أحد الدواوين الحكومية، قد اشترك فى كثير من المعارك الهائلة إبان حربين عظميين.

وقد كانت زوجته الجميلة تبكى ايضاً، وهى جالسة تخيط بعض الملابس. ان أحداً ممن عرفوا رومل، لا يستطيع أن ينساه!

وفى أثناء غيبة الدنجر، جاء العقيد كوتسمانى، قائد القوات الألمانية فى أولم، إلى بيت رومل فى هرلنجن وكان بالغ التأثر، وهو يعزى أرملة رومل، رغم أنه لم يكن يجهل حقيقة ما حدث. وقد ذكر لها أنه بعد أن نقل رومل إلى المستشفى بلحظات، جاء إليه فى مقر قيادته الجنرالان بورجدورف، واخبراه بأن الفيلد مارشال رومل قد مات، ثم امره بان يتولى اتخاذ الإجراءات الخاصة بجنازته الرسمية.

وفى المساء، جاء الدنجر، واصطحب زوجة رومل، ومنفرد إلى المستشفى. وقد أخبرهم كبير الأطباء هناك أن الجنرالين قد أتيا برومل ميتاً، وذلك فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرين بعد الظهر، وذكر لهم أيضاً أنه بناء على أمر الجنرالين قد أعطاه حقنة منبهة للقلب، ثم أضاف الطبيب إلى ذلك قوله: «ولكن دون جدوى!».

وأحس الدنجر رغبة جامحة فى أن يقول شيئاً ولكنه اعتصم بالصمت.

واستطرد كبير الأطباء فقال: «إن الأوامر قد صدرت إليه من السلطات العليا باجراء تشريح للجثة بعد الوفاة» ثم اقتادهم جميعاً إلى الحجرة التى بها جثمان رومل.

وقد قالت لى أرملة رومل «حينما رأيت زوجى، ألفيت على وجهه امتعاضاً وكراهية بالغة العمق لم أشهدهما قط فى حياته!». ولعل هذا الامتعاض وتلك الكراهية ما تزال باقية بينة الوضوح على قناع رومل حتى الآن.

أخت رومل

وفى مساء اليوم التالى، الخامس عشر من ذلك الشهر، خرج أهل رومل، لاستقبال أخته التى استقدمت من اشتوتجارت. وكانت الأوامر قد صدرت إلى الدنجر بأن يذهب إلى مقر القيادة العسكرية فى أولم، ليقدم تقريراً، فالتقى بهم فى الطريق. وتقول أرملة رومل: «كنا وقوفاً خارج المحطة ننتظر أخت زوجى، وفجأة ظهر الجنرال ميزل، واقترب من سيارتى، ثم راح يعرب لى عن أسفه على فجيعتى فى زوجى، فاشحت بوجهى عنه دون أن أتحدث إليه، وتظاهرت بأننى لا أرى يده التى امتدت إلىّ!» وذكر الدنجر: أن الجنرال ميزل سأله عن مكان أرملة رومل، كما سأله: كيف كان وقع المصاب على نفسها. فأجابه بقوله: «إنها فى السيارة خارج المحطة».

وحينما رأت أخت رومل جثمانه، لاحظت هى الأخرى أمارات السخط والامتعاض المرتسمة على وجهه تماماً، كما لاحظت ذلك زوجته من قبل. ولكن أحداً لم يقل لهم حتى تلك الآونة، كيف مات رومل أو كيف قتل؟!

وحمل جثمان رومل إلى البيت، حيث وضع فى الحجرة نفسها، التى اجتمع فيها مع الجنرالين: بورجدورف، وميزل، ولف بعلم رسم عليه الصليب المعقوف، ولكن أبقى وجهه بلا غطاء.

وصدرت الأوامر أيضاً بأن يكون الجثمان فى حراسة ضابطين، فوقفا

إلى جواره، وقد نكسّ كل منهما سيفه!

وعاد الجنرالان إلى برلين. وبعد أن غادرا البيتَ، تبين الدنجر أن قبعة رومل، وعصا المارشالية، وأوراقة الخاصة، قد فقدت كلها من البيت، فاتصل تليفونياً بالجنرال بورجدورف وطلب إليه أن يعيدها إليه، وقد أعاد إليه القبعة والعصا. أما الأوراق، ولاسيما مسودة الرسالة التى بعث بها رومل إلى هتلر فى الخامس عشر من شهر حزيران السابق، وكانت فى جيب صدريته، فلم ترد إليه!

وقد قتل بورجدورف فى آخر أيام القتال فى برلين، أما الجنرال ميزل فهو ما يزال على قيد الحياة فى المنطقة الأمريكية بألمانيا.

ولقد ذكر ميزل فى إحدى محاكم استئصال النازية فى فرانكفورت منذ سنتين، أن السيارة التى اصطحبا فيها رومل، أوقفت فى الطريق على بعد مئات من الياردات من بيت رومل، وأن الجنرال بورجدورف أمره هو والسائق أن ينزلا من السيارة لأنه يريد أن يخلو برومل. وبعد حوالى خمس دقائق لاحظنا أن الجنرال بورجدورف غادر السيارة أيضاً، وظل حوالى خمس دقائق أخرى يذرع الطريق، ثم أشار إليهما أن يعودا، فلما اقتربا من السيارة كان الفيلد مارشال رومل قد فارق الحياة!».

ويقول السائق: إن رومل كان يتلوى ويتوجع، وأن قبعته كانت ملقاة تحت قدميه فى السيارة فرفعها ووضعها على رأسه، بعد أن أصلح من جلسته!

■ ■ ■



الفصل الثالث والثلاثون

تعازى الزعماء والشعب لأسرة رومل

هملر يتهم كيتل وبودل بقتل رومل
يشيّعون جنازة قتيلهم

وفى محكمة فرانكفورت، ذكر الجنرال ميزل أيضاً أنه «لم يشأ أن يعتقد أن لرومل، وهو الأثير لدى هتلر، أدنى صلة بمحاولة اغتياله».

ولكن ميزل فى التقرير الذى كتبه عن سلوك رومل، ويقع فى صفحتين وقد اطلع عليه بورجدورف فى حينه، كتب يقول: «إننى انتهيت اخيراً إلى الاعتقاد بأن كل الاتهامات التى وجهت إلى رومل صحيحة تماماً».

ومما يذكر أن أرملة رومل، حينما دعيت إلى تلك المحكمة لسماع أقوالها، رفضت لأنها لا تريد أن ترى ميزل مرة أخرى، ولو كان فى قفص الاتهام!

وقد أجل النظر فى قضية ميزل، وانتهى الأمر بحفظها لعدم توافر أدلة الاتهامات.

وفى صيف ١٩٤٩ قدم الجنرال ميزل إلى المحاكمة ثانية بموجب قانون استئصال شأفة النازية فحكم عليه بالسجن سنتين، ولما كان قد أمضى تلك المدة فى التوقيف فقد أطلق سراحه بعد حين من صدور الحكم ضده.

ولقد وصف لى بعض الألمان الجنرال بورجدورف بأنه سكير سفاح ما كان ينبغى له أن يكون قائداً».

ووصف لى بعضهم الجنرال ميزل بقولهم: «فى أى عمل أو مشروع قذر دنىء، فتش فى أعمق أعماقه، تجد الجنرال ميزل هناك بكل تأكيد!».

وصرح لى الجنرال يوهان كرامر- أحد قواد الفيلق الإفريقى- بأن أقصى أمانيه أن يضع يديه على الجنرال ميزل!

وما كاد يذاع نبأ وفاة رومل، حتى أخذت سيول البرقيات والرسائل تتوالى على أرملته مشاركة لها فى مصابها الجلل. وقد بعث إليها هتلر فى السابع عشر من شهر تشرين الأول ببرقية قال فيها:

«أرجو أن تتفضلى بقبول أعمق أسفى، على فقد زوجك، ولا شك فى أن اسم رومل سيرتبط دائماً بمعارك البطولة التى دارت فى شمال افريقيا!».

ويلاحظ أن هتلر فى برقيته هذه أغفل ذكر أعمال رومل فى نورمانديا، ولم يشر بشىء إلى الجروح التى أصيب بها هناك!

وأعرب الدكتور جوبلز فى برقيته إلى أرملة رومل عن شدة أسفه هو وزوجته!

وذكر يواكيم فون ريبنتروب أنه تأثر أشد التأثير حين سمع أن رومل قد مات «متأثراً بتلك الجروح البالغة التى أصيب بها إبان حربه فى فرنسا!».

ثم أكد لأرملة رومل أن انتصارات رومل سيخلدها تاريخ تلك المرحلة العظيمة!

وحتى كسيلرنج- أعدى أعداء رومل فى حياته- كتب بعد وفاة رومل يقول: (فى كثير من الأوقات لم أكن أستطيع التفاهم والاتفاق مع رومل، كما انه لم يكن يفهمنى. على أننى قد سررت بحق حين اسندت إليه قيادة لها شأنها فى الجبهة الغربية، وذلك لإيمانى بالأهمية الكبرى لخبرته الطويلة التى اكتسبها من قتاله ضد البريطانيين والأمريكيين. فضلاً عن إيمانى بأن نشاطه الجم، وشخصيته الملهمة، وحاسته السادسة، وما إليها من مزاياه، كفيلة بأن تمكنه من الحيلولة دون وقوع الكثير من الأمور التى نخشاها).

كما كتب الجنرال جمبارا- أحد القواد الإيطاليين الممتازين- يقول: (سيعيش رومل دائماً، حياً فى قلوب الذين كان لهم- مثلى- شرف رؤيته. وسيظلون دائماً رابطى الجأش، لا يهابون شيئاً تحت وابل النيران).

وأصدر الفيلد مارشال مودل، الذى خلف فون كلوجة فى منصب القائد الأعلى للقوات الألمانية فى الغرب، أمراً يومياً أشار فيه إلى وفاة رومل، وقال: (إن رومل لمن أعظم القادة الألمان، وأنه- إلى جانب قدرته على الحسم الخاطف للأمور- لجندى من أشجع الجنود، جرئ جرأة لا مثيل لها. ولقد كان رومل دائماً فى خطوط القتال الأولى، يلهم جنوده القيام بأعمال جديدة، من أعمال البطولة التى تضرب بها أروع الأمثال!).

هملر يتهم...

وكانت تعزية هملر لأرملة رومل، غريبة حقاً، فى بابها، ذلك أنه بعد وفاة رومل بثلاثة أيام، أرسل إليها مساعده الخاص، ليبلغها- نيابة عنه- أنه يعرف القصة كلها، وأنه رُوع بما حدث، ولا دخل له فيما أصاب رومل!

وتقول أرملة رومل: (إن مساعد هملر، ذكر لها من عنده، بعد أن أدى رسالته، أن هتلر برئ كل البراءة من دم رومل، وان ما حدث كان كله بتدبير كيتل وبودل!).

وقد عاد مساعد هملر، فكتب من جبهة القتال، قبل أن يقتل هو الآخر، رسالة غريبة قال فيها: (إن نهاية رومل كانت «لهدف اسمى»، وأن هتلر وهملر لا دخل لهما فى تلك النهاية الأليمة).

على أن مثل هذا الدفاع عن هتلر وهملر، لا يستغرب من أمثال مساعد هملر هذا، فقد كان من المؤمنين بهما كل الإيمان.

وإذا صح ألا دخل لهملر فى مصرع رومل، فهو نفسه قد اعترف بأنه يعرف القصة كلها، ولاشك فى أنه كان يعرف أيضاً أن كيتل وبودل لا

يستطيعان أن يجرؤا على قتل رومل، دون أمر من زعيمهما هتلر. وليس يصح فى الأذهان أن يحدث اغتيال قائد ذى شخصية كبيرة مثل رومل، دون أن يستشار فى ذلك مستشار الرايخ الأكبر!

والواقع أن المسئولية الأولى فى مصرع رومل، لم يوجد ما يحددها تماماً فى ألمانيا النازية كلها، نظراً إلى أن الأوامر التى كانت تصدر عادة شفوية، لم تكن تسجل على الورق. وأياً ما كان الأمر، فان أسرة رومل وأصدقاءه، لا يرتابون فيمن اصدر أمره باغتياله!

ومما يذكر أن كيتل وبودل لم يبعثا بأية تعزية إلى أرملة رومل، كما أن سكرتير هتلر الخاص كان قد أقيل من منصبه بعد أيام، من إرساله إليها برقية هتلر، لأنه لم يختمها بعبارة (هايل هتلر) التقليدية!

يشيعون جنازة قتيلهم!

وفى اليوم الثامن عشر من شهر تشرين، شيّعت جنازة رومل. وكان النازيون فيها كلصوص شيكاغو، الذين يمشون فى جنازات ضحاياهم فى خشوع. والواقع أن النازيين خير من يتقنون تنظيم المواكب والحفلات. للخداع والتضليل!

وقد أصدر هتلر أمره بإعلان الحداد التام على رومل، عسكرياً ومدنياً، فكان على جميع الجنود فى المنطقة المجاورة أن يشتركوا فى الجنازة. وقد حمل نعشه من البيت إلى كنيسة «أولم» ملفوفاً بعلم كبير يعلوه الصليب المعقوف، وكان الحراس كلهم يلبسون الخوذ الحديدية، وفى أيديهم قفازات بيضاء. وهناك فى إحدى القاعات الكبيرة التى كانت مخصصة للحفلات، وضع جثمان رومل وقد جللت أعمدة القاعة كلها بالأعلام والشارات وأكاليل الغار. وعلى النعش وضعت عصا المارشالية الخاصة برومل وخوذته الحديدية وسيفه. كما وضعت الأوسمة اللماعة التى أحرزها فى الحربين العالميتين على وسادة من المخمل. وكان هناك أربعة من الضباط يحرسون النعش. وكلهم

يحملون شارة الفيلق الإفريقى. وظلوا كذلك حتى حان موعد الصلاة، فحل محلهم أربعة من قواد الجيش الألمانى.

أما واجهة البناء، فكانت تجللها الأعلام. وهناك فى الميدان كانت سريتان من المشاة تقومان بعرض عسكرى، كما كانت هناك سرية من سلاح الطيران، واخرى من فرقة الدفاع. وجوقة كاملة من موسيقى الجيش.

وعلى مداخل الميدان، وقفت بضعة آلاف من عامة الشعب، بينهم كثير من الفتيان والفتيات، ممن كان رومل مثلهم الأعلى فى البطولة.

ودخل خلف النعش أولاً: كبار الضباط من جميع أسلحة الجيش، ثم مندوبو حزب النازى، فكبار موظفى الرايخ، فحلفاء ألمانيا.

كلمة هتلر فى تأبين رومل

وأخيراً، جاء الفيلد مارشال فون رونشتدت- أكبر ضباط الجيش الألمانى- ودخل مع أسرة رومل، فعزفت الموسيقى المارش الجنائزى، ثم القى فون رونشتدت كلمة باسم هتلر، القائد الأعلى للجيش، وقدم لها بقوله: (لقد دعانا قائدنا الأعلى إلى هذا المكان لنودع الفيلد مارشال رومل، قائده الذى سقط فى ميدان الشرف).

وقد لوحظ أن وجه فون رونشتدت بدت عليه علائم الشيخوخة، حين بلغ فى الكلمة التى القاها، وصف الصبر والجلد اللذين تلقى بهما رومل ما أصيب به من الجروح على أيدى الأعداء ابان القتال فى نورماندبا. ثم مضى فقال: (إن المصير القاسى قد اختطف منا رومل، فى اللحظة التى حمى فيها وطيس القتال، وكاد يتأزم). ثم أخذ يعدد بعد ذلك أعمال رومل فى كلا الحربين، وأفاض فى الحديث عن المعارك التى خاض غمارها فى إفريقيا، منوهاً بالتقدير الذى يكنه له حتى أعداؤه).

ومر فون رونشتدت مرور العابر على أعمال رومل فى نورماندبا قائلاً:

(لقد عمل روميل دون كلل لإعداد خطة ضد الغزو. وعندما بدأت المعركة، اشترك فى القتال دون أن يقيم أدنى وزن لما قد يحل به من الأخطار).

ولقد توازنت عناصر العزاء والرياء فى العبارة التى اختتم بها فون رونشتدت كلمته فقال يصف إخلاص روميل لهتلر والنازى: (هذا المحارب الذى لم يكن يشعر بالتعب فى سبيل هتلر والرايخ، لانه أُشرب روح الاشتراكية الوطنية، هذه الروح هى التى أعطته القوة التى يعتز بها، كما كانت هى الينبوع الأساسى لكل ما قام به من أعمال. أن قلب روميل ملك لزعيمه هتلر!).

ثم وضع بين يدى نعش روميل إكليلاً من الزهور، قائلاً: (باسم أدولف هتلر!). وفى أثناء ذلك كانت الموسيقى تعزف النشيد الألمانى المعروف (كان لى زميل!).

ومن تلك القاعة، نقل نعش روميل على عربة مدفع، تجرها إحدى جرارات المشاة، ويتقدمها اكليل الزهور الذى بعث به هتلر، ووسادة من المخمل عليها أوسمة روميل.

وانتهى المطاف بالنعش أخيراً، إلى المكان الذى تقرر أن تحرق جثة روميل فيه، ليذهب سر مصرعه، كرماد جثمانه، مع الريح!

وقد جاء الأميرال روجة فى قطار خاص من برلين، لينوب عن البحرية الألمانية فى الاحتفال بتشييع جنازة روميل.

ولم يكن روجة يعلم شيئاً عن حقيقة الحال. على أن الشك بدأ يساوره. حينما لاحظ اضطراب رونشتدت. وسمع ما قاله عن إخلاص روميل لهتلر والنازية. ثم ازداد شكاً فى الأمر حين تخلف رونشتدت عن حضور حرق جثة روميل!

وكان بين اللائى اشتركن فى جنازة روميل: زوجة شبيدل، وزوجة شترولن، وزوجة فون نويرات. ولا شك أن اشتراكهن فى الجنازة كان ضرباً من

الشجاعة والجرأة نادر المثال فزوجة شبيدا- مثلاً- لم تكن تتوقع أن تراه حياً بعد اعتقاله والزج به فى سجن الجستابو بشارع البرخت، فقلما خرج من ذلك السجن ممن دخلوه أحد حياً!

ولقد فطن شترولن إلى جلية الأمر، منذ اتصلت به أرملة رومل ونعته إليه!

ولم يكن ثمة ريب فى أن مئات من رجال الجستابو، كانوا منبثين خلف الجنازة، يحسبهم الرائى فى ثيابهم المدنية، من الفتيان الذين بث رومل فيهم روح الفتوة ودماثة الأخلاق!

ولم يكن عجباً أن تمعن زوجة شبيدل فى حذرها، فلم ترد تحية شترولن!

على أن الاعتقال فى مثل تلك الحالة كان يبدو غير متوقع، ولاسيما أن الذين كتبوا فصول هذه المأساة حرصوا على أن يخرجوا الفصل الأخير منها، إخراجاً فنياً يجمع بين الوقار والأسى. فكان الجو الذى ساد الجنازة منبئاً فى وضوح أن الجميع يكنون للفيلد مارشال الراحل وذكراه، أعمق التقدير والإجلال!

وفى اليوم التالى نقل رماد جثة رومل إلى بيته فى هرلنجن.

وتقع هرلنجن فى واد تحفَ به الغابات ذوات الأدواح. وهى قرية جميلة، ابنيتها بيضاء، وسقوفها حمراء، ويشقها جدول صفا ماؤه، وطاب هواؤه.

وفى الربيع، تبدو تلك القرية فى أبهى حللها، إذ تمتلئ حدائقها بالزهور. فاذا كان الوقت خريفاً، كما هو الشأن فى ذلك الحين، فان أوراق الأشجار تستحيل إلى ما يشبه الذهب!

وهناك، فى ناحية من القرية، كانت تقبع مقبرتها البسيطة المحاطة بالأشجار والأزهار، تعلوها صلبان خشبية كتلك التى نشاهدها فى مقابر الجنود، وعلى هذه الصلبان نقشت أسماء أبناء القرية الذين ماتوا فى

إفريقيا، وكاسينو وريجا وبلجورد وغيرها!

أما الكنيسة التى تقرر أن يدفن فيها رومل، فيحيط بها سور شاهق أبيض، تبدو فى أدناه زهور نابتة بيضاء. وقد خصص جانب من هذا الحائط ليكون مثوى رومل الأخير، فى تلك البقعة الهادئة بين الأهل والأصدقاء!.

■ ■ ■

الفصل الرابع والثلاثون

يحاولون اغتيال منفرد أيضاً!

شبيدل ينجو من الاعتقال
هتلر يضع تمثالاً

ليس أمراً هيناً أن تسأل سيدة عن شعورها، وهى واقفة أمام قبر زوجها الذى اغتيل. ولكنى كنت أعرف أن الأمر مختلف جداً فيما يختص بأرملة روميل فسألتها: (ألم تحدثك نفسك بأن تفضحى أمر أولئك المجرمين الذين اختطفوا زوجك العظيم؟).

فقالت: لقد جاهدت نفسى كثيراً حتى أفعل ذلك. وحينما كان فون رونشتدت يؤبن زوجى فى القاعة الكبرى كانت نفسى تشتعل ثورة، وكدت أصرخ فيهم قائلة: (كفى.. إنكم تكذبون) ولكن ما جدوى هذا كله؟! لقد كان سهلاً على الجستابو أن يحولوا بين كل كلمة أقولها وبين الأسماع، من حيث لا يشعر أحد غيرهم. وكانوا بعد ذلك قادرين على أن ينالوا من زوجى أمام الرأى العام، وعلى أية حال كان زوجى قد مات، وكان علىّ أن أفكر فى منفرد ابننا.

وسكتت أرملة روميل قليلاً، ثم استطردت تقول: قد يكون الأمر فيما يختص بى أنا، ليس ذا شأن فى اعتقادى. ولكن ينبغى أن تعلم ماذا صنعت السلطات الألمانية بأقرباء روميل الآخرين، الذين أعدموما بعد يوم ٢٥ تموز، وينبغى أن تعلم أن منفرد كان على وشك أن يغتال هو الآخر. أن القوم على شىء كثير من المكر والدهاء. ثم لا تنسى أن زوجى نفسه قد تفاهم معى على

ما ينبغى عمله، ولهذا كله لن أهاجم أحداً، ولن أتحدث عن تلك المؤامرة الدنيئة، وما كان لى أن أبدل أو أغيّر فيما قاله زوجى أو اعتزمه، وهكذا مضى كل شىء وفقاً لخطة موضوعة!

على أن أحداً لا يدرى- على التحقيق- لم كان تلعثم فون رونشتدت وهو يلقى كلمته باسم هتلر فى تأبين رومل، ولماذا لم يحاول فون رونشتدت أن يتحدث إلى أرملة روميل؟ ثم لماذا كانت نظراته الشاردة الغريبة، حين مر به كل من شترولن وفون نويرات؟!

ويقول شترولن: (إن فون رونشتدت لم يعلم إلا أخيراً بالخطة التى وضعت للتخلص من روميل، ومن المرجح أنه قام مكرهاً بذلك الدور الذى فرضوا عليه تمثيله، ذلك لأن فون رونشتدت جندى حق وجنتلمان أيضاً، ولم يعرف عنه أنه حاد عما كان يكنه لهتلر ولحزب النازى، من كراهية واحتقار!).

ويمكن القول بأن الارتيابات فى حقيقة مصير روميل لم يكن عاماً، بل كان مقصوراً على الخاصة العالمين ببواطن الأمور. أما من عداهم من الألمان خارج نطاقة القيادة العليا، والدوائر الداخلية لحزب النازى، فكانوا يعتقدون أن روميل مات متأثراً بالجروح التى أصيب بها فى الميدان، ومن هنا يبكوه مخلصين، ولم يشغلهم عن التحدث بمآثره ومزاياه، ما كانوا فيه يومئذ من كرب عظيم أنزلته بهم قذائف الطائرات والمدافع المعادية.

وقد قال لى النقيب هارتمان من مدينة هايدنهيم: لم تكن لدىّ أى شكوك فى أول الأمر، ولكن حدث بعد أن شيعت الجنازة ببضعة أيام، أن لفت نظرى أحد الأصدقاء إلى ما اكتنف نهاية روميل من الغرابة والغموض. على أنى لم أقتنع فى ذلك الحين بأن هناك ما يريب. ذلك لأننى رأيت روميل بعد موته، وكان وجهه هادئاً تماماً. ولم تكن هناك أية علامة تدل على أنه مات مقتولاً بالرصاص أو بغير الرصاص. كما أنى كنت قد امضيت معه يوماً كاملاً فى هرلنجن، قبل وفاته بثلاثة أسابيع. وكان يومئذ قد شفى من

مرضه، وبدا فى حالة تمكنه من معاودة نشاطه فى الميدان. وقد تحدث معى عن الحرب العظمى الأولى، وكانت ذاكرته تبدو على أتم قوتها فهو يذكر الأسماء، ويحدد تاريخ الحوادث والوقائع بكل دقة. وادركت من خلال حديثه أنه يتوقع أن يعيّن فى منصب جديد، لأن هذا لا يوافق هوى جورنج والقيادة الألمانية العليا. كما صرح بأن ألمانيا قد خسرت الحرب، ولم أسمع منع شيئاً يدل على أنه يخشى على حياته أو سلامته.

ولم يدرك هارتمان حقيقة الأمر إلا من أرملة رومل وذلك فى نيسان سنة ١٩٤٥.

جندى أعرج فى الميدان

وفى أثناء ذلك كانت أسرة رومل قد استأنفت حياتها العادية فى ذلك البيت المنعزل على سفح التل فى هرلنجن. ولم يطرأ خلال ذلك أى شىء غير عادى، اللهم إلا ما حدث بعد أيام من الاحتفال بجنازة رومل، إذ تلقت أرملته أمراً من القيادة الألمانية العليا، بارسال الجندى الذى كان معيناً لخدمة رومل فى البيت إلى الميدان.

وكان هذا الجندى أعرج غير صالح للخدمة العسكرية، إذ أطاحت باحدى قدميه شظية، كما أن شظية أخرى جرحت صدره جرحاً بليغاً. وكان هو الذى تلقى الرسالة التليفونية فى يوم ١٣ تشرين أول، بانتظار قدوم الجنرالين بورجدورف وميزل لزيارة رومل!

ولم يجد احتجاج أرملة رومل، بأن ذلك الجندى لا يكاد يستطيع السير، فأرسل إلى الميدان بالقرب من براغ. وكان لأرملة رومل صديق ذو نفوذ فى هيئة أركان حرب الجيش الذى يحارب فى جبهة براغ، فتمكنت بوساطته من إعادة ذلك الجندى إلى بيتها، ولكن القيادة الألمانية العليا ما لبثت أن دعته مرة أخرى إلى الميدان، وبعد أيام من ذهابه علمت أنه قتل هناك.

وقد علقت أرملة رومل على ذلك الحادث قائلة فى اسف خفى مرير: (لست أفهم تماماً معنى إصرار القيادة العليا على إرسال جندى أعرج مريض برتبة نفر إلى الميدان. فقد يكون هذا للحاجة الماسة إلى الجنود، وقد يكون لأن أرملة مثلى لفيلد مارشال مات، لم يعد لها حق فى أن يخدمها أحد الجنود!).

تخاف على ابنها ويخاف عليها

وفيما عدا هذا لم يكن يضايق أرملة رومل أى شىء، حتى فطنت إلى أن هناك رجلين من جنود فرقة الدفاع، يحومان حول بيتها متنكرين وقد بلغت بهما الجرأة يوماً دخول حديقة البيت!

وهى تقول فى ذلك: (لقد كان هذان الرجلان، يوليّان الأدبار كلما رأيانى، ولم أتحقق أن لهما أى قصد سىء. وءيا ما كان الأمر فأننى لم أفقد أعصابى رغم توقعى أن دورى لابد أن يجئ آخر الأمر، حينما يفرغ القوم من اغتيال كل من يعلمون بوقوفه على حقيقة نهاية زوجى. والحق انى لم أكن لأعبأ بأى خطر يهددنى، ولكنى كنت دائمة القلق على منفرد ولدى، فلم يكن ثمة أيسر من أن تحمل إلىّ الأنباء نعيه ذات صباح أو مساء، مع الإشارة التقليدية إلى سقوطه صريعاً فى ميدان الشرف خلال قيامه بواجبه العسكرى!).

ويقول منفرد: «الواقع أننى لم أكن قلقاً على نفسى بقدر قلقى على حياة أمى. وصحيح أننى كنت أعرف الكثير عن مأساة نهاية أبى، وأننى كنت أعتقد أن القوم لابد قد فكروا فيما يمكن أن يدفعنى إليه الشباب والحماسة لأبى، من الخوض فى حديث تلك المأساة. يضاف إلى هذا أن قائد فوجى كان نازياً متطرفاً، وكان يخيّل إلىّ دائماً أنه لا يفتأ يحدجنى بنظرات تؤكد هذا المعنى فى ذهنى. ولهذا اعتزمت أن ألقى بنفسى فى أسر الأمريكيين عند أول فرصة تسنح لذلك، عقب ما كان متوقعاً من دخولهم بلدة أولم!».

وحدث يوماً وبينما كان منفرد يشق طريقه إلى خطوط الفرنسيين عند

«ريدلنجن» على الدانوب، أن لمحه حينذاك بعض جنود فرقة الدفاع الألمانية الإرهابيين، وكانت الأوامر الصادرة إليهم تقضى باعتقال أى جندى ألمانى يجدونه خارج خطوط القتال دون عذر مقبول، ثم شنقه عند أقرب شجرة!

ولم يكن ألذ لأولئك الجنود القساة الغلاظ الأكباد، من مباشرة تنفيذ تلك الأوامر الدموية الفظيعة. ولعل فى هذا ما يكشف الغطاء عن سر تلك الجثث الكثيرة التى طالما شاهدها جنودنا مدلاة من أشجار الغابة السوداء، ومن الأشجار الأخرى المنتشرة فى تلك الطرقات!

ولم يشك منفرد، فى أن مصيره فى تلك اللحظة قد تقرر على تلك الصورة البشعة، حينما استوقفه أولئك الجنود واستجوبوه.

ولكنه نجا بمعجزة من ذلك المصير فقد صدق الجنود ما قال لهم من أنه وقع فى أيدى الفرنسيين منذ قليل، ثم أفلح فى أن يهرب منهم!

ويقول منفرد: «لقد كان سرورى عظيماً بنجاتى من القتل بأيدى جنود فرقة الدفاع، ولكن سرورى كان أعظم حين علمت بنجاة أمى أيضاً!».

ولم يطل انتظار منفرد بعد ذلك، فلم تمض أيام حتى وقع أسيراً.

وحينما علم الجنرال دى تاسينى أنه ابن رومل، أكرم مثواه، وعينه فى وظيفة مترجم، ثم لم يكفه كل هذا الإكرام لذكرى رومل خصمه، فأخذ على عاتقه نقل أخبار منفرد إلى أمه!

ومما يبعث على الدهشة، أن الدنجر لم يعرض له أحد بسوء، رغم الاعتقاد السائد بأنه يعرف الكثير عن حقيقة نهاية رومل. على أنه لم يسلم من قضاء ساعات شديدة الحرج، قبل استسلام ألمانيا.

وكذلك يبدو عجيباً أن شترولن، استطاع هو الآخر أن يفلت من الاغتيال، أو على الأقل من الاعتقال!

ويبدو أن شترولن كان أشد دهاء وذكاء من الجستابو، أو لعل القرائن

ضده لم تكن كافية، ولاسيما أن اشتراكه فى التآمر على اغتيال حياة هتلر، كان اشتراكاً غير مباشر، أى من بعيد.

ثم أن شترولن كان محبوباً لدى أهل اشتوتجارت، وكان معروفاً لدى كثيرين من خارج ألمانيا، فربما كان هذا مما أدى إلى تركه وشأنه.

أشبيدل ينجو من الاعتقال

أما الجنرال أشبيدل، فان فراره من الاعتقال يعد حقاً إحدى المعجزات ولاشك فى أن هذه المعجزة حدثت بفضل ما عرف به شبيدل من علم واسع وحكمة بالغة، وذكاء خارق، وارادة حديدية، وما إلى ذلك من المزايا التى استطاع بها أن يتغلب على مكايد الجستابو، وتصرفاتهم مع خصومهم.

ولاشك فى أن اسمه كان فى قائمة الدكتور جوردلر، فضلاً عن أن جوردلر نفسه قد أدلى، تحت ضغط التعذيب، بكثير من الأسماء الأخرى. فلماذا لم يشنق الدكتور أشبيدل؟

لقد أجابنى هو نفسه عن هذا السؤال فقال: «أعتقد أن سبب ذلك أننى التزمت الهدوء التام، وأننى ناقشت كل شىء معهم نقاشاً منطقياً خالياً من أية عاطفة، واستطعت أن أحملهم على الاقتناع بأننى لا أعبأ بمصيرى أياً ما كان، وبأن كل ما يعنينى هو الوصول إلى الحقيقة. وكانت أشد اللحظات حرجاً حين واجهونى بالكولونيل فون هوفاكر من هيئة أركان حرب الجنرال اشتيلبناجل، وكنت قد سمعت أنه قد أُعطى بعض العقاقير، أو عُذب حتى أدلى بكثير من الاعترافات!».

والمعروف أن الجنرال أشبيدل حينما كان فى السجن لم ترفع عنه الحراسة لحظة من ليل أو نهار!

ولم يكن أحد ليتوقع أن يستطيع أشبيدل إقناع الجستابو بأنه برئ، ولكنه استطاع بتفوقه عليهم جميعاً من الناحية العقلية، أن يثير الريبة فى أمر

اعتقاله، بل إنه استطاع أيضاً أن يجعلهم يشعرون بسخف تفكيرهم وإجراءاتهم، وبذلك أفلح فى إنقاذ حياته، ولو إلى حين.

وقد ذكر لى أشبيدل أنه استطاع أيضاً أن يقنعهم «بأن من المستحيل أن يكون لرومل أى يد فى الحوادث التى وقعت فى ٢١ تموز سنة ١٩٤٤».

ومهما يكن من قدرة أشبيدل على الجدل دون خوف أو قلق، واستطاعته لذلك أن ينجو من كراهية هتلر له، فانه لم يستطع أن ينجّى رومل من تلك الكراهية التى يكنها هتلر له.

ولعل هتلر لم يرد التخلص من رومل لاعتقاده بأنه من دعاة الهزيمة، بل لأنه كان مصيباً فى كل ما رآه فى إفريقيا ونورمانديا، فى الوقت الذى ثبت فيه خطأ كل من بودل وكيتل!

ولعل هتلر يكون قد أدرك أن إعدام أشبيدل، وهو رئيس هيئة أركان حرب رومل، قد يثير الشكوك حول تلك المهزلة الواضحة التى دبرت للتخلص من رومل!

ولقد أفلح الدكتور أشبيدل الفيلسوف، فى إحباط حبائل القضاء النازى طيلة سبعة أشهر، ولكن هذا لم يفلته من سجن الجستابو، لأنهم لا يستسلمون أمام فرائسهم بسهولة، وقد أبقوه على أمل أن يجدوا الأدلة القاطعة على إدانته فى يوم من الأيام.

وهكذا ظل أشبيدل حتى الأسابيع الأخيرة من الحرب، رهن التحقيق معه فى أمور أخرى، حامت حولها الريبة فى «أورنا» على بحيرة كونستانس، وكان يقوم على حراسته جنود باشراف ضباط طمن ضباط فرقة الدفاع. وكانت الأوامر التى صدرت إلى هذا الضابط تقضى بأن يحول دون وقوع أحد من المعتقلين حياً فى قبضة الحلفاء. وهنا تجلت عبقرية اشبيدل العسكرية فأرسل إلى هذا الضابط، بالاتفاق مع حاكم السجن الذى كان صديقاً له، برقية زائفة على أنها من هملر نفسه، يقول له فيها أن يتهيأ لنقل المعتقلين

إلى مكان آخر، أكثر سلامة وأمناً. وكان على الضابط أن يتصل بهملر تليفونياً فيما بعد ليتلقى منه تعليمات أخرى. لكن تليفون السجن كان قد قطعت أسلاكه، فلم يكن أمام الضابط إلا أن يذهب إلى مكان آخر ليتحدث فى التليفون. وفى فترة غياب الضابط خارج السجن، أذن حاكمه لصديقه اشبيدل وعشرين معتقلاً معه، أن يهربوا.

وقبل أن يعود الضابط إلى السجن، كانوا قد اختفوا لدى قس كاثوليكى رومانى.

ومضى الجستابو يبحثون عنهم. ولكن المنطقة ما لبثت أن احتلتها قوات الحلفاء!

تلك إذن نهاية قصة رومل.

وأرى لزاماً علىّ أن أعود إلى الوراء بضعة أسابيع، لأتحدث عن أغرب لحظة فى تلك المأساة.

ففى آذار سنة ١٩٤٥ عندما أخذ العالم يهوى فوق رأس هتلر، تسلمت أرملة رومل رسالة بتاريخ ٧ آذار. وكانت هذه الرسالة من رئيس لجنة إنشاء قبور الجنود الألمان وكان فيها ما يلى:

«لقد أصدر هتلر إلينا أمره بأن نقيم نصباً تذكارياً للفقيد الفيلد مارشال رومل، ولقد طلبت عدداً من المثالين ليضعوا تصميماً لهذا النصب. وتجدين مع هذه الرسالة بعض هذه التصميمات على أنه ليس من الميسور الآن أن نقيم نصباً تذكارياً أو أن ننقله. وكل ما نستطيعه هو صنع نموذج له.

«وبين النماذج تمثال يصور رومل على هيئة أسد يحتضر، وآخر يمثله فى صورة «أسد يبكى»، وثالث يمثله «أسداً يتحفز للوثوب»، وإننى أفضل التصميم الأخير، أما إذا كنت تؤثرين عليه الأسد الذى يحتضر، فلك ما أردت، وحينئذ نقوم بالترتيبات اللازمة..».

«هذا وأن الواجهة الرخامية يمكن إنهاؤها فوراً، فلدى بذلك إذن خاص من الوزير ألبرت أشبير. ومع أن النصب التذكارية، لا يمكن عملها الآن من الحجارة فقد رئى، نظراً إلى حالة رومل الخاصة، أنه من الممكن الحصول عليها وارسالها».

ولم ترد أرملة رومل على هذه الرسالة..

■ ■ ■

الفصل الخامس والثلاثون

مذكرات رومل السرية

خبرة ثلاثين عاماً

كتاب الهجمات البرية

حاسته السادسة

انتهينا فى الفصل الأخير من ترجمة كتاب «رومل» الذى ألفه أمير اللواء دزموند يونج. ولم يبق أمامنا إلا تلك الضميمة التى أضافها المؤلف إلى كتابه أعنى «يوميات رومل» نفسه وتقع هذه الضميمة فى ثلاثين صفحة من أصل الكتاب.

ويقول المؤلف فى تقديم هذه اليوميات:

«بعد أن انتهيت من طبع هذا الكتاب ولم يبق إلا أن يغلف، علمت من منفرد- ابن رومل- أنه أفلح فى الحصول على بعض مذكرات أبيه، التى كان قد أخفاها قبل موته حتى لا تقع فى أيدى الجستابو، ولاسيما أنها تتضمن نقداً لاذعاً لهتلر وللقيادة الألمانية العليا».

«وإزاء هذا طرت إلى ألمانيا فى اليوم التالى، حيث تمكنت فى بيت رومل بهرلنجن، من فحص جانب من مذكرات رومل أو يومياته، ومن قصص المعارك، والتعليقات العسكرية، التى كتبها أو أملاها فى فترات متقطعة من أوقات فراغه إبان الحرب، وحينما كان نزيل مستشفى اتسميرنج فى صيف سنة ١٩٤٢، أو خلال فترة ما بين تركه قيادة المعارك فى تونس، وبين قيادته

لجانب من الجيوش الألمانية فى الجبهة الغربية».

وليست المقتطفات التى أضفتها إلى الكتاب، وقد استغرقت ثلاثين صفحة سوى جزء يسير مما فحصته من المذكرات والتعليقات التى تركها رومل، وهناك جانب كبير منها لم أتمكن من فحصه.

«ولاشك فى أن ليوميات رومل أهمية عسكرية كبيرة، فضلاً عن أنها تكشف عن مواهبه الفذة فى القدرة على التعبير السريع، مما لا يتيسر إلا لمن أوتى عبقرية فى القيادة الحربية وسرعة الحركة وحسم الأمور».

هذا إلى ما ليوميات رومل من أهمية خاصة عند من يريدون دراسة الحملة على شمال إفريقيا، وإنّا لنرجو أن تظهر فى القريب العاجل ترجمة إنجليزية لهذه الأكداس من المذكرات التى وصف فيها رومل ما شهده من المعارك وصفاً موجزاً، ولكنه فى الوقت نفسه دقيق كل الدقة، فكان مثله فيه كمثل الرسام الممتاز الذى يعطيك فى خطوط قليلة صورة معبرة عن كل خصائص صاحبها أحسن التعبير.

خبرة ثلاثين عاماً

وقد استهل رومل يومياته بقوله: «إن الميدان الإفريقى كان وحده، دون الميادين العسكرية الأخرى، الذى استخدمت فيه الأساليب الحديثة فى القتال، كما أن الصحراء الغربية كانت أول الميادين التى التقى فيها الحلفاء بالألمان[1]».

وفى كثير من الأحيان يوجه رومل حديثه فى يومياته إلى القواد العسكريين، وينصح لهم باتخاذ موّقف دون سواه، وهو فى هذه النصائح إنما يصدر عن خبرة طويلة استمرت منذ التحق بلواء المشاة الرابع والستين فى التاسع عشر من شهر تموز سنة ١٩١٠ إلى أن مات، أى أكثر من ثلاثين عاماً.

ويبدو طابع رومل المدرس أو الأستاذ، فى كتابة هذه اليوميات واضحاً جلياً، فهو يحرص على أن ينبه القارئ العسكرى أو المعنى بالشئون العسكرى،

إلى بعض الأمور العسكرية الدقيقة التى لا يفطن إليها غير الخبراء الممتازين.

وهو يقرر أن تجاربه قد دلت على أن الحسم أو القرار الجرئ يؤتى خير الثمرات. على أنه يستدرك فيقول: «إن هناك فرقاً بين الجرأة فى العمليات أو التكتيكات، وبين المغامرة العسكرية.

فالعملية الجريئة ليست لها إلا فرصة واحدة للنجاح، ولكن إذا قدر لها الفشل، فستترك للقائد قوات سليمة كافية تمكنه من معالجة الموقف، والثبات على قدميه. أما المغامرة العسكرية، فهى إما أن تقود إلى النصر، إما أن تحطم القوة التى تستخدم فيها كل التحطيم».

ولا يفوت روميل أن يعلق على مواقف خصومه من البريطانيين تعليقاً مباشراً ينم عن فهم واضح للموقف.

ومن بين ثنايا هذه المذكرات يطالعنا روميل بتنبؤات تصور بها بديهته، مواقف أعدائه وما ستؤدى إليه هذه المواقف، وقد أثبتت الأيام صحة هذه التنبؤات.

ولقد أفاض روميل فى الحديث عن «تفوق الحلفاء الجوى»، وعن مدى أهمية هذا التفوق، والنتائج العسكرية الهائلة التى ترتبت عليه، لا فى الصحراء الغربية حسب، بل فى الجبهة الغربية وكل الميادين أيضاً.

وقد رأينا كيف كان سلاح طيران الحلفاء سلاحاً قاضياً مهلكاً قبل فتح الجبهة الثانية، وفى إبان الغزو، بعد أن نزلت قوات الحلفاء فى فرنسا.

وكان هذا كله مما تضمنته التقارير التى كتبها روميل وقدمها لهتلر، وأيده فيها بعض القواد الآخرين.

ومما ذكره روميل أن تفوق البريطانيين فى الجو قد جعل الرياح تذرو كل الجهود الألمانية، وكل قواعد التكتيك التى وضعوها، ولا سبيل إلى مقاومة هجمات العدو الجوية، إلا بالتفوق عليهم جوياً.

كتاب الهجمات البرية

ومما يذكر أن هذه اليوميات قد عاون رومل فى كتابتها وتنظيمها كلا من النقيب الدنجر زميله المخلص الوفى له، وكذلك النقيب هلموت لانج.

وهى تذكرنا بعبارتها وطريقة عرضها وتبويبها، بالكتيب الصغير الذى أصدره رومل وسماه «الهجمات البرية»، مدوناً فيه محاضراته التى ألقاها فى مدرسة المشاة فى درسدن، فيما بين أول تشرين أول سنة ١٩٢٩ حتى ترك المدرسة فى الثلاثين من أيلول سنة ١٩٣٣، وقد أودع رومل هذه المحاضرات خلاصة تجاربه الشخصية إبان الحرب العظمى الأولى، فى بلجيكا وهضبة أرجون، وجبال الفوج والكربات وإيطاليا. كما وصف فيه التكتيكات الصغرى، وصفاً بارعاً، وزوده بخرائط تخطيطية، كما رسم فيه دروس التكتيك رسماً واضحاً، ولقد أصبح هذا الكتيب من المراجع المقررة فى الجيش السويسرى، الذى أهدى إلى رومل ساعة ذهبية إعجاباً بهذا الكتيب الممتاز حقاً، رغم ضآلة حجمه.

وكان هذا الكتيب نقطة التحول فى حياة رومل، ذلك لأن هتلر ما كاد يطلع عليه حتى أعجب بمؤلفه، وأدناه منه، وجعله قائداً للفرقة التى تتولى حراسته.

فــروميل هو ذلك المخلوق النادر الذى لا يرى، أو الذى لا لون له، ذلك الإنسان الذى تخصص فى فن معين، وله عقلية «أحادية» الاتجاه، أو ذات اتجاه واحد، ومقصد واحد، وهدف بعينه.. روميل هو ذلك الجندى النظامى الذى لم تكن له أية متعة فى الحياة ولا هواية قط، عدا فنه العسكرى.

فلم يقرأ روميل فى حياته كلها كتاباً لا يهتم بالأمور العسكرية، فقد حصر عقله فى هذا الباب دون سواه، وقد تظن أن هذا التضييق فى نطاق التفكير قد جعل من روميل إنساناً محدود الذكاء أو غبياً، ولكن الواقع يدل على عكس

ذلك تماماً. فقد ذكر لى الجنرال الدكتور أشبيدل الفيلسوف الممتاز، أن رومل لعله لم يقرأ فى حياته كتاباً قط لا يهتم بالأمور الحربية.

وحين سألتُ أشبيدل: ألم يكن رومل غبياً بعض الشىء؟ كان أشبيدل قد حملق فى وجهى قائلاً: كلا لم يكن غبياً. إن هذا آخر شىء يمكن أن ينعت به.

وكان خير معين لرومل فى تلك المعمعة التى خاضها بشجاعة نادرة، وببراعة فائقة، ذلك الإحساس الغريب أو تلك الحاسة السادسة التى يسميها الألمان «الاستشعار بأطراف الأصابع» Fingerspitzengefuhl تلك الحاسة السادسة التى شهد له بها كل معاونيه وزملائه ورؤسائه.

■ ■ ■



الفصل السادس والثلاثون

الصحراء الغربية فى ميدان للتجارب

ضرورة التشكيلات الآلية

قواعد الحرب المقبلة

يستهل الفيلد مارشال أرفين رومل يومياته بقوله: «ربما كان ميدان شمال إفريقيا، أول ميدان شهد الحرب الحديثة، من حيث الأسلحة وأساليب القتال. فقد كنا فى الصحراء الغربية نواجه تشكيلات آلية كاملة. وكانت هذه الصحراء المترامية الأطراف، الخالية من العقبات الطبيعية، تفتح أمامنا أبواباً لا حصر لها فى الهجوم والدفاع والحركة.

ففى الصحراء وحدها يمكن تطبيق قواعد الحرب الآلية، وحرب الدبابات تطبيقاً تاماً، سواء فى ذلك القواعد التى تعلمناها قبل سنة ١٩٣٩، أم القواعد التى جدت، أو التى يمكن اتخاذها. ذلك لأن ميدان الصحراء الغربية كان فى الوقت نفسه حقلاً للتجارب. فهناك فى الصحراء وحدها وقعت بحق معارك الدبابات، والتشكيلات الكبيرة المدرعة. وحتى فى الحالات التى كان النضال فيها بالغ القسوة، وحتى فى الحالات التى بدت الحرب خلالها جامدة ساكنة، كما رأينا ذلك فى أهم مراحلها إبان الهجوم الذى شنه كننجهام وريتشى فيما بين سنتى ١٩٤١ و١٩٤٢، وفى صيف سنة ١٩٤٢ حتى الاستيلاء على طبرق، حتى ذلك الوقت ظلت الحرب هناك تعتمد أولاً وقبل كل شىء على سرعة الحركة!

وهذا ولا شك شئ جديد من الناحية العسكرية. ذلك لأن هجومنا فى بولندا وفى الغرب، كان ضد أعداء اعتمدوا دائماً فى عملياتهم العسكرية على فرق المشاة غير الآلية، كما أن حريتهم فى حسم الأمور كانت محدودة جداً، ولاسيما فيما يتصل بالانسحاب. ولقد كان أعداؤنا فى بولندا وفى الغرب، يضطرون فى كثير من الأحيان- لاهتمامهم بقوات المشاة غير الآلية- إلى اتخاذ خطوات لا تجدى إطلاقاً فى تعويق تقدمنا. فبعد أن اقتحمنا فرنسا، كانت فرق مشاة العدو واقفة تحت رحمتنا، نلاحقها ونطاردها ونطوقها بقواتنا الآلية. وفى أثناء ذلك كان احتياطى العدو مكرهاً على أن يلقى بنفسه إلى الهلاك بأيدى قواتنا المهاجمة، محاولاً بذلك أن يكسب الوقت، لتتمكن قوات المشاة من الانسحاب، قبل أن يتم تطويقها وإبادتها. وطبيعى أن العدو كان يلجأ إلى ذلك حين يكون فى مراكز غير ملائمة له من الناحية التكتيكية.

ضرورة التشكيلات الآلية

إن فرق المشاة غير الآلية، لا تبدو قيمتها ضد قوات العدو الآلية أو المدرعة، إلا إذا كانت فى مراكز قد أعدت من قبل. فإذا حدث أن اخترقت هذه المراكز، أو طوقت وأكره الجنود على الانسحاب، فانهم يكونون فرائس سائغة لقوات العدو الآلية وفى الحالات البالغة الدقة والحرج لا يستطيعون إلا أن يتشبثوا بمراكزهم حتى آخر جولة، لأن الانسحاب يحدث ارتباكاً هائلاً، نظراً إلى ضرورة استخدام التشكيلات الآلية لكسب الوقت، ولحماية مؤخرة الانسحاب!

لقد عانيت أنا نفسى هذه المحنة خلال تقهقر قوات المحور من برقة فى شتاء كل من سنتى ١٩٤١ و١٩٤٢، وذلك لأن كل الجيش الايطالى فى الصحراء، وجانباً كبيراً من الألمان المشاة، ومنهم الغالبية العظمى من الجنود الذين ستتألف منهم الفرقة التسعون الخفيفة، لم تكن لديهم وسائل للنقل

والحركة، فى حين كان لابد من نقل جانب من قواتنا على ناقلات تروح وتجئ هنا وهناك، بينما كان على جانب آخر من قواتنا أن ينسحب أفرادها سائرين على أقدامهم!

على أنه أمكن، بفضل بساطة تشكيلاتنا المدرعة، تغطية انسحاب قواتنا أمام القوات البريطانية الآلية التى كانت تلاحقنا بعنف!

ويمكن أن يعزى فشل غرازيانى، أولا وقبل كل شىء، إلى أن الجيش الإيطالى، أو الجانب الأعظم منه، لم يكن مسلحاً بقوات آلية. فكان ضعيف الحيلة أمام القوات البريطانية الآلية كلها، وإن كانت هذه ضعيفة هى الأخرى. فكان على الجيش الإيطالى، على الرغم من وهنه وعجزه عن مواجهة البريطانيين، وفقده الأمل فى إحراز أى نصر، أن يخضع للمعركة وأن يتحطم من أجل حماية قواته من المشاة.

قواعد للحرب المقبلة

ولقد أدت هذه العمليات الآلية الصرفة فى حرب صحراء ليبيا، وفى الأراضى المصرية، إلى ظهور قوانين جديدة مختلفة تمام الاختلاف عن تلك القوانين العسكرية، والقواعد التكتيكية التى تستخدم فى ميادين القتال الأخرى. وهذه القواعد أو القوانين الجديدة، ستكون أساساً لكل حرب مقبلة. فالحرب فى المستقبل لن تقوم إلا على أساس واحد، هو التشكيلات الآلية.

إن تطويق عدو مزود بآليات تزويداً تاماً، وفى منطقة صحراوية صالحة لحركة وسائل النقل الآلية، من شأنه أن يفضى إلى النتائج التالية:

أ- أن العدو سيكون فى أرحب وضع تكتيكى يتصوره العقل، إذا ما وجهت النيران ضده من جميع الجهات. وحتى عندما يكون العدو معرضاً للنيران من ثلاث جهات، فإن موضعه سيكون غير حصين من وجهة تكتيكية.

ب- عندما يتم تطويق العدو يجد هذا نفسه - من وجهة تكتيكية-

مجبراً على إخلاء المنطقة التى يحتلها.

إن تطويق العدو، والمباشرة فى تحطيمه تدريجياً، عن طريق عزله إلى جيوب، لا يمكن أن يعد الهدف الأول لأية حركة عسكرية، وإنما يعتبر- على العادة هدفاً غير مباشر. ذلك لأن القوة التى لم يمس كيانها التنظيمى بأذى، والمزودة بالآليات الوافية، أن مثل هذه القوة سيكون فى مقدورها فك الحصار فى أى وقت كان، وذلك عن طريق تكوين حلقة دفاعية معززة، ويتم هذا بسهولة إذا كان ميدان المعركة ملائماً لها.

وتفضل الاستعانة بالآليات سيكون قائد القوة المحاصرة فى وضع يستطيع معه أن يركز جهده الرئيسى ضد نقطة معينة، ليشق طريق نجاته منها. وقد طبقت هذه القاعدة فى حرب الصحراء الغربية عدة مرات.

ومن ثم فإن القوات المطوقة لا يمكن تحطيمها إلا عن طريق القيام بهذه العمليات الثلاث:

أ- عندما تكون القوة المحاصرة غير مزودة بالآليات، أو إذا تعطلت تلك الآليات عن الحركة بسبب نقص البترول، أو عندما تضم تلك القوة عناصر غير متحركة لا تستطيع الاستغناء عنها.

ب- عندما تكون قيادة تلك القوات رديئة، أوعندما تتكبد خسائر فى سبيل إنقاذ تشكيلات أخرى.

جـ- عندما تكون قوتها الحربية قد تحطمت سلفاً، وأصبحت علائم الخور بادية عليها بوضوح.

فباستثناء الحالتين أ وب اللتين تحدثان على الدوام فى ميادين أخرى من ميادين الحرب، لا يمكن أن يشرع فى تطويق العدو وتحطيمه فيما بعد على شكل جيوب، إلا إذا أرهق فى حرب مكشوفة تجعله يفقد صفة التماسك المنظم بين وحداته.

فالمعارك التى تهدف إلى تحطيم مقاومة العدو، ينبغى أن ينظر إليها

علي أنها معارك إبادة ليس إلا. أما المعارك التي تشترك فيها الوحدات الآلية، فإن الهدف المباشر من الخطة التي يضعها القائد، يجب أن تكون إبادة الجيش المقاوم عن طريق ضرب التماسك بين وحداته وتمزيقها.

وتتطلب معارك الإبادة، من الوجهة التكتيكية، أن يكون القتال علي أوسع مدي ممكن من قابلية الحركة وسرعة التنقل والتغيير.

وتتطلب النقاط التالية اهتماماً خاصاً وهي:

أ- يجب أن يسعي القائد جهده إلي تركيز قواته آخذاً بنظر الاعتبار الوقت والمكان المناسبين، علي أن يبحث في الوقت ذاته عن الفرصة الملائمة التي يستطيع خلالها مفاجأة القوات المعادية بالهجوم وتدميرها في أوقات مختلفة.

ب- تكون طرق إمداداته بصفة خاصة معرضة للهجوم، حيث يجب أن تمر عبرها الذخائر والوقود وكل المتطلبات الضرورية للمعركة. ولذلك ينبغي الاهتمام بحماية هذه الطرق بمختلف الوسائل الممكنة، والعمل في الوقت نفسه علي تحطيم خطوط مواصلات العدو، وقطع الإمدادات عنه. فالعمليات الحربية التي تقع في منطقة تموين القوي المضادة، ستؤدي إلي تحطيم العدو وخسران المعركة حالاً. وكما رأينا من قبل، فإن الامدادات هي القاعدة الأساسية للمعركة، ولهذا ينبغي أن تكون حمايتها وصيانتها مقدمة علي كل شيء آخر.

جـ- إن قوي الدبابات هي العمود الفقري للجيش الآلي. فكل شيء يعتمد علي الدبابات. أما التشكيلات الأخري فهي مجرد قوات ثانوية، وعلي هذا يجب أن تنجز حرب الإبادة ضد وحدات الدبابات المعادية في أسرع وقت ممكن، وعن طريق وحدات دبابات مهاجمة. كما ينبغي علي القائد أن يستعمل دباباته حتي آخر هجوم مستطاع.

د- يجب أن تصل نتائج الاستطلاع إلي القائد في أسرع وقت مستطاع،

وأن علي القائد بعد هذا أن يتخذ القرارات المباشرة، ويعمل علي تنفيذها بالسرعة الممكنة. ذلك لأن سرعة حسم القيادة للأمور هي التي تقرر مصير المعركة. وعلي هذا فمن الضروري لقادة القوات الآلية، أن يكونوا قريبين من قواتهم قدر الإمكان، وأن تكون طرق الاتصال مع تلك القوات سالمة مضمونة.

هـ- إن سرعة الحركة، وتحقيق التماسك بين وحدات القوي المحاربة، هي العوامل الحاسمة في كل معركة، وهي لذلك تتطلب الاهتمام الزائد. فكل إشارة تدل علي وجود الارتباك في صفوف القوات المحاربة، يجب تلافيها بأقصي سرعة مستطاعة، عن طريق إعادة تنظيم تلك القوات، وتحقيق التماسك بين وحداتها.

و- إن إخفاء القائد نواياه ومقاصده له أهميته العظمي، لأنه بذلك يستطيع إعداد الأحوال الملائمة للمباغتة التي من شأنها أن تعينه علي الاستفادة من الوقت الذي يحتاج إليه القائد المعادي في معاودة هجومه. ويجب أن تشجع وسائل المخادعة والتضليل علي اختلاف أنواعها، لكي تجعل القائد المعادي غير متيقن من وقت الهجوم ومكانه، وبذلك يضطر إلي أن يتحرك بتردد واحتراس.

ز- والي أن يكون العدو قد ضرب واضطربت صفوفه، فإن علي القائد المهاجم أن يحاول الاستفادة من هذا الظفر الذي ناله، وذلك بأن يكر علي العدو مجدداً، ويدمر أكبر جزء ممكن من قواه المبعثرة، وهنا أيضاً تكون السرعة كل شيء في الموضوع. فيجب ألا تعطي للعدو أية فرصة لإعادة تنظيم صفوفه، وكما أن تعقيب العدو يتوقف علي سرعة إعادة تجميع القوات المطاردة له، فإن السرعة في إعادة تنظيم وسائل الإمدادات والتموين، من الأمور الجوهرية للقوات المهاجمة.

أما بالنسبة لميادين التكتيك والتنظيم فإن النقاط التالية يجب أن يعني بها عناية خاصة في معارك الصحراء:

أ- يجب أن تكون وحدة الدبابات ذات قابلية كبيرة للمناورة قبل كل شيء، وأن يتزود القائد إلي جانب هذا بمدافع سريعة الإطلاق ومن ذوات المرمي البعيد، ذلك لأن الفريق الذي يملك مدافع قوية، يكون سلاحه أكثر استدامة، ويستطيع أن يفاجئ العدو قبل أن يفاجئه ذاك.

إن المدرعات مع أهميتها، لا تكفي لأن تعوض عن قوة المدفعية، ما دام ذلك التعويض سيكون علي حساب قابلية المناورة والسرعة، وكلاهما من المتطلبات التكتيكية التي لا غني عنها.

ب- ويجب أن تكون المدفعية هي الأخري من النوع الممتاز، وذات قابلية كبيرة للحركة، فضلاً عن ضرورة تهيئة كميات وفيرة من العتاد اللازم لها.

جـ- أما المشاة فيمكن استخدامهم فحسب، في احتلال وضبط المراكز التي أعدت للحيلولة دون قيام العدو بمعارك خاصة، أو لإرغامه علي دخول مثل تلك المعارك. وعندما يتم تحقيق هذا الغرض، فيجب أن يكون في استطاعة قوات المشاة أن تتحرك بسرعة، فتثير تلك المعارك أينما شاءت، ومن ثم فان علي تلك القوات أن تكون متنقلة ومزودة بالتجهيزات التي تعينها علي أخذ مواضع دفاعية بأقصي سرعة ممكنة، وفي النقاط التي لها أهميتها التكتيكية من ميادين المعركة.

لقد دلتني تجاربي العسكرية علي أن اتخاذ القرارات بصورة سريعة حاسمة، أو حسم الأمور حسماً جريئاً، يؤتي أطيب الثمرات. وينبغي ألا يغرب عن بالنا أن نفرّق بين الجرأة في العمليات أو التكتيك، وبين المقامرة الحربية. صحيح أن العملية الجريئة ليس أمامها أكثر من فرصة واحدة للنجاح، ولكنها إذا لم يواتها التوفيق، تترك القائد ولديه قوات كافية تمكنه من معالجة أي موقف. أما المقامرة الحربية فهي عملية قد تكلل بالنجاح، أو قد تفضي إلي الهزيمة وتحطيم كل ما لدي القائد من قوات!

«إن الوقت الوحيد الذي يستطيع فيه القائد أن يحسب سلفاً حساب سير المعركة، هو الوقت الذي يكون فيه متفوقاً علي العدو. ففي هذه الحالة يتضح له طريق النصر علي عدوه منذ البداية. وعلي ذلك لا تكون المشكلة مشكلة بماذا يحارب؟. بل تكون هي: «كيف يحارب؟». علي أني- حتي في مثل هذا الموقف- أري أن من الأفضل أن يقوم القائد بعمليات عسكرية علي أوسع نطاق، بدلا من أن يتخبط قلقاً في الميدان، كما يجب عليه أن يتخذ الحيطة الممكنة لكل ما يخطر بباله، من عمليات العدو الممكنة والمستحيلة معاً!

وليس من شك في أن لكل أسلوب من الأساليب العسكرية الفنية عيوبه، كما أن له مزاياه، والقائد الحق هو الذي يختار الأحسن من مختلف وجهات النظر، ثم يمضي بعد ذلك في تنفيذ ما اختاره، متقبلاً النتيجة كيفما كانت. أما أنصاف الحلول فهي أسوأ من الفشل!

ويعود رومل فيدون تجاربه التي تبلورت في عبارات واضحة قوية فيقول: «إن من أول الدروس، التي استخلصتها من تجاربي في الحرب الآلية، هي أن السرعة في العمليات، والسرعة في حسم القيادة العليا للأمور، من العوامل الحاسمة في القتال. فالجنود يجب أن يمكّنوا من العمل بأقصي سرعة، وفي تناسق تام. والإنسان يجب ألا يقنع بالمستوي العادي لأي شيء، إنما يجب أن ينشد المثل الأعلي. وذلك لأن الجانب الذي يبذل أعظم الجهد، هو الأسرع عادة، والنصر للأسرع، ويجب علي الضباط جميعاً أن يدربوا جنودهم، وأن يثبتوا في أذهانهم هذه الفكرة».

وقد تحدث رومل في يومياته عن مهام القائد كما ينبغي أن تكون، وكما طبقها علي نفسه، فقال: «إن واجب القائد الأعلي ليس مقصوراً علي العناية الدقيقة بكل ما تعرضه عليه هيئة أركان حربه، فإن من واجبه كذلك أن يعني كل العناية بكل كبيرة وصغيرة من شئون المعركة، وأن يجعل الخطوط الأمامية نصب عينيه دائماً، وذلك للأسباب التالية:

أ- إن التنفيذ الدقيق لخطط القائد الأعلي وهيئة أركان حربه، هو الشرط الأول لنجاح هذه المخطط. ومن هنا فلم يكن بد من أن يوليه القائد الأعلي أعظم جانب من عنايته، كما أن من الخطأ الركون إلي أن كل قائد من القواد المحليين سينفذ ما يراد منه تنفيذه حسبما تتطلبه الحالة، ذلك لأن بين هؤاء القادة من قد يؤثر الراحة والدعة في بعض الأحيان، علي مواجهة المخاطر الكبري، والدقة في تنفيذ الخطط المرسومة، مما يسهّل عليهم انتحال الأعذار والأسباب في أي وقت يشاؤون، ولذلك فإن علي القائد الأعلي أن يكون علي اتصال شخصي دائم بهؤلاء القواد، ليجعلهم يشعرون بسلطته ويعملون علي تنفيذ أوامره علي الوجه الأكمل. فالقائد الأعلي ينبغي أن يكون المحرك الذي يدير آلة المعركة، ويوجهها من أقرب سبيل وأصلحه، إلي الهدف المنشود.

ب- ويجب علي القائد الأعلي أن يسعي باستمرار لأن يجعل قواته ملمة بأحدث الخطط التكتيكية والتجارب الحربية، وأن يتأكد من سلامة تطبيقها لتلك الخطط والتجارب. فينبغي عليه أن يتحقق بأن مرؤوسيه قد دربوا وفق آخر التطورات المستحدثة، ذلك لأن أحسن «رخاء» للقوات المحاربة هَو التدريب الفائق الذي ينقذ الجيش من إصابات لا مبرر لها البتة.

جـ- وينبغي علي القائد الأعلي أيضاً- وهذا لا يفضله شيء آخر في الأهمية والفائدة- أن يلم بأحوال الجبهة، وما يجري فيها ألماماً تاماً، وأن يطلع علي ما يجد من المشاكل والعقبات أمام مرؤوسيه. فهو بهذه الطريقة وحدها يستطيع أن يحتفظ بجدة آرائه، ومطابقتها مع التطورات العسكرية الحديثة، وتطبيقها بالنسبة لظروف كل مناسبة من المناسبات، أما إذا كان، من ناحية ثانية، قد سلك في المعركة سلوك لاعب الشطرنج، فإن نظراته ستظل جامدة حتماً.

إن أحسن النتائج يستطيع القائد استخلاصها، إذا هو جعل آراءه تتطور بحرية

وفق الظروف المحيطة به، وإذا استطاع تفادي الوقوع في غمرة الأمثلة الجامدة.

د- يجب أن يكون القائد الأعلي علي اتصال قوي بجنوده، فيجب أن يفكر في شئونهم، ويشعر بشعورهم، كيما يكون للجند ثقتهم فيه. وفي مثل هذا الاتصال توجد قاعدة رئيسة ينبغي أن نتذكرها دائماً، وهي: يجب ألا يتظاهر القائد أمام الجنود بالشعور الذي لا يحس به في الواقع. ذلك لأن الجندي العادي قد أصبح من الوعي أنه يستطيع أن يفرق حقائق الأمور وغيرها، عن الادعاءات والتضليلات.

تفوق الحلفاء في الجو

ولقد عرض روملٍ المخاطر التي تعرضت لها قوات المحور، من جراء تعاظم قوة السلاح الجوي البريطاني، فكتب بعد معركة علم الحلفاء يقول:

«سيثير العدو معركة الإبادة من الجو. وستكون قنابله ذات أثر فعال قوي في قواتنا الآلية التي تقف مجردة من أية وقاية في الصحراء. وستصبح سياراتنا ودباباتنا ومدافعنا، خير هدف للقنابل المعادية، وطائراته التي تطير علي ارتفاع منخفض، سواء كانت قواتنا في ميدان المعركة، أو في طريقها إليه، أو مشتبكة بالهجوم.

وبمضي الوقت سيصبح العدو قادراً علي إرباك قواتنا، وشلها عن الحركة، دون أن يتكبد هو أية خسائر تستحق الذكر.

فمن وجهة نظر القيادة سيحصل العدو علي الفوائد التالية:

أ- تأمين حصوله علي تقارير استكشاف جوي كاملة.

ب- ستكون له القدرة علي العمل بحرية وعزم، ما دام سلاحه الجوي سيصبح قادراً علي إحباط أي هجوم مضاد، وذلك بعرقلة محاولاتنا في الهجوم، وضرب مراكز احتشاداتنا أو إعاقة حركاتنا، ريثما يتم له اتخاذ التدابير المقابلة لذلك.

جـ- إن كل بطء يحدثه العدو في حركاتنا، سيؤدي إلي سرعة حركاته هو، الأمر الذي يعد من أهم عوامل النجاح في الصحراء، حيث يصبح من السهل توقع مثل هذا التطور في الموقف.

يضاف إلي ذلك، أن العدو الذي يسيطر علي الجو، يكون في مركز يسمح له بأن يكبّد عدو خسائر هائلة في أرتال إمداداته، فلا يمضي وقت طويل حتي تشل حركة هذه الأرتال، نتيجة لنقص الإمدادات، يسبب توقف نقلها إلا في ساعات محدودة تحت جنح الظلام، خشية الرقابة الجوية المعادية المضروبة علي كل الطرقات. وفي ذلك ما فيه من جعل الوقت في صالح العدو.

ثم يقول رومل: «إن أي جيش، مهما تكن قوة أسلحته وكثرة عدده، إذا قدر له أن يقاتل عدواً له مثل هذا التفوق التام في الجو، فإن مثله يكون كمثل عصابة من الرجال البدائيين، تحارب جنوداً أوروبيين مزودين بأحدث المعدات!».

فنحن نحاول هنا (في الهجوم علي العلمين) أن نجعل دفاعنا ضد الهجوم البريطاني المتوقع، بشكل نستطيع معه أن نضعف من تأثير السلاح الجوي البريطاني. وكنتيجة لذلك ليس باستطاعتنا أن نلقي العبء الرئيسي في الدفاع، علي تشكيلاتنا الآلية، ما دامت هذه التشكيلات- كما شاهدنا فعلاً- معرضة لهجوم من الجو. فبدلاً من هذا علينا أن نقاوم العدو في مواقع ثابتة معدة للدفاع، ضد أحدث ما عرفته الحرب من وسائل الفتك والتدمير. وإن علينا مع ذلك أن نقر بالحقيقة الواقعة، وهي أن العدو سيصبح في المستقبل قادراً علي إعاقة حركاتنا، عن طريق الهجمات الجوية التي يشنها علينا ليلاً ونهاراً، وبمعونة رجال المظلات. وقد علمتنا التجارب أن المرء لا يمكن أن يتوقع المكوث في سيارته، أو ينطلق بها عندما تهاجمه القنابل المعادية، وإن من العبث أن يحاول ذلك في أي وقت كان. فيجب أن تكون مواقعنا من القوة أنها تستطيع الصمود بحامياتها المحلية علي شكل

مستقل ولمدة طويلة، دون انتظار أية مساعدة من الاحتياطي المعد للمعركة، إلي أن يتم وصول النجدات إليها، بالرغم من التأخير الذي سيحدثه سلاح الجو البريطاني في إيصال تلك النجدات.

إن تفوق البريطانيين في الجو، قد بدد كل قواعد العمليات والتكتيكات التي درجنا عليها من قبل، والتي كنا نستخدمها حتي ذلك الحين بنجاح. إذ أن مثل هذه القواعد لم يعد في الإمكان تطبيقها. فبدون سلاح جوي قوي تحت تصرفنا، لا نستطيع إيجاد أي حل لمشكلة مجابهة تفوق العدو الجوي، ذلك لأن السلاح الجوي البريطاني الأمريكي، سيكون هو العامل الحاسم في المعارك المقبلة.

■ ■ ■

الفصل السابع والثلاثون

معارك ١٩٤٢

خطأ القيادة الألمانية

تعزيز الجيش الثامن

مواضع البريطانيين في مرمريكا

خطة الهجوم- معركة الغزالة

ومضي رومل بعد ذلك، فأفاض في الحديث عن المعارك التي دارت في فصلي الربيع والصيف من سنة ١٩٤٢. وليس من السهل أن نقفو آثاره وهو يتحدث بالتفصيل عن هذه المواقع الحربية، ويبدي آراءه السديدة فيها، ذلك لأن رومل ينطلق علي سجيته في النقد والتعليق.

علي أننا نورد بعض مقتطفات من هذا الحديث، ففيها ما يلقي الضوء علي تفكير رومل من الناحية العسكرية، وعلي علاقته بالقيادة الألمانية العليا، كما أنها تكشف لنا عن بعض الأحكام الدقيقة التي أصدرها علي خصومه من القواد العسكريين، وعن خطته التي رفضها هتلر وأهملها تماماً، دون أن يتبين مدي صحتها إلا بعد أن فات الآوان، وانتهاء الحرب في شمال افريقيا. ولقد كان رومل يهدف من وراء خطته تلك، إلي تفادي الطامة الكبري التي كادت تحيق بقوات المحور، وتنظيم عملياتها العسكرية كلها هناك.

و«العملية الحربية» في اللغة الألمانية العسكرية لها معني خاص لا مثيل

له في لغة أخري. فالعمليات التي يتحدث عنها رومل هي «الحركات الديناميكية العامة لكل القوات الآلية»، ومن هنا يمكن أن يقال: إن كلا من رومل ومونتجمري كان يقوم بعمليات حربية في شمال افريقيا، في حين كان كل من ويفل واوكنلك، يخصصان الجانب الأكبر من عنايتها للاستراتيجية.

خطأ القيادة الألمانية العليا

ويبدأ رومل هذا الجانب من اليوميات بقوله:

«بعد نهاية هجومنا المضاد، الذي أدي في بداية سنة ١٩٤٢ إلي الاستيلاء علي برقة، برزت أمامنا عقبات كثيرة كلها تتعلق بالإمدادات والمؤن.

«وكان السبب الأول لهذه العقبات، هو أن القيادة الألمانية العليا لم تكن تبدي اهتماماً يذكر بالميدان الإفريقي، والمعارك الدائرة فيه. كما أن الايطاليين لم يكونوا متحمسين تماماً للقتال في البحر، بينما كان الأسطول البريطاني بالغ النشاط، فضلاً عما كبدنا سلاح الطيران البريطاني من خسائر فادحة.

وقد واصلت القيادة الألمانية العليا التي كنت خاضعاً لها، تجاهلها أهمية الميدان الإفريقي. فلم يدرك رجالها أننا في الشرق الأدني قادرون علي أن نحرز بوسائل قليلة نسبياً، عدداً من الانتصارات التى لها أهميتها وقيمتها من الناحيتين: الاستراتيجية والاقتصادية. وفاتهم أن أمامنا في إفريقيا والشرق الأوسط، ثروات هائلة من المواد الخام، كفيلة بأن تحررنا من كل ما يساورنا من قلق بسبب نقص البترول.

وهكذا ضنت القيادة الألمانية العليا، ببضع فرق ميكانيكية تعزز بها جيشي، فيصبح قادراً علي أن يوقع بالقوات البريطانية هزيمة ساحقة في الشرق الأدني. وكانت حجة هتلر وهيئة أركان حربه، هي: أن الجبهة الشرقية تحتاج إلي كميات هائلة من وسائل النقل، وأن إنتاج وحدات ميكانيكية أخري للجبهة الإفريقية، مرهق لطاقة ألمانيا الإنتاجية. كما أن الكثير من رجال

القيادة الألمانية العلياكانوا ينظرون إلي المعركة الإفريقية منذ سنة ١٩٤١، علي أنها معركة خاسرة، وأن ارسال إمدادات جديدة إلي افريقيا لا يجدي نفعاً أبداً وتلك نظرة قاصرة طائشة تبعث علي الاسي والاسف![1].

إن مصاعب التموين التي تزعم القيادة الألمانية أنها مشكلة صعبة لا يمكن التغلب عليها، لم تكن كذلك. فالواقع أن أول ما كنا في حاجة إليه هو أن تكون هناك في روما شخصية قديرة تخوّل حرية التصرف لحل تلك المشاكل كلها، ولا أهمية لما قد يؤدي إليه هذا من بعض التشاحن مع بعض الدوائر الإيطالية. ولكن سياسة حكومتنا إزاء الحكومة الإيطالية قد أفسدت القضية الألمانية الإيطالية في شمال إفريقيا.

صحيح أن موارد الثروة الألمانية تنوء بمطالب الجبهة الشرقية، وهذه مسألة لا تمكن الاستهانة بها، وخاصة بعدما فقدناه من عتاد منذ شتاء ١٩٤١، ١٩٤٢، ولكن هذا كله لا ينفي- حسب اعتقادي الثابت- أن الإمكانات الهائلة التي يتيحها لنا تعزيز قواتنا في شمال إفريقيا، تجعل هذا الميدان أهم كثيراً من بعض القطاعات الثانوية في الجبهة الأوروبية، حيث يمكن الاستغناء عن بعض من فرقها الميكانيكية وإرسالها إلي إفريقيا.

«قد يكون هذا التصرف الخاطئ من القيادة الألمانية العليا، نتيجة سوء الفهم والعجز عن إدراك الحقائق. علي أنني لا أشك أيضاً في أن حسن النيه ليس متوافراً هناك. ولقد استطعنا أن نصمد للبريطانيين قرابة عام ونصف العام، وأن نكبدّهم خسائر فادحة، كل ذلك بثلاث فرق ضعيفة إلي حد يبعث علي الضحك، حتي عجزت آخر الأمر، أمام ازدياد قوة البريطانيين في العلمين. لقد أجبرنا، بعد ضياع إفريقيا، علي أن نعد فرقاً عديدة كي نقف

(١) الواضح أن ألمانيا العسكرية كانت، منذ اللحظة الأولي التي اشعلت فيها نيران الحرب العالمية الثانية، تستهدف تدمير روسيا السوفيتية والقضاء علي الشيوعية فيها، وأن احتلال الألمان لأوروبا الغربية كان مقدمة ليس إلا للهدف الرئيسي وهو تحطيم الشيوعية في عقر دارها، أي في روسيا السوفيتية.

بها فى وجه القوات البريطانية والأمريكية. حتي أننا قذفنا في الأخير بسبعين فرقة في معارك إيطاليا وفرنسا، ولو أننا أعطينا ستاً أو سبعاً من الفرق الألمانية الميكانيكية في صيف سنة ١٩٤٢، لقضينا نهائياً علي البريطانيين، ولا نمحي ذلك الخطر الذي يتهددنا في جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط لمدة طويلة، ولو توافرت سلامة النية، لأمكن إمداد هذه التشكيلات وتنظيم تموينها تموينناً كافياً. غير أن القيادة لم تنتبه إلي هذه الناحية إلا بعد أن بدأت معركة تونس. فقد حاولت إذ ذاك مضاعفة إمداداتنا، ولكن هذا القرار جاء بعد فوات الأوان، لأننا كنا آنذاك غارقين إلي آذاننا، في المشاكل التي أثارها فى وجهنا ميدان البحر الأبيض المتوسط.

وبعد مرور فترة قصيرة تم إيصال ثمانية عشر ألف طن من الإمدادات إلي إفريقيا، من أصل ستين ألف طن كان مقرراً إرسالها، نقول بعد هذه الفترة تغير الموقف فجأة وكان ذلك بفضل المبادأة التي أخذ الفيلد مارشال كسلرنج بزمامها، حيث استطاع سلاحنا الجوي في ربيع ١٩٤٢، أن يضمن السيادة الجوية في القطاع الرئيسي من البحر الأبيض المتوسط.

وقد عززت الغارات الألمانية والإيطالية الواسعة علي جزيرة مالطة، الحقيقة القائلة بأن تهديد خطوط المواصلات البحرية، يكون في بعض الأحيان ذا نتائج طيبة، كما لو أن تلك الخطوط قد استئصلت برمتها!.

فعن طريق تحديد خطوط مواصلات العدو في البحر الأبيض المتوسط حسب، تمكن زيادة إمداداتنا المتدفقة علي طرابلس وبنغازي ودرنة.

تقوية الجيش الثامن

ثم عرض رومل بعد ذلك لما قامت به الحكومة البريطانية من تقوية الجيش الثامن وتموينه بكل ما يقع في يدها، علي نحو أسرع مما قام به الألمان. وأشار إلي قوافل الأسطول البريطاني التي أخذت تصل تباعاً إلي الموانئ المصرية، تحمل العتاد من انجلترا وأمريكا عبر طريق رأس الرجاء

الصالح الذي يبلغ طوله اثني عشر ألف ميل، ولا تستطيع وسائل النقل البريطانية أن تقطعه إلا مرتين في العام. ورغم هذا، ورغم النشاط الكبير الذي بذله سلاح الغواصات الألمانية لعرقلة وصول ذلك العتاد، استطاع البريطانيون تعزيز قواتهم في الشرق الأدني علي نحو يستحق الإعجاب والتقدير، وبشكل لم نستطع نحن أن نضارعهم فيه. وفضلاً عن ذلك فقد كان البترول متوافراً للقوات البريطانية، حيث تزخر به معامل التكرير في الشرق الأدني. أما موانئ التموين البريطانية فقد كانت هدفاً للغارات الألمانية، غير أن تلك الغارات لم تكن عنيفة إلا نادراً.

ومن هذه الموانئ كان البريطانيون يجلبون امداداتهم إلي الجبهة بوساطة ثلاثة طرق هي:

١- الخط الحديدي القوي الممتاز الذي يمتد من السويس حتي ضواحي طبرق.

٢- نظم الأسطول البريطاني خط شحن ساحلي بطريقة مدهشة حقاً. وقد كانت طبرق، وهي من أحسن الموانئ الموجودة في إفريقيا الشمالية، إحدي نقاط ذلك الخط البحري.

٣- الطريق البري الذي أنشئ بصورة جيدة، وكان من السعة بحيث سهل علي قوافل سيارات الامدادات استعماله. وكان هذا الطريق يمتد في الصحراء الغربية بين الإسكندرية وطبرق.

وفضلاً عن هذا فقد وقفت إلي جانب الإنجليز، شعوب ذات نفوذ عظيم، فكانت تلك الشعوب تعلم كل ما في طاقتها لتنظيم مصلحة تموين الحلفاء وفق أحسن الخطط المعروفة آنذاك.

لقد استفاد أعداؤنا من حقيقة أن شمال إفريقيا هو الميدان الرئيسي للحرب التي تخوضها الامبراطورية البريطانية، ومن هنا عنيت بريطانيا

العناية كلهـا، بأن يكون لهـا أسطول جـبـار ومـن الدرجـة الأولي في القـوة والضـخـامـة، بينمـا كنا نحن نعـتـمـد علي أسطول حلفـائنا الإيطاليين، ذلك الأسطول الذي لا يعول عليه.

لقد أصبح واضحاً لنا أن البريطانيين سيحاولون بكل ما أوتوا من قوة وحيلة، تدمير جيوشنا في اللحظة التي يشعرون فيها أنهم أصبحوا من القوة بحيث يستطيعون المبادأة بالهجوم. فقد كان جناحنا الجنوبي ينتثر في ساحة مكشوفة، وعما قريب سيكون لدي الجنرال ريتشي عدد كبير من العمليات المختارة. وعلي هذا فستصبح خطوط تموينا مهددة تماماً، فإذا ما اضطررنا إلي الانسحاب نتيجة الخطر الذي نتعرض له، فاننا سنقع في مصاعب جدية، ذلك لأن معظم فرقي الإيطالية غير مزودة بالآليات، غير أن ريتشي لم يكن له من الوقت ما يعينه علي استغلال الفرص العديدة التي سنحت له، لأنني صممت علي أن أسبقه في هجومه.

مواضع البريطانيين في مرمريكا

كانت خطة البريطانيين الأساسية في الدفاع عن مرمريكا، تتميز بالجهود التي يبذلونها كى يخدعوا المهاجم بنوع من الحرب تلائم القيادة البريطانية أكثر من حركات المناورة في الصحراء المكشوفة. والحقيقة أن تنفيذ هذه الخطة كان، من الوجهة الفنية، ممتازاً جداً، غير أن البريطانيين تناولوا حل المعضلة عن طريق مقدمات فاشلة سلفاً. إذ أن التمسك بنظام الدفاع الجامد في ميدان مثل إفريقيا الشمالية، وبوجود جناح جنوبي مكشوف، من شأنه أن يؤدي إلي الكارثة، ففي مثل هذه الأحوال لا يمكن نجاح المعركة الدفاعية، إلا إذا حولت تلك المعركة إلي حركة ديناميكية عامة تشترك فيها القوات الآلية.

وطبيعي أن تكون للمواضع المحصنة قيمتها المهمة إذا ما استطاعت تلك المواضع حرمان العدو فرصة القيام بأية عمليات حربية خاصة. علي أنه من

الضروري ألا تكون هذه المواضع مشغولة بالقوة المخصصة للدفاع الديناميكي أي المتنقل.

أما الخطة التي اتبعتها أنا وأركان حربي، فقد هيأت لنا إمكانية اتخاذ القرارات الحاسمة في أكثر الظروف ملاءمة. غير أن مصير جيشي لم يكن ليعتمد- في أي حال من الأحوال- علي النجاح في هذا الرأي وحده.

ولقد وضعت تجاربي المعتادة التالية حسبما قدرته من البداية، علي قاعدة أن الأمور لا يمكن أن تسير وفق خطة معينة، فكلما أدرك المحارب الحالة عند ابتداء المعركة، استطاع تجنب الخسارة والكارثة.

فنحن دخلنا المعركة يغمرنا الإيمان بالنصر، لأننا كنا نعول علي جنودنا، وعلي تدريبهم التكتيكي الممتاز وتجاريبهم في المبادأة.

خطة الهجوم

إن حركة الهجوم المكشوف يجب أن تنجز، عن طريق هجوم جبهوي تقوم به فرقة المشاة الإيطالية التي كانت تحتل مواضعها في الغزالة أمام الفرقة الإنجليزية الخمسين وفرقة جنود جنوبي إفريقيا. وقد تقرر أن تسند هذا الهجوم مدفعية قوية. وكان الانطباع السائد في الليل والنهار أن تكون مراكز احتشاد الدبابات خلف الجبهة، ولهذا الغرض ينبغي أن يوجه مسير الدبابات وسيارات النقل بشكل دائري في تلك المنطقة.

أما القيادة البريطانية فكانت تتوقع أن يكون هجومنا الرئيسي في الجزء الشمالي والوسط من موضع الغزالة. بينما كان الذي أردنا إنجازه هو، أن ندفع بتشكيلات الدبابات البريطانية إلي ما وراء المشاة في ذلك القطاع من المنطقة.

كان هجوم الألمان الجبهوي ضد موضع الغزالة في نظر القيادة البريطانية أمراً يبدو جد سخيف وخاصة بعد أن استحال علينا تماماً أن نفضل هجوماً كهذا، علي المخاطر التي تنجم عن قيامنا بحركة كماشة حول

بير حكيم.

فلو أن محاولتنا في مخادعة البريطانيين، والرامية إلي أن يركزوا كل قوي دباباتهم، كانت قد فشلت، إذن لتوقعنا أن يبعثوا، علي أقل تقدير، بجزء من ألوية دباباتهم في ذلك القطاع، ولأمكن بهذا تمزيق قواتهم المهاجمة.

كانت جميع حركات قواتي الآلية أثناء ساعات النهار، موجهة نحو النقطة التي سيبدأ عندها هجوم المشاة الإيطاليين. ولكن بعد أن يحل الظلام يكون علي الجحفل الآلي أن يندفع إلي منطقة احتشاداته. وكان هذا الجحفل يضم الفيلق الإفريقي الألماني بما فيه الفرقتان المدرعتان الخامسة عشرة والحادية والعشرون، كما يضم الفيلق الآلي الإيطالي العشرين، والفرقة الخفيفة التسعين، وثلاث وحدات استطلاعية. وقد تقرر أن يبدأ تقدم قواتنا الذي سيأخذ شكل هجوم مفتوح علي بير حكيم، في الساعة العاشرة صباحاً. فمن هناك كان علي الفيلق الإفريقي الألماني والفيلق الإيطالي العشرين وفرقة «أريتا» للدبابات وفرقة «تريست» الآلية، أن تندفع إلي الساحل عن طريق «عكرمة» لتقطع بذلك خط إمدادات البريطانيين، وتسحق فرقهم وقوي دباباتهم المحتشدة في موضع الغزالة.

ولقد صدرت الأوامر إلي الفرقة الخفيفة التسعين أن تندفع إلي داخل منطقة «العظم الحامض» تصحبها وحدات الاستطلاع الثلاث، لتحول دون انسحاب حامية طبرق منها، ولتجلب النجدات الي منطقة عكرمة. يضاف إلي هذا أنه كان علينا أن نحول دون استفادة البريطانيين من مستودعات التموين القيمة التي أنشأوها في المنطقة الواقعة شرقي طبرق.

ولكي نخدع البريطانيين بأن لدينا قوي دبابات هائلة في تلك المنطقة، صدرت الأوامر إلي الفرقة التسعين الخفيفة بأن تتزود بسيارات نقل ثبتت عليها ماكئن هوائية ومراوح (دفاسات) قوية، لإثارة الغبار، وإيهام العدو بأنها دبابات تتحرك وليست لوريات. وكان هدفنا من هذه الحركة هو الحيلولة دون

اشتراك القوات البريطانية الموجودة في تلك المنطقة، في معركة عكرمة، كى يتسني لوحدات دباباتنا كسب تلك المعركة. وما أن تم تدمير القوات البريطانية في مرمريكا، حتي وضعنا فى الحال خطة اقتحام حصن طبرق بسرعة. غير أن حريتي في العمل قد قيدتها أوامر الدوتشي القاضية بألا أتعدي المنطقة المتاخمة للحدود المصرية!!

ومن الأمور التي سبق تقريرها أنه كان ينبغي احتلال جزيرة مالطة من قبل قوات المظلات الألمانية الإيطالية والقوات المنزلة إليها من السفن، وأن يتم هذا الاحتلال قبل أن يبدأ هجومنا في الصحراء، ولكن قيادتنا العليا- ولسبب لم يكن في الحسبان- تخلت عن هذه الخطة!

وكان من سوء الحظ أن أُجل هذا العمل الجذاب الذي كنت اعتمد علي جيشي في إنجازه، إلي فصل الربيع. وكانت نتيجة ذلك التأجيل أن تعاظمت قوي بريطانيا الحربية، وأن حددنا تأريخ الهجوم في اليوم السادس والعشرين من آيار ١٩٤٢.

معركة موضع الغزالة

تشمل معركة الغزالة الأسابيع الثلاثة المبتدئة في السادس والعشرين من آيار والمنتهية في اليوم الخامس عشر من حزيران. ففي خلال هذه الأسابيع الثلاثة شهدت الصحراء الغربية حرب إبادة كبري وبأفظع أشكالها. وعندما بدأت المعركة كانت وبالاً علينا أول الأمر. غير أن الظفر أصبح حليفنا بعد أن حدث تحول في القتال فيما بعد، وكان بعض ذلك الظفر يعزي جزئياً إلي الهجمات التي استهدفنا من ورائها أغراضاً محددة، كما يعزي بعضه الآخر إلي وسائل دفاعنا، ودحر التشكيلات البريطانية الممتازة بالرغم من الشجاعة التي ابدتها.

وقد كان انتصار قواتي الألمانية الإيطالية في نظر القوات البريطانية

الممتازة، بالغ الدهشة للرأي العام العالمي.

فقد انتقدت تصرفات خصمي الجنرال البريطاني ريتشي انتقاداً مراً، فهل كانت هزيمة قواته ناجمة في الواقع عن اخطاء وقع فيها ذلك القائد؟. لقد اطلعت مصادفة بعد المعركة. علي مقال نشره الناقد الحربي «ليدل هارت»، وعزا فيه فشل القيادة البريطانية أثناء معركة إفريقيا، إلي حقيقة أن القادة البريطانيين كانوا متمسكين بحرفية فنون معارك المشاة. والواقع أن هذا هو ذات ما شعرت به أنا نفسي.

فالقيادة البريطانية لم تستفد شيئاً من هزيمة ١٩٤١- ١٩٤٢، بل ظلت متمسكة بالنظريات القديمة، كارهة أن تدخل عليها أي تغيير أو تعديل. وهذا بعينه ما أدي إلي فشل الجيش الروسي أمام نابليون. وقد شاعت هذه الفرضية ذاتها أثناء الحرب بين كلا الفريقين من الضباط البريطانيين والألمان، الذين ظلوا غارقين إلي ذقونهم في تلك النظريات المعقدة البالية، ففقدوا بذلك قابلية التكيف طبقاً للظروف ولما تتطلبه حقيقة الوضع.

لقد برز مذهب عسكري جديد، ورسمت خطوطه بكامل تفاصيلها. وينظر الآن إلي هذا المذهب علي أنه خلاصة الحكمة العسكرية. ففي نظر الضباط القدامي، لا يمكن قبول سوي الأفكار العسكرية التي تترسم خطي قواعدهم النموذجية فهم يعتبرون كل فكرة تخالف هذه القواعد، مغامرة إذا نجحت فان نجاحها قد يكون نتيجة المصادفة والاتفاق ليس إلا.

ولقد كانت نتائج هذا الرأي الذي استبد بعقول بعض الضباط، تكبد خسائر فادحة لم تكن في الحسبان قط.

لقد تطورت فنون الحرب، وتأثرت القواعد الحربية بهذا التطور تأثراً كبيراً. فالنظريات التي كان الأخذ بها صالحاً في حرب ١٩١٤- ١٩١٨، لا يصح الأخذ بها في هذه الحرب، إلا إذا كان الجزء الأعظم من القوات

المحتشدة علي الجانبين أو علي الأقل الجانب الذي يطبقها، مؤلفاً من وحدات مشاة غير آلية. ففي مثل هذه الحالة تقوم القوات المدرعة مقام الخيالة، التي يعهد إليها بمطاردة المشاة وتشتيت شملهم، فلابد إذن- كما اوضحت سلفاً- من تطبيق قواعد مختلفة تمام الاختلاف في الحرب التي تخوضها قوات آلية كاملة من كلا الفريقين المتحاربين.

ومهما كانت قيمة تطبيق التقاليد الحربية في ميدان آداب الجندية بالغة فان هذا الاسلوب ينبغي أن يحط منه في حقل العلوم العسكرية.

ذلك لأنه في أيامنا هذه لم يترك القادة العسكريون وحدهم، أن يتبصروا في الطرائق الحديثة، فتصبح عديمة القيمة لهذا السبب. فقد تغيرت اليوم قابليات الحرب بالتقدم الفني تغيراً تاماً، ومن هنا كان واجباً علي قائد الجيش الحديث أن يتحرر من الأساليب والطرق الروتينية البالية، وأن يكون علي علم تام بالمسائل الفنية. كما يجب عليه أن يكون علي استعداد لأن يتكيف وفق الظروف والأحوال المحيطة بالجبهة، وأن يقلب الخطط التي رسمها من قبل رأساً علي عقب، إذا ما وجد ذلك ضرورياً.

ثم يصدر رومل بعد هذا حكمه علي الجنرال ريتشي فيقول: «وإنني أري أن منافسي الجنرال ريتشي، ككثير من قواد المدرسة القديمة، لم يتحقق تماماً من النتائج التي تترتب علي العمليات الميكانيكية الكاملة، ومن انفساح الصحراء أمامه. ورغم الدقة الممتازة التي اتبعها في تنفيذ خططه، فقد كان مآلها الفشل، لأنها كانت خالية من الجرأة!».

■ ■ ■

الفصل الثامن والثلاثون

كيف تقتحم حقول الألغام؟

الجندي البريطاني

قبل العلمين

عودة إلي الماضي

وعلي الرغم من الحالة الخطرة التي أحاقت بنا مساء السابع والعشرين من آيار، وأثارت في وجهنا مشاكل معقدة خطيرة، فقد كان كلي أمل، لما ستتكشف عنه المعركة في النهاية. ذلك لأن الجنرال ريتشي قد قذف بتشكيلاته المدرعة في المعركة علي انفراد، وفي أوقات متباينة، وبهذا منحنا فرصة الإحاطة بها وتدميرها بما كان لدينا من دبابات. غير أن هذا التدمير الذي أوقعناه بالألوية البريطانية المدّرعة لم يكن مفهوماً.

ففي اعتقادي أن تضحية البريطانيين بفرقتهم السابعة المدرعة جنوب «بير حرمات» وجنوبه الشرقي، لم يخدم غرضنا في المعركة الديناميكية. إذ لم يكن هنالك أي فارق فيما إذا كانت فرقي المدّرعة قد نازلت العدو في تلك النقطة، أم في «طريق العبد»، حيث دخلت بقايا القوي الإنجليزية المدرعة المعركة أخيراً.

وكان يبدو أن الهدف الرئيسي الذي سعي البريطانيون لتحقيقه، هو أن يقذفوا بكل ما كان لديهم من التشكيلات المدرعة في المعركة وفي وقت واحد. فهم لم يسمحوا بالخدعة التي أريد من ورائها تمزيق قواتهم قبل المعركة، أو

أثناء الخدعة التي قمنا بها ضد موضع الغزالة.

والواقع أن وحداتهم المزودة تزويداً فائقاً بالآليات، قد أعانتهم علي اجتياز ميدان المعركة بسرعة هائلة كما لو كان هنالك خطر يتهددهم.

إن المعارك المتحركة في الصحراء، تمكن مقارنتها بالمعاركة البحرية تمام المقارنة. ذلك أنه من الخطأ أن تهاجم جانباً من السفن، وتترك أخري غيرها في الميناء خلال المعركة.

(وهنا أدرج رومل تفصيلاً للحوادث التي تلت ذلك التاريخ حتي مساء اليوم التاسع والعشرين من آيار مما لم نشأ نقله في كتابنا).

● ● ●

ما إن بدأت تباشير صباح اليوم الثلاثين من آيار وراحت أنواره تغمر الكون حتي كانت كل فرقة من الفرق قد تحركت إلي المنطقة التي خصصت لها واتخذت موضعاً دفاعياً. وقد لاحظنا خلال هذه الحركات، تدفق قوات بريطانية قوية تدعمها الدبابات إلي منطقة «العوالب»، فكانت هذه القوات تؤلف اللواء البريطاني المائة والخمسين التابع للفرق الخمسين التي عززت مؤخراً، وفي الوقت ذاته نجح قسم من الفيلق الإيطالي العاشر في اجتياز حقول الألغام البريطانية، فأنشأ له رأس جسر علي الجانب الشرقي من تلك الحقول، علي الرغم من النار الحامية التي صبتها المدفعية البريطانية علي الإيطاليين أثناء قيامهم بتطهير الطريق من الألغام، تلك النار التي كان لها تأثير الفعّال علي أرتالنا المتحركة.

وفي ظهر ذلك اليوم تم الاتصال بين القوات العاملة في الميدان والفيلق الإيطالي العاشر، وبذلك تم فتح طريق مباشرة في الغرب لتأمين وصول الامدادات والنجدات. وفي أثناء النهار كان اللواء البريطاني قد طوق في «غوط العوالب».

وفي المساء اندفعت عبر حقل الألغام، حيث يقع مقر قيادة الفيلق الإيطالي العاشر، وذلك للاجتماع بالفيلد مارشال كسلرنج قائد الفيلق الإيطالي والمقدم فون بلو ممثل الفوهرر، ولأطلعهم علي الخطط التي أعددتها للمعركة.

كانت حقول الألغام البريطانية قد سترت بالفيلق الإفريقي الألماني من أي هجوم قد تقوم به الوحدات البريطانية من الشمال الشرقي. وفي الوقت ذاته صممت علي تحطيم الجزء الشمالي من موضع الغزالة بكامله، ومعاودة الهجوم بعد ذلك. وكان ينبغي أن تشمل هذه العملية قبل كل شيء تحطيم اللواء البريطاني المائة والخمسين في العوالب، واتباعه باللواء الفرنسي الأول في بير حكيم.

وكل ما فعله العدو هنا، أنه راح يتعقب انسحابنا متردداً حذراً. فقد جاء ارتداد التشكيلات الألمانية الإيطالية مفاجأة مدهشة له، وكان من أثرها أن القيادة البريطانية لم تستغل ذلك الارتداد، فتعاود الهجوم ضدنا بالسرعة المطلوبة.

لقد لاحظنا صباح الثلاثين من آيار أن البريطانيين قد تمركزوا في مواضعهم شرقي جبهتنا، تشد أزرهم مائتان وثمانون دبابة، بينما حشدوا شمالنا قوات من المشاة تساندها مائة وخمسون دبابة. ولقد لبثنا ننتظر قيام البريطانيين بهجوم شديد ضدنا. غير أن مثل هذا الهجوم لم يقع، إنما استعيض عنه في الصباح بهجمات بريطانية ضئيلة، وجهت نحو فرقة اريتا الإيطالية، وقد صدت هذه الهجمات من قبل الإيطاليين وإن كان الإنجليز قد أصابوا بعض التقدم في بقية قطاعات الجبهة، وقد تم تحطيم سبعة وخمسين دبابة إنجليزية في ذلك اليوم.

وفي المساء قمت بنفسي باستطلاع لأعرف قابلياتي في مهاجمة القوات الإنجليزية التي تحتل غوط العوالب. وقد أعددت قسماً من الفيلق الإفريقي الألماني، وآخر من الفرقة التسعين الخفيفة. وفرقة تريست الإيطالية، لمهاجمة مراكز البريطانيين في تلك المنطقة في الصباح التالي.

تقدمت التشكيلات المهاجمة ضد اللواء البريطانى المائة والخمسين فى صباح اليوم الحادى والثلاثين من آيار. وقد شقت الوحدات الألمانية الإيطالية طريقها يرداً يرداً إلى الأمام، فجابهت مقاومة بريطانية عنيفة لا يتصورها العقل! كانت خطة الدفاع البريطانى قد أعدت بمهارة وحذق. وقد حارب البريطانيون - كما هى عادتهم - حتى آخر إطلاقة بقيت لديهم، واستعملوا نوعاً جديداً من المدافع المضادة للدبابات ذات عيار ٥٧ مليمتراً، ومع ذلك فقد توغلنا، مساء ذلك اليوم، فى منطقة مهمة من مواضع البريطانيين. وفى اليوم التالى كان على القوات البريطانية أن تتلقى الضربة الأخيرة. فبعد قصف قوى قامت به طائراتنا، اندفعت قواتنا نحو مواضع البريطانيين، وفى هذا اليوم اشتركت أنا والعقيد فستفال مع القوات المهاجمة فى المعركة وقد جرح فستفال - لسوء الحظ - جرحاً بليغاً فى ذات اليوم، إذ أصيب بشظية قنبلة مدفع بريطانى، ثم نقل إلى أوروبا للمعالجة وهكذا بقيت أعمل لوحدى فى الأيام التى تلت ذلك الحادث. كانت إصابة فستفال خسارة فادحة فقد كانت مساعداته لى ذات قيمة عالية لا تقدر، لما امتاز به من خبرة ومعرفة لحسم الأمور حسماً ناجحاً.

واستمر الهجوم، وراحت خطوط الدفاع البريطانية التى أحسن إنشاؤها وتعزيزها، تسقط الواحد تلو الآخر فى يد قواتنا، وهكذا ما إن إنقضى ظهر ذلك اليوم حتى استولينا على مركز العوالب برمته، عندما بلغت المقاومة البريطانية نهايتها. وقد أخذنا من البريطانيين ثلاثة آلاف أسير، وحطمنا واستولينا على ١٠١ دبابة وسيارة، وغنمنا ١٢٤ مدفعاً من مختلف الأنواع.

الجندى البريطانى

أشار رومل، فى الوصف الذى أعطاه للعمليات الحربيه التى حدثت فى الأيام القلائل التالية لمعركة الغزالة، إلى ما كان يتمتع به خصومه من البريطانيين من جدارة واستحقاق، وما يعتورهم من نقص فقال:

فى ذلك اليوم أخلى لواء الحرس البريطانى موضع «جسر الفرسان» بعد أن تعرضت تلك المنطقة طيلة الصباح إلى قصف مركز من المدفعية بشكل لم يخطر على بالنا قط. وقد كان هذا اللواء فى الواقع نموذجاً حياً للصفات السلبية والإيجابية التى يمتاز بها الجندى البريطانى. فقد توافرت لهذا الجندئ الشجاعة الخارقة والجلد، وفى ذات الوقت ظهر فيه عجزه البارز عن التحرك بسرعة.

(وبعد أن تحدث رومل عن سقوط طبرق، ألمح إلى القرار الذى صمم على تنفيذه فى افتتاح مصر، على الرغم من الأوامر التى أصدرها موسولينى بعدم التقدم نحو القطر المصرى).

كانت تلك هى اللحظة التى قد يكتب لها النجاح. فهى تجربة. ولم يكن القيام بتلك العملية ليؤثر على سلامة جيشى. وكما وقع فعلاً. كان باستطاعتنا أن ندافع عن أنفسنا بنجاح فى أية حالة ممكنة أثناء تقدمنا. غير أن هذا التقدم قد تعرض فى النهاية إلى شئ من الانتقاد. فقد قيل فى حينه إن أرتال الإمدادات العامة فى شمالى أفريقيا لن تصبح قادرة - أثناء الزحف السريع المتواصل - على نظام طريق تموينى طويل يمتد من بنغازى إلى العلمين، وإن البريطانيين سيستفيدون كثيراً من قصر خطوط إمدادتهم الممتدة بين بورسعيد والجبهة، غير أن مثل هذا الانتقاد يمكن دحضه بالدلائل التاليه:

(أ) أن تفوق البريطانيين فى السلوم، كان أكثر فعالية من تفوقهم فى العلمين. فباستطاعة العدوان أن يشطر قواتنا، ثم يشرع فى تحطيم فرقنا الآلية بما فى ذلك تشكيلاتها المدرعة التى كانت - أثناء معركة العلمين - تحتفظ بتفوق ساحق ليس بالعدد - كما كان ذلك قبلاً - إنما بالنوعية أيضاً.

وعلى هذا كان من المتوقع أن يؤدى سحب مشاتنا غير الآلية من جبهة السلوم إلى تحرّج وضعنا، أكثر مما لو انسحبنا من العلمين. فقد كانت قواتنا

هذه ـ خلال معركة العلمين ـ تمثل مجموع الجيش، أما فى السلوم فلم تكن لديها الفرصة الكافية للقيام بأى عمل فعّال. ذلك لأن المواضع التى كانت تحتلها قواتنا فى السلوم، لم تكن تتطلب أية محاولات جدية من العدو لاقتحامها، إنما كان يكفى لدحر قواتنا تلك أن يقوم العدو بحركة هجومية بسيطة. وقد كان على هذه القوات أن تختار أحد أمرين: فإما أن تكون غنيمة باردة للوحدات البريطانية الآلية، وإما أن تتحمل عبء الإنسحاب.

والحقيقة أنه كان على أرتال إمداداتنا أن تتغلب على مصاعب شاقة أثناء الزحف داخل الحدود المصرية، وكان من الأمور الجوهرية أن نطلب بعض الإمدادات من إدارة التموين فى روما، بعد أن أرهق سائقو الدبابات والمشاة فى قتال استمر ثلاثة أسابيع دون انقطاع.

وهكذا أخذت الإمدادات تتدفق عن طريق البحر إلى الموانئ الواقعة فى المنطقة المتقدمة، كما سبق أن وعد به فى مثل هذه الأحوال، فعندما بلغتنى الأوامر القاضية بالاندفاع داخل مصر، خيّل إلىّ بأن الظفر النهائى الذى أصبح فى مصر قاب قوسين أو أدنى، لابد إن يستفز القيادة الإيطالية العليا إلى عمل ما من شأنه أن يضاعف من جهودها. وهذا سيهئ لى من الوقت ما أستطيع خلاله الاستفادة من الموانئ التى نستولى عليها فى زيادة إمداداتنا.

(ب) لم يكن من المتوقع أن تتحسن حالة إمدادتنا فى السلوم أيضاً، ذلك لأن كلاً من بنغازى وطبرق ـ بدلاً من طبرق ومرسى مطروح ـ ستكون هدفاً للقنابل البريطانية، وستتأثر بذلك كثيراً. فمدينة بنغازى مثلاً يمكن أن تستخدم لمختلف الأغراض، ولرسو السفن الضخمة، وهذا معناه اتساع طريق الإمدادات وامتداده حتى طربلس التى ستكون خارجة عن قابلية أرتال إمداداتنا.

أما بالنسبة للبريطانيين فمن النادر أن تبتعد حركاتهم عند الحدود بعض الشئ عن مركزهم التموينى. فقد كان فى متناول يدهم السكك الحديدية،

والعدد الكافى من سيارات النقل والطرق الصالحة، بالإضافة إلى الملاحة الساحلية.

كانت الفرقة النيوزيلندية التى يقودها الجنرال فرايبورج - أحد الضباط القدامى المحنكين الذين استفادوا مثلى من الحروب السابقة - قد تمركزت ليلاً ثم اندفعت نحو الجنوب.

وما لبث القفر اللامع أن غمر مقر قيادتى الذى كان يمتد إلى الجنوب. فقد كان جحفل «موقعة كيل» وجزء من فرقة «لوتوريو» فى غمرة الوغى. وكان تبادل النيران بين قواتى والنيوزيلنديين قد بلغ الذروة من الشدة والعنف، وعلى الأثر طُوّق مقر قيادتى بالسيارات المحترقة، فأصبحت بذلك هدفاً لنيران العدو المستمرة التى كانت تقذف علينا من مسافة قصيرة.

وما إن توالى القصف بعد ذلك حتى أصدرت أوامرى إلى هيئة أركان حربى بأن تتراجع نحو الجنوب الشرقى. وقد تم هذا التراجع فى وقت بلغ فيه القتال منتهى القسوة والجنون، ونشر فيه الظلام حجابه الكثيف فى سماء المعركة، بحيث لم يعد فى استطاعة أحد أن يبصر يده إذا ما مدها أمام عينيه. لقد بلغ من شدة الظلام أن راح السلاح الجوى البريطانى بقذف الجنود البريطانيين بقنابله بينما راحت تطلق النيران على بعضها البعض.

قبل معركة العلمين

استطاع البريطانيون - بسرعة عجيبة - أن يعززوا قواتهم فى العلمين، وقد أدركت قيادتهم العليا أن المعركة القادمة ستكون الحاسمة. ولذلك سارعت إلى دراسة الحالة بعناية ودقة فائقتين، وقد شحذ الخطر الجاثم همم البريطانيين فبذلوا جهوداً خارقة. فحينما تتحرج الأمور وتحدق الأخطار من كل جانب، يستطيع المرء أن يحقق من الأهداف ما كان هو نفسه يعتبره من المستحيلات، ذلك لأنه لا يوجد شئ كالخطر يجرف فى طريقه

الأفكار التى سبق تصورها.

لقد ثبتت الجبهة فى اليوم الثالث عشر من حزيران. فمن وجهة نظر القيادة البريطانية أستطيع أن أقول إن البريطانيين كانوا فى أحسن مركز لهم، لأن كفاءة البريطانيين إنما تتجلى فى التكتيك، كما يظهر ذلك واضحاً فى الحرب البرية وفى الحرب الساكنة، فهم متخصصون فى الهجوم المحلى، الذى يقومون به فى حراسة دبابات المشاة والمدفعية.

ومركز العلمين يمتد من البحر شمالاً إلى منخفض القطارة جنوباً. وهى منطقة من الرمال اللينة، ومن ثم فهى لا يمكن عبورها بسيارات النقل الثقيلة. ولما كان مركز العلمين لا يمكن تطويقه، فإن الحرب لا تمكّن أحد الفريقين المتحاربين من استخدام الأساليب المفاجئة للفريق الآخر. ونتيجة مثل هذه الحرب الساكنة هى دائماً فى صالح أكثر الفريقين تمويناً وإمدادات.

ولقد حاولت أخيراً أن أتفادى هذه الحرب الساكنة، التى يعد البريطانيون أساتذة فيها ودربوا جنودهم عليها، وأن أبلغ الصحراء المترامية الأطراف قبل الإسكندرية، كما أعاود هناك «العلميات العسكرية» التى برعنا فيها فى الصحراء، ولكننى لم أوفق إلى ذلك، لأن البريطانيين عرفوا جيداً كيف يحولون دون تقدم قواتى التى كانت قد أرهقت إلى أقصى حدود الإرهاق.

عودة إلى الماضى

إن معركة الصيف قد بدأت بانتصارنا انتصاراً خرافياً، فبعد أن سقطت طبرق، أخذت قوة الامبراطورية البريطانية تظهر من جديد. ولم يخالجنا الأمل فى أننا سنستولى على منطقة قناة السويس إلا بضعة أيام. فبينما كان ينبغى علينا أن نحارب فى كل معركة بنفس ما لدينا من قوات، كان البريطانيون قادرين على أن يلقوا فى المعركة بقوات جديدة مسلحة تسلحاً تاماً، كما كانوا قادرين على أن يسحبوا من الجبهة تلك الفرق التى تحطمت

فى قتالها غرب مصر، لتستريح وليعاد تنظيم صفوفها، فى حين ظل جنودنا يحاربون، وأخذت تنقص يوماً بعد يوم، وعدد الجرحى والقتلى يزداد.

لقد دخلنا المعركة بنفس الأفواج التى قادت الهجوم الأول، وركب جنودنا السيارات البريطانية التى وقعت فى أيدينا، وكانوا يقفزون منها ومن الناقلات، على المراكز البريطانية عبر الرمال. كما دخلنا المعركة بالدبابات والمدافع نفسها التى أرهقتها المعارك السابقة! وكانت البطولة التى أظهرها ضباطنا وجنودنا فى تلك الأسابيع المنصرمة قد بلغت أقصى الحدود التى تستطيعها قابلية الإنسان.

وكنت أطالب قواتى بما لا طاقة لها به، فلم أدخر فرداً منها، ولم أعف إنساناً من القيام بهذا العبء، جندياً كان أم ضابطاً أم قائداً. بل لم أعف من الإشتراك فى القتال حتى نفسى!

وكان واضحاً لى تماماً أن سقوط طبرق بإنهيار الجيش الثامن، هو الفرصة الوحيدة فى الحرب الإفريقية التى تفتح لى الطريق إلى الإسكندرية. فهذا الطريق لم يكن يحميه إلا عدد قليل من الجنود البريطانيين، فإذا لم نستغل هذه الفرصة الوحيدة أنا وجماعتى بكل وسيلة ممكنة، فاننا نكون فى منتهى الحماقة. ولو أن الانتصار كان يقوم، كما كان فى العصور القديمة، على قوة إرادة الجنود وتصميمهم وعنادهم وصلابة قائدهم، إذن لتخطينا العلمين. ولكن... ولكن موارد امدادتنا كانت قد نضبت، والفضل فى ذلك يرجع إلى الفوضى فى مستودعاتنا فى أوروبا.

وفى ذلك الحين انهارت مقاومة التشكيلات الإيطالية، وكان واجب الزمالة يقضى علىّ أن أقول بوضوح، وبخاصة لأننى القائد الأعلى للإيطاليين أيضاً، إن الهزائم التى منيت بها القوات الإيطالية فى أوائل تموز قبل العلمين، لم يكن الجندى الإيطالى مسئولاً عنها. فالجندى الإيطالى له عزيمة، وليس أنانياً، كما أنه زميل طيب القلب، وإن الأعمال التى يقوم بها

لتعد فوق المتوسط، ولا سيما إذا نظرنا إلى الظروف التى يحارب فيها. هذا إلى أن ما قامت به الوحدات الإيطالية، والميكانيكية منها خاصة، ليفوق كل ما قام به الجيش الإيطالى إبان قرن مضى. وكان بين الإيطاليين ضباط وقادة يحوزون إعجابنا كرجال وكجنود.

أما تلك الهزيمة الإيطالية فترجع إلى النظام العسكرى الإيطالى، وإلى الحكومة الإيطالية، كما ترجع إلى نقص العناد، وإلى عدم اكتراث كثير من كبار القادة الإيطاليين والحكام وكثيراً ماحال هذا كله بينى وبين تنفيذ خططى!.

■ ■ ■

الفصل التاسع والثلاثون

معركة علم الحلفا

العلمين

الرجوع إلى إفريقيا

عودة إلى العلمين

أخذ شهر آب ينصرم وقد قارب نهايته، ومع ذلك فإن الإمدادات العاجلة التى وعدت بها، بما فيها من ذخيرة وبترول، لما تصل بعد. وهذا النزر الذى كان وجوده أمراً حيوياً بالنسبة لحركاتنا الحربية، هذا النزر هو الآخر شرع بالتناقص والاضمحلال، فى حين أى تأخير فى وصول تلك الإمدادات إلينا يعنى الكف عن الهجوم الذى وضعنا خطته.

ومهما يكن الأمر فقد سبق للمارشال كافليرو أن أنبأنى بأن السفن المملوءة بالبترول ستكون عندى بعد ساعات أو اليوم التالى على الأقل. ولقد ظللت أحلم بإنجاز هذا الوعد، وآمل أن يتحقق ما صرح به المارشال كسلرنج، مع أنه سيبعث إلىّ بخمسمائه طن من البترول جواً إذا اقتضت الضرورة ذلك. ولما كنت أعتقد أن مضى الليالى المقمرة سيفوّت علينا آخر فرصة أمامنا للقيام بالهجوم، فقد أصدرت أوامرى بأن يبدأ الهجوم فى ليلة ٣٠ ـ ٣١ من آب، كما أعد من قبل.

كان كل شئ هيّئ منذ أيام خلت. وقد أعددنا ذلك على أساس توقعنا وصول البترول بين لحظة وأخرى، غير أننا فى الحقيقة لم نرد أن نبدأ هجومنا قبل أن يصل إلينا هذا البترول إذ أن وعود كافليرو فى هذا الصدد

لا يمكن التعويل عليها.

ولقد دافع البريطانيون، فى المراحل الأولى من المعركة، عن مراكزهم بقدرة بالغة وعناد تام، كان من نتيجته أن بعثوا بالإنذارات والتقارير الضافية عن الحالة إلى القيادة البريطانية، مما وفر لها الوقت الكافى لتهيئة التدابير المضادة اللازمة. وكانت هذه اللحظة التى تنفس البريطانيون فيها الصعداء ذات أهمية عظمى لديهم. فلقد كانوا فى حاجة إلى تثبيت جبهتهم، كى تستطيع قواتهم المحاربة الاحتشاد والاستعداد لضرب القوات الألمانية الإيطالية التى كانت تواصل تقدمها.

كانت خطتى هى أن أتقدم بقواتى الآلية مسافة خمسين كيلو متراً أخرى فى ضوء القمر، ومن هناك أواصل الهجوم إلى الشمال عند الفجر. غير أن هذه اللحظة لم يكتب لها النجاح، فقد حالت بعض العقبات الأرضية دون تقدم دباباتنا، وبذلك فقدنا عنصر المفاجأة الذى كان عماد خطتنا.

وإذا ما وقع تقدم من قبل القوات الآلية فى الجنوب، فإن البريطانيين سيكونون فى حاجة ماسة إلى الوقت الذى يستطيعون خلاله القيام بأعمال الاستطلاع، ووضع القرارات والعمل على تنفيذها، وفى خلال هذه الحركات تكون قواتنا قد تحررت من أى هجوم مضاد قد يشن عليها. غير أننا فقدنا الانتفاع من هذه الفرصة السانحة، فقد عرف البريطانيون الموضع الذى كنا فيه، ووجدت أن قرارنا بمتابعة القتال أو الكف عنه إنما يتوقف بالدرجة الأولى على الأحوال المحيطة بالفيلق الإفريقى.

فلقد علمت بعد ذلك حالاً أن الفيلق الإفريقى، بقيادة الجنرال بايرلاين، قد اقتحم الألغام البريطانية، وكان على وشك أن يندفع نحو الشرق. وهكذا بحثت الوضع مع الجنرال بايرلاين، واتفقنا نحن الاثنين على مواصلة الهجوم. ونظراً لمعاودة الدبابات البريطانية احتشادها واستعدادها للقيام بهجوم مباشر، فلم يعد بإمكاننا أن نندفع نحو الشرق بسبب الخطر الأكيد الذى

يتعرض له جناحنا، حيث كان مقرراً تركيز الفرقة السابعة المدرعة فى الجنوب واحتشاد الفرقتين المدرعتين العاشرة والأولى فى الشمال. وعلى هذا صممنا على أن نتحول فى وقت مبكر نحو الشمال. كان هجومنا ذلك قد فشل لأسباب ثلاثة هى:

(أ) كانت مواضع البريطانيين فى الجنوب قد تكاملت قوتها بشكل واسع، على النقيض من المعلومات التى زودتنا وحداتنا الاستكشافية بها، وحملتنا على تصديقها.

(ب) كانت الهجمات التى شنها سلاح الطيران البريطانى ضدنا باستمرار، والتى أسلمته زمام السيادة الجوية، كانت هذه الهجمات قد أعاقت جنودنا عن أية حركة وجعلت من المستحيل علينا إحراز أى تقدم وفقاً للخطة المقررة من قبل.

(ج) كان البترول، وهو الشرط الضرورى لتنفيذ خططنا، لم يصل فى الوقت المحدد له. فالسفن التى وعدنا بها كافليرو وقد أغرق البعض منها، وتأخر البعض الآخر، هذا فى الوقت الذى لم تكن فيه بعض هذه السفن قد أبحرت إلى إفريقيا فعلاً، وكان من سوء حظنا عدم تمكن كسلرنج من إنجاز وعده بإرسال خمسمائة طن من البترول جواً فى اليوم، إلى جبهة كانت فى أمس الحاجة إلى هذه المادة.

العلمين

(كان رومل ـ قبل مرضه وعودته إلى ألمانيا ـ قد أعد العدة اللازمة لمقاومة الهجوم الذى كان يتوقع أن يشنه البريطانيون ضده فى العلمين).

«كنا فى هذه المعركة، كما فى المعارك التى سبقتها، متفوقين على البريطانيين ـ ونحن فى صحراء مكشوفة ـ من ناحية التدريب والقيادة.

فقد كان فى وسع البريطانيين ـ من الناحية التكتيكية ـ أن يستفيدوا

جيداً من المعارك والالتحامات التى وقعت بيننا وبينهم، إلا أنهم لم يستطيعوا ذلك بسبب النظام التقليدى المحافظ الذى كان يسير عليه الجيش البريطانى، والذى لا يلائم الحرب فى الصحراء المكشوفة، وإن كان يجدى فى المعارك التى تنشب فى جبهات ثابته.

وعلى الرغم من ذلك كله لم نخاطر فى القيام بالعمليات الدفاعيه الكبرى فى الصحراء للأسباب التالية:

(أ) لقد أصبحت قوى فرقتنا الآلية ضعيفة ناقصة بشكل ملموس. وبينما كان خصومنا يعززون أنفسهم بوحدات آلية جديدة، لم تصلنا نحن سوى وحدات غير آلية كانت عديمة الجدوى فى حرب الصحراء، ولذلك أجبرنا على أن نختار نوع الحرب التى تستطيع وحداتنا هذه الاشتراك فيها.

(ب) التفوق الجوى الذى ناله البريطانيون، والتكتيكات الجديدة التى أخذ السلاح الجوى البريطانى يمارسها، يضاف إليها ما سبقت الإشارة إليه من التقييدات التى ترافق استخدام القوى الآلية.

(ج) النقص الأساسى الذى كنا نعانى منه فى البترول. فقد وجدت نفسى غير قادر على دخول المعركة لأن حركتنا قد شُلت بسبب نقص البترول، فنقص البترول فى الحركات الدفاعية المتحركة، يعنى الكارثة.

الرجوع إلى إفريقيا

وبينما نحن كذلك إذ استدعانى الفوهرر لمقابلته. وكان الموقف فى العلمين قد ساء إلى حد أصبح معه من الضرورى أن يطلب إلى الفوهرر العودة بطريق الجو إلى إفريقيا لتولى القيادة. وقد عدت فى الصباح التالى. وكنت على يقين أنه لم تعد فى إفريقيا أكاليل أخرى من الغار. ذلك أننى علمت من التقارير التى نظمها ضباطى، أن إمداداتنا قد هبطت إلى ما دون الحد الأدنى من الطلبات الضئيلة التى طلبتها. وهكذا أصبح واضحاً، وفى

وقت قصير جداً، أننى كنت أجهل حقيقة كيف ساءت الأمور فى إفريقيا من الناحية التموينية.

وعندما هبطت روما حوالى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر التقيت فى المطار بالجنرال «رنتلن» الملحق العسكرى الألمانى، وضابط الارتباط مع القوات الإيطالية. وقد أطلعنى رنتلن على آخر تطورات الحوادث فى الميدان الإفريقى. فبعد تمهيد قوى من المدفعية احتل العدو أجزاء عدة من مواقعنا القائمة إلى جنوب المرتفع ٣١, وإن عدة أفواج من الفرقة المائة والرابعة والستين وأخرى غيرها من الإيطاليين، قد أبيدت عن بكرة أبيها، وكان الهجوم البريطانى ما يزال مستمراً، وما يزال الجنرال أشتومة مفقوداً. ومما ذكره لى الجنرال رنتلن أنه لم يكن فى الإمكان إرسال كميات أكثر فى الأسابيع الأخيرة بسبب كثرة ما أغرقه البريطانيون من سفننا، ولان الأسطول الإيطالى لم يعد العدة لنقل الكميات المطلوبة من البترول إلى شمال إفريقيا.

لقد أصبح الموقف بالغ الخطورة. ذلك لأنه خصص لكل سيارة تعمل بين الجبهة وطرابلس من البترول ما يكفى لقطع ٣٠٠ كيلومتر فقط. وقد كانت هذه الكمية من الضآلة بحيث إنها تحول دون استمرار المقاومة عندنا. إن هذا النقص الهائل فى البترول من شأنه أن يحول بيننا وبين اتخاذ القرارات التكتيكية، ويضع تقييدات قاسية على الخطط التى إرتأينا العمل بها.

لقد كنت حانقاً إلى آخر درجات الحنق، ذلك لأنه أثناء سفرى من إفريقيا، كان لدينا فى ميدان مصر وليبيا مالا يقل عن ثمانية مستودعات من البترول، والذى ينبغى ألا يقل عن ثلاثين مستودعاً.

وقد أظهرت التجارب أنه يحتاج إلى مستودع واحد من البترول (ما يكفى لقطع مائة كيلومتر) فى كل يوم من أيام المعارك، فبدونه يتعطل المحارب عن الحركة، مما يسّهل على العدو العمل بنشاط دون أن يكون فى مقدور خصمه اتخاذ الإجراءات العملية المضادة.

ولقد أسف رنتلن لهذا الموقف وقال إنه كان ـ لسوء الحظ فى إجازة، ولذلك لم يكن فى استطاعته أن يولى مسألة الإمدادات العناية الكافية التى تستحقها!

ولما وجدت أننا سنخوض هذه المعركة وليس لنا سوى أمل ضئيل حتى فى نوال ظفر دفاعى، واصلت طيرانى عبر البحر الأبيض المتوسط بطائرتى الخاصة «اللقلق» فهبطت فى مقر قيادتى بافريقيا. وفى منتصف ذلك اليوم عثر على جثة الجنرال أشتومه، فنقلت إلى درنه، كانت الظروف القاسية التى احاطت بوفاته تتلخص فى أن الجنرال أشتومه قد اندفع بإحدى السيارات إلى ميدان المعركة، وعندما بلغ المرتقع ٢١، أطلق بعض المشاة البريطانيين النيران عليه من رشاشاتهم ومدافعهم المضادة للدبابات، وقد اصيب العقيد «بختتج» الذى رافق فون أشتومه بجرح بليغ فى رأسه، وعلى أثر ذلك انحرف السائق نائب العريف وولف بالسيارة، أما الجنرال فون أشتومه فقد قفز من السيارة وتعلق بالقسم الخارجى منها فى الوقت الذى كان فيه السائق يندفع بجنون خارج نطاق نيران العدو وفي الحال اصابت الجنرال فون أشتومه سكتة قلبية فسقط من السيارة، دون أن يشعر السائق بسقوطه. وفى صباح يوم الأحد وجد فون أشتومه ميتاً بجانب إحدى السيارات دون أن يصاب بأى جرح كان.

وبعد أن وصف رومل المعركة وصفاً ضافياً، أورد نص البرقية التى بعث بها إلى موسولينى، والتى تدل على مدى سوء فهم الدوتشى ودوائر روما للموقف فى الميدان الإفريقى، وهذه هى البرقية:

«الفيلد مارشال رومل...

«لقد كلفنى الدوتشى أن أنقل إليك أعظم تقديره لهجومك المضاد الموفق، الذى قدته بنفسك. والدوتشى يعرب لك عن ثقته بأن المعركة الآن فى تقدم وإنها بقيادتكم، ستبلغ النصر المنشود».

ثم سرعان ما بدأ واضحاً أن هيئة أركان حرب هتلر، ليست أحسن فهماً للموقف فى إفريقيا. وربما كان من سوء الحظ أحياناً أن تكون للإنسان شهرة عسكرية فأنا أعرف حدود قدرتى، ولكن غيرى من الناس يتوقعون منى أن آتى بالمعجزات!

عود إلى العلمين

ثم يجمل رومل الحديث عن معركة العلمين فيقول: «لقد خسرنا المعركة الحاسمة فى الحملة الإفريقية، وكانت حاسمة لأننا خسرنا فيها الجانب الأكبر من مشاتنا وقواتنا الميكانيكية، كم كانت نتائجها أبعد من أن تقدر. ولكن الشئ الذى يبعث على الدهشة حقاً، هو أن الدوائر الرسمية فى كل من الجانبين الألمانى والإيطالى، لم ترجع هذه الهزيمة إلى أسبابها الحقيقية من العجز التام فى الإمدادات، وتفّوق الحلفاء علينا فى سلاح الطيران، بل هى حتى لم ترجعها إلى الأمر الذى صدر إلينا بالنصر أو الموت دون العلمين!. فمسئولية الهزيمة كلها يجب عندها، أن تقع على الجنود وقوادهم. ولا شك أن هذه الأحكام الجائرة لا يجرؤ على إصدار مثلها إلا من طال بعدهم عن الميدان - فشاخوا وهرموا - كما جاء فى الأمثال. بل إنهم ذهبوا فى أحكامهم علينا إلى حد أن رمونا بأننا كنا نلقى سلاحنا أمام الحلفاء، ووصمونى بأننى من أنصار الهزيمة، وبأننى أستسلم لليأس والتشاؤم حين أمنى بهزيمة، وفى المواقف التى يشتد حرجها، ولذلك يحملنى هؤلاء مسئولية كل ما حدث، وما ذاك إلا لأنهم يحقدون علىَّ، ويستكثرون انتصاراتى حسداً، وهم اليوم يطلقون السنتهم الحداد ينهشون بها سيرتى، وبالأمس لم يكن واحد منهم يجرؤ على أن يفتح شفتيه بكلمه.

وكان الجيش فريسة هذه النزهات، وحينما وقع الجيش كله فى أيدى البريطانيين، عقب مغادرتى إفريقيا، كان السادة الاستراتيجيون أصحاب المقاعد الوثيرة العالية، مازالوا يفكرون ويديرون الخطط فى رؤوسهم

متسائلين: ماذا عسانا فاعلين فى الدار البيضاء؟!

«وليس من الإنصاف فى شئ أن ننكر أن كثيراً من أولئك السادة أصحاب المراكز الرفيعة، لم يكن ليعوزهم الذكاء الكافى لإدراك ما هو واقع فى شمال إفريقيا، إنما تعوزهم الشجاعة التى يواجهون بها الحقائق التى لا يمكن تغييرها، وليهتدوا بها!».

«إنهم كنعام الصحراء يتوقعون الخطر بإخفاء رؤوسهم فى الرمال، ويعيشون فى أحلام جميلة رحبة، فإذا جد الجد، ووقعت الواقعة ودارت الدائرة، راحوا يبحثون عن الأبرياء المساكين من الجنود والقادة فى الميدان، ليتحملوهم أوزارهم!».

«ورغم تجاربى الطويلة، لا يسعنى إلا أن أعترف بالخطأ الواحد الذى وقعت فيه ذلك هو أننى لو أراوغ ولم أهمل تماماً، ذلك الأمر الذى صدر إلى «بالنصر أو الموت» دون العلمين. فلو أننى أهملت ذلك الأمر، لكانت هناك فرصة لإنقاذ الجيش وكل قوات المشاة، ولأصبحوا جميعاً بعد قليل أكثر «مقدرة على معاودة القتال».

ولكيلا أدع ثغرة للشك فى نفوس المؤرخين بشأن الأحوال والملابسات التى كنا نعمل فيها فى معركة العلمين، لا يسعنى إلا أن أجمّل الموقف فيما يلى:

من الحقائق الثابته بأنه لا قوام لجيش، مالم يكن مطمئناً إلى حصوله على حاجته من الذخائر والأسلحة والمؤن والبترول، لكى يتمكن من مواجهة الموقف ومواصلة القتال... فقبل أن تبدأ المعركة الحقيقية، تحتدم المعركة ويتقرر مصيرها من قبل أمراء الإعاشة والتموين، وأن أشجع الشجعان لا يستطيع أن يعمل من دون مدافع، والمدافع لاقيمة لها دون أن تكون لديها كفايتها من الذخيرة، والمدافع والذخيرة فى حرب تقوم على الحركة، لا تنفع

شيئاً إلا إذا تيسر نقلها على ناقلات لديها كفايتها من البترول. وفى المستقبل ستكون المعارك الحربية مسبوقة بالمعارك الجوية. فهذا هو الأمر الذى سيحدد من سيقاسى من الأضرار السوقية والتكتيكية التى أسهمت فى ذكرها أعلاه، ومن الذى سيجابه منذ البدء خطأ تكتيكياً بيناً.

أن شيئاً من المطالب الحيوية التى أبديناها لم يتحقق على أى نحو من الانحاء، ولهذا كان علينا أن نعانى مرارة النتائج!

ذلك لأن السيادة البريطانية على الجو، ثم على الماء، تبعاً لذلك، فى المنطقة الوسطى من حوض البحر الأبيض... جعلت مواردنا أقل من أن تكفينا لنعيش، يضاف إلى هذا وفرة مالدى العدو من ذلك كله. بل إنه لم يحدث قط فى أى ميدان من ميادين القتال أن احتشد فيه ما حشده البريطانيون يومئذ من الدبابات الثقيلة وقاذفات القنابل والمدافع، ومن المؤن التى لا تنضب، وهذا كله فى جبهة قصيرة كجبهة العلمين.

كانت القيادة الجوية البريطانية قد استكلمت اسبابها. فقد جاءت أيام قام فيها البريطانيون بثمانمائة هجمة من القنابل، والفين وخمسمائه هجمة من المقاتلات والقاذفات وذوات الطيران المنخفض. أما من ناحيتنا فلم نكن نستطيع القيام بأكثر من ستين هجمة بالقنابل، ومائة هجمة بالمقاتلات، وقد تضاءلت هذه الهجمات باستمرار فيما بعد.

وبكلمة عامة كانت مبادئ القيادة البريطانية لم تتغير رغم أن تكتيكاتهم أصبحت متطورة.

والحقيقة أن هذه المبادئ قد أعانت الجيش الثامن على النجاح للأسباب التالية:

١ ـ أن الجيش الثامن لم يدخل المعركة فى صحراء مكشوفة، بينا كان على قواتنا الآلية أن تؤلف جبهة من أجل حماية فرق المشاة التى كانت تدخل

المعارك دون سند من وسائل النقل. فالحرب قد أخذت صفة معركة مواد ليس إلا.

٢ ـ كان للبريطانيين التفوق الساحق فى السلاح من ناحية الكم والكيف، بحيث أصبحوا قادرين على مجابهة أى نوع من أنواع العمليات الحربية.

كانت الأساليب التى استخدمتها القيادة البريطانية فى تدمير قواتى، نتيجة من نتائج سيادتها المطلقة. فكانت تلك الأساليب تتألف من:

(١) تركيز نيران المدفعية تركيزاً وعلى نطاق عال.

(٢) القصف الجوى المستمر الذى تقوم به أسراب قوية من القاذفات.

(٣) الهجمات المحلية المحدودة التى كانت تجرى عن طريق الإفراط فى استعمال المواد، والتى أظهرت درجة عالية جداً من التدريب، جاءت مطابقة للظروف المحيطة بها تمام المطابقة.

كان بعض هذه الخطة التى اتبعتها القيادة البريطانية، يقوم على مبدأ الحساب الدقيق، ذلك المبدأ الذى لا يمكن اتباعه إلا فى حالة التفوق المادى. والواقع أن البريطانيين لم يقوموا بما يمكن أن يوصف بأنه «عملية»، إنما ركزوا جل اعتمادهم على التأثير الذى تحدثه مدفعيتهم وقوتهم الجوية. وكانت القيادة البريطانية ـ كما هو شأنها دائماً ـ تبدى تباطؤاً ملحوظاً فى إعمالها.

ففى ليلة ٢ ـ ٣ من تشرين الثانى شرعنا فى الانسحاب، وقد مر علينا وقت طويل قبل أن يبدأ العدو فى تعقبنا ومطاردتنا، ولو أننا تدخلنا فى الأمر التعس الذى أصدره هتلر، لكان فى استطاعتنا النجاة، وبلوغ «فوكا» بكامل مشاتنا.

وكانت القيادة البريطانية ـ كالعادة ـ تتمسك بحذرها التقليدى، وباتخاذ القرارات الخالية من العنف. مثال ذلك أن البريطانيين كانوا يهاجموننا بين

حين وآخر، بوحدات منفصلة من الدبابات، ولم يقذفوا - كما توقعنا - بالتسعمائة دبابة التى كان باستطاعتهم استعمالها، وبدون أن يحملوا أنفسهم مغبة المخاطر. بدأوا حركاتهم فى الجبهة الشمالية، مستخدمين تفوقهم الساحق للحصول على نتيجة سريعة بأقل ما يمكن من الجهد والخسارة.

والحقيقة أنه كان باستطاعة البريطانيين، تحت ذلك الستار من نيران المدفعية والطائرات، أن يقذفوا بنصف قواتهم إلى المعركة، ويبيدوا قواتى التى فقدت قابلية الحركة فى ميدان المعركة. وأكثر من ذلك تكبد البريطانيون أنفسهم خسائر فادحة لهذا السبب، وقد تكون القيادة البريطانية أرادت أن تحجز دباباتها فى الخط الثانى لاستخدامها فى تعقب قواتنا.

ولقد استفادت القيادة البريطانية استفادة كبرى من المعارك التى خاضتها ضد قوات المحور، فى تدريب تشكيلاتها من المشاة والدبابات تدريباً ممتازاً. غير أنه يمكن القول بأن الأساليب الجديدة التى تطبقها القيادة البريطانية الآن، إنما طبقتها لوفرة مالديها من الذخيرة ومواد الحرب الحديثة.

وقد أظهرت المدفعية البريطانية ما تمتاز به من قوة وسرعة، وعلى الأخص قابليتها العظمى وسرعتها فى التمهيد للقوات المهاجمة. وكانت قوات الدبابات البريطانية تقوم بنقل مراقبى المدفعية الذين يرفعون التقارير عما تحتاج إليه الجبهة فى أسرع وقت ممكن، وإيصالهم إلى وحدات المدفعية الذين يرفعون التقارير عما تحتاج إليه الجبهة فى أسرع وقت ممكن، وإيصالهم إلى وحدات المدفعية. ويضاف إلى هذا أن وفرة الإمدادات والمؤن وتوافر مدافع من طراز عال، قد عاد بفوائد كثيرة على البريطانيين.

وقد استطاع البريطانيون بمدافعهم تلك أن يدكوا مواضع المدافع الإيطالية، حيث لم تستطع هذه المدافع الرد على البريطانيين لضعفها، ولأن أقصى مدى كانت تبلغه يتراوح بين خمسة وستة كيلومترات.

وقد كان من سوء أوضاعنا، أن جزءاً كبيراً من مدفعيتنا كان يضم مدافع إيطالية من هذا النوع.

إن شجاعة الجنود الألمان، وكثير من الإيطاليين فى المعركة، حتى فى أحرج الساعات، لشئ يستحق الإعجاب حقاً. فهذه القوات، ولا شك خلفّت وراءها سجلاً من المجد أحرزته فى عام ونصف العام، ماكان ليحرزه غيرها أى جيش من الجيوش، ولا غرو، فإن كل جندى من جنودى لم يكن يدافع عن وطنه فحسب، ولكنه كان إلى هذا يدافع عن تقاليد الفيلق الإفريقى.

وإذن، يمكن أن أقول: إن صفحة مجيدة فى تاريخ الشعبين الألمانى والإيطالى، قد خطها جيشى فى إفريقيا، بما أبداه من بسالة وجلد وصدق بلاء، ورغم أنه لم يكن صاحب النصر الأخير!.

■ ■ ■

الفصل الأربعون

العودة إلى تونس

(أعد رومل أثناء انسحابه من العلمين فى تشرين الثانى ١٩٤٢، خطة للعمليات المقبلة فى شمالى إفريقيا، وقد كانت هذه الخطة أساس المحادثات التى جرت بين رومل وكل من باستيكو وكافليرو وكسلرنج وجورنج وهتلر).

(أ) ليس باستطاعتنا الصمود فى وجه الهجمات البريطانية فى أى موضع فى طرابلس، مادامت الأحوال التموينية الحاضرة لا تسمح لنا باستبدال الأسلحة والدبابات والسيارات، ومادام الإحتياطى من البترول - وهو أمر ضرورى للمعارك المتحركة - لايفى بالغرض، ذلك لأن من السهل على العدو اقتحام جميع مواضعنا فى الجنوب، ولهذا اصبح من اللازم أن نضع العبء الرئيسى من الدفاع، على عاتق القوات الآلية.

وعلى هذا كان من الضرورى لنا أن نعد العدة منذ البداية، لإخلاء طرابلس كما نستطيع الاحتفاظ بقابس.

أن تنفيذ خطة الانسحاب هذه من «مرسى البريقة»، إلى تونس، تعتمد على اعتبارين مهمين: أولاهما كسب الوقت جهد المستطاع، وثانيهما إنجاز عملية الانسحاب بأقل ما يمكن من الخسائر فى الرجال والمواد.

وكانت المشكلة الرئيسية التى تجابهنا فى هذا التراجع، هى القوات الإيطالية غير الآلية.

فالتشكيلات التى تتحرك ببطء، والتى لا يمكن أن نتخلى عنها، هى التى تقرر مصير سرعة التراجع للجيش كله.

وهذا يؤلف كارثة كبيرة للجيش المتراجع، وخاصة إذا ماجابه مهاجماً متفوقاً عليه بآلياته تفوقاً ساحقاً. لهذه الأسباب كان من الضرورى أن تنتقل الفرق الإيطالية إلى مواضع جديدة فى الغرب، قبل أن يبدأ الهجوم البريطانى، وذلك بغية الاحتفاظ بالقوات الآلية فى مرسى البريقة فى وجه البريطانيين، ولألغام الطريق والاستفاده من كل فرصة ممكنة لتحطيم طلائع العدو الزاحفة.

وقد أظهر القائد البريطانى من الحذر ما يتعدى حدود الوصف. فهو لم يغامر بشئ، ولم يقم بأى عمل ينطوى على الشجاعة. وعلى هذا كان من واجب قواتنا الآلية أن تترك لدى العدو انطباعاً ينبئ بأنها فى منتهى النشاط، لكى تزيد من حذر البريطانيين، وتحملهم على التباطؤ فى الزحف.

كنت على يقين من أن مونتجمرى لن يغامر فى ضربنا بقوة، أو يعمل على مطاردتنا، مادام يستطيع أن يواصل زحفه دون خسارة وبأمان وسلامة تامتين. والحقيقة إذا ما نظرنا إلى هذه العمليات كمجموع، نجد أن مثل هذا المسرى لا يلحق به إلا خسائر طفيفة جداً، بالنسبة لتلك التى يتكبدها لو أنه أصر على أساليبه، فأظهر تفوقاً ساحقاً فى كل عملية تكتيكية، وضحى بعامل السرعة لديه.

وعلى كل حال فقد كان ينبغى أن ينجز التراجع نحو تونس فى مراحل عدة، وأن يجبر البريطانيون على أن يبتعدوا عن بعضهم البعض حسب الإمكان. وقد كانت هذه الحركة مقامرة بالنسبة لحذر القائد البريطانى، الذى أثبتت الوقائع أنه كان محقاً فيه.

كان خط «بيراث» يعد الموضع الأول، بينما كان خط ترهونة ـ حمص يعتبر الموضع الثانى. وحتى فى هذا القطاع لم نكن قد عزمنا بعد على التفكير فى دخول المعركة، إنما قصدنا بدلاً من ذلك أن تتحرك مشاتنا مقدماً، بينما تلتحم قواتنا الآلية مع العدو التحاماً خفيفاً لتأخر تقدمه.

أما فى قابس التى تشبه العلمين، فقد كان علينا أن نصمد نهائياً. مادام لم يعد فى الإمكان مهاجمتنا من الجنوب.

(ب) كان على مشاتنا أن تتحمل فى قابس الثقل الرئيسى من المعركة. فالموضع ذاته لا يساعد على القيام بهجوم تشنه القوات الآلية، إنما يمكن اقتحامه عن طريق تركيز كميات هائلة من المواد.

فالمارشال مونتجمرى لن يخاطر، إنما سيحتاج إلى بضعة شهور، كما يستطيع جلب كفايته من المواد الحربية من ليبيا، ويصبح قادراً على شن هجوم فى وادى العكاريت، يطمح من ورائه إلى النجاح.

وفى الوقت ذاته كان يجب تعزيز القوات الآلية، وتزويدها بالذخائر التى تساعدها على بلوغ تونس، فى الوقت الذى يستمر التراجع فيه.

وكان من المتوقع وصول الفرقة الخامسة المدرعة، وإذ ذاك تصبح لدينا فرصة لا بأس بها لإنشاء قوة مهاجمة أخرى.

كان الخطر الكبير الذى يجابهنا، هو إنفساح الجبهة واتساعها غربى تونس، الأمر الذى من شأنه أن يمنح البريطانيين والأمريكيين فى تلك المنطقة فرصاً طيبة للقيام بالهجوم. جزءاً من التشكيلات الأنكلو ـ أمريكية، وندفع بالبقية الباقية منها إلى الجزائر.

وفى الوقت ذاته لم يكن مونتجمرى ليأمل القيام بأية حركة فى قابس، قبل أن يتمكن من تهيئة كميات وافرة من الذخيرة لمدفعيته.

وبعد أن ضربنا الأنكلو ـ أمريكان فى غربى تونس، وجردناهم من القوة التى تعينهم على شن هجوم ضدنا، كان ينبغى أن نعيد تنظيم قواتنا فى أسرع وقت ممكن، وأن نهاجم مونتجمرى وندفع به متراجعاً نحو الشرق، فنؤخر امتداده بذلك! غير أن إنجاز مثل هذه العملية من الصعوبة بمكان، بسبب طبيعة الأرض التى لا تساعد على حركة كهذه.

(ج) لا يمكن الاحتفاظ بليبيا أو تونس أثناء التقدم الطويل. ذلك لأن مصير الحرب الإفريقية كان قد قرر بمعركة الأطلنطى. ففى اللحظة التى أصبحت فيها الولايات المتحدة - بماليها من قابلية صناعية هائلة - تشعر بأنها تستطيع العمل فى أى مسرح من مسارح الحرب، فى هذه اللحظة فقدنا فرصة إحراز أى نصر حاسم.

فحتى لو افتتحنا إفريقيا كلها، ولم نترك للأمريكيين سوى رأس جسر يستطيعون عن طريقه نقل موادهم الحربية، فإننا نكون قد خسرنا القارة الإفريقية تماماً[1].

فالمهارة التكتيكية فى مثل هذه المرحلة لا يمكن أن تحول دون الهزيمة، إنما كل ما تستطيع أن تؤديه هو أن تؤخر تلك الهزيمة بعض الوقت. وعلى هذا ينبغى أن يكون الهدف فى معركة تونس، كسب الوقت لنتمكن من سحب قواتنا بسلام إلى أوروبا.

ولما كانت تجاربنا قد أظهرت أن لا أمل لنا فى الاحتفاظ بجيش كبير فى تونس، فإن جهودنا يجب أن تتركز فى تقليص قواتنا المحاربة، وجعلها تشكيلات صغيرة مزودة بالأسلحة تزويداً تاماً. وإذا ما اضطر الحلفاء إلى اتخاذ قرار ما بالهجوم، فإن علينا أن نخرق الجبهة، وتخلى أكبر عدد ممكن من قواتنا بطريق الجو والبحر. ويجب أن يكون أول صمود لنا فى المنطقة التى تغمرها التلال، والتى تمتد حول تونس من «انفيدا فيل». أما الصمود الثانى فينبغى أن يكون فى شبه جزيرة «كاب بون».

وعندما يحتل الحلفاء تونس فى النهاية، فسوف لا يجدون فيها أياً من قواتنا، أو أقل عدد من الأسرى، وبهذه الوسيلة يحرمون من ثمار انتصارتهم، كما حرمنا نحن من أمثال ذلك الانتصار فى دنكرك.

(١) ذكر المؤلف: أن هذا الرأى يناقض آراء رومل السابقة، ويؤيد وجهة نظر الجنرال هالدر، فقد ظل رومل يصر أنه لو تهيأت له المساعدة التى يريدها لافتتح الشرق الأوسط فى ربيع وصيف ١٩٤٢.

(د) يجب أن تؤلف من القوات التى يراد سحبها إلى إيطاليا قوة محاربة. ذلك لأن هذه القوات كانت تمتاز بالتدريب الحسن وبالتجارب الحربية التى خبرتها فى حربها ضد الأنكلو ـ أمريكان.

وأكثر من ذلك قد تحدثت أنا نفسى إليهم عن هذا، وأنبأتهم بأن قيمتهم تحت قيادتى لا يمكن أن تقاس إلا بكامل عددهم.

انتهى الكتاب

الملاحـــــق

١ ـ كيف قتلوا أبى.

٢ ـ معلومات عن مؤلف كتاب رومل.

٣ ـ خالد بن الوليد ورومل.

٤ ـ الأيام الأخيرة لهتلر.



ملحق أول

كيف قتلوا أبى

بقلم: منفرد

(على أثر صدور كتاب رومل ووصول نسخة منه إلى منفرد إبن المارشال رومل، كتب منفرد هذا مقالاً فى إحدى الصحف الألمانية، وأوضح فيه كيف نكل هتلر وعصابته بالمارشال رومل وأصدقائه. وها نحن أولاء نقدم هنا ترجمة ذلك المقال).

لقد حكم القدر وقضى على والدى، وخبت تلك الشعلة الوضّاءة. وأهيل التراب على جثمان أشهر قائد عرفته الحرب العالمية الثانية.

فهل يسمح لى الآن أن أكشف عن صفحة خاصة من حياة والدى العظيم؟.

لقد كان والدى يؤمن بما قاله نابليون، من أن لكل شخص كوكباً فى كبد السماء يضئ ويخبو، متتبعاً حياة صاحبه. أما والدى فقد بلغ نجمه كبد السماء، غير أن ذلك اللمعان لا يعبر عن الحقيقة، إذ أنه توهج وأضاء ولكنه لم يدم طويلاً وسرعان ما هوى وانطفأ.

فبين عامى ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢ برز والدى فى طليعة القواد الألمان، نظراً لما أظهره من بسالة فائقة وعبقرية خارقة فى إدارة دفة المعارك وخاصة فى الشمال الإفريقى.

ولم يكن والدى فى تلك الأيام، كعادته، من المخلصين للحزب النازى أى

أنه لم يكن من المتحمسين للحزب ومبادئه، بل إنه كان يعد نفسه قائداً عسكرياً لادخل له بالسياسة. لهذا فقد أسّر إلى الهر هتلر، بعد هزيمة الألمان فى العلمين، بأن انتصار الألمان فى الحرب ضرب من المحال، بسبب تناقص الأسلحة والمعدات الألمانية باستمرار، وازديادها مطرداً عند الحلفاء وخاصة الأمريكان.

وقد كان جواب هتلر على هذا الرأى الذى أبداه والدى قوله:

«إننى أوافقك على ما تقول، ولكن ما العمل إذا كان الحلفاء يرفضون التفاهم معى بأية صورة كانت».

وعلى أثر توالى الانحدارات الألمانية، أخذ بعض القادة الألمان يؤمنون بضرورة هذه المجزرة غير أنهم يتهربون التصريح بآرائهم. حتى فيما بين زملائهم من القادة الآخرين، هذا إذا أخذنا فى الإعتبار أن الحلفاء كانوا يريدون الاستسلام بدون قيد أو شرط.

وفى مساء اليوم الخامس من حزيران سنة ١٩٤٤، وفى نفس الوقت الذى كانت فيه سفن الإنزال الحليفة تغزو نورماندى، كان والدى فى طريقه إلى «برختسجادن» المقر الخاص للهر هتلر، لمطالبة الفوهرر بسحب بعض الفرق من داخل المانيا وبعض البلاد الأوروبية الأخرى، وإرسالها إلى الجبهة الغربية فى فرنسا لمقاومتها الغزو المنتظر.

وعندما سمهم والدى بنبأ الغزو من الراديو المثبّت فى سيارته، صرف النظر عن هذه المقابلة الخاصة، واستدار قافلاً إلى باريس لإدارة دفة العمليات الحربية على الساحل الفرنسى.

ولما كان والدى يؤمن بضعف القوات الألمانية، ونقص تجهيزاتها فى الجبهة الغربية، ولما كان يعلم جيداً أن هتلر ليس على استعداد تام لمعاونته

فى إرسال النجدات، فقد قرر أن يأخذ الأمر على مسئوليته الخاصة، ويتخذ ما يلزم من قرارات تؤمّن نجاح العمليات الحربية، أو الاستسلام للحلفاء إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك.

ولهذا فقد أرسل مذكرة مستعجلة إلى القيادة الألمانية العليا، كتب فيها «يدافع جنودنا دفاعاً مستميتاً عن مواقعهم الحربية، ولكن هذه المقاومة اليائسة لن تجدينا نفعاً، بالنظر لتفوق الحلفاء علينا فى العدة والعدد. فالنتيجة معروفة سلفاً!

وإننى بصفتى قائداً للجبهة الغربية أرى أن يركن إلى الحكمة والصواب، كى نتجنب النتيجة المروعة، وإنهاء هذه المقاومة اليائسة منذ الآن».

وبعد إرسال هذه المذكرة حاول والدى أن يعمل بوحى الساعة، ويقرر ما يتراءى له بأنه فى مصلحة البلاد، ولكن... وتقدرون فتضحك الأقدار...!

فقد اعترضه سيل من الرصاص قضى على كل آماله فى تحقيق ما انتواه. وتفصيل الحادث هو أن والدى بعدما يقرب من يومين من إرسال مذكرته تلك، ركب سيارته الخاصة ليتجول فى الجبهة بقصد التفتيش كعادته دائماً دون حراسة، وبينما هو ينتقل بسيارته في الجبهة التقت به طائرة أمريكية، فهبطت نحوه وأطلقت عليه الرصاص من رشاشتها من علو منخفض، وأصلته ناراً حامية فأصيب والدى فى رأسه وكتفه بجروح عديدة، غير أن السيارة واصلت سيرها، وبعد مسافة قصيرة اصطدمت بشجرة ضخمة على الرصيف، وذلك بسبب إصابة السائق إصابات مباشرة.

وبعد اصطدام السيارة بالشجرة انقلبت في حفرة على جانب الطريق، وعلى أثر ذلك نقل المارشال والدى إلى مستشفى الميدان حيث أجريت له الإسعافات الأولية، وأظهرت نتيجة الفحص أن هناك كسراً فى الجمجمة، وآخر فى الفك الأعلى، وكدمات قوية حول العين اليسرى نتيجة اصدام السيارة وانقلابها.

كان الجنود الألمان ينسحبون أو بالأصح يهربون نحو الشرق بسرعة فائقة، ولما كان والدى تحت المعالجة فى المستشفيات الأمامية، فقد ركب بمساعدة بعض الجنود. فى سيارة نقل ألمانية فانسحب هو الآخر مع جنود الرايخ، مخالفاً بذلك نصائح الأطباء الذين طلبوا منه الراحة، وعدم الحركة بسبب أن إصابته قاتلة. أما سبب هروب والدى وتعريض نفسه لخطر المضاعفات. فهو أنه كان يأنف من الوقوع فى الأسر فلهذا فضّل تعريض نفسه للموت من الوقوع بأيدى الأعداء.

وبعودة والدى إلى بلاده لاحقته المصائب والكوارث، ويكفى للدلالة على ذلك أن الجنرال «أشبيدل» ورئيس أركان حربه - وكان قد سرّح من الخدمة آنذاك - جاءنا ذات يوم للزيارة، وبمجرد خروجه من دارنا ألقى الجستابو القبض عليه دون أن يوجه له أية تهمة، سوى زيارة المارشال رومل... بطل معارك الشمال الإفريقى...

وفى نفس اليوم الذى ألقى فيه القبض على الجنرال أشبيدل، كنا نرى رجال الجستابو يحيطون بدارنا يحصون على والدى حركاته وسكناته...

وعندما رأى والدى ذلك أيقن أنه أصبح من المغضوب عليهم وأنه قد وضع في القائمة السوداء.

ولهذا أصبح لا يغادر الدار بمفرده وبدون سلاح يحمله. ولم يكتف بذلك بل أخذ يصطحب معه الجندى المرافق، وهو مسلّح أيضاً، استعداداً للطوارئ، وعندما دعاه المارشال «كايتل» إلى برلين لمشاورته فى الموقف الحربى - كما ادعى كايتل - اعتذر والدى بمرضه وبعدم استطاعته تحمل مشاق السفر والانتقال.

ولم نكن - حتى ذلك الحين - نعلم سبب غضب هتلر على قائده وصفيّه رومل، ومحاولته التخلص منه مهما كان الثمن.

وفى الرابع عشر من تشرين الأول حضر إلى دارنا ضابطان ألمانيان برتبة جنرال وطلبا مقابلة والدى.

وعندما اجتمعا به خيّراه بين أن ينتحر بتناول السم، أو أن يلقى القبض عليه ويحاكم عسكرياً. وأضافا إلى ذلك أن رومل، فى حالة اختياره للحل الثانى، سيعدم باعتباره خائناً للرايخ، وتحرم عائلته من أية مساعدة من الحكومة، بالإضافة إلى العار الذى سيلحقها إلى أبد الآبدين.

أما إذا اختار الحل الأول ـ وهو تناول السم ـ فإنه فى هذه الحالة سيعتبر شهيداً وطنياً، قضى نحبه بسبب الجراح التى أصيب بها فى الجبهة.

واستدار الضابطان أخيراً نحو والدى. وأخبراه بأن الدار محاصرة من قبل الجستابو، فلا فائدة من المقاومة، وأن عليه أن يختار أحد الحلين دون تأخير.

وعندئذ اختار المارشال الحل الأول، وبعد أن ودعنا أنا ووالدتى وداعاً قصيراً حاراً مؤلماً، ركب فى سيارة الجستابو، وقد علمت بعد ذلك أن والدى تناول السم من رجال الجستابو بيد ثابتة، وتناوله فى ظل شجرة من أشجار الغابة الواقعة على مقربة من دارنا.

وقد شيّع جثمانه باحتفال مهيب، وسار خلف نعشه الجنرال «رونشتدت» نائباً عن الهر هتلر، وقد ألقى المذكور خطاباً نوّه فيه بالخدمات التى أداها رومل للرايخ، والبطولة الفذة التى أظهرها فى مختلف ميادين القتال، سواء أكان ذلك فى أوروبا أم فى إفريقيا.

وقد أصدر هتلر أوامره بصنع تمثال نصفى لوالدى يوضع فى أحد الميادين المهمة.

هذا فى الوقت الذى كان فيه الحزب النازى يحضّر ـ أو بالأصح يزوّر ـ

الوثائق اللازمة لإثبات خيانة والدى لبلاده.

أما الخطة التى رسموها لذلك فهى أن يدّعوا بأنهم عثروا على هذه الوثائق بطريق المصادفة، كل ذلك ليشوهوا سمعة هذا البطل العظيم، لأنه لم يكن نازياً فى يوم من أيام حياته.

ولكن الأيام لم تمهلهم... فقد سقطت ألمانيا وذهبت أتعابهم فى تزوير الوثائق وجمعها أدراج الرياح...

منفرد

ملحق ثانٍ

معلومات عن المؤلف وكتابه

لابد إن القراء يتوقعون الآن - وقد انتهوا من قراءة كتاب روميل الذى حرصنا على ترجمته بأمانه ودقة - إلى أن يعرفوا بعض الشئ عن مؤلفه اللواء دزموند يونج، وما شهده فى حياته من مخاطر وما يزاوله الآن من أعمال فنقول:

ولد درموند يونج فى سنة ١٨٩١ من أب بحار، وهو الكومودور سير فريدريك يونج، وام نيوزيلندية، وكان أبوه على رأس قسم فى البحرية، مهمته إنقاذ السفن الغارقة أو المحطمة إبان الحرب العظمى الأولى. ولقد ورث درموند عن أبيه ذلك الولع بالبحار، وركوبها وإنقاذ السفن وانتشال حطامها، ثم كتب عن ذلك كتاباً.

وفى سنة ١٩٢٤ اتجه اهتمامه إلى شئ آخر، غير السفن، فاشتغل بالصحافة وبدأ حياته الصحفية فى صحيفة «يوهانسبرج ستار» فى جنوب إفريقيا، ولم تمض فيه سوى سنه واحدة حتى أصبح رئيساً لتحرير صحيفة «ناتال ويتنس» وفى سنة ١٩٢٨ التحق بجريدة «كيب تيمز»[١].

ثم سافر يونج إلي الهند رئيساً لتحرير صحيفة «بيونير» فى سنة ١٩٣٣.

ثم التحق فى سنة ١٩٤٠ بالعمل فى الحكومة الهندية كمستشار صحفى.

والتحق بالجيش الهندى فى سنة ١٩٤١، ثم وقع فى الأسر سنة ١٩٤٢ فى شمال أفريقيا، وقضى ستة عشر شهراً فى معسكر أسرى الحرب فى

(١) جميع هذه الصحف كانت تصدر فى جنوب إفريقيا.

إيطاليا، ثم هرب منه فى أيلول سنة ١٩٤٣ إلى سويسرا حيث أصدر صحيفة هنالك لأسرى الحرب من بريطانيا ودول الدومنيون، وقد بلغ عدد هؤلاء الأسرى ٥٠٠٠ وكان توزيع هذه الصحيفة ٤,٦٠٠ نسخة.

ولما أعفى يونج من العمل فى الجيش الهندى فى سنة ١٩٤٦، اشترك فى إصدار صحيفتين فى الباكستان، وبعد ذلك غادر الهند نهائياً فى سنة ١٩٤٧.

كيف أسر يونج

وقد تحدثت اللواء دزموند يونج فى مطلع كتابه «رومل» عن كيفية إصابته، ووقوعه أسيراً فى أيدى قوات رومل، ثم نقله ومن معه من الأسرى إلى إيطاليا، وها نحن أولاء نقدم ترجمة ذلك المطلع.

ما إن أشرقت شمس اليوم الأول من حزيران، وراحت ترسل أشعتها الحادة حتى انتهينا من تطهير حقل الألغام الواقع غربى «بير حرمات».

وقبل مساء مضى، وحيث كنا فى مقرات لواء المشاة الهندى العاشر وحواليه اقتحمت الدبابات الألمانية مواضعنا وراحت تطاردنا.

وقد كنا جميعاً مبتئسين شأننا فى ذلك شأن الأسرى الآخرين الذين يبيتون ليلتهم فى العراء.

كنا خليطاً من البريطانيين والهنود. وكان بعضنا ـ وهو لا يرتدى غير ثوب وبنطلون قصير ـ يرتجف من البرد، بينما كان البعض الآخر قد تلفع بالمعاطف فلم يظهر من جسمه غير العينين وتدثر بالبطانيات وغطى رأسه بخوذة ضيقة.

كان الكل منا قد أخذ منه التعب والجوع مأخذه، بالإضافة إلى الأوساخ التى تراكمت فوق جسده، وهكذا بدأنا نتحقق من أن المثل الساخر الذى يستعمله سكان الشرق الأوسط بقولهم «يخفى نفسه فى كيس» أن هذا المثل لم يكن ليحمل الهزر والفكاهة.

كان حراسنا يحدجوننا من وقت لآخر بنظرات تحمل معنى الازدراء وعدم الاكتراث، وبنفس النظرة التى كنا نحن أنفسنا ننظر بها إلى تلك الارتال الطويلة من أسري الطليان.

وإذ أرعبتني الألغام، رحت أدب ببطء علي طول حافة حقل الألغام، وفي اللحظة التي كنت فيها علي وشك أن أضع فيها قدمي دون عناية واهتمام، هتف بي أحد الجند الألمان بحدة أن أعود إلي الرتل، وإذ ذاك انتبهت إلي الموضع الذي كنت فيه.

وقد مررنا، علي الجانب الآخر من حقل الألغام، من أمام بطارية ألمانية كانت ما تزال تواصل أعمالها. كانت مدافعنا ودباباتنا تبحث عن هذه البطارية. وكانت القنابل التي تقذف المدافع الثقيلة من ذوات الخمسة والعشرين رطلاً، والإطلاقات التي ترميها الدبابات، كانت هذه القنابل والإطلاقات قد شرعت تنهال حول الرتل. وقد أصابت إحدي القنابل ضابطاً شاباً بجانبي فاقتطعت منه ساقه ورفعتها عاليا إلي الهواء.

وهنا بدأت أصوات الهلع والفزع تتعالي من الجبهة. وقد اقتحم كل واحد منا الآخر وراح يلملم أطرافه، ويلتصق به ويتدافع. ولقد ركضت مع البقية بضع ياردات، ولما وجدت أن من السهل أن أجري وسط القنابل المحترقة بنفس السرعة التي أجري فيها خارج نطاق تلك القنابل، فقد تراجعت قليلاً وشرعت أسير سيراً اعتيادياً، وعلي حين غرة وجدت نفسي بجانب شاب أشقر اللون من أفراد الفيلق الإفريقي الألماني ممن عهد إليهم أمر العناية بالمؤخرة. وقد أشار إليّ ذلك الشاب بأن أجري، وإذ ذاك خلعت قبعتي وأريته شعر رأسي الذي خطه الشيب.

وكما يبدو التردد والحيرة علي الجرو الذي يرافق قطعياً من الغنم، ويكون في شك من قدرته علي افتراس الشارد من القطيع أو حماية البقية، بدا التردد علي ذلك الشاب، وإذ ذاك أسرع في تعقب الرتل وأومأ إليَّ أن

ألحق به.

وإذ بدا لي أن البطارية مازالت مستغرقة فى عملها رحت أتجول خارج الجناح، وعلي بعد خمسين ياردة أو ما يقرب من ذلك، عثرت علي ما كنت أبحث عنه وهو خندق مستطيل وإذ ذاك قذفت بنفسي فيه ورحت أهيل التراب عليَّ حتي قمتي، فقد كان الاستسلام في الصحراء هو النهاية التي تحدث نادراً. وقد منّيت نفسي بأن أظل مضطجعاً في ذلك الخندق إلي أن يحل الظلام وإذ ذاك آخذ طريقي عبر حقل الألغام. أما الدار التي يمكن أن استريح عندها فقد لا أعثر عليها إلا في «العضم»، بينما قطع خلق كثيرون قبلي أطول من تلك المسافة سيراً علي الأقدام.

وما لبث أن انكشف أمري بعد عشرين دقيقة، فقد أوقف ضابط ألماني سيارته علي مقربة مني، وكان الضابط قد لمحني عند مروره، فتوقف عن السير علي أنني ما لبثت أن مرقت من الخندق واندفعت إلي مقدمة الرتل، تحت وابل من القذائف المتساقطة. وقبل أن ألتحق بالبقية هتف بي ضابط ألماني بالإنجليزية قائلاً: «أأنت هنا أيها الضابط الكبير؟». وقد أكون ضابطاً كبيراً غير أنني في الواقع كنت أكبرهم سناً. وعاد الضابط الألماني يحدثني فقال: ستذهب وضابطين ألمانيين في سيارة وسترفعون معكم علم الهدنة، وعليك أن تنبيء رجال مدفعيتكم أن يكفوا عن إطلاق النيران لأنهم بذلك إنما يعرضون رجالكم للخطر ليس إلا!».

لقد كان في ذلك الكفاية حقاً. إن شعور أسير الحرب لا يسمح له- بصفة طبيعية- بأن يفعل ما يطلبه منه الغير، ولذلك أجبت الضابط بأنني لا أستطيع أن أنجز ما طلب إليَّ إنجازه.

فرد عليّ قائلاً: «باستطاعتك أن تعهد إلي ضابط آخر القيام بهذه المهمة» فكان جوابي هذه المرة أنني لا أستطيع أن أصدر إلي أحد أمراً كهذا.

ولقد مرت بي لحظات غريبة خلال الستة عشر شهراً التي أنفقتها في الأسر، وأنا أتساءل متعجباً ما إذا كان رجال المدفعية- عند وصولي إليهم- سيقبلون بعودتي إلي الأسر، وعما إذا كنت خاطئاً في رفضي تحقيق ما طلبه مني ذلك الضابط.

وفي هذه اللحظة وقفت سيارة ألمانية، فقفز منها ضابط قصير يرتدي بدلة جيدة جديدة تختلف عما كنا نرتديه، وقد لاحظت أن هذا الضابط يملك عينين زرقاوين براقتين وذقناً بارزاً وتبدوعليه ملامح رجال القيادة، وقد شرع الضابطان يتحدثان بضع ثوانٍ، التفت بعدها الضابط الذي يعرف الإنجليزية وخاطبني بجفاء قائلاً:

- لقد أمرني الجنرال بأنك إذا لم تقبل إطاعة الأمر الذي أصدرته إليك الآن، فإنك لن تجبر علي أن تفعل ذلك.

حدق الجنرال بنظره فشاهدت علي وجهه- كما توقعت- شبح ابتسامة.

وأياً كان الأمرف فإن تدخله كان ذا قيمة، ثم أشحت عنه قبل أن أعود إلي الرتل، وآخذ طريقي إلي معسكر الأسري.

كان من النادر عليّ أن أخفق في تمييز رومل عن غيره من الضباط الألمان، كما كنت بالكاد أتوقع أن يكون ذلك الجنرال ذو العينين الزرقاوين البراقتين وهو رومل نفسه، إلا بعد بضع سنوات، عندما أرتني أرملته قناع الموت الذي أخذ له، وقصت عليَّ مأساة مقتله.

تعليقات علي كتاب رومل

وقد بدت براعة يونج الصحفية في الحصول علي المواد الكافية لهذا الكتاب. وحين كان كتابه هذا ماثلاً للطبع، بعث له ابن رومل برسالة يخبره فيها بأنه كان يخفي في حائط من حوائط البيت مذكرات أبيه. وطار يونج إلي ألمانيا وفحص اليوميات وحمل بعضها معه، ثم استعان بأربعة من

المترجمين يعملون ليلاً ونهاراً، جتي استوت له هذه الصفحات الثلاثين التي نشرناها في نهاية الكتاب.

ولقد علقت مجلة «الستريتد لندن نيوز» في عددها الصادر في ٤ شباط الماضي، علي كتاب رومل تحت عنوان «تحية لجندي معاد» بقلم سير جون اسكوير. ولقد اختتم هذا الكاتب عرضه للكتاب بقوله: تلك إذن حياة رجل ممتاز. وأن هذا الكتاب لعرض بارع لبعض مراحل الحرب، وبين ثنايا الكتاب تلمع خبرة المؤلف نفسه. والمؤلف حسن العبارة، وله قدرة علي الحكم والتقدير. فلماذا يقف عند رومل وحسب، والمعلومات ماتزال حاضرة بين أيدينا؟ لماذا لا يكتب تاريخاً لحياة «صديقنا هتلر» أو صديقنا العجيب جورنج؟. أما صديقنا جوبلز فقد عرض نفسه تماماً في يومياته التي نشرت وترجمت إلي معظم اللغات الحية».

ولعل كتاباً في أعقاب الحرب لم يتلقه جمهور القراء وعامة الصحف، بهذه الحفاوة، كما تلقوا كتاب دزموند يونج عن «رومل» فلقد تلقفته الصحف والمجلات، ونشرت تعليقها عليه في صفحاتها الأولي. ولقد بلغ عدد ما بيع من هذا الكتاب في الأسبوعين الأولين من نشره في مدينة لندن وحدها ١٣٠ ألف نسخة!

■ ■ ■

ملحق ثالث

خالد بن الوليد والمارشال رومل

(أوحت مطالعة كتاب رومل إلي أحد الكُتاب بكتابة هذه المقارنة الطريفة بين خالد بن الوليد والمارشال رومل).

كنت أفكر لأيام خلت، وفي أثناء دراستي لكتاب صدر عن معارك رومل في الصحراء، أن هناك تقارباً عظيماً بين خططه العسكرية في الحرب الماضية، وبين الخطط التي اتبعها خالد بن الوليد في فتوحاته وزحوفه، سواء أكان ذلك في العرق أو في سورية.

وعادت بي الذاكرة إلي حديث الفتوح الأولي، وإلي ذلك الحدث الضخم الذي كان بعيد المدي، عظيم الخطر في مصائره ونتائجه، شديد الأثر في مستقبل الإنسانية وحضارتها. وفطنت في الوقت نفسه إلي ما أجمع عليه المؤرخون من أنه لم تكن هناك إمارات- وحتي بعد انتقال سيد العرب إلي مآبه- تدعو إلي توقع هذا الحدث.

وفجأة وفي صباح يوم من الأيام لمئات خلت من الأعوام، اقتحم أمصار الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، فرسان من الصحراء، ما سمع عنهم سكان الامبراطوريتين شيئاً مذكوراً، إلا ما كان يتناقله المسافرون من أنهم يؤلفون قبائل تضرب في الأرض طلباً للماء والكلأ، وأنهم من البدو الرحل الذين لا خطر من استقرارهم في مكان معين. ولكن هؤلاء الفرسان اكتسحوا بين ليلة وضحاها، كل ما لم يكن موجوداً عندهم من أرض خصبة ومدن قائمة وأنهار جارية، وعروش قوية، ونظم حكومية ثابتة..

أما عددهم فكان قليلاً في أول الأمر، ولم يصلوا في وقت من الأوقات لأن يكونوا أكثر من خصومهم عدداً أو عدة، ولكنهم في مقابل هذا كانوا أقوياء في إيمانهم، يبيعون أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً.

رومل في المعركة

كان الجنرال رومل في التاسعة والأربعين من عمره، لما أصبح في شهر آذار من سنة ١٩٤٠ ملء السمع، ملء البصر، وكان في هذا الحين، يقود الفرقة السابعة المصفحة في معركة فرنسا.

وبعد سنين من هذا التاريخ، انتقل إلى قيادة الجيش الألماني في إفريقيا، فلم تبق بقعة في العالم لم تتحدث عن رومل، وعن أفعال رومل. وفي هذه السنة نفسها أنعم عليه هتلر برتبة المارشالية، بينما كان خصومه الإنجليز يعترفون بأنه أمهر قواد ألمانيا الحديثة.

والواقع أن هذا القائد كان ينعم ببراعة قل نظيرها عند غيره من القواد، وبذكاء واسع مكنه من استباق الحوادث وتهيئة الجو اللازم للمعركة، مع استعمال الخدعة والحيلة في حركاته العسكرية والتفوق علي خصومه مع أنه كان أقل منهم عدداً وسلاحاً، وآلة وغذاء..

وحدث يوماً أن بدأ الإنجليز بهجوم علي فرقه، وكانوا أوفر عدداً، وأمضي سلاحاً، ولم يبق لرومل إلا التراجع والاستسلام، وكلاهما شر، فما كان منه- وكان يعلم أن الطيارات الإنجليزية تراقب جيوشه مراقبة شديدة في الليل والنهار وأنها تأخذ صور هذه الجيوش وحركتها وتنقلاتها. نقول ما كان منه إلا أن أمر جميع السيارات التي لديه بالدوران حول المعسكر وفي الصحراء يومين متواليين، ليوهم خصومه بأنه أقوي مما يظنون، ونجحت الخدعة، وتوقف الإنجليز عن هجومهم متوهمين أن رومل يملك قوة كبيرة!

وحدث في يوم آخر، أن أمر رومل جنوده بالهجوم، فأخبره «أركان حربه

بأنهم لا يملكون من الدبابات إلا سبعاً فقط. فأمر عندئذ بأن يستبق هجوم الدبابات السبع، هجوم قوامه غبار يسد السماء ويملأ المنافس، وما هي إلا دقائق حتي كانت سيارات النقل العديدة التي يملكها جيشه تجري حول المعسكر، وفي الأرض الحرام التي تفصل بين الجيشين المتحاربين، في مساحة لا تقل عن عدة كيلومترات، فأثارت عاصفة عظيمة من الغبار، وظهرت بعدها الدبابات السبع تتقدم نحو المعركة، فظن الإنجليز أنهم يواجهون فرقة مصفحة كاملة، فارتدوا علي أعقابهم وأخلوا مراكزهم، إذْ لم يكن عندهم ما يقابل هذه القوة.

وكان منظره وهو يشرف علي معركة من المعارك واقفاً علي سيارته، والنار تتساقط حوله، يبعث علي الدهشة. وكان كثير الإيمان بمناعته من الخطر، حتي كان كثيراً ما يقول إلي أركان حربه: «تعالوا إليَّ حولي فلن يصيبكم خطر ما دمت بينكم!».

والواقع أن جرأته كانت فوق التصور، وكان إلي هذا بارعاً في تنظيم المعارك الحربية وإدارتها علي الوجه الذي يرضيه، وكان سريعاً في اغتنام الفرصة المناسبة، ومن أكبر المغامرين في خوض معركة يعتقد أن المغامرة وحدها تقلبها إلي نصر محتوم.

وكان في هذا كله شبيهاً بخالد بن الوليد، بطل العرب في الفتوح الأولي، وكانت سياسته العسكرية تساوى سياسة خالد من جميع الوجوه، حتي يستطيع المؤرخ المعاصر أن يقول إن روميل درس حركات القائد العربي بدقة، ثم أجراها في معاركه بإمعان ونظام!

خالد بن الوليد

ومن المؤكد أن وصف المعارك الحربية السالفة ليس يتعلق بما يصدر عن الرواة من أخبارها فحسب، إنما يتصل أيضاً بطبيعة الأرض التي دارت عليها

المعركة، فإن كانت جبلية كان موقف القائد البارع في ترتيب جيشه وتنظيم طلائعه، غيره في الأرض الرملية، أو الأرض المليئة بالمغاور والصحاري وسواها. وهذه الظاهرة خطيرة في تفهم سير المعارك التي راح خالد بن الوليد يلهب لظاها، في حروبه العراقية والسورية، خصوصاً أن خالداً لم يكن علي علم بطبيعة الأرض التي كان يخوض غمار الحرب فيها، وهذا ثابت بما نعلمه من أنه لم يغادر الحجاز قبل الفتوح الإسلامية، كما يشهد بذلك اعتماده في بعض الأحيان علي الأعراب من الذين يعرفون مفاوز الجزيرة وسهولها وطرقها حين يريد الانتقال من مكان إلي آخر.

وظهرت براعة خالد العسكرية، وكان، بعد، في الثلاثين من عمره، في معركة «أحد»، لما راح يقتنص الفرصة السانحة من انشغال المسلمين بحظهم من الغنائم بعد أن كسروا قريشاً، فيأتيهم من خلفهم ويشد عليهم من وراء ظهرهم، فيقلب فشل قريش نصراً، ويعيد الحرب جزعاً، وتظفر قريش بما لم يكن فى حسبانها من نصر ظاهر ورجحان بليغ.

ويظهر تفوقه كرة ثانية في معركة «مؤتة»، حين تمكن من الارتداد بالجيش العربي، وكان في ثلاثة آلاف مقاتل، لما ظهر من رجحان الروم عليه، فحال بين الروم وبين ما كانوا يريدونه من محق هذا الجيش وإفنائه. وإذا ذكرنا أن قتلي العرب في هذه المعركة كانوا اثني عشر رجلاً، ظهرت براعة خالد في تفهم الفن العسكري، وتمكنه من الارتداد بهذا الجيش القليل، أمام عدو يفوقه عدداً، دون أن يستطيع هذا له منعاً أو كيداً.

وإذا عرضنا لمعارك الردة رأيناه جريئاً بارعاً ومحارباً رائعاً، خصوصاً لما ظهرت بنو حنيفة علي جيشه، وعلم أن وجود مسيلمة علي رأس قومه هو السبب في تأخر النصر علي جنده ورجاله، فراح يبرز بين الصفوف، ويدعو مسيلمة للمبارزة، فلما تثاقل هذا عن دعوته، صمد له يحطم الصفوف في طريقه إليه، ولم ينثن عنه، إلا وهو قتيل تخاطفته سيوف العرب المسلمين.

وهذا موقف فريد يدلك علي جرأة خالد، وأنه حقاً يحب الموت كما يحب غيره الحياة.

وأما في حرب العراق فقد أخذ خالد عدوه بالحيلة والمفاجأة، هذه واقعة «ذات السلاسل» سرّح خالد جيشه الصغير الذي لم يكن يزيد على عشرة آلاف مقاتل، في ثلاث فرق، وواعدهم «الحفير» ليجتمعوا به ويصدموا عدوهم مجتمعين.

ونرجّح أن غرضه كان أن يلقي في روع عدوه، بأنه ملاقيه في عدد من الجند قليل، وأن يأمن جنده طريقهم إلي عدوهم، حتي لا تكون هناك عورة أو يأتيهم من خلفهم، وهم لا يشعرون.

فلما علم هرمز قائد الفرس أن خالداً في الحفير، مشي إليه، فغادر خالد المكان إلي «كاظمة»، ولا نعلم سبباً لتبديل خالد خطته إلا أن يكون المكان الجديد أصلح للحرب والقتال، وأقرب إلي الصحراء، وكان خالد يعرف في جنده العرب رغبة ملحة، وقوة عظيمة، حين يقاتلون علي أطراف الجزيرة ويصادمون علي رمالها وأديمها.

وهذه خطة غاية في الدهاء، حين أراد مقاتلة عدوه في أرضه، بعيداً عن مراكزه، ثم إن في حمل قائد الفرس علي السير إلي هذا المكان مشقة عظيمة له ولجنده، فلا يصل هؤلاء إلي «كاظمة» إلا وقد أضناهم التعب، وبرح بهم النصب، خصوصاً وقد كان السير علي الرمال والانتقال في هذه المفاوز، أمراً مألوفاً عند عرب الجزيرة، ثقيلاً مهلكاً للفرس. وكان لخالد ما أراده، ففاز علي هرمز وقتله، وبدد جنده، ومزّق عسكره.

أما معركة «الولجة» فقد حارب خالد فيها أعداءه الفرس في ثلث جيشه، وأرسل للثلثين كميناً له، علي أن يأتوا العدو من خلفه. وبدأت المعركة والعدو لا يظن إلا أن خالداً في هذه القوة القليلة، وأنه ظافر عليه حتماً، وخالد

يماكر عدوه ويخاتله، حتي ظهر كمين خالد من خلف العدو، فأصبح هذا بين سيوف من خلفه، وسيوف من أمامه فهلك أكثره.

وانظر إليه في معركة «اليس» وخالد يعتقد أنه ملاق فيها بعض خصومه، فإذا به يجدهم قوة كبيرة تذكر، وإذا به يصل إليهم وقد تهيأوا لطعامهم، وخالد كامل التعبئة كما هي عادته، فلما رأي عددهم وقوتهم رأي أن يتعجلهم بالسيف، فاعمله فيهم فشتت شملهم وهزمهم. ولو كان القائد غير خالد، لسمح لجنده بشيء من الراحة بعد مشقة السفر، ونصب الزحف، ولكن خالداً راح يفضّل أهون الشرين وكان موفقاً حقاً.

فإذا انتهي خالد من هذا مشي إلي الأنبار، ونظرة إلي جغرافية الأرض تدلك علي المسافة التي قطعها خالد في طريقه إلي الانبار، فإذا أهلها قد خندقوا واعتصموا في حصونهم، فما كان من خالد إلا أن اقتحم الخندق بجثث الإبل الضعيفة، نحرها ورماها في الخندق ركاماً وأمر جيشه باقتحامه علي هذا الجسر الغريب، فكان له النصر الذي أراده، والنصر كان وما يزال للرجل الحازم الجسور القوي.

ولعل معركتي «المضيح» و«الثني» من أغرب معارك خالد في العراق. فقد راح يبيت خصومه في المكانين، ثم يهاجمهم ليلاً، بعد أن قسّم جيشه إلي ثلاث فرق، فأفني عدوه ولم ينج منهم مخبر. ومثل هذه الخطط السريعة تدلك علي هزيمة هذا الرجل وما كان ينعم به من قوة ليست في سواه من الرجال، ثم تدلك علي معرفته مواطن الضعف في خصومه، وتدلك أيضاً علي علمه الدقيق بمنازلهم. ولعله كان يرسل عيونه تجلو له ما خفي من أخبار أعدائه، وتنقل له ما يتصل بعددهم ومواطن ترحالهم ومنازلهم، وإلا فكيف تريده أن يوفق في مهاجمة القوم وهم لا يشعرون، ويصدمهم وهم لا يحسون؟

أما معركة اليرموك الفاصلة التي قضت علي كل أمل للروم في الاحتفاظ بسورية، فإن لها حديثاً عجباً، ذلك أن الروم كانوا في أكثر من

مائة ألف فارس علي ما أجمع عليه المؤرخون، وكان العرب لا يزيدون على أربعين ألفاً، وكان خالد قد غادر العراق إلي الشام نجدة لقوات العرب قبل المعركة الفاصلة، فلما شاهد كثرة الروم وقلة العرب، أمر بتقسيم الجيش العربي إلي كراديس، كل كردوس في ألف فارس، ليوهم الروم أن العرب مثلهم عدداً، وليبث في العرب روح النخوة بعد أن قسّمهم إلي كراديس، يضم كل كردوس قبيلة أو بطناً من بطون العرب، فلا يتخاذل أحدهم أمام رفيقه ولا يسمح لسواه أن يمتاز عليه.

وانجلت المعركة في مساء اليوم نفسه عن انهيار الجيش الرومي، وتمزق صفوفه، وهرب أكثره، وسقوط الباقين بين قتيل وأسير وجريح.

■ ■ ■

ملحق رابع

نهاية هتلر

١- الأيام الأخيرة

مازال مصير هتلر من الألغاز الغامضة التي تحيّر العقول وتنسج حولها الخيالات والقصص الطريفة المفتعلة، ولا يزال عدد كبير من الناس يعتقد أن هتلر مازال حياً وأنه لابد أن ينهض مرة ثانية فيبعث ألمانيا من جديد ويعود إلي لعبته الخطرة السابقة، لعبة إشعال الحرب في سبيل إيجاد ألمانيا عظمي.

ولا شك أن القارئ الكريم وقد عرف الصورة البشعة التي انتهت بها حياة القائد العظيم رومل بأمر من هتلر، وعلي يد أعوانه المقربين إليه، فإنه يتوق توقاً شديداً إلي معرفة نهاية هتلر والمصير الذي صار إليه بعد أن أحاط الجيش الأحمر بالعاصمة برلين إحاطة السوار بالمعصم وراح يدكها دكاً.

ونود هنا أن نعرض صورة مفصلة ترسم خطوط الساعات الأخيرة من عمر الفوهرر وكيف انتهت حياته ومضت كشعاع خاطف في سماء الدنيا ثم ما لبثت أن خبت فجأة وإلي الأبد.

كانت الحرب الجوية في الأيام الأخيرة من شهر آذار والأيام الأولي من شهر نيسان ١٩٤٥ علي أشدها فوق برلين، بحيث لم يكن أحد من سكانها يستطيع نوماً أو راحة.

وكان هتلر في هذه الفترة يعيش في أقبية المستشارية، حيث يحمل إليه كل

ساعة وكل بقية كبار الحاشية وكبار الضباط، آخر الأخبار عن تقدم الجيش الروسي نحو العاصمة، وكان هتلر كعادته يكثر من المناقشة والحوار، ويدعو سكان برلين إلي الدفاع حتي الموت، ويمنّيهم بالنصر العاجل، والمعجزة المنتظرة.

وكان بورمان رئيس غرفته السياسية والمارشال كايتل، يتوسلان إليه دائماً أن يهدئ من روعه، وأن ينقذ نفسه، بمغادرة برلين إلي جبال بافاريا حيث تتيسر له كل وسائل الدفاع والحرب.. ولكنه كان يرفض أبداً أن يغادر برلين، مذكراً إياهما بأنه أقسم للشعب الألماني ألا يعيش بعد فشله أبداً.

وصول إيفا

وفي الخامس عشر من شهر نيسان سنة ١٩٤٥ وصلت إيفا براون إلي برلين، وقد اختلف الناس في هذه الصداقة التي ربطت بين القلبين، ذلك أن إيفا لم تكن بارعة الجمال، ولكنها كانت فتاة ذات جاذبية وسحر ووداعة، انعشت قلب هتلر، فبادلها حباً بحب، ووداً بود، وصداقة بصداقة.

ويقولون إن العلاقات الأولي بينهما لم تكن علاقات عشق وغرام، إنما كانت علاقات مودة وصداقة، هذا ما يقوله بعض أخصّاء هتلر، وهذا ما قاله هتلر نفسه في وصيته السياسية، فقد وصف علاقاته مع إيفا بأنها كانت علاقات صداقة حقيقية استمرت عدة سنواته.

وحاول هتلر أن يرد إيفا عن البقاء في برلين، فأبت ورفضت، ولم تكن في هذا الوقت زوجة هتلر، ولا كانت عشيقة معروفة له، ولم يكن لها من الحق في البقاء بقربه، أكثر من غيرها وسواها من بنات الريخ الثالث.

وحتي هذه الساعة أي اليوم الخامس عشر من شهر نيسان، ولم يكن هتلر، وقد فطن إلي أن كل شيء قد انتهي، وأن الأمل في إنقاذ ألمانيا، كان فوق الطاقة والإمكان..

وظل الروس يتقدمون، والحلفاء يزحفون نحو العاصمة ونحو قلب ألمانيا،

ولكن هتلر لا يزال يمني نفسه بالأمل في صد الروس عن برلين، وكان في الواقع هو القائد العام للقوات العسكرية الألمانية حول برلين، وفي الحادي والعشرين من شهر نيسان أصدر أمره إلي هذه القوات للقيام بهجوم معاكس حاسم علي الروس، تشترك فيه كل الأسلحة العسكرية والقوات المرابطة بقيادة الجنرال ستاينر، ولكن الهجوم لم يقع، لأن الارتباط كان مفقوداً بين القوات الألمانية.

جمع هتلر رجاله في مؤتمر عام، أو من كان موجوداً منهم في برلين، لأن جورنج ودونيتز كانا قد غادراها. ولكن كايتل وبودل وبورمان حضروا الاجتماع، وبسطوا الموقف، فأدرك هتلر أن كل شيء قد انتهي، وأعلم الجميع عندئذ بعزمه النهائي علي البقاء في برلين والموت فيها.

احتج القواد والسياسيون ونصحوه بمغادرة العاصمة، وأخبروه بأنهم لم يفقدوا الأمل في النصر، وأن الجيش الألماني لا يزال قوياً، واتصل به جورنج وريبنتروب ودونيتر وهملر بالتليفون، يقدمون له النصح ويعدونه بارسال كل القوات التي عندهم لإنقاذ برلين، فلم يقبل، وأمر بأن يذاع بالراديو إلي كل ألمانيا نبأ اعتزامه البقاء في العاصمة، والدفاع عنها حتي النهاية.

وخرج المجتمعون وقد علت وجوههم إمارات الكآبة والاضطراب، لا يدرون ما يفعلون ولا يقررون، وكان بعضهم قد أحزنته كلمات هتلر الأخيرة، مشيراً إلي تقصيرهم وضعف وطنيتهم، وبعد برهة دعا هتلر المارشال كايتل إليه وكرر أمامه عزمه علي البقاء في برلين، وأمره بمغادرتها، فرفض كايتل إلا أن يذهب معه، فأبي هتلر، ثم اتفق الاثنان علي أن يذهب كايتل إلي الجنرال ونك يستحثه ورجاله لانقاذ برلين.

وعاد إلي هتلر هدوءه، فدعا بالعشاء لكايتل، وقام بنفسه يخدمه وينظر في أن يكون معه كل ما يحتاج إليه في سفرته هذه.

جورنج يتنمر

وفي هذه الأثناء كانت الأخبار قد وصلت إلي جورنج، بأن هتلر قد أعلن عزمه علي البقاء في برلين حتي الساعة الأخيرة، وأنه قد ترك له أمر المفاوضات وحكم الرايخ الثالث- وكان هتلر في أثناء الاجتماع قد ألقي كلمة كهذه وهو غاضب ناقم، حملها أحد أخصّاء جورنج إليه- إذ كان يصعب علي هتلر في مقره الاتصال بجميع القوات الألمانية، فجمع جورنج أعوانه وأخذ رأيهم فأيدوه، وقالوا له: إن هتلر قد عيّنه خلفاً له منذ سنة ١٩٤١، وأنه لم ينقض هذا التعيين، فأرسل جورنج إلي هتلر برقية يسأله فيها تأكيد تعيينه هذا، وقال له إذا لم يصل جوابك إليَّ حتي الساعة العاشرة، يكون معني ذلك الموافقة، وأنك لا تنعم بالحرية المطلقة في مكانك- من حيث الاتصال بالخارج طبعاً- فأقوم عندئذ بحكم الرايخ الثالث باسمك لما فيه خير ألمانيا.

فلما وصلت هذه البرقية اللاسلكية إلي هتلر، انفجر غاضباً وكان بورمان ينتظر مثل هذه الفرصة، للقضاء علي جورنج والتخلص منه. إذ كان الوحيد الذي عيّنه هتلر بعده، فإذا خلا الجو منه، فقد لا يبعد أن يتولي بورمان السلطة بعد هتلر، وهو ما كان يريده ويعمل له.

وأقنع بورمان هتلر بأن برقية جورنج إنذار ظاهر، وأنه يحاول الاتصال بالحلفاء لتسلم ألمانيا، فأصدر هتلر أمره بعزل جورنج والقبض علي أعوانه، ونفذ الأمر حالاً.

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر نيسان تمكن الروس من تطويق برلين كلها، ولم يبق من منفذ إلي الخارج إلا طريق الجو، وكان هذا الطريق صعباً خطراً، إذ كانت الطائرات الروسية تراقب الطرق الجوية الألمانية كلها.

فون جريم

وفي الوقت الذي أخذ يغادر فيه برلين من يريد من الموظفين والضباط

والقواد، وصلت برقية من هتلر في الرابع والعشرين من نيسان إلي الجنرال فون جريم في ميونخ، وهو من ألمع الطيارين الألمان بالقدوم إلي برلين..

وكان فون جريم من أخلص النازيين لهتلر، وكانت صديقته الطيارة الشهيرة حنة ريتش تعبد الفوهرر، ومع كل الصعوبات التي لاقاها الطيار في طريقه هو وصديقته، وقد قدما إلي برلين تحرسهما أربعون طائرة، وصلا سالمين، رغم نار الروس وهجمات الطيارين الروس، ولكن بعد أن أصيب جريم في رجله، فنقل إلي مستشفي المستشارية حيث ضُمدت جراحه، وزاره هتلر بعد قليل وأخبره أنه طلبه إليه ليخبره بخيانة جورنج، وبتعيينه هو في منصب القائد الأعلي للطيران الألماني مكانه.

وكان هتلر يكلمه والدموع ظاهرة بارزة في عينيه. فلما كان المساء تحدث هتلر إلي الطيارة حنة ريتش في غرفته بما اعتزمه من الانتحار هو وإيفا براون، إذا قطعنا الأمل فى إنقاذ برلين، وأخبرها أنه لا يزال يأمل أن يتمكن جيش الجنرال ونك من إنقاذ العاصمة، فإن لم يوفق، وتمكن الروس من دخول برلين والوصول إلي المستشارية، فإن خطة الانتحار تنفذ حالاً.. كما أعطي حنة ريتش كمية من السم لاستعماله هي والجنرال فون جريم، فيما إذا دعت الحالة ولم يبق أمل فى الخلاص.

الاستعداد للانتحار

فلما كان مساء السابع والعشرين من شهر نيسان كانت قنابل الروس تتساقط علي دار المستشارية بكثرة مخيفة تنذر باقتراب الساعة الأخيرة، وتحدثنا حنة ريتش أن هتلر استدعي في هذه الليلة الجامحة، جميع أعوانه في أقبية المستشارية، وتحدث عن خطة الانتحار التى يجب علي الجميع تنفيذها، كما تبسط في الطريقة المثلي للقضاء علي الأجساد بعد الموت بحيث لا تبقي منها بقية ولا أثر.

ثم تكلم كل واحد من الحاشية كلمة تناسب المقام معرباً فيها عن ولائه لهتلر وألمانيا.

والواقع أن الأقل من حاشية هتلر قضي علي نفسه، وأما الأكثرية فانها اعتصمت بالحياة، وأنكرته لما وقعت في قبضة الحلفاء، ولم يخلص له الاخلاص الكامل غير جوبلز وامرأته وأولادهما الذين انتحروا جميعاً بعد انتحاره، وسوي الجنرال فون جريم الذي تمكن من مغادرة برلين قبل انتحار هتلر، فلما قبض عليه الحلفاء بعد ذلك تناول السم وهو في سجنه.. وأما هتلر نفسه فكان مخلصاً في عزمه علي الانتحار، ولكنه كان في الوقت نفسه لا يزال عظيم الإيمان بمقدرة جيش الجنرال ونك علي إنقاذ برلين، مع أن هذا الجيش كان في حالة لا تمكّنه من القيام بهجوم فعّال حاسم.. ولكّن أحداً من أعوان هتلر لم يخبره حتي الساعة الأخيرة بحالة جيش الجنرال ونك العسكرية، فظل هتلر علي اعتقاده بأن الجيش سوف يقبل لإنقاذه، وراح يصدر الأوامر، ويعد خطط الدفاع الهجومي، وهو في غرفته الخاصة في أقبية المستشارية.

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر نيسان أصبح الروس علي مقربة من وسط برلين وعندئذ أخذ السلك التليفوني المرتبط بالراديو، وكان السلك الوحيد الذي يصل بين هتلر والخارج، يطلب النجدة مخاطباً تارة المارشال كايتل، وتارة ميونيخ متسائلاً:

- أين جيش الجنرال ونك؟، وأين الجيش التاسع؟، إني انتظر إنقاذ برلين.. وفي الساعة الثامنة مساء أبرق بورمان إلي ميونيخ يقول:

«بدلاً من إرسال الجنود لإنقاذنا، فإن أحداً لا يرد علينا ولا يجاوبنا، الخيانة حلت محل الاخلاص، إن المستشارية تحترق..

وبعد ساعة وصلت المستشارية أخبار موثوقة عن مساعي هملر لعقد صلح مع الحلفاء..

٢- الاستعدادات للموت

كانت الصدمة عنيفة علي هتلر لما وصلته أخبار المفاوضات التي يقوم بها هملر مع الحلفاء، فثار وغضب وطرح الصوت عالياً متهماً هملر بالخيانة، وطعن زعيمه من خلفه، فلما هدّأ روعه اجتمع إلي جوبلز وبورمن في غرفته، ولا يزال ما جري وتقرر في هذه الغرفة سراً من الأسرار، ذلك أن بورمن وهو الوحيد الذي لا يزال حياً قد اختفت آثاره، ولم يعثر عليه إنسان حتي الآن.

وليس يستبعد أن يكون هتلر قد ذهب به التفكير، وفي هذه الساعات الدقيقة من حياته، إلي هذه المؤمرات المتتابعة التي يقوم بها بعض أنصاره، وأقرب المقربين إليه، للاتفاق مع الحلفاء علي صلح يكفل لألمانيا الحياة بعد أن فشلت فيما تحاوله من السيطرة علي العالم، وقطعت آمالها من النصر العاجل القريب.

وتذكّر هتلر فيما تذكّره، موقف المارشال رومل والصديق المقرب إليه، والموثوق عنده، وكيف أنه لم يتورع هو نفسه لما أحس بالخطر الداهم، أن ضحي بزعيمه هتلر في سبيل ألمانيا، وحياتها وحرياتها.

تذكّر هتلر كل هذا، وأدرك أن أصدقاءه يتنكرون له الواحد بعد الآخر، وأنه لم يبق منهم إلا أقلهم، وقد غاب عنه أن أحداً منهم لم يخنه، إلا خوفاً من انهيار ألمانيا واستعبادها، وانهم كانوا يحاولون ذلك إلا في سبيل تضحيته في سبيل ألمانيا، التي نذر نفسه لخدمتها وتعزيزها.

الصديق الأخير

كان الاجتماع سرياً غامضاً لم يظفر بما حدث فيه، أو دار الحديث حوله، أحد من البشر.

ولكن المعلوم حتي الآن من القرائن، وما صار إقراره بعد هذا الاجتماع، وهو أن هتلر أخذ يستعد للموت، فكتب وصيته السياسية، ووافق علي عقد قرانه على إيفا براون.. وكان ذلك في مساء الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من شهر نيسان.

فلما كان اليوم التاسع والعشرون تمكنت إحدي الطائرات الألمانية من الوصول إلي برلين والنزول قريباً من المستشارية، وكانت قد جاءت لنقل الجنرال فون جريم إلي مقر أعماله الجديد، وجاءه هتلر مودعاً، وطلب منه القبض علي هملر، لأن مثله يجب ألا يكون هو الخليفة من بعده، كما أمره عند وصوله، بأن يبعث بالطائرات للانقضاض علي الدبابات الروسية التي كانت قد وصلت إلي قلب برلين.

حاول جريم أن يعتذر عن الذهاب ويبقي مع الفوهرر، ولكن هتلر رفض هذه التضحية وأمره بالرحيل، وكذلك غادر جريم وصديقته حنة ريتش برلين لآخر مرة، فوصلا سالمين خلف الخطوط الروسية، حيث تمكن جريم من إرسال أوامره إلي جميع القوات الجوية الألمانية بانقاذ برلين.

وبعد سفر جريم عقد زواج هتلر بايفا براون، وحضر حفلة الإكليل بورمان وجوبلز، ولما انتهت مراسيم الزواج خرج هتلر مع عروسه إلي الممر حيث كان فى انتظاره بعض القواد والموظفين فصافحهم، ثم انسحب مع زوجته إلي غرفته الخاصة لتناول طعام الافطار.

وبعد وقت قصير دعي جوبلز وزوجته وبورمان السيدتين كريستيان وكونج الموظفتين في مكتبه الخاص إلي غرفته، حيث قضي الجميع عدة ساعات يتكلمون ويشربون الشمبانيا، وفي وسط الحديث تكلم هتلر مجدداً عن انتحاره القريب، ومادام قد خانه أكثر أنصاره وأعوانه فلا فائدة بعد هذا من حياته، فعّم الجميع الوجوم وتولاهم الذهول، ولكن أحداً منهم لم يعترض علي قراره هذا، ثم انتقل هتلر إلي غرفة أخري مع سكرتيرته الخاصة حيث أخذ

يكتب وصيته السياسية، وفي هذه الوصية السياسية أعلن هتلر تعيينه الأميرال دونتز ليكون خليفته من بعده كما نزع كل حق لجورنج وطرده من الحزب.. وطرد هملر وعينّ مكانه سواه.. وأعلن في الوقت نفسه لخليفته من بعده أسماء الوزراء الجدد الذين يجب أن يؤلفوا الحكومة من بعده، وكان ريبنتروب ممن عزلهم وعينّ مكانه سواه.. كما أبقي جوبلز وبورمان، وأمرهما بمغادرة برلين ليتما العمل الذي بدأه في تعزيز ألمانيا ونشر النازية.

وأما وصيته الخاصة فهي مختصرة جداً، يعلن فيها زواجه من إيفا براون، كما يشير إلي رغبتهما في الموت معه، بمحض إرادتها،ً وأما ما يملكه، إذا كان يملك شيئاً، فهو للحزب، فإذا لم يكن هناك حزب فللدولة.

فلما كان الصباح أمضي هتلر الوصيتين بحضور بعض أنصاره وأعوانه، وأمر بارسال الوصية السياسية إلي خارج برلين، وإلي من يعنيهم الأمر بواسطة رجال اختارهم جوبلز وبورمان.

جوبلز ينتحر

ومع أن هتلر قد أمر بورمان وجوبلز بمغادرة برلين بعد موته، والمضي في واجباتهما نحو ألمانيا والنازية، فإن جوبلز رأي من واجبه أن يموت هو أيضاً، مفضلاً بعمله هذا أن يضرب للشعب الألماني مثلاً في تضحية الذات، والموت في ساحة المعركة.

وقبلت زوجته أن تموت معه، كما قرر الزوجان أن يشرب أولادهما الصغار الكأس نفسه، ويقول جوبلز في وصيته أن عملي هذا سيكون مفيداً للشعب الألماني، وفي الأوقات العصبية التي سوف تأتي، مثل هذه التضحيات تكون أوقع تأثيراً من حيلة الرجال، لأن ألمانيا لن تخلو من الرجال الذين سوف يسيرون بها نحو الحرية، ولكن الأعمال الإنشائية تحتاج أبداً إلي هذه المثل التي تقوم علي التضحية وبذل النفس..

«ولأجل هذه الأسباب، وبالاتفاق مع امرأتي، وباسم أولادي الذين لا يستطيعون لصغرهم أن يعلنوا عن رغبتهم، ولو كانوا كباراً لأيدوني، لقد قررت ألا أغادر برلين، ولو وقعت في قبضة العدو، بالقرب من الفوهرر قررت أن أنهي حياة لا قيمة لها عندي إذا لم أستطع صرفها بالقرب من الزعيم وفي خدمته..».

ولكن جوبلز لم يخبر هتلر بما اعتزمه لنفسه وأولاده، واكتفي بأن كتب وصيته هذه وأرسلها مع رسول خاص إلي خارج برلين.

وفي صباح التاسع والعشرين من شهر نيسان انقطعت المخابرات بين برلين والعالم، إذ تمكن الروس من تدمير البالون الذي كان ينقل أخبار القيادة الألمانية العليا إلي هتلر، ومنه إليها، فسمح هتلر لبعض أنصاره الباقين بمغادرة برلين، كما أخذ يستعد للساعة الأخيرة.

النهاية

اختلف المؤرخون الذين كتبوا عن حياة هتلر في وصف الساعات الأخيرة من حياته والصورة التي مات بها اختلافاً كبيراً. ورغم ذلك الاختلاف فإن النقاط الجوهرية في هذا الفصل الأخير من مأساة ألمانيا والفوهرر، تكاد تكون واحدة، ذلك أن معظم المؤرخين قد أجمعوا علي أن هتلر مات منتحراً وأن جثته هو وعشيقته. إيفا براون، قد احترقتا بعد موتهما.

والوصف التالي الذي نورده هو ما اتفق أكثر أولئك المؤرخين علي إيراده والإشارة إليه.

في مساء التاسع والعشرين من شهر نيسان أخذ هتلر يستعد للموت، فأمر بإعدام كلبه المحبوب حيث أعطاه أحد الأطباء سماً فقضي لساعته.. كما صدر الأمر بإعدام الكلبين الآخرين وكانا، كما يظهر، لبعض أفراد الحاشية. وأعطي هتلر بعض السم لبعض أنصاره وأعوانه ممن أعلنوا عزمهم علي الموت

معه.. متأسفاً ألا يكون بمقدوره إعطاءهم هدية أفخر من هذه وأجمل..

وفي مساء اليوم نفسه وبينما كان بعض أفراد الحاشية يتناولون طعامهم، دخل أحد أتباع هتلر عليهم وأعلمهم أن الزعيم يريد توديع السيدات، وأن أحداً يجب ألا يذهب إلي فراشه قبل إشعار آخر.

وجاء الأمر فعلاً في الساعة الثانية والنصف من صباح اليوم الثلاثين من نيسان، فاحتشدوا جميعاً رجالاً ونساء في ممر من أقبية الاستشارية تحت الأرض، وجاء هتلر بعد قليل ومعه بورمن، وكان الجميع يعدون عشرين شخصاً، وأخذ هتلر يصافح السيدات الواحدة بعد الأخري، صامتاً هادئاً، وتحدث بعضهن إليه، فلم يعرهن جواباً، فلما انتهي من مصافحة الجميع ارتد إلي غرفته.

أخذت النسوة يتحدثن بعضهن إلي بعض عن معني هذه الحفلة الوداعية في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لم يكن هناك إلا تفسير واحد، هو أن هتلر قد اعتزم أن يموت..

فلما كان الصباح جاء القواد الألمان إلي دار الاستشارية لتقديم تقاريرهم عن الحالة العسكرية حول برلين وفي برلين، فاستقبلهم هتلر صامتاً، واستمع لهم وهم يشرحون الحالة.. وفي الساعة الثانية من بعد الظهر تناول طعام الغداء، ولم تكن إيفا براون معه، ولعل سبب ذلك أنها لم تجد عندها من الشهية ما يمكّنها من تناول طعامها، وتناول هتلر طعامه، مع طباخه وكاتبتيه كما هي عادته.

ولم يتناول الحديث علي المائدة شيئاً عن النهاية المقبلة، ولكنّ الاستعدادات كانت قائمة ليكون كل شيء جاهزاً حاضراً.

وكان في صباح اليوم نفسه، قد أصدر أحد أفراد حاشية هتلر، أمره إلي السائق باحضار مائتي لتر من البنزين إلي مدخل الأقبية، فاعتذر السائق

لصعوبة تحضير مثل هذه الكمية الكبيرة، فأكدوا عليه الأمر فأحضر فعلاً مائة وثمانين لتراً.

ولما انتهي هتلر من طعامه، اعتصم في غرفته وقتاً طويلاً بعد أن صرف زائريه، ثم خرج مع إيفا براون بعد قليل ليودع رجال الحاشية وكبار الموظفين، أمثال جوبلز وبورمان وغيرهما.. ولم تحضر زوجة جوبلز حفلة الوداع الثانية، ولعلها كانت تفكر فى موت صغارها، ففضلت البقاء معهم، وبعد أن صافح هتلر وايفا جميع الحاضرين، دخلا إلي مخدعهما، وبعد برهة سمع الجميع صوت طلق ناري واحد، وبعد قليل دخل بعض رجال الحاشية الغرفة، فوجدوا إيفا قد تجرعت السم، وهتلر قد أطلق الرصاص علي فمه فسقط ميتاً لساعته، وقد أخذ الدم يطفر من وجهه.. وكانت الساعة الثالثة والنصف.

ولما تمت الاستعدادات لإحراق الجثتين، دخل الغرفة اثنان من حرس الهجوم فحملا جثة هتلر، بعد أن لفاها بغطاء من الصوف، كما حمل بورمن جثة ايفا براون.. ووضعت الجثتان جنباً إلي جنب علي أرض الحديقة، وعلي مقربة من مدخل الأقبية وصب البترول عليهما، ثم أشعلت النار، فبدأت تلتهم الجثتين.. وكان المشهد رهيباً مخيفاً..

■ ■ ■

فِهرِسُ المُحتَوَيات



الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل السابع والثلاثون

الفصل الثامن والثلاثون

الفصل التاسع والثلاثون

الفصل الأربعون